# المناهل



8

المناهل




تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثامن
السنة الرابعة

ربيع الأول 1397
مارس 1977

# تهنئة المناهل

تغتنم أسرة مجلة " المناهل " محررين وكتاباً وقراء، فرصة حلول عيد المولد النبوي الكريم، وعيد العرش السعيد، لترفع آيات التهاني والتبريك إلى الأديب اللوذعي الأول، غرة الثقافة والمثقفين، ومفخرة الفكر والبيان، وراعي العلم والعرفان حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله، رائد المسيرة الخضراء وباني المغرب الجديد.

و"المناهل" إذ ترفع أسمى عواطف محبتها وولائها وتعلقها بمقام جلالته المنيف، تضرع إلى الله العلي القدير، أن يسعده بهذين العيدين الميمونين، هو وأسرته الصغيرة والكبيرة، وأن يقر عينه الكريمة بولي عهده سيدي محمد، وبصنوه مولاي رشيد، الأميرين العزيزين المحبوبين، وبأخواتهما الأميرات الجليلات، كما تضرع إليه سبحانه أن يمتعه بدوام العافية والسعادة، وأن يحقق على يده الكريمة ما يطمح إليه شعبه من تقدم ورفاهية وازدهار.

# الفهرس

صفحة

صفحـــة

# من رُبى الشرق

عبد الله الفيصل آل سعود

**بابتهـــاج كبير ، تنشر « المناهل » هذه الرائعة الجديـــدة التي جادت بهـــا قريحـــة الشاعر الكبير الذائع الصيت ، سمو الأمير عبد الله الفيصل آل سعود ، اثناء اقامته الأخيرة بالمغرب ، وطنه الثاني ، مقدرة ومعتــــزة بهذه العواطف النبيلة التي تجيش بها القصيدة نحو صاحب الجلالة ملكنـــا المعظـــم الحسن الثاني وشعبه ، مؤكدة الروابـــط الأخـــويـــة الوثيقة القائمة بين المملكتـــين السعوديـــــة والمغربية فى ظل عاهليهما العظيمين ، صاحبي الجلالة الحسن الثاني ، وخالد بن عبد العزيز حفظهما اللـــه**

**و « المناهـــل » اذ تنشر هذه القصيـــدة الممتعة التى هى فى مستوى طرافـــة شعـــــر صاحب ديوان « محـــروم » ، تترقب صـــدور ديوانه الجديد ، الذي سيتحف بـــه المكتبـــة العربيـــة .**

« المناهـــل »

من ربى الشرق بأرض الغرب        لربى العرب بأرض المغرب

قبـــلات عاطـــرات كالسنـــا        من قريب للبعيـــد الأقـــرب

وتحيـــات وأشـــواق سرت    بين أنسام الفضاء الارحب
لكموا نحن ، كما أنتم لنـــا    اخـــوة أبـــنـــــاء أم وأب
نفتـــدى بالروح ما يكربكم    مثلما تفدوننـــا فى الكـــرب
ربـــط الله بكم أوشاجنـــا    فاجتمعنا من قديـــم الحقب
بالدم الزاكى وبالدين الزكى    وبأرحـــام العلا والحســـب
وبأجداد سموا حتى غـــدوا    شهباً تختـــال فوق الشهب
نحن من نحن ؟ هداة قـــادة    ربنـــا الله وهادينا النبـــى
لغـــة الضاد نمت أعراقنـــا    وروتهـــا بالـــدم المنتخب
نحن فى المشرق والمغرب من    سطرت أمجادهم بالذهـــب
ملأوا الآفـــاق عدلا وهـــدى    بكتـــاب الله خـــير الكتـــب
راية الاسلام قادتهم الـــى    أدب الفتـــح وفتـــح الأدب
شرع المجد لهـــم أسبـــابه    فأرتقـــوا فيـــه لأعلى سبب

*
**

بـــا سراة المجد فى مغربنا    وبنـــاة العـــز من كل أبـــى

فخــر قحطان وعدنان بكم      يتجلى في المحيــا اليعربى

وبنــوكم وبنــو أبنــائكم      عــرب من عرب من عــرب

كلكــم تنبــع من أعمــاقه      عزمة الشاب ورأى الأشيب

*
**

حفظ الله مليكــاً صانكــم      من عوادى الغاشم المنتصب

العظيم الحسن الثانى الذى      ينـــتمى عرقاً لأسمى نسب

فخــره فى علمــه فى حلمه      فى الصمود المتجلى المعجب

هو والفيصل والخالــد من      محتــد سام كريــم طيــب

اخوة فى الدين والدنيا معــاً      بلغوا فى المجد أسمى الرتب

حفــظ الله بهــم أوطاننــا      من ضلالات العدو الأجنبى

*
**

عاهل المغرب يــا خير فتى      شاقــه منصبــه بالنصــب

فى سبــيــل الله ما تبذلــه      من جهــاد دائــب أو تعب

أنت فــرع وارف من دوحة      تلتقــى أعطافها بالسحــب

ملك شهم كريم ذائــــــد    وسليـــل الأكرمين النجـــب
راسخ كالطود عال كالذرى    واسع الخطوة سامى المذهب
منطق عــذب ووجه باســـم    كسنـــا المستقبـــل المرتقب
صانـــه الله وأبـــقى ماكـــه    العـــلا للأمـــل المستعـــذب
ورعى المغرب شعباً مخلصاً    لملـــيـــك عبـــقـــرى الأرب

**عبد الله الفيصل آل سعود**

دراسة مقارنة

# الكتب السماوية والعلم

محمد العربي الخطابي

هذا الكتاب الذى اقدمه والخصه للقراء كتاب علمى جليل الفه عالم فرنسى فذ فى علمه وشجاعته وتجرده ، اتيح له ان يدرس الكتب السماوية ( التوراة والانجيل والقرآن ) دراسة مقارنة ، وان يقابلها بمعطيات العلم الحديث بعد ان رد كل كتاب منها الى اصله : التوراة والاناجيل المتداولة اليوم الى الصياغة البشرية التى زادت فيها ونقصت منها مع اختـلاف الروايات والرواة ، وتضارب المفسرين والشارحين ، والقرآن الى اصله الالهى بوصفه كتابا اوحى به الله الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانزله عليه منجماً ، ثم جمع فى المصحف المتداول فلم تتطرق اليه يـد بشرية بتحريف أو زيادة أو نقصـان .

محص هذا العالم الفرنسى الكتاب المقدس (1) ( الذى يضم التوراة والانجيل ) كما محص القرآن الكريم على ضوء معطيات العلم الحديث فطلع من هذا التمحيص بالنتيجة التالية :

(1) اقصـد بالكتاب المقدس مـا يطلـق عليه الغربيون La Bible وهو كتاب يضم اسفار العهد القديم والعهد الجديد ، اى التوراة والانجيـل .

ـ ان ما ورد فى التوراة والانجيل عن الظواهر الطبيعية والبشرية ـ على قلته ـ يناقض العلم كل المناقضة ، فهو اذن لا يثبت أمام الدراسة النقدية التى كرس لهـا المؤلف كتابـه . و « الكتاب المقدس » محشـو بمعلومات علميـة خاطئـة .

ـ وأن القرآن ليس فيه مسالة واحدة تناقض العلم الحديث ، بل ان كل ما ورد فيه من آيات واشارات فى علم الفلك وعلوم الحيوان والنبات وعن التناسل البشرى يوافق تمام الموافقة معطيات المعارف العصريـة التى كانت مجهولة فى عصر النزول . ويجعل المؤلف من هذه النتيجة حجة اخرى على أن القرآن أوحى به الله ، وانه كتاب تقصر عقول البشر عن صنعه . وكانت حجة المؤلف الاولى هى أن القرآن بقى كما نزل على محمد لم تمسسه يد بتغيير ، حفظ فى الصدور وقت نزوله ، ودونه كتبة الوحى ، وضمـه المصحـف الشريـف .

وعنوان المصنف الـذى اقدمه للقراء « الكتاب المقدس والقـرآن والعلم ـ دراسة الكتب السماوية على ضوء المعارف العصرية » ومؤلفه هو الطبيب الجراح الفرنسى ( موريس بوكاى ) (2) الذى أتقن العربية ودرس القرآن فى أصله وفى مختلف ترجماته الفرنسية كما راجع تفاسير القدامى والمحدثين من علماء المسلمين ، واتيح له أن يجتمع فى المملكـة العربية السعودية الشقيقة بالملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله ، وبعـدد من علمائها ورجالها .

وقد رتب بوكاى كتابه وقسمه الى الفصول الرئيسية الآتية :

ـ كتاب العهـد الجديـد .

ـ الاناجيـل ( الاربعـة ) .

ـ القـرآن والعلـم الحديـث .

ـ الاقوال القرآنية واقوال الكتاب المقدس ( التوراة والاناجيل ) .

---

La Bible, le Coran et la Science, les Ecritures Saintes examinées à la lumière des connaissan-ces modernes
Maurice Bucaille - Seghers

ـ القرآن والاحاديث النبوية والعلم الحديث .

وعدد صفحات الكتاب 254 .

فحص المؤلف فى الفصل الاول من الكتاب « أسفار العهد القديم » ـ التوراة ـ مشيرا الى أختلاف النصوص المتداولة والى ضياع نصوصه الاصلية الثلاثة التي كانت تقرا في القرن الثالث قبل الميلاد كما ذكـــر المحاولة التى تجرى الآن لاستخلاص نص تاليفى موحد للتوراة على يـــد هياة من الخبراء الكاثوليكيين والبروتستانيين ( المجمع المسكونى ) .

وابرز المؤلف ما اصاب التوراة من تحوير وتغيير خلال مدة الفـــى عام وما داخله من تصويب وتصحيح مع اختلاف الروايات والترجمـــات مؤكدا ان اسفار العهد الجديد سنة شعبية قوامهـــا الذاكـــرة انتقلـــت بالانشاد والرواية من جيل الى جيل .

وبمقارنة بعض الاشارات الواردة فى اسفار العهد القديم بمعطيات العلم الحديث استخلص المؤلف ان هذه الاشارات تتنافى كلية مع المعارف العصرية . وقد تناول على الخصوص المسائل المتعلقة بخلق العالـــم وبالطـــوفـــان .

ومحص المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب « الاناجيل » مبـــرزا التناقض الموجود بين الاناجيل الاربعة التى تتباين رواياتها فى موضـــوع معين ، والقى نظرة على تاريخ الاناجيل الاربعة ومصادرها المتعددة ، ثم قارن اقوال الاناجيل بالمعارف العلمية العصرية مبينا تناقض تلك الاقوال وتعارضها مع معطيات العلم . وانتهى المؤلف الى النتيجة الآتية : « ان ما يوجد فى الاناجيل من تناقض واضـــح ، واقوال يستحيل تصديقهـــا ، وتعارض مع معطيات العلم الحديث ، وما طرا على نصوصها من تغييرات متعاقبة ، كل ذلك يجعل من الاناجيل كتبا تتضمن فصولا ومقاطع من صنع خيال الانسان . الا ان هذه العيوب ليس من شانها ان تشكك فى وجود رسالة عيسى : وانما يحلق الشك حول مراحل سير هذه الرسالة » .

٭

وفى الفصل الثالث من الكتاب ــ الذى بداه المؤلف بمدخل سننقل تفاصيله الى العربية فيما بعد ــ تحدث المؤلف عن ثبوت صحة القرآن الكريم مبينا مراحل نزوله منجما وتدوينه ، ومستخلصا من ذلك ان القرآن وحي منزل من عند الله وان يد البشر لم تعبث به ولم تتطرق الى نصه زيادة او نقصان . وتناول بالدرس والتحليل مسائل النزول والجمع والتدوين المتعلقة بالمصحف الشريف مستندا فى ذلك على أصح الروايات التاريخية ومستشهدا بعديد من الآيات الكريمة التى تثبت ان القرآن كلام الله المنزل .

واجرى المؤلف بعد ذلك مقارنة علمية بين أقوال القرآن واقوال التوراة والانجيل مبينا ما يوجد بينها من اتفاق او اختلاف حول مواضيع معينة وردت فى الكتب السماوية الثلاثة وأثبت بالمقارنة والحجة أن ما تحدث به القرآن عن مسائل تتصل بخلق العوالم وبالطوفان ــ مثلا ــ يختلف عما ورد فى التوراة والانجيل ، وأن كل ما ورد فى القرآن يتفق كلية مع معطيات العلم الحديث بخلاف ما ورد ، عن نفس المواضيع ، فى اسفار العهد القديم والعهد الجديد .

⁂

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف قد ناقش بعض الترجمات الفرنسية للقرآن مبينا ما ورد فيها من اخطاء فى الفهم واستيعاب المعنى مجتهدا فى تصحيح هذه الاخطاء بما يتفق مع لغة القرآن ويؤدى المعنى المطلوب على ضوء المفاهيم العلمية الحديثة التى غابت عن بعض المفسرين المسلمين القدامى وعن بعض المترجمين المحدثين .

وانى لمقدم فيما يلى مقتطفات وافية ترجمتها عن اصلها الفرنسى ، ولا سيما القسم الذى يتناول دراسة القرآن على ضوء المعارف العصرية . وقد جعلت فى ذيل الصفحات بعض ما رايت ضرورة اثباته من تعليقات وايضاحات . وفى نيتى ان انقل الكتاب برمته الى العربية لنشره بعد استئذان مؤلفه الجليل ، لاعتقادى ان هذه الدراسة القيمة جديرة بان تقرأ بكاملها . والله ولى التوفيق .

# القرآن
# والعلم الحديث

**تمهيـــد :**

قبل الشروع فى مقابلة الوحى الاسلامى بالعلم الحديث ينبغى أن نمهد لذلك بالقاء نظرة على ديانة لا يعرف عنها فى أقطارنا الغربية الا النزر اليسير .

ان الاحكام الخاطئة التى يصدرها أهل الغرب عن هـذه الديانة انما تأتى نتيجة الجهل بها أو تعمد القدح المطلق فيها .

وأخطر ما انتشر من ضروب الزيف عن حقيقة الاسلام هو ما يتصل منها بالوقائع ، ذلك أنه اذا كانت الاخطاء الناتجة عن فساد الحكم مقبولة العذر فان تقديم وقائع مخالفة للحقيقة أمر لا يمكن قبوله . وانه لمما يحز فى النفس أن نقرأ فى مؤلفات جادة

من وضع مؤلفين مقتدرين مسائل تخالف الحقيقة بشكل مفضوح . من أمثلة ذلك ما ورد فى الموسوعة الفرنسية ( انسكلوبيديا أونيفرساليس (3) ( المجلد السادس ، مادة الاناجيل ) من اشارة يقول فيها المؤلف : « ان الاناجيل ( . . ) لا تزعم كما يزعم القرآن ، انها تنقل للناس سيرة حياة أملاها الله على محمد بطريق المعجزة . . » والحال أنه لا وجود لاية سيرة حياة فى القرآن الذى هو كتاب دعوة وارشاد ، وقد كان فى ميسور المؤلف أن يتأكد بنفسه من هذه الحقيقة لو أنه رجع الى أسوأ ترجمة للقرآن. ان صاحب هذا القول الزائف فى حق القرآن أستاذ فى كلية اللاهوت اليسوعية بليون . وانه لمن شأن اشاعة هذا النوع من الاباطيل أن يعطى عن القرآن والاسلام صورة زائفة .

وعلى كل حال فان لدينا اليوم من الاسباب ما يجعلنا نأمل خيرا . فالديانات لم تبق منكمشة على نفسها كما كانت بالامس . وقد أخذ كثير من الناس يبحثون عن طريق جديدة للتفاهم . وكيف لا يصيبنا التأثر ونحن نرى مسيحيين كاثوليكيين من أسمى رجال الكنيسة منصبا وهم يجتهدون لربط الصلة بالمسلمين ، ويجدون فى سبيل القضاء على فقدان التفاهم عاملين على تصحيح الاخطاء الشائعة عن الاسلام .



(3) ENCYCLOPEDIA UNIVERSALIS

ان الصلة بين الدين والعلم لم تكن متشابهة فى كل مكان وعصر . والواقع أن كتب الديانات التوحيدية تخلو كلها مما قد يحمل على أنه ادانة للعلم . غير أننا — من الوجهة العملية — نرى أن رجال العلم كانوا يخاصمون السلطات الروحية لبعض الديانات وأن السلطات المسيحية المسؤولة لم تفتأ تقف من تطور العلم موقف المنازعة وذلك طوال قرون عديدة ومن غير أن يكون لها سند من نصوص الكتب السماوية الصحيحة . وقد اتخذت هذه السلطات فى حق رجال العلم الذين كانوا يسعون فى سبيل التقدم التدابير التى نعرفها فكانت تنفيهم من الارض أو تحرقهم بالنار اذا لم يقبلوا دفع غرامة مع الرجوع فى مواقفهم والتماس الغفران . وكثيرا ما تذكر فى هذا المقام محاكمة غاليليو الذى اضطهد بسبب اخذه بمكتشفات كوبيرنيك فى مسألة دوران الارض . وقد صدر عليه الحكم استنادا الى تأويلات خاطئة للتوراة والانجيل .

أما الاسلام ، فان موقفه من العلم كان ، بصفة عامة ، مغايرا لما سبق ذكره . ولا أدل على ذلك من هذا الحديث النبوى المشهور : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ومن الحديث الآخر الذى يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ومن الحقائق الرئيسية أن القرآن ، الذى يدعو دائما الى التزود بالعلم ، يزخر بالعديد من التأملات حول الظواهر الطبيعية المشفوعة بتفاصيل توضيحية توافق تمام الموافقة معطيات العلم الحديث . ولا شبيه لذلك فى التوراة والانجيل .

وقد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن بعض المسلمين لم يكن لهم فى حقب من التاريخ مواقف مختلفة عما ذكرناه ، فالواقع أن واجب التعلم والتعليم قد أسيء فهمه فى بعض العصور وأن العالم الاسلامى قد استهدف كغيره لمحاولات كانت ترمى الى وقف تطور العلم ونموه . الا أننا نذكر أن الجامعات العلمية الاسلامية قد شهدت ، فى عصر عظمة الاسلام بين القرن السابع والقرن الثانى عشر الميلادى ، طائفة من البحوث والمكتشفات فى وقت كان فيه النمو العلمى فى أقطارنا الغربية هدفا للتضييق . وكانت تلك الجامعات الاسلامية تزخر بوسائل ثقافية هائلة ، وكانت خزانة الخليفة فى قرطبة تضم 400.000 مجلد ، وكان ابن رشد يعلم فى هذه المدينة التى كانت تنقل اليها علوم اليونان والهند وفارس . ولهذا كان الناس يقصدون قرطبة من مختلف أمصار أوربا كما يتوجهون اليوم الى الولايات المتحدة الامريكية للتضلع فى بعض الدراسات . وما أكثر ما وصل الينا عن طريق العرب من مخطوطات قديمة تحمل الثقافة الى البلاد المفتوحة . وما أكثر ما نحن مدينون به للفكر العربى فى الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ( البصريات ) ، والجيولوجيا ، والنبات والطب . وقد اكتسى العلم طابعا دوليا لاول مرة فى التاريخ . وكان الناس فى ذلك العصر متشبعين بالروح الدينية أكثر مما هم عليه فى عصرنا هذا ، ولم يكن ذلك ليمنعهم من أن يجمعوا بين الايمان والعلم ، وكان العلم توأم الدين ، وما ينبغى له الا أن يكون كذلك فى كل زمان ومكان .

أما البلاد المسيحية فانها كانت تعيش أيام العصور الوسطى في ركود تام ورضى مطلق بواقع الحال . فكان أن توقف العلم عن السير ، ولم يكن ذلك بسبب الوحى اليهودى المسيحى فى حد ذاته ، بل بفعل أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم خدمته . وقد كان رد الفعل الطبيعى عند العلماء ، بعد عصر الانبعاث ، هو أن يأخذوا بالثار من خصومهم بالامس ، وما زالوا يثأرون منهم الى أيامنا هذه ، وذلك الى حد أصبح معه الكلام عن الله فى دول الغرب من قبيل السذاجة . ويحدث هذا الموقف أثره فى عقول الشبان الذين يتلقون العلم فى جامعاتنا بما فيهم الشبان المسلمون .

وكيف لا يكون الامر كذلك ونحن نعرف ما يصدر عن أنبغ علمائنا من مواقف متطرفة ؟ ونضرب مثلا على ذلك طبيبا من الحاصلين على جائزة نوبيل فى الاعوام الاخيرة . لقد حاول هذا الطبيب أن يقنع الناس ، فى كتاب موجه الى عامة القراء ، بأن المادة الحية قد ولدت من تلقاء نفسها وبمحض الصدفة من بعض العناصر الاولية ، وأنه انطلاقا من هذه المادة الحية الاولية تكونت بتأثير عدة ملابسات خارجية ، الكائنات الحية العضوية التى نشأ عنها فى نهاية المطاف هذا المخلوق المعقد الهائل الذى هو الانسان . فبأية قوى روحية نواجه هذا التلويث الفكرى الذى تمارسه طائفة من العلماء المعاصرين ؟

ان المسيحية واليهودية قد أظهرتا — ازاء موجة الالحاد والمادية التى طغت على دول الغرب — عجزهما عن صدها

وكلتا الديانتين تقفان فى حيرة مطلقة . واننا لنشاهد أن القدرة على مقاومة هذا التيار الذى يوشك أن يجرف كل شىء تتضاءل مع مرور الاعوام ، وأن المادية الملحدة لا ترى فى المسيحية التقليدية سوى نظام أقامه بعض الناس ، منذ قرابة ألفى عام ، بقصد تحكم أقلية فى غيرها من البشر .

ان المادية الملحدة لا تجد فى الكتب اليهودية المسيحية لغة تقارب لغتها ولو من بعيد ، وذلك لما تنطوى عليه هذه الكتب من أمور مستحيلة ومتناقضة ومتعارضة مع معطيات العلم .

فهل نتحدث للمادية الملحدة عن الاسلام ؟ انها ستبتسم بغرور لا يعادله الا نقصان معلوماتها عن الاسلام . ذلك أن أكثرية المثقفين الغربيين ، كيفما كانت عقائدهم الدينية ، لا يتوفرون الا على أفكار جد زائفة عن الاسلام .

واننا اذا استثنينا المواقف التى اتخذتها السلطات الكنسية العليا ، منذ عهد قريب جدا ، نرى أن الاسلام قد استهدف فى أقطارنا الغربية لما يمكن أن يسمى « بالتشنيع العريق فى القدم » وما من متعلم غربى أتيح له أن يعمق معارفه حول الاسلام الا ويعرف مدى ما لحق بتاريخ هذا الدين وعقيدته ومقاصده من مسخ . أضف الى هذا أن الوثائق التى نشرت بلغاتنا الغربية عن الاسلام ليس من شأنها أن تسهل عمل من يريد أن يتفقه فى شؤونه اللهم اذا استثنينا من ذلك بعض الدراسات المتخصصة .

ان معرفة الوحى الاسلامى ليعد ، من هذه الزاوية ، أمرا جوهريا . بيد أن الآيات القرآنية التى لها صلة بمعطيات العلم قد ترجمت ترجمة سيئة ونشرت بطريقة تجعل رجل العلم يوجه اليها ــ عن حق فى الظاهر ــ انتقادات لا يستحقها القرآن المنزل .

واذا كنت قد وقفت على زيف الاحكام التى صدرت عن الاسلام فى دول الغرب بوجه عام فاننى مدين بذلك لظروف استثنائية . فقد أتيح لى ــ وأنا فى المملكة العربية السعودية ــ أن أحصل على عناصر الحكم التى أوضحت أمامى مدى خطل الرأى السائد عن الاسلام فى أقطارنا الغربية .

وسوف أبقى مدينا الى حد كبير للمغفور له الملك فيصل الذى أحيى ذكراه باحترام . لقد تشرفت بالاستماع اليه وهو يتحدث عن الاسلام فأتيح لى أن أذكر أمامه بعض مشاكل تأويل القرآن بالقياس الى العلم الحديث . وذلك ما سيبقى مطبوعا فى ذاكرتى ما حييت . وان ما جمعته من معلومات قيمة سمعتها منه شخصيا أو من رجال حاشيته لهو عندى بمثابة الحظوة الكبرى .

واذ قدرت ، حينذاك ، مدى الفراغ الذى يفصل بين حقيقة الاسلام وبين الصورة السائدة عنه فى أقطارنا الغربية ، أحسست بحاجتى الملحة الى تعلم اللغة العربية التى كنت أجهلها ، وذلك لكى أصبح قادرا على السير قدما فى دراسة هذا الدين الذى تجهله أقطارنا الغربية جهلا بعيدا . وقد سعيت أول ما سعيت

الى قراءة القرآن وتمحيص نصه آية آية بمساعدة تفاسير شتى لابد منها لكل دراسة نقدية . وقد تناولت القرآن بالدرس وصرفت اهتمامى الاكبر الى الاوصاف التى يعطيها للعديد من الظواهر الطبيعيـــة .

وقد لفتت نظرى دقة بعض التفاصيل التى يقدمها القرآن عن هذه الظواهر والتى لا تتبين الا فى النص العربى الاصلى ، وذلك بسبب موافقتها للمفاهيم السائدة فى عصرنا هذا ، وهى مفاهيم لم يكن ليدركها انسان عاش فى عصر الرسول .

وبعد ذلك قرأت عدة كتب كرس فيها مؤلفوها اهتمامهـــم للمناحى العلمية التى تناولها القرآن . وقد مكنتنى هذه المصنفات من الحصول على عناصر مفيدة جدا . بيد أننى لم أكتشف لحد الآن دراسة اجمالية أنجزت فى الغرب عن هذا الموضوع .

من الثابت أنه فى وقت نزول الوحى القرآنى منجما فى مدة قدرها عشرون عاما ، على وجه التقريب ، كانت المعارف العلمية فى ذلك الحين ( حوالى سنة 622 بعد ميلاد المسيح ) فى حالة مـــن الركود لم تتغير منذ قرون ، وأن المرحلة النشيطة فى الحضارة الاسلامية التى ازدهر فيها العلم لم تبدأ الا بعد نهايـــة نزول الوحى . وقد سمعت بعضهم يردد هذا القول الغريب الذى لا يمكن أن يصدر الا عن جهل بالمعطيات الدينية والدنوية الواردة فى القرآن : اذا كان فى القرآن أقوال لها صبغة علمية تثير الاستغراب فمرد ذلك الى أن العلماء العرب قد تقدموا غيرهم من حيث الزمن ، وأن محمدا قد استلهم أبحاث هؤلاء العلماء . والذى يعرف

شيئا ولو يسيرا عن تاريخ الاسلام وعن الازدهار الثقافى والعلمى الذى عرفه العالم العربى فى العصور الوسطى ، لن يبيح لنفسه الاخذ بهذه الاقوال الخيالية . ومما يزيد مثل هذا النظر بعدا عن القصد هو أن الوقائع العلمية التى نطق بها القرآن صراحة لم يقع التثبت منها الا فى العصر الحديث .

ومعلوم لدينا أن بعض مفسرى القرآن ( بما فيهم أولئك الذين عاصروا عهود الحضارة الاسلامية الزاهرة ) قد وقعوا ، عبر العصور ، فى أخطاء حين تفسيرهم لبعض الآيات التى لم يكن فى وسعهم أن يدركوا معناها الدقيق ، ولم يعط لهذه الآيات تفسيرها الصحيح الا فى عهود متأخرة قريبة من عصرنا هذا

ويترتب عن هذا أن المعارف اللغوية لا تكفى وحدها لفهم تلك الآيات القرآنية ، بل لابد للمفسر من أن يكون محيطا بمعارف علمية متنوعة جدا ، اذ أن هذا النوع من الدراسة يكتسى طابعا موسوعيا شاملا . وكلما مضينا قدما فى مطالعة المسائل التى يعرضها القرآن يتضح لنا جليا أنه لابد من الاحاطة بعديد من المعارف القرآنية لاستيعاب معنى بعض آيات الكتاب

ان القرآن لا يهدف ــ كما هو معلوم ــ الى اثبات بعض النواميس التى تتحكم فى الكون ، ذلك أن مقاصده الجوهرية دينية . وهو اذ يتحدث عن القدرة الالهية فانه يدعو الناس الى التدبر فى ملكوته وفيما أبدعه من أكوان ، وتتخلل هذه الدعوة الالهية اشارات الى وقائع يمكن أن يدركها البشر بالملاحظة أو قوانين سنها بقدرته الالهية وجعل نظام العالم خاضها لها ، وذلك فى مجال علوم

الطبيعة أو فيما يتصل بالانسان نفسه . وبعض هذه الاشارات لا يعسر فهمها ، الا أن البعض الآخر لا يمكن ادراك معناه الا اذا توافرت المعارف العلمية الضرورية لذلك . وهذا يعنــى أن انســـان القرون الماضية لم يكن فى مقدوره أن يفقه من تلــك الاشارات الا معناها الظاهرى ، وذلك ما جعله ، فى بعض الاحوال، يستخلص نتائج غير صحيحة بسبب نقصان علمه فى عصره .

* *

ان الاختيار الذى قمت به للآيات القرآنية بقصد دراسة مناحيها العلمية قد يبدو ضئيلا بالقياس الى ما قام به بعض المؤلفين المسلمين الذين لفتوا النظر ، قبلى ، الى هذه الامور . وبالجملة أظن أننى قد وقفت على عدد من تلك الآيات يقل عمــا درسه أولئك المؤلفون منها . الا أننى قــد استخلصت بعض الآيات التى لم تنل لحد الآن ، فيما يبدو لى : الاهتمام الذى تستحقه من الناحية العلمية . واذا كنت قد أخطأت بعدم أخذى بآيات اختارها أولئك العلماء المسلمون فان رجائى أن لا يعتبوا على ذلك . هذا وقد وقفت فى بعض الكتب على تفسيرات علمية لا تبدو صحيحة فى نظرى . واننى اذ أقدم بين يدى القارىء تفسيرا شخصيا فأنا أفعل ذلك بكل استقلال فكر ووجدان .

وقد محصت القرآن باحثا عما اذا كانت فيه اشارات الى ظواهر لا تعسر على الفهم البشرى حتى ولو لم يكن العلم الحديث قد أثبتها . وأعتقد أننى ، من هذه الناحية ، قد وجدت فى القرآن اشارات الى وجود كواكب فى الكون تشبه الكوكب الارضى .

ويجب القول أن عددا من العلماء يعتبرون ذلك محتملا جدا ، ولو أن المعطيات الحديثة لا تستطيع أن تقطع فيه باليقين . وقد رأيت من واجبى أن أعرض لذكر ذلك مع التحفظ الذى يقتضيه الحال .

ولما كنت قد شرعت فى هذه الدراسة منذ نحو ثلاثين عاما ، فقد كان ينبغى أن أضيف الى ما سبق ذكره فى علم الفلك مسألة أخرى أشار اليها القرآن ، وأعنى بذلك غزو الفضاء . وقد كان الناس ، يرون — وقت شروعى فى هذه الدراسة وعقب اجراء أولى تجارب ارسال الصواريخ الفضائية — أن الانسان قد يتاح له من الامكانات المادية ما قد يجعله يرتاد فى يوم ما الفضاء بعيدا عن محيط الكرة الارضية . وكانوا يعلمون اذ ذاك بوجود آية قرآنية تقول بأن الانسان سوف يحقق يوما هذا الغـــزو الفضائى ، وها قد تم اليوم تحقيق ذلك .

* *

ان هذه المقابلة بين الكتاب المنزل والعلم تأخذ فى الحسبان المفاهيم المرتبطة بالحقيقة العلمية ، وذلك سواء تعلق الامـــر بالتوراة والانجيل أو بالقرآن . ولكى تكون المقابلة صالحة يجب أن تكون الحجة العلمية التى تستند عليها تامة الثبوت وغيـــر قابلة للمناقشة . وان أولئك الذين يغضبهم تدخل العلم فى تمحيص الكتب المقدسة ينكرون على العلم قدرته على أن يكون عاملا صالحا من عوامل المقارنة ( سواء تعلق الامر بالتوراة والانجيل اللذين لا يصمدان أمام هذه المقارنة ، أو بالقرآن الذى ليس لـــه أن

يتخوف منها ) . وهؤلاء يزعمون أن العلم يتغير مع الزمن ، وأن مسألة بذاتها قد تكون اليوم مقبولة وقد ترفض فيما بعد .

وهذه الملاحظة تستوجب الايضاح التالى : يجب التمييز بين النظرية العلمية وفعل الملاحظة القائم على صحة النظر . ان القصد من النظرية هو تفسير ظاهرة أو مجموعة من الظواهر التى يصعب فهمها . فالنظرية اذن متغيرة فى كثير من الاحوال : وهى محمولة على أن تبدل أو تعوض بنظرية أخرى حينما يتيح التقدم العلمى تحليل الوقائع بشكل أفضل وتصور تفسير أصلح وأنسب . وعلى العكس من ذلك فان فعل الملاحظة الثابت بالتجربة لا يمكن تغييره : نعم يمكن تحديد صفاته بشكل أفضل ، الا أن الفعل يبقى هو هو . واذ ثبت — مثلا — أن الارض تدور حول الشمس وأن القمر يدور حول الارض فان هذه المسألة لن تكون محل اعادة نظر . بيد أنه فى الامكان أن يقع فى المستقبل تحديد مسار كلا الكوكبين بشكل أدق ، وذلك على أحسن تقدير .

وقد أخذت بعين الاعتبار الطابع المتغير للنظريات العلمية ، وذلك ما جعلنى ، مثلا ، أستبعد من دراستى هذه آية قرآنية يعتقد أحد علماء الطبيعة المسلمين أنها تخبر عن نظرية المادة المضادة (4) ، وهى نظرية يقع اليوم حولها كثير من الجدل . وعلى العكس من ذلك يمكننا أن نعير كامل انتباهنا لآية قرآنية تتحدث عن الاصل المائى للحياة ، وهى ظاهرة لا يمكن أبـــدا

(4) « Antimatière »مادة افتراضية مؤلفة كلية من جزئيات ذات شحنة كهربائيـــــة .

التثبت منها ، الا أن الادلة العديدة تقف منها موقف التأييد . أما في مجال فعل الملاحظة ، كما هو الشأن فى مسألة تطور الجنين البشرى ، فانه فى مستطاعنا أن نقابل المراحل المختلفة التى وصفها القرآن بمعطيات علم الاجنة الحديث ، وبذلك نقف على توافق العلم توافقا مطلقا مع الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع .

وسيجد القارىء فى القسم الثالث من كتابنا تفاصيل عن نتائج المقارنة بين أقوال التوراة والانجيل وأقوال القرآن حول نفس المسائل ، وقد وضعنا كل تلك الاقوال فى غربال النقد العلمى ففحصنا ، مثلا ، مسألتى خلق العالم والطوفان ، فاتضح أن الاقوال التوراتية والانجيلية تتنافى مع العلم ، وأن ما ورد فى القرآن حول المسألتين يطابق العلم تمام المطابقة . وبذلك سجلنا الفوارق التى تجعل أقوال القرآن مقبولة فى العصر الحديث وأقوال التوراة والانجيل مردودة .

وتحتل هذه المقارنة المقام الاول من الاهمية ، ذلك أن اليهود والمسيحيين والملحدين فى أقطارنا الغربية يجمعون على القول ( دون أى دليل ) أن محمدا قد كتب القرآن أو أملاه مقلدا فيه التوراة والانجيل . وهم يزعمون أيضا أن ما ورد فى القرآن عن التاريخ الدينى انما هو اعادة لما جاء فى التوراة والانجيل .

والحقيقة ان القرآن والتوراة والانجيل تقدم عن نفس الوقائع روايات متباينة . الا أن أصحاب تلك المزاعم يوثرون السكوت عن هذا التباين .

ان الاعتبارات التى نورد تفاصيلها فى هذه الدراسة ـ من وجهة نظر العلم ـ تحملنا على أن نحكم بأنه لا يتصور فى الذهن أن يتمكن رجل من البشر عاش فى القرن السابع الميلادى ، من أن يأتى فى القرآن بأفكار ليست أفكار عصره ، وذلك فى مواضيع متعددة تطابق تمام المطابقة ما أثبته العلم بعد قرون من ذلك العصر . وانني لاعتقد أنه لا يوجد تفسير بشرى للقرآن . ( يقصد المؤلف أن القرآن لا يمكن أن يكون من صنع البشر ) .

## علم الفلك فى القرآن

يزخر القرآن بتأملات فى السموات ويذكر تعددها وهو يشير الى « ما بين السموات » ، وهذه مسألة أثبت العلم الحديث صحتها .

وفضلا عن الآيات التى تتحدث عن الخلق نجد نحو أربعين آية تعطى بيانات اضافية دقيقة حول معطيات علم الفلك . ويدخل بعض هذه الآيات فى باب تمجيد قدرة الخالق الساهر على نظام النجوم والكواكب المنتظمة حسب مواقع التوازن الذى شرحه العالم الانجليزى « نيوتن » فى نظريته عن جاذبية الاجرام فيما بينها .

واذا كان القصد الجوهرى من الآيات القرآنية التى سنوردها هو تنبيه الناس الى القدرة الالهية المطلقة فقد رأينا ، مع ذلك ، ضرورة ذكرها هنا لاعطاء صورة حقيقية عن المعلومات

التى قدمها القرآن ، منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، عن تنظيـــم الكـــــون .

والاشارات القرآنية فى هذا الموضوع تعد حدثا جديدا فى الوحى الالهى من حيث ان التوراة والانجيل لم يتطرقا الى مسائل تنظيم العالم باستثناء بعض الافكار التى ثبت عدم صحتهـا جملة . أما القرآن فانه قد تعرض لهذا الموضوع باسهاب ، والذى ذكره القرآن جدير بالاهتمـــام وما سكت عنه كذلك . فهو لم يذكر بالفعل نظريات كانت سائدة فى ذلك العهد عن تنظيم عالم السموات وهى نظريات برهن العلم على بطلانها . وقد ظهر لنا أنه من المفيد ابراز هذا الجانب السلبى من المسألة .

## التــدبـــــر فى السمـــاوات:

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناهـــا ومالها من فروج » ( ق 6/50 )

« خلق السموات بغير عمد ترونها . . » ( لقمان 10/31 )

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر . . » ( الرعد 2/13 )

والآيتان الاخيرتان تدحضان ما كان يعتقدد الناس من أن قبة السماء تمسكها أعمدة تمنعها من أن ترتطم بالارض .

« والسماء رفعها ووضع الميزان » ( الرحمن 7/55 )

« ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنـــه . . »
( الحـــج 65/22 ) .

ومعلوم أن بعد الاجرام السماوية بمسافات كبيرة ومتناسبة مع حجم الأجرام نفسها يشكل أساس توازنها . وكلما كانت الاجرام متباعدة عن بعضها كانت قوى جاذبيتها أضعف ، وكلما كانت متقاربة زاد انعكاس تأثير بعضها فى بعض . وهذا هـــو الشأن بالنسبة الى القمر القريب من الارض ( فى مفهوم علـــم الفلك ) والذى يؤثر ، بحكم قانون الجاذبية ، فى موقع الماء بالبحار فتنشأ عن ذلك ظاهرة المد والجزر . واذا اقترب جرم سماوى من الآخر أكثر من اللازم فان التصادم واقع لا محالة . وخضوع هذه الاجرام للاذن الالهى شرط لابد منه لتجنب كل اضطراب ، لهذا فان القرآن كثيرا ما يذكر بخضوع السموات لاوامر الله :

« قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيـــم »
( المؤمنون 86/23 ) .

والمقصود بالسماوات السبع ، كما رأينا من قبل (5) ، السماوات العديدة . فلفظ « السبع » هنا يفيد الكثرة لا الحصر فى عدد معين .

---

(5) تعرض المؤلف لهـــذه المسألة فى مكان آخر من الكتاب مبينـــا ان « السبع » لا يعنى العدد بل التعدد . كما بين المؤلف بحجج استقاها من القرآن مدة « اليوم » الوارد ذكره فى معرض الكلام عن خلق السماوات والارض . وهو الذى يعادل فى حساب الله تعالى الف سنة من حسابنا أو خمسين الف سنة . وفى معرض الحديث عن خلـــق السماوات والارض فى ستة أيام انما يعنى « اليوم » حقبة زمنية .

« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ( الجاثية 13/45 ) .

**الشمــس والقمـــر :**

« الشمس والقمر بحسبان » ( الرحمن 5/55 )

« وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم » ( الانعام 96/6 ) .

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهــار » ( ابراهيم 33/14 ) .

نلاحظ وجود تكامل بين الآيات الثلاث الاخيرة ، فيترتب عن « الحسبان » و « التقدير » انتظام الاجرام السماوية، وذلك ما عبر عنه القرآن بلفظ « دائبين » ودائب اسم فاعل لفعل معناه الاصلى عمل شىء بجد ومواظبة . وقد أعطيناه هنا معنى يدل على الاجتهاد فى عمل شىء بعناية واستمرار وعدم تغير وفقا لعــادة ثابتــة .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديــم » ( يــس 39/36 ) .

وهذه اشارة الى اعوجاج عنق النخلة الذى يتخذ شكــل الهلال حينما يجف عوده .

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ( النحل 12/16 ) .

« وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » ( الانعام 97/6 ).

« وعلامات وبالنجم هم يهتدون » ( النحل 16/16 ) .

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » ( يونس 5/10 ) .

ونلاحظ أن القرآن يشفع كلامه عن هذا التنظيم السماوى وتأثير فعله العملى بالتأكيد على منفعته للانسان فى تنقله برا وبحرا واهتدائه ومعرفته عدد السنين والحساب . واذا كان الكتاب المقدس اليهودى المسيحى قد اقتصر على وصف الشمس والقمر بالنيرين : « النير الكبير » و « النير الصغير » فان القرآن قد أضاف اليهما فوارق أخرى غير فوارق الحجم .

ورد فى القرآن أن الله « جعل الشمس ضياء والقمر نورا » وبين فى آيات أخرى الفوارق بين الشمس والقمر كما سنرى :

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » ( الفرقان 61/25 ) .

« ألم تر كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » (نوح 71/15 — 16) .

« وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنــا سراجا وهاجا » (النبــأ 78/12 — 13) .

ونفهم بالبداهة أن المقصود بالسراج الوهاج الشمس ، فوصف الله القمر بأنه منير والشمس بأنها سراج وهاج ومعلوم أن الشمس نجم ينتج بفعل احتراقه الداخلى حرارة شديـــدة وضوءا ، وأن القمر ، الذى لا يضىء بنفسه ، يعكس الضوء الذى يتلقاه من الشمس ، وأنه كوكب جامد ( على الاقل فى طبقاتـــه الخارجية ) . وليس فى القرآن شىء يناقض ما نعرفه فى عصرنا حول هاذين الجرمين السماويين .

## النجــــوم :

نحن نعرف أن النجوم ، كالشمس ، أجرام سماوية تكمن فيها ظواهر فيزيائية شتى نلاحظ من بينها ، دون عناء ، ظاهرة انتاج الضوء فهى بذلك أجرام مضيئة بذاتها . ويتكرر فى القرآن لفظ « نجم » وجمعه ، نجوم « ثلاثين مرة ، واصل الكلمة من فعل « نجــم » بمعنى طلع وظهر . ويدل لفظ النجم على جــرم سماوى مرئى من غير تعيين لطبيعته . ولبيان أن المقصود فى القرآن هو ما نسميه بالنجم نرى القرآن يضيف اليه نعتا كما فى هــذه الآيـــات :

« والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق · النجم الثاقب » (الطــارق 86/1 — 3) .

وصف القرآن نجم المساء بالثاقب ومعناه الذى ينفذ من خلال شىء ( والشىء هنا ظلام الليل ) (6) ، ويتكرر نفس اللفظ فى هـــذه الآيـــــة :

« الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ( الصافات 10/37 ) والمقصود هنا النيزك أو النجم السيار الذى ينتج عن الاحتراق » .

**الكـــــواكـــــب :**

نعرف أن الكواكب لا تضىء بنفسها ، وهى تدور حـــول الشمس ، والارض التى نعيش عليها من هذه الكواكب التى تنتمى كما نعلم الى المنظومة الشمسية ( أو النظام الشمسى ) . وليس فى مقدورنا أن نقطع بوجود كواكب أخرى خارج هذه المنظومة .

وكان الناس قديما يعرفون بوجود خمسة من الكواكب ، فضلا عن الارض ، وهى عطارد والزهرة والمريخ والمشتـــرى وزحل . أما يورانوس ونبتون وبلوتـــون فانها لم تعـــرف الا حديثـــــا .

وأحسن تعريف فى القرآن لكلمة « الكوكب » هو ما ورد فى آية مشهورة تنطوى على معانى روحية عميقة ، وهى آية كثر حولها جدل المفسرين .

---

(6) يشرح الراغب الاصفهانى فى « مفردات القرآن » هذا اللفظ بقوله : « الذى يثقب بنوره ويصيب ما يقع عليه » .

« الله نور السموات والارض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى . . » ( النـــور 35/24 ) .

والمقصود قذف نور على جسم يعكسه ( والجسم هنا هو الزجاجة ) فيجعله ساطعا كالدر شأنه فى ذلك شأن الكوكب المنير بضوء الشمس .

ويبدو من الآية التالية أن المقصود بلفظ « الكوكب » هو ما نعرفه فى ضوء المعارف الحديثة :

« انـا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ( الصافات 6/37 ) .

فهل المقصود بالسماء الدنيا المنظومة الشمسية ؟ والمعروف أنه لا يوجد من بين أقرب العناصر السماوية الينا غير الكواكب ، والشمس هى النجم الوحيد فى المنظومة التى تحمل اسمها . وبذلك يكون القرآن قد أشار الى وجود كواكب حسب التعريف الحديـــث .

## التنظيـــم السمـــاوى :

ان ما نجده فى القرآن من اشارات الى التنظيم السماوى يخص أساسا المنظومة الشمسية ، غير أننا نجد أيضا اشارات الى ظواهر تتجاوز النظام الشمسى نفسه ، وهى ظواهر لم تكتشف الا فى العصر الحديث .

فعن مسار كل مـــن الشمس والقمر نجـــد هاتين الآيتين الجليلتيـــــــن :

« وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلـــك يسبحون » ( الانبياء 33/21 )

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابـــق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ( يس 40/36 ) .

يشير القرآن هنا الى واقعين جوهريين هما : وجود مسار لكل من الشمس والقمر ، وتحرك هاذين الجرمين فى الفضاء كل بحركة خاصة بـــه .

ونلاحظ أن الآيتين المذكورتين لم تحددا كيفية ارتبـــاط مسار الشمس بمسار الارض . وهذا الجانب السلبى جديـــر بالاهتمام من حيث ان الناس كانوا يعتقدون فى عهد نزول الوحى القرآنـــى أن الشمس تتحرك والارض فى نقطة ثابتة : وهـــذه النظرية التى تقول بأن الارض هى مركز الكون (Géocentrisme)

كانت سائدة منذ عهد بطليموس فى القرن الثانى قبل الميلاد وظلت كذلك الى عصر كوبيرنيك فى القرن السادس عشر الميلادى . والقرآن يخلو من أية اشارة الى هذا المفهوم الذى كان الناس يأخذون به فى عهد محمـــد .

ان لفـــظ « الفلك » الذى ورد فى القرآن وترجمناه هنـــا بالمسار أحدث اضطرابا فى فهم المفسرين القدامى الذين لم يكن

فى وسعهم أن يتصوروا وجود مسار دورى للقمر والشمس ، فذهبوا فى تفسير ذلك مذاهب شتى بعضها قريب من الصواب والبعض الآخر خاطىء . وقد أورد السيد حمزة أبو بكر فى ترجمته الفرنسية للقرآن بعض الاقوال المتضاربة للمفسرين المسلمين القدامى فى هذا الشأن ( منهم من فسر الفلك بأنه عبارة عن محور شبيه بالعمود الحديدى الذى تدور حوله الرحى ، ومنهم من قال بأنه كرة سماوية أو مسار أو برج أو موجة . . ) وذكر السيد حمزة أبو بكر رأى المفسر الامام الطبرى فى هذا الشأن الذى قال بأنه من واجبنا أن نسكت حينما لا نعلم (7) . معنى هذا أن الناس فى ذلك العصر كانوا عاجزين عن أن يدركوا مسألة مسار الشمس والقمر . وقد جاء القرآن بفكرة جديدة لم تتضح فى أذهان الناس الا بعد قرون عديدة من نزوله .

لقد رأينا كيف أن القرآن أبرز فى آية سبقت الاشارة اليها منفعة القمر فى تقدير المنازل ومعرفة « عدد السنين والحساب » ( سورة يونس 5/10 ) وقد وجهت انتقادات الى هذا النظام الحساب الذى وصفه ناقدوه بأنه عتيق وغير عملى ومضاد للعلم بالقياس الى نظامنا القائم على دوران الارض حول الشمس الذى يعبر عنه فى عصرنا بالنظام اليوليانى ، وان هذا الانتقاد يدعونا الى الاتيان بالملاحظتين التاليتين :

---

(7) أدرك كثير من العلماء المسلمين المعنى الحقيقى للفظ « الفلك » ، ونورد هنا ما قاله الراغب الاصفهانى من أن « الفلك » هو مجرى الكواكب ، وجاء فى لسان العرب لابن منظور أن الفلك هو « مدار النجوم » .

أ) ــ كان القرآن يخاطب ، منذ أربعة عشر قرنا ، سكان الجزيرة العربية الذين اعتادوا استعمال التوقيت القمرى . وأهل الصحراء يألفون ، كما نعلم ، مراقبة السماء والاهتداء بالنجوم ورصد القمر فى أطواره ( منازله ) المختلفة لضبط الزمن .

ب) ــ اذا استثنينا بعض ذوى الاختصاص نرى أن عامة الناس يجهلون التطابق التام الموجود بين التوقيت اليوليانى ( الشمسى ) والتوقيت القمرى . ان 235 شهرا قمريا توافق تمام الموافقة تسعة عشر عاما من التوقيت اليوليانى ذى الـ 365 يوما وربع يوم ، وان مدة 365 يوما فى سنواتنا ليست كاملة ، بل انها فى حاجة الى تصحيح كل أربعة أعوام ( السنة الكبيسة ) . وتتكرر نفس الظواهر فى التوقيت القمرى كل 19 سنة يوليانية . وهذا ما يعرف بدورة « ميلتون » الفلكى الاغريقى الذى اكتشف فى القرن الخامس قبل الميلاد هذا التطابق الدقيق بين الزمن الشمسى والزمن القمرى .

## حـــركـــــة القمـــر والشمس فى الفضـــاء :

ان وجود مسار للشمس مسألة يصعب علينا فهمها اذ أننا تعودنا اعتبار المنظومة الشمسية قائمة حول الشمس . واذا كنا نريد أن نفهم مدلول الآية القرآنية فان علينا أن ننظر الى موقع الشمس من المجرة (8) مستفتين فى ذلك العلم الحديث . فالمجرة

(8) ترجمنا la glaxie بالمجرة وهى « مجموعة كبيرة من النجوم تركزت حتى تراءت من الارض كوشاح أبيض يعترض فى السماء » كما عرفها ( المعجم الوسيط ) .

تحتوى على عدد هائل من النجوم موزعة على هيأة أسطوانة مركزها أكثر سمكا من أطرافها ، وتحتل الشمس فى ذلك موقعا بعيدا عن مركز الاسطوانة . وتدور المجرة حول نفسها على محور هو مركزها نفسه وينتج عن ذلك دوران الشمس حول هذا المركز فى مسار دائرى قدر علم الفلك الحديث عناصره . وتبعد الشمس عن مركز المجرة ـ حسب التقدير الذى وضعه شابلى (Shapley) سنة 1917 ـ بعشرة كيلو بارسيك أى ما يعادل تقريبا العدد 3 متبوعا بسبعة عشر صفرا . ويستغرق دوران المجرة والشمس حول نفسهما دورانا كاملا مدة تقدر بنحو 250 مليون سنة ، وتتحرك الشمس ضمن هذا الدوران بسرعة تقريبية قدرها 250 كيلو مترا فى الثانية .

هذه هى الحركة المسارية للشمس التى أخبر بها القرآن منذ قرابة أربعة عشر قرنا ، وتعد هذه المسألة من مكتسبات علم الفلك الحديث الذى برهن على وجودها وبين حسابها .

## تعاقب الليل والنهار :

كان الناس يعتبرون ، فى عصر نزول القرآن ، أن الارض مركز العالم وأن الشمس تتحرك بارتباط معها . ولم يكن غريبا ، بسبب ذلك ، أن يتحدث الناس عن حركة الشمس حينما يذكرون تعاقب النهار والليل . بيد أن القرآن لم يتعرض لشىء من ذلك ، بل انه عالج المسألة على النحو التالى :

« يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » ( الاعراف 54/7 ) .

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون » .
( يــس 37/36 ) .

« ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل »
( لقمــان 29/31 ) .

« يكــور الليل على النهــار ، ويكور النهار على الليــل »
( الزمــر 5/39 ) .

ان الآية الاولى فى غنى عن كل تعليق . وتعطينا الآية الثانية صورة عامة عن المسألة . أما الآيتان الثالثة والرابعة فانهمــا تستحقان أن نوليهما كامــل الاهتمام بسبب ما تذكرانه عــن « الولوج » وعن تكوير الليل على النهار وتكوير النهار علــى الليـــــل .

فماذا يحدث حقيقة فى الفضاء ؟ ان الصور التى التقطها رجال الفضاء الامريكيون من مراكبهم الفضائية على مسافــة بعيدة جدا عن الارض ـــ من سطح القمر مثلا ـــ تبين أن الشمس تضىء على الدوام ( الا فى حالة الخسوف ) نصف الكرة الارضية المقابل لها بينما يبقى النصف الآخر مظلما . ولما كانت الارض تدور حول نفسها فى حين أن الاضاءة تبقى ثابتة فان منطقــة مضاءة على شكل نصف كرة تتم دورتها حول الارض فى مــدة أربع وعشرين ساعة بينما يقطع نصف الكرة الآخر الذى يبقى

فى الظلام نفس الشوط فى نفس المدة . والقرآن يصف وصفا دقيقا هذا الطواف الدائب للنهار والليل . انها مسألة لا يعسر فهمها على البشر فى هذا العصر ، فنحن نقــول بثبوت الشمس ( نسبيا ) وبدوران الارض . وان « التكور » الدائم و « الولوج » المستمر لقطاع فى آخر لمما أعرب عنه القرآن .

**غـــزو الفضـــاء :**

يتحدث القرآن عن غزو الفضاء فى ثلاث آيات :

« يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السمــاوات والارض فانفذوا ، لا تنفــذون الا بسلطــان » ( الرحمــن 33/55 ) .

ان القدرة ( السلطان ) التى تتحدث عنها هذه الآية هى قدرة الله عز وجل التى تمكن الانس مــن اختراق السماوات والارض بمشيئته سبحانه .

ولا شك أن هذه الآيــة تشير الى ما قد يتاح للبشر مــن امكانات تجعلهم يغزون الفضاء . ويجب أن نلاحظ أن القــرآن لا يشير فقط الى النفاذ من مناطق السماوات ، بل يذكر أيضا مناطق الارض ( أقطار السماوات والارض ) . وهذا يعنى أيضا استكشاف أعماق الارض .

أما الآيتان الاخريتان فانهما واردتان فى سورة الحجــر ( 14/15 ـ 15 ) .

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

انها الدهشة أمام منظر غير مترقب ومختلف عما يمكن أن يتصوره الانسان .

## الـــظـــــــل :

فى القرآن آيات تدعو الى التدبر فى الظل وتحركاته :

« والذى جعل لكم مما خلق ظلالا . » ( النحل 81/16 )

« أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » ( النحل 48/16 ) .

« ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ، ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » ( الفرقان 45/25 — 46 ) .

يشير القرآن فى هذه الآيات الى علاقة الظل بالشمس . ومن المناسب أن نذكر فى هذا المقام أن الناس فى عهد محمد كانوا يعتقدون أن تحرك الظل مشروط بتحرك الشمس من الشرق الى الغرب . وكانت المزولة ( الساعة الشمسية ) تطبيقا لهذه النظرية اذ أنهم كانوا يقيسون بها الوقت فيما بين الشروق والغروب .

ونرى أن القرآن يتحدث هنا عن ظاهرة الظل فلا يأخذ بالتفسير الذى كان ساريا فى عهد الوحى والذى ثبت أنه تفسير خاطىء . وهكذا فان القرآن لم يتعرض الا لذكر الدور الذى تلعبه الشمس بوصفها دليلا على الظل ولهذا فاننا نلاحظ أنه لا يوجد أى تعارض بين ما ذكره القرآن عن الظل وبين ما نعرفه عن هذه الظاهرة فى العصر الحديث .

## المملكــة النباتيــة والحيوانيــة

### أصـــل الحيـــاة :

يتناول القرآن من وجهة نظر عامة مسألة أصل الحيـــاة باقتضاب متناه فى آية تتحدث أيضا عن تكوين العوالم اذ تقول :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقــا ففتقناها وجعلنا مــن الماء كــل شىء حى ، أفلا يؤمنـــون » ( الانبيــاء 30/21 ) .

ويمكن أن تدل هذه الآية على أن كل شىء حى صنع مــن مادة جوهرية هى الماء أو أن كل شىء حى أصله الماء . وكلا المدلولين يطابق المعارف العلمية تمام المطابقة . والواقع هو أن للحياة أصلا مائيا وأن الماء هو العنصر الاول فى كل خلية حية . ولا امكان لحياة بدون ماء . وهم حينما يناقشون امكان وجود حياة فى أحد الكواكب فانهم يلقون على الفور هذا السؤال : هل يحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء ؟

والماء فى الآية القرآنية المذكورة يدل على ماء السماء أو مياه المحيطات أو أى سائل آخر . والماء ، حسب المدلول الاول ، عنصر جوهرى فى كل حياة نباتية .

يقـول القـــرآن :

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » ( طــه 53/20 ) .

ونلاحظ هنا أيضا اشارة الى « الازواج » فى عالم النبات.

« والله خلق كل دابة من ماء » ( النور 45/24 ) .

وسنرى فيما بعد أن لفظ الماء يمكن أن ينطبق أيضا على السائـل المنـوى .

وسواء تعلق الامر بأصل الحياة عامة أو بالعنصر الـذى يخرج النبات من الارض أو بجرثومة ( مبدأ ) الكائن الحى فان كل ما نطق به القرآن عن أصل الحياة يوافق المعطيات العلمية الحديثة . وانه لم يتسرب الى القرآن أسطورة من الاساطير التى كانت تتردد عن أصل الحياة .

**المملكـة النباتيـة :**

سنقتصر فيما يلى على ذكر ثلاث آيات من القرآن من بين الآيات العديدة التى تتحدث عن حكمة الله المتمثلة فى نفع المطر الذى يخرج النبات من الارض .

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات . . » ( النحل 10/16 – 11 )

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فاخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ( الانعام 99/6 ) .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » ( ق 9/50 – 11 ) .

## التوازن الموجود فى المملكة النباتية :

ويضيف القرآن الى هذه الاعتبارات العامة أخرى أكثر اقتضابا فيقول عن التوازن الذى يسود المملكة النباتية :

« والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ( الحجر 19/15 ) .

ويقول عن تباين الاكل ( بضم الهمزة والكاف )

« وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها

على بعض فى الاكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ( الرعد 4/13 ) .

**الاخصــاب النبــاتــى :**

هذا ويثير الانتبــاه بشكل خاص مــا يشير اليه القرآن بخصوص الاخصاب فى المملكة النباتية . ويجدر بنا أن نذكر بأن هذا الاخصاب يحــدث بطريقتين أحدهما جنسى والآخر غيــر جنسى . والحقيقة أن التناسل الجنسى هو وحده الذى يستحق هذه التسمية من حيث انه يطلق على طريقة بيولوجية هدفهــا انسال فرد يشبه الفرد الذى أنجبه .

ويحدث الاخصاب الجنسى عند النبات بطريق تزويـــج عناصر من الذكران وعناصر من الاناث منتمية الى تشكيلات مولدة متحدة مع نبات بعينه أو منفصلة عنه . وهذا ما يشيــر اليه القرآن بقوله :

« وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » ( طــه 53/20 ) .

« وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ( الحج 5/22 ) .

« وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ( لقمــان 10/31 ) .

« وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ( الرعـــد 3/13 ) .

وفى القرآن ما يشير الى تعميم مبدا الازواج وتطبيقه على مخلوقات أخرى ، وهو فى ذلك يقول :

« سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » ( يـــس 36/36 ) .

ويمكننا أن نفترض العديد من الافتراضات عن معنى هذه الاشياء التى لم يكن يعلمها الانسان فى عهد محمد والتى نتبين منها اليوم أزواجا من أبنية (9) أو ظائف فى أدق الفصائـــل أو أكبرها حجما ، فى عالم الاحياء أو عالم غير الاحياء ــ المهم أن نحفظ فى ذاكرتنا هذه المفاهيم المعبر عنها بوضوح لنرى مرة أخرى أنه لا يوجد فى القرآن شىء يتعارض مع العلم الحديث .

## المملكـــة الحيـــوانيـــــة :

أما المملكة الحيوانية فيتحدث عنها القرآن فى كثير مـــن آياته . نذكر منها آيات تتضمن بعض الاعتبارات العامة :

« والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكـــم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس . ان ربكم لرؤوف

(9) ترجمنا لفـــظ Structures بابنيـــة .

رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون » ( 16/5 — 8 ) .

وفضلا عن ذلك تناولت آيات قرآنية أخرى مواضيع شتى عـــن :

ـ التناسل فى المملكة الحيوانية ،

ـ ذكر وجود مجتمعات حيوانية ،

ـ تأملات متعلقة بالنحل ، والعناكب ، والطيور ،

ـ كلام عن منشأ اللبن الحيوانـــى .

وفيما يلى بعض الآيات التى تتعرض لهذه المواضيع :

« وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى ، من نطفة اذا تمنى » ( النجـــم 53/45 — 46 ) .

« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشـــرون » ( الانعـــام 6/38 ) .

« وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا (10) يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ( النحل 16/68—69)

---

(10) علق المؤلف على الاية 69 بقوله انها الاية الوحيدة فى القرآن فـــى موضوع الدواء . وقال بأن العسل الصافى يمكن ان ينفع ، فعلا ، فى معالجة بعض حالات التعفن ، وانه باستثناء هذه الآية لا يوجد فى القرآن الكريم آية أخرى تتعرض لمسالة مـــن مسائل التداوى ، وذلك خلافا لما زعمه الزاعمون .

انه من الصعب معرفة المعنى الدقيق المراد من هذا الامر الالهى أن يسلك النحل سبل ربه ذللا (11) وكل ما يمكننا أن نقوله على ضوء ما لدينا من معلومات عن سلوك النحل ، هو أن تنظيما عصبيا خارقا للعادة يسند هذا السلوك الخاص بالنحل وبكل واحد من الحيوانات الثلاثة التى ذكرها القرآن على سبيل المثال ، ونحن نعلم أن الرقص وسيلة للاتصال بين أفراد فصيلة النحل . ويستطيع النحل بهذه الوسيلة أن يخبر بعضه بعضا بمكان الازهار مع تحديد الاتجاه والمسافة . وقد أجرى العالم فون فريش

---

(11) يظهر من قراءة الترجمة الفرنسية للآيتين المذكورتين ان المؤلف قد فهم لفظ « ذللا » ــ وهو جمع « ذلول » ــ فهما لا ياطبق مدلوله الحقيقي ، فقد توجمه بلفظ (humblement) اى ما معناه فى العربية : بذلة وخضوع أو بتواضع . وكان الاولى ان يترجمه بلفظ docilement اى طوعا وانقيادا .

والواقع ان المقصود بلفظ « ذلول » ممهد سهل ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا » .

وربما اختلط الامر على المؤلف اذ أن اصل ذلول وذليل واحد وهو ذل يذل ذلا ومذلة اى ضعف وهان فهو ذليل والجمع اذلاء واذلة . ومعنى الفعل ايضا : سهل وانقاد ، وهذا هو المقصود فى قوله تعالى : « وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » وقوله : « لا ذلول تثير الحرث » وواضح ان المقصود هو السبل السهلة الممهدة اذا كان الموصوف هو السبل ، او سهلة الانقياد اذ كان « ذللا » من وصف النحل . واللفظ بهذا المعنى يقرب الى الفهم ما ذهب اليه المؤلف فى تعليقه على الآية بخصوص سلوك النحل ولغته الراقصة وتركيب جهازه العصبى الدقيق . وأنا شخصيا اذهب الى ان الآية الكريمة « فاسلكى سبل ربك ذللا » فيها اشارة الى القدرة التى أودعها الله فى النحل والتى بها تهتدى هذه الفصيلة وتتخاطب بطريق الحركات الراقصة التى هى وسيلة الاتصال بين افراده ، وذلك ما اثبتته التجارب التى اجراها العلماء المعاصرون .

(Von Frisch) تجارب بين فيها معنى الحركات التــى يؤديها النحل بقصد ايصال الاخبار الى أفراد فصيلته .

وتحدث القرآن عن العنكبوت فى الآية التالية التى تشير الى بيتها الواهــن :

« مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » ( العنكبــوت ( 41/29 ) .

ان نسيج العنكبوت مكون بالفعل من خيوط تفرزها غــدد هذه الحشرة ، وهى فى غاية الوهن . وانه من المتعذر على الانسان أن يصنع مثلهــا .

أما الطيور فقد أشار اليها القرآن فى عديد من الآيات التى تقص أنباء من حياة ابراهيم ويوسف وداود وسليمان وعيسى . الا أن الآية التى تتصل بموضوع هذا الكتاب هى التى ذكرناها مــن قبــــل :

« وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكــــم . . » ( الانعام 38/6 )

وتشير آيتان آخريتان الى خضوع الطيور لقدرة الخالق :

« ألم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ( النحل 79/16 ) .

« أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير » ( الملك 19/67 ) .

ويمكننا دون عناء أن نقرب هذه الآيات القرآنية ــ التــى تبين خضوع الطيور فى مسلكها خضوعا تاما للاوامر الالهية ــ من المعطيات الحديثة التى تبين مدى الكمال الذى أدركته بعض أجناس الطيور بخصوص البرامج المرسومة لهجرتها . ذلك أن طيورا فتية لا تجارب لديها ولا دليل يرشدها فى طريقها تبــدو قادرة على قطع مسافات طويلة ومعقدة ثم تعود آئبة فى موعد معين الى مكان انطلاقها . فهى بذلك تصدر حقا عن رموز مبرمجة ومدونة فى تكوينها الوراثــى .

ذكر الاستاذ هامبوركر فى كتابه « القوة والضعف » (12) مثالا لنوع من تلك الطيور يعيش فى منطقة المحيط الهادى واسمه بالانجليزية ــ (Mutton-Bird) ــ أى العصفور الخروف ، وهذا الطائر يقطع مسافات على شكل 8 طولها 25000 كيلو مترا . ومن المسلم به أن التعليمات المتعلقة بهذه الرحلة مسجلة ، حتما ، فى خلايا الطائر العصبية . انها تعليمات مبرمجة ولا ريب . فمن هو الذى يبرمجهــا ؟

---

(12) * La Puissance et la Fragilité.
Professeur Hamburger - Flamarion 1972

## منشـــا اللبـــن الحيـــوانـــــى :

ان ما ذكره القرآن بخصوص أصل العناصر التى يتكون منها اللبن الحيوانى يوافق تمام الموافقة معطيات المعـــارف العصريــــــة .

« وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » ( النحل 66/16 ) .

وقد أخطأ بعض مترجمى القرآن ـــ ومنهم بلاشير وحميد الله ـــ فى الترجمة التى أعطوها لبعض ألفاظ هذه الآية وترجمناها نحن بما هو قريب من التأويل الذى ورد فى كتاب « المنتخب » الذى أصدره المجمع الاعلى للبحوث الاسلامية فى القاهرة معتمدا على معطيات علم وظائف الاعضاء الحديث ؟

وهكذا ترجمنا عبارة « فى بطونه » الى الفرنسية بعبارة « à l'intérieur de leru corps » ، وذلك خلافا لبلاشر وحميد الله اللذين ترجماها بعبارة « dans leurs ventres » فلفظ بطن فى العربية يدل على وسط الشىء أو جوفه « داخله » كما يدل على ما يقابل الظهر ، لذلك يبدو لى أن ترجمة « فى بطونه » بعبارة :

« à l'intérieur de leurs corps » يتفق تماما مع مضمون الآية (13)

أما عن منشأ العناصر التى يتكون منها اللبن فنجد فى الآية المذكورة حرف « من » متبوعا بـ « بين » الذى يفيد الاتصال فهذا الظرف : « بين » لا يدل على الخلالة والتوسط فقط بل انه يفيد تقابل شيئين أو شخصين واتصالهما . (14)

ولكى نستوعب علميا معنى الآية المذكورة ، يجب علينا أن نستعين بمبادىء علم وظائف الاعضاء .

---

(13) لا شك أن مؤلف الكتاب السيد بوكاى مصيب فى هذه الترجمة . فالبطن فى العربية ، جوف كل شىء ، كما أن الباطن من كل شىء داخله . والبطن بهذا المعنى هو المقصود فى الآية الكريمة . ومن معانى البطن الجهة السفلى كما فى قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة » . وقد يطلق على المكان الذى يوجد فيه الجنين : « انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى » . وعلى هذا تكون ترجمة « بطونه » بلفظ : ventres بعيدة عن المعنى المقصود ، سيما وأن اللفظ فى الفرنسية يدل « على الجزء الامامى من التجويف الذى توجد فيه الامعاء » وقد يطلق على ما بالتجويف من أمعاء ومعدة بالنسبة للانسان ، وكرش بالنسبة لنحيوان » . وواضح أن كل هذا ليس هو المقصود بلفظ « بطون » فى الآية الكريمة ، انما المراد هو الجوف أى داخل البدن دون تحديد لمكان معين . وقد لاحظت أن الاستاذ « Masson » أحد مترجمى القرآن الى الفرنسية قد ترجم عبارة فى « بطونه » بـ : « Dans leurs entrailles » **أى** فى احشائه وربما تكون هذه الترجمة قريبة من الصواب اذا أخذنا لفظة : « entrailles » بمعناها الفرنسى الواسع الذى يقابل « الجوف » أى البطن بالمعنى المراد من الآية الكريمة .

(14) تأييدا لما ذهب اليه المؤلف السيد بوكاى أود أن أورد هذه الآية الكريمة : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما .. » ( الكهف 18 / 61 ) .
والمقصود المكان الذى يتصل فيه البحران ويلتقيان .

ان المواد الجوهرية التى تغذى الجسم عامة تنشأ عــن تحولات كيميائية تحدث على طول القصبة الهضمية . وتتأصل هذه المواد من العناصر الموجودة فى محتوى الامعاء ( وقد عبر عنه القرآن بلفظ فرث ) . وحينما تصل تلك المواد ، وهى فى المعى ، الى الطور المطلوب من التحول الكيماوى فانها تمر عبر حاجز هذا المعى فى اتجاه الدورة الدموية العامة وذلك ، رأسا ، عن طريق الاوعية اللمفاوية ، أو بشكل غير مباشر ، عن طريق الدورة التى تحمل تلك المواد أولا الى الكبد حيث تجتاز تغييرات ثم تبرز منها وينتهى بها المطاف الى الدورة العامة ، وهكذا يمر كل شىء بالدورة الدموية .

ان العناصر المكونة للبن تفرزها الغدد الثديــية التــى تتغذى — ان صح هذا التعبير — من نتاج هضم الاغذية التــى المستخلصة من الاغذية ويحولها ثم يحمل التغذية الى الغــدد المستخلصة من الاغذية ويحولها ثم يحمل التغذية الى الغــدد الثديية التى تنتج اللبــن .

وعليه فان كل شىء يصدر فى البداية عن الاتصال الذى يحدث بين الفرث والدم عند حاجز المعى نفسه . وتعد هــذه المسألة من مكتسبات الكيمياء وعلم وظائف أعضاء الهضم . وكان هذا من الامور المجهولة فى عصر محمد ولم تعرف هذه الحقائق العلمية الا فى العصر الحديث . أما الدورة الدموية فانها مــن

اكتشاف هارفى (Harvey) الذى عاش بعد عشرة قرون تقريبا من عصر نزول الوحى القرآنى . (15)

وفى اعتقادى أن هذه الآية القرآنية التى تشير الى الحقائق المذكورة لا يمكن أن يوجد لها تفسير بشرى بسبب العهد الذى نزلت فيه ( يقصد المؤلف بهذا القول أن هذه الآية من الامور الذى يعجز عنها البشـــر ) .

## التنـــاســـل البشـــرى :

التناسل البشرى موضوع تناولته مؤلفات الاقدمين فلـــم يسلم واحد منها من عرض مفاهيم خاطئة كلما دخل فى تفاصيل القضية . وفى العصور الوسطى ــ بل وحتى فى عصر غير بعيد جدا من عصرنا ــ كانت تحيط بمسائل التناسل ضروب شتى من الاساطير والمعتقدات الباطلة . فكيف لا يكون الامر كذلك وقد كان على الانسان ــ لكى يفهم المسائل المتصلة بالبناء التناسلى المعقـــد ــ ان يعرف علـــم التشريح ، وان يكتشـــف المجهـــر ( المكروسكوب ) وأن يشهد ميلاد العلوم الاساسية التى تزود منها علم وظائف الاعضاء ، وعلم الاجنة ، وفن التوليد . . الـــخ

---

(15) اذا كان هارفى قد اكتشف الدورة الدموية العامة فالمعروف أن الطبيب العربى على بن النفيس القرشى ، هو الذى اكتشف الدورة الدموية الرئوية ( الدورة الصغرى ) فى القرن الثالث عشر الميلادى أى قبل هارفى بعـــدة قـــرون .

الا أن الامر يختلف كل الاختلاف بالقياس الى القرآن الذى يذكر فى عدد من آياته أجهزة يعينها بدقة ويتناول مراحل التناسل فيحددها بوضوح فلا يقدم الى قارئه مسألة واحدة يشوبها ولو ذرة من خطأ . وقد بسط القرآن كل ذلك بعبارات سهلة يهون فهمها على الناس وتوافق كل الموافقة ما اكتشفه العلم بعد مرور زمن طويل من نزول القرآن .

يبرز القرآن ما يقطعه الجنين من مراحل التحول فى الرحم . (16)

« يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » (الانفطار 82/6 ـ 8) .

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » (نوح 71/13 ـ 14) .

وبالاضافة الى هذه النظريات العامة يلفت القرآن الكريم الانتباه الى عديد من المسائل التى لها علاقة بالتناسل ، وهى مسائل يمكن تصنيفها كما يلى :

---

(16) قبل ان يتطرق المؤلف الى ما ورد فى القرآن الكريم عرض بعض المبادىء العلمية العامة المتعلقة بالتناسل البشرى ، مؤكدا أنها مبادىء كانت مجهولة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم نبه المؤلف الى أخطاء الترجمة التى وقع فيها عدد من مترجمى القرآن الى الفرنسية الذين لم يحسنوا فهم الفاظ مثل « النطفة والعلقة » .

1) ــ حصول الاخصاب بفضل قدر ضئيل من سائل (نطفة)

2) ــ طبيعة السائل المخصب

3) ــ اغراز بيضة الاخصاب

4) ــ تطور الجنيـــن .

« خلق الانسان من نطفة . . » ( النحل ( 4/16 )
ويذكر القرآن هذه الحقيقة احدى عشرة مرة .

وقد ترجمنا لفظ « نطفـــة » الوارد فى القرآن بعبـــارة « قطرة من المنى » اذ أنه لا يوجد فى الفرنسية لفظ واحد يقابل « نطفة » (17) وتوضح الآية التالية طبيعة السائل :

« ...... أنم يك نطفة من منى يمنى » ( القيامة 37/75 )

وتبين آية أخرى أن هذه النطفة تستقر فى مكان ثابـــت ، فتقـــــول :

« ثـــم جعلناه نطفـــة فى قرار مكـــين » ( المؤمنـــون 13/23 ) (18) .

---

(17) أصل النطفة فى العربية الماء القليل . ولذلك فان المؤلف مصيب فى ترجمتـــه لهذه الكلمة .

(18) يقول المؤلف بأن لفظ « مكين » يصعب ترجمته الى الفرنسية ، فهو يدل على مكان ممتاز رفيع قار .

يذكر القرآن هذا السائل الذى يسبب الاخصاب فيصفه بأوصاف ينبغى الوقوف عندها وتأمل معناها :

أ ) فهو يذكر « المنى » فى الآية رقم 37 السورة 75 ( القيامة ) .

ب) ويذكر فى الآية رقم 6 ( سورة / 86 ) أن الانسان « خلق من ماء دافق » .

ح) وورد فى الآية 20 (سورة /77 ) قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ » .

د) وورد فى الآية رقم 2 (سورة / 76 ) لفظ « أمشاج » أى أخلاط : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج . . »

وقد رأى بعض المفسرين القدامى والمحدثين أن المقصود بأمشاج اخلاط من عناصر الذكر والانثى ، ولم يكن لهؤلاء المفسرين أية فكرة عن طبيعة الاخصاب ولاسيما عن أحواله البيولوجية من جهة المرأة ، فتبادر الى أذهانهم أن اللفظ انما يشير الى اتحاد العنصرين .

الا أن بعض المفسرين المحدثين أمثال مؤلفى كتاب « المنتخب » الذى صدر عن المجمع الاعلى للبحوث الاسلامية فى القاهرة قد صححوا هذا النظر وبينوا أن نطفة المنى « ذات

عناصر شتى » . ولم يقدم « المنتخب » أية تفاصيل عن هذه المسألة ، الا أن نظرته صائبة جدا . (19)

وفضلا عن ذلك فان القرآن الذى يحدثنا عن سائل مخصب مؤلف من عدة عناصر ، يخبرنا بأن الله جعل نسل الانسان من شىء يمكن استخلاصه من سائل . وهذا هو المقصود بهذه الآية الكريمة .

« ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ( 8/32 ) فلفظ « سلالة » هنا يدل على شىء مستخلص من شىء آخر .

والذى يحدث فعلا هو أن جزء ضئيلا جدا من خلاصة سائل معقد التركيب ، هو الذى ينشط .

فكيف لا تصيبنا الدهشة أمام هذا التوافق بين النص القرآنى والمعارف العلمية التى يتيحها لنا عصرنا فى هذا الموضوع ؟

* *

حينما تخصب البيضة فى الخرطوم تنزل الى تجويف الرحم : وهذا ما يسمى باغراز البيضة . ويذكر القرآن الرحم الذى تستقر فيه البيضة المخصبة .

---

(19) يعرض المؤلف عناصر تلك الاخلاط مشيرا الى وظائف البيضتين واوعية الامناء والبرستات ( الموثة ) والغدد الملحقة بالمسالك البولية . وقد أحجمت عن ترجمة هذا التعليق الذى يهم المتخصصين .

« . . ونقر فى الارحــام ما نشاء الــى أجل مسمــى »
( الحج 5/22 ) .

ويتم استقرار البيضة فى الرحم بانتشار الزغابات التى هى امتداد للبيضة ، والتى تأخذ من غلظ العضو ، وهو أمر لابد منــه لنمو البيضة . وهذه التشكيلات تجعل البيضة تعلق بالرحم . ويذكر القرآن هذا العلق الذى لم يعرف الا فى العصر الحديث :

« اقــرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق »
( العلــق 1/96 ) .

وتتكــرر هــذه المسألــة فى أربــع آيــات ( 5/22 – 14/23 – 67/40 – 38/75 ) .

* *

يذكر القرآن مسألة تطور الجنين داخل الرحم بكيفيــة توافق تمام الموافقة ما نعرفه اليوم عن بعض أطوار نمو الجنين، والقرآن لم ينطق فى هذا بشىء يخالف العلم الحديث ، ونورد فيما يلى بعض الآيات التى تشير الى هذه الاطوار :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنــا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما . . » ( المؤمنون 14/23 )

ومن المعروف أنه فى أثناء نمو الجنين تظهر بعض الاطراف بصورة غير متناسبة مع الشكل الذى يتخذه الفرد فيما بعد ، بينما تكون أطراف أخرى متناسبـــة .

أليس هذا هو ما يعنيه لفظ « مخلقة » أى متناسبة التكوين ( مسواة لا عيب فيها ) ، فى الآية التى تقول : « فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » ( الحـــج 5/22 ) .

ويذكر القرآن ظهور الحواس والاعضاء الباطنة بقولـــه : « وجعل لكم السمع والابصار والافئدة » ( السجدة 9/32 ).

ويشير الى تكون الجنس بقوله :

« وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى » ( النجم 45/53 — 46 ) . (20)

وبمقارنة كل هذه الآيات التى نطق بها القرآن ، بالمبادىء التى أقرها العلم الحديث ، يتضح لنا بالبداهة التوافق الموجود بينهما . الا أنه من الاهمية بمكان كبير مقارنة تلك الآيـــات بالمعتقدات التى كانت سائدة عن مسائل التناسل فى عصر الوحى الاسلامى ، اذ بذلك يتضح أن الناس الذين عاشوا فى ذلك العصر

(20) ربما يرى المؤلف فى هذه الآية اشارة الى الجهاز التناسلى عند الرجل والمراة . وقد ذكر فى مكان آخر ان القرآن يعبر عن العضو الجنسى عند الرجل بالصلب وعند المراة بالترائب ، خلافا لمـــا يراه بعض المفسريـــن .

كانوا أبعد ما يكونون عن الاخذ بنظر يشابه ما نطق به القرآن بخصوص هذه المشاكل . ولم يتمكن الانسان من أن تكون له نظرة واضحة فى هــذا الموضوع الا فى القرن التاسع عشــر الميــــلادى .

ان ما نطق به القرآن فى موضوع التناسل البشرى ليبين بعبارات سهلة طائفة من الحقائق الاولى التى لم بكتشفها الانسان الا بعد قرون عديدة من الكد والاجتهاد . (21)

**الربــاط** **محمد العربى الخطابى**

(21) يختم المؤلف هذا الفصل بذكر مـــا ورد فى القرآن عن « التربيـــة الجنسية » مستدلا بآيات عديدة فى موضوع العلاقات الجنسيـــة وآدابها وفى الحيض والعدة وغير ذلك .

# إلى صقلية

للدكتور ناصر الدين الأسد

**زار الشاعر بلرمو ـ عاصمة صقلية ـ وعاش اياما في رحاب المجد العربي والحضارة الاسلامية ، وتوالت عليه مواكب الذكريات ، فكانت هذه الابيات :**

قام في موكب العصور يصلي  خاشع القلب للاله الأجل

يستعيد الماضي التليد . . ويتلو  صفحات من الفخار . . ويملي

يتجلى من حوله طيف رؤيا  من سناء ، يا حسن ذاك التجلي

في رحاب الزمان يمشي وئيدا  ساكنا خطوه . . يطيل التملي

ملء أسماعه أناشيد عز  وأغان علوية المستهل

وأريج التاريخ ينشر عطرا  من جلال في كل حزن وسهل

في روابي بلرم . . موطن مجدى وطريق العلا ومرتع خيلـــــى

* * *

قال لى صاحبى : أغربت عنا ؟ قلت : لا ، اننى هنـــا بين أهلى

باعـــد الدهـــر بينـــنا فنسيـنـــا رحمـــا حبلهـــا وثيـــق بحبلـــى

نحـــن فى كل نسمة من هـــواء فى رباهـــا ، وكل ذرة رمـــل

فتمـــهـــل ولا تلمنـــى ضـــلالا يا رفيقى ، فليس ينفع عذلـــى

يعلـــم الشوق والصبابـــة أنـــى شاعر أمتطى الخيـــال المجلـــى

وأرى من كوامن الحسن مالـــم يبصر الخلق أو ينالوه قبلـــــى

أقبس السحر من عيون العذارى وأصوغ القصيد منه . . فأغلى

وتصير النجوم عنـــدى شنوفـــا وعقـــودا من ياســـمـــين وفـــل

ما غرور ومرية أن يقول الـــــ شاعر الحق: ليس فى الناس مثلى

لك شعرى وفيـــك أحلى غنائى يا بلرمو . . ان الغرام صقلـــى

**بـــلرمـــو** **ناصر الدين الأسد**

# وجود المغرب الحضاري والثقافي
## في العصر الجاهلي

د. عباس الجراري

من بين قضايانا التاريخية والفكرية ، تبدو قضية مغرب ما قبل الاسلام ذات أهمية كبيرة ، لما صادف هذا المغرب عند المؤرخين المغاربة والمسلمين عامة من اهمال يكاد ان يكون تاما والسبب في هذا الاهمال راجع الى الفكرة التى انطلقوا منها فى التاريخ له والتى وهموا فيها انه ولد مع الفتح الاسلامى ، وانه لم يكن له من قبل اى وجود . فكان ان اعرضوا عن تلك الفترة ، وغدا التاريخ عندهم بالنسبة للمغرب لا يبدا الا مع الفتح .

وعلى الرغم من انا لا نشك فى ان الاسلام اعاد خلق المغرب وغير مجرى الحياة فيه ، وفتح له آفاق حضارة وثقافة جديدتين ، وجعله فى نطاق هذه الآفاق يتحمل رسالة نهض بها خلال التاريخ . وما زال ، فان وهم المؤرخين فى فكرتهم يبدو سافرا لمن يطالع فى ابحاث الدارسين من الاجانب ، فيتعرف الى تاريخ المغرب فى المرحلة السابقة على الاسلام ، ويجده حافلا بالاحداث وملامح الحياة ، وبما يجعله يستحق ان ينظر فيه ويعنى به ، على الرغم مما يكتنفه من غموض واضطراب يعزيان الى عدم تطور هذا التاريخ فى خط طبيعى وباطراد ، اذ تعرض لانتكاسات ساهمت فى خلق فجوات تمثلها الحلقات المفقودة التى نصادف باستمرار ، ونحن نتتبع تاريخنا القديم وما تعرض له من تغيرات حضارية وثقافية تحمل معها من الغموض والابهام بقدر ما يكون فيها من مدى وعمق .

والذى يعود الى الدراسات التى عنيت بالمغرب القديم ، يبحث عن الحياة فى فترة ما قبل التاريخ (1) ، فانه يصعب عليه ان يحدد المراحل

---

1) يقدر الباحثون أن ما قبل التاريخ يتمثل فى المرحلة التي سبقت اختراع الكتابة اي قبل قبل الميلاد بنحو اربعة آلاف عام على التقريب .

الحيوية التى مر بها الانسان المغربى . ومن حسن الحظ انه قد عثر فى بعض المناطق على بقايا وآثار ، تثبت أن المغرب عرف نوعا من الحياة الانسانية فى هذه الفترة ، لعلها أول حياة جربها البشر ، وهـى تـدل علـى ان الانسان الاول الذى ظهر فى افريقيا الشمالية هو اقدم انسان عثر علـى اثر له الى هذا اليوم ، وأنه عاش منذ ثلاثمائة او اربعمائة الف سنــة تقريبا (2) فاجزاء الجماجم الانسانية التى اكتشفت فى لكبيبات بناحيــة الرباط سنة 1933 (3) ، وكذلك العظام التى عثر عليها سنة 1939 فى مغارة العالية بطنجة تدل على ان المغرب كان مسكونا فى العصر الحجرى الوسيط وفى فترات ما قبل التاريخ . تضاف الى ذلك الادوات التى كشف التنقيب عنها فى سيدى عبد الرحمن بناحية الدار البيضاء ، وفى مناطـق اخـرى من بلاد الشمال الافريقـى .

وقد تطورت هذه الادوات خلال العصور الحجرية الى اشكال متقنة مصقولة كالفأس مثلا وبعض الآلات الحجرية والعظمية التى يتوسل بهـا لصناعات النقش والزخرفة ، سواء فى الطين أو على الحجارة . وقد تجلت فى صناعة الحلـى من أسورة وأقراط وخلاخل وقلائد . كما تجلـت فى « فن صنع التماثيل الشبيه بما نجده فى الصحراء اذا نحن عددنا .. اصنام تابل بلات ذات الرؤوس الآدمية فى الصحراء الشرقية (4) » وتجلت بعـد هذا فى النقش على الحجارة ، وفق ما تثبت الرسوم والكتابات التى كشف عنها فى جنوب اقليم وهران والتى تعرف بـ « الحجرات المكتوبة » ، وكذلك احجار أخرى مكتوبة كشف عنها فى غير هذا الاقليم (5) .

---

2) انظر تاريخ شمال افريقيا لشارل أندرى جوليان ص 40 — 41 تعريب محمد مزالى والبشير ابن سلامة ( الدار التونسية للنشر ) .

3) انظر :

—) H. Marcains — Découverte de restes humains fossiles dans les grès quatrenaires de Rabat — L'antropologie T XLIV 1934.

—) H. V. Valois — L'homme de Rabat — Bulletin d'archéologie marocaine T III 1958 - 1959.

4) تاريخ شمال افريقيا ص 57

5) E.F. Gautier — Le passé de l'Afrique du Nord p. 20 — Payot Paris 1952

وقد درس بعض الباحثين (6) هذه النقوش ، وهى تمثل حيوانات كالجاموس القديم والفيل والايلات والاسود والفهود والزرافات والنعام وبعض الحيوانات الآهلة و « خاصة كباشا مغطاة رؤوسها بغطاء مدور الشكل يذكرنا فى شىء من الغرابة بقرص كبش عمون » . (7)

وغير خاف ان المغرب — كبقية بلاد الشمال الافريقى — تسكنه منذ فجر التاريخ شعوب الامازيغ (8) التى أطلق الرومان عليها اسم البربر (9) وكذلك اسم الموريين ، فى حين كان اليونان يسميهم اللوبيين Lebou وعند ابن خلدون « أن افريقش ابن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار ، وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما رأى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها نعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر » (10) . وعنده أن البربر « يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس ، وهما معا أبنا بر » (11) .

وقد كانت هذه الشعوب تتحدث بلهجات مختلفة تقترب جميعها من اللهجة المصرية القديمة ، تنحدر مثلها من أصل واحد هو اللغات الكوشية او الحامية ، وتمت بنسب للغات السامية . كما كانت هذه الشعوب تعرف الكتابة وتتخذ لها حروف النهجاء الليبية التى لا تزال — هى نفسها أو شبيهة بها — معروفة فى الجنوب عند الطوارق وتدعى : التيفيناغ .

ويكاد يتفق البحث النزيه على أن هؤلاء البربر وفدوا من الجزيرة العربية ومصر فى العصر الحجرى ، وعلى أنهم ربما اختلطوا عند وصولهم

---

(6
G.B. Flamand — Les pierres écrites du Nord-africain — Paris Masson 1921

7) تاريخ شمال افريقيا ص 60 . وعند St. Gsell أن تاريخ هذه النقوش يقدر بثلاثة الاف سنة قبل المسيح ، وعند Flamand و H. Obermaier أن فن النقش على الصخور يرجع للعصور النيوليتية ( انظر نفس المصدر ص 62 )

8) امازيغ ج ايمازيغن ، ومعناه الحر الشريف ، وهذه التسمية تدل على طبيعة الشعب وتطلعاته .

9) انظر فى البربر دائرة المعارف الاسلامية والمصادر المذكورة ( مادة بربر — المجلد الثالث )

10) التاريخ ج 6 ص 89 ( ط بولاق )

11) نفس المصدر .

الى بلاد الشمال الافريقى ببعض الشعوب الاخرى التى كانت قد وصلت بدورها وافدة من أوروبا عن طريق شبه الجزيرة الابيرية . ومثل هذا البحث يؤكد لا شك ما ذهب اليه التاريخ العربى ، وخاصة عند ابن خلدون ، (12) من أن البربر عرب حميريون من بنى قحطان . وهو رأى لم يقبله بعض الدارسين الغربيين الذين أرادوا أن يجعلوا البربر أقرباء للسكان القدامى لاوروبا الغربية (13) ، وأن يعتبروا بلادهم بالتالى أروبية (14) . وحتـــى الذين اعترفوا بالارومة الافريقية المشرقية لبلدان المغرب ، لم يقولوا ذلك الا ليضيفوا مدى قوة روابطها مع أروبا وضرورة استمرار هذه الروابط التى تشكل جزءا من ملامح طبيعة تلك البلاد (15) .

واذا كانت الدراسات السلالية لم تقنع مثل هؤلاء الدارسين بالاصل الحقيقى للبربر ، فان البحث اللغوى كان أقدر على الاقناع ، حيث انتهى الى أن اللغة البربرية تنتسب — كما أسلفنا — للمجموعة الحامية السامية . فهى ، بما يتفرع عنها من لهجات ، منتشرة فى أماكن متفرقة داخل البلاد التى استقر بها البربر منذ فترة ما قبل التاريخ ، أى من غرب مصر عنـد واحة سيوة شرقا حتى ساحل المحيط الاطلسى غربا ، ومن شواطـــىء المتوسط شمالا حتى جنوب نهر النيجر جنوبا . ويمكن أن نميز فيها هذه الفـــروع الثلاثـــــة :

1 — الزناتيـــة : ( تاريفيت ) ويتكلم بها الريفيون المغاربة وسكـــان بعض المناطق الاطلسية والبرابرة الليبيون والتونسيون والجزائريون ما عدا القبـــــائـــــــل .

2 — المصموديـــة : ( تاشلحيت ) ويتكلمها سكان الاطلس الغربـــى الكبير وسوس .

---

12) انظر الجزء السادس من تاريخه ص 93 — 97 حيث أورد أقوال مختلف المؤرخـــين والنسابـــة .

13) انظر :

G. Camps — Aux origines de la Berbérie, rites et monuments funéraires, p. 29 — Paris 1961

14) انظـــر :

GL. E. Bremond — Berbères et arabes —Paris Payot 1938

15) انظـــر :

L. Balout — Quelques problèmes nord-africains de chronologie préhistorique — Revue africaine T 13 1948

3 ـ الصنهاجية : ( تامازيغت ) ويتكلم بها رجال القبائل وسكان الاطلس المتوسط وشرقى الاطلس الكبير وشرقى الاطلس المتوسط وناحية ملوية وطوارق الصحراء .

وقد اثبت الذين درسوا البربرية واللغات الحامية والسامية ان التشابه كبير بينها ، سواء من الناحية البنيوية أو فيما يتعلق ببعض القواعد النحوية . واثبت هؤلاء أن الشبه بين الخط الليبى والخطوط التى كانت تستعمل فى شبه الجزيرة العربية يدل على مكانهم الاصلى ، وأن وجود خطوط ليبية فى سيناء ودلتا النيل يدل على طريق عبورهم للشمال الافريقى من مصر .

كذلك عنى دارسون آخرون (16) بالبحث فى الموسيقى البربرية القديمة ، وانتهوا الى اقرار الشبه بينها وبين الالحان فى أغانى جنوب بلاد العرب .

ولم تقف الدراسات التى عنيت بأصل البربر عند حد التشكيك فى هذا الاصل ، بل زادت فأثارت قضية لا تخلو من بعض الاشكال والاغراض ، وهى ان البيئة الجغرافية للبلاد التى يسكنها البربر أثرت فى تكوين وحدات قبلية صغيرة ، مفرقة حينا ومجمعة حينا آخر ، وحالت بذلك دون لم شتات مختلف القبائل فى أمة واحدة . وهى ظاهرة كانت فى طليعة العوامل التى شجعت الدول على محاولة غزو الشمال الافريقى .

والحقيقة أن البيئة لم تكن وحدها مسؤولة عن هذا التبعثر ، فقد كان الميل الشديد الى الحرية ورفض الخضوع يشكل بدوره عاملا على خلق كيانات صغيرة . ومع ذلك ، وعلى قبولنا ـ جدليا ـ رأى الذين يعتبرون ان الدراسات البيئية والانتوغرافية الفيزيقية لم تثبت أن اندماجا كبيرا تم بين البربر وبين الشعوب التى استوطنت بلادهم طوال التاريخ ، فاننا نعتقد فى جزم لا يدع مجالا للشك أن عنصر اللغة والدين كان قادرا فى ظل الاسلام والعربية على صهر البربر فى بوتقة واحدة ، وأن هذا العنصر بما يترتب عنه من تكوين عقلية مغربية متميزة داخل اطاره ، كان اكثر من اى عنصر آخر قادرا على الادماج والتوحيد .

مهما يكن ، فان البربر كانوا فى الفترة التى نتحدث عنها ، يعيشون على شكل جماعات من الرحل تنتقل باغنامها وابقارها سعيا وراء الكلأ ،

16) امثال هانز هلفرتز Hanz Helfritz ( انظر كتابنا : من وحى التراث ص 96 ـ الرباط 1971 )

تقصد الجبال في الصيف ، وتنزل في الشتاء الى السهول ، وكانت بعض شعوبهم تعيش حياة مستقرة تقوم على نظام جماعي يتجلـى في اشتراكيـة الارض والفلاحة والممتلكات ، وخاصة في السهول ــ كسهل سبو مثلا ــ حيث الطبيعة تساعد على اقامة زراعة منتظمة ، اساسها القمح والشعير والزيتون والكروم ، وتجارة منتظمة كذلك بما يفيض من الحبوب وانتاج الزيت، وتساعد بالتالي على انشاء أسر وقبائل في قرى صغيرة كانت تقام علـى الهضاب ، حماية للسكان والثروة من الاخطار ، وخاصة كوارث الطبيعـة وهجمات الحيوانات الضارية التي كانت معروفة لهذا العهد « كالفيلـة والسباع ، مما جعلهم يمهرون في الصيد وصناعة آلاته واسلحته .

وعلى الرغم من أن التاريخ الفكري لهذه الفترة يكاد أن يكون غيـر معروف ، فان البحث قد اثبت ان هذه الشعوب كانت متدينة الى حد كبير ، تعتقد السحر وخلود الروح (17) وتعبد النجوم والاشجار وعيون الماء وبعض الحيوانات (18) ، وتشكل من بعضها آلهة لها حيث يحدثنا التاريخ انـه « كان لهم في القرن الاول قبل المسيح آلهة تحميهم تسمى افريكا راسها مغطى بجلـد فيـل » (19) .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مثل هذا التقديس لمظاهر الطبيعة والكون كان ــ سواء عند البربر او غيرهم من الشعوب التي مارسته ــ يقرن بألوان من الطقوس تتميز في الغالب بتراتيل واناشيد ، وبرقص يعتمد ايقاعات معينة ، يكاد في حركاته وحلقاته يقترب من المسرح ، كما يقرن بصناعـة الدمى والتماثيل واتخاذ الاقنعة والرسوم (20) . وهي كلها تدل على وجود فن يتوسل في تعبيره باللغة والتشكيل .

— *** —

ولعل اهم ما يلاحظ الباحث في تاريخ المغرب القديم انه تعرض كمـا تعرض الشمال الافريقي كله لحضارتين كبيرتين ، هما حضارة الفينيقيين وحضـارة الرومـان .

---

17) مما يدل على ذلك وعلى ايمانهم بالبعث انهم كانوا يضعون مع الميت عند دفنه بعـض الاوانـي والاثاث وشيئا من الزاد ، ويجعلون له حوضا للاغتسال .

18) راجـع كتابنـا : من وحـي التـراث ابتـداء من ص 91 .

19) تاريخ شمال افريقيا ص 78

20) انظر من وحي التراث ابتداء من ص 104

وقد ظهر الفينيقيون في غرب المتوسط عند منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، واستمروا في الشمال الافريقي زهاء الف عام . ومع ذلك فان معلوماتنا عنهم قليلة ، وترجع في اغلبها الى الفترة المتاخرة التي بدات مع الحروب البونيقية وانتهت بانتصار الرومان . وقد وصلت معظم هذه المعلومات بواسطة مؤرخين لاتين تحدثوا عن عظمة رومة ، وكذلك عن طريق مؤرخين يونان . وتعد رحلة حنون Le périple d'Hannon وثيقة قرطاجنية هامة ، وقد وصلتنا منها ترجمة اغريقية ، وهي تلقي الاضواء على التجارة الفينيقية ومراكزها في الشمال الافريقي (21) .

ومن المعروف تاريخيا ان الفينيقيين — بحثا عن ارض الغروب التي اطلق اليونان عليها هسبريس Hespéris — وصلوا الى هذه البلاد وانشاوا فيها مراكز ، واهمها مدينة تشميش وهي لاكيش او ليكسوس Lixus عند مصب نهر اللوكوس قريبا من مدينة العرائش وذلك حوالي سنة 1100 أو 1110 ق م . ثم روسادير Rusaddir التي هي مليلية ، وطنجي ، Tingi التي هي طنجة . ومن هذه المدن كذلك مدينة قرطاجنة التي اسسوها في تونس سنة 813 — 814 ق م ، ولعلها اهمها جميعــا .

فهذه المراكز وغيرها تدل على ان دولة الفينيقيين كانت في اساسها تقوم على المال وتبادل التجارة باساطيل تجــوب المتوسط والاطلسي ، متنقلة بين مختلف المراكز التي اقاموها او التي كانوا يتعاملون معها . ولم يكن هذا الطابع التجاري ليصرف المغاربة عن الفلاحة ، بل زاد اهتمامهم بها وبالصناعات المرتبطة بها ، كانتاج الزيوت والخمور وما اليها من صناعات غذائية كتصبير الاسماك . وبلغ من تبريزهم فيها ان احد القادة البونيقيــين — هو ماغون — الف فيها كتابا من ثمانية وعشرين جزءا ، تحدث فيه عن « الزراعة وتربية الماشية ، بل ضبط كذلك ضبطا مدققــا قواعــد ادارة الاملاك الريفية » (22) . وقد استفاد الرومان منه وترجموه .

---

21) انظر : Le passé de l'Afrique du Nord p. 32 —
— J. Carcopino — Le Maroc antique — Gallimard 1943
— G. Germain — Qu'est ce que le périple d'Hannon — Hespéris 1957 pp. 205 - 248

22) تاريخ شمال افريقيا ص 112 .

ولم يقف اهتمام المغاربة عند هذا الحد ، ولكن تعداه الى مجـــال الصناعات الثقيلة المتصلة بالسفن والاساطيل وأجهزة الموانىء ، فضـــلا عن تطوير بعض الصناعات التى كانت معروفة لديهم من قبل ، كصناعة الاسلحة والامتعة والحلى والاقنعة وادوات الزينة والاوانى المزخرفـــة والصناعات الجلدية والخشبية والآلات الفلاحية .

وليس من شك فى انه كان لمثل هذه النهضة اكبر الاثر على نشر اللغة والتقاليد وكثير من مظاهر الثقافة والحضارة الفينيقية فى البلاد البربرية ، وهى مظاهر شرقية ، مصرية واغريقية فى الغالب . فقد سجل التاريخ ان القرطاجنيين (( كان لباسهم شرقيـــا بحتا ، فكانوا يرتدون الجبة الطويلة ذات الاكمام الواسعة عامة ، وكانوا يضعون على رؤوسهم القلنسوة ويلبسون معطـــف السفـــــر )) . (23)

اما فنهم فمتاثر بالفن المصرى والاغريقى ، ومن بين كبار فنانيهم النحات بويطـــوس Boéthos ، وهو الذى انشا تمثال ايفيز .

كما انهم عرفوا المسرح (24) على الطريقة اليونانية . وقد ذكر البكرى ان (( اعجب ما بقرطاجنة دار الملعب وهم يسمونها الطياطر ، قد بنيت اقواسا على سوارى وعليها مثلها ما احاط بالدار ، وقد صور فى حيطانها جميع الحيوان وصور اصحاب جميع الصناعات ، وجعلت فيه صور الرياح ، فجعل صورة الصبا وجهه مستبشر ، وصورة الدبور وجهه عابس .. وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو ، اقباء معقودة طبقات كثيرة ، مطل على البحر فى غربيه قصر يعرف بالطياطر ، وهو الذى فيه دار الملعب المذكورة . وهو كثير الابواب والتراويح ، وهو ايضا طبقات ، على كل باب صورة حيوان رخام وصور جميع الصنـــاع )) (25) .

وفى مجال العبادات اتخذ الشمال الافريقى فى هذا العهد آلهة مزيجة من الآلهة البربرية والآلهة الفينيقية المتاثرة بما كان يعبد فى مصر وبلاد الاغريق . وقد اشتهر من بين آلهتهم بعل حمون ، وهو شبيه بامون المصرى وكذلك تانيت بينيبعل ومعناه وجه بعل ، وكانا يشكلان فى صور بشرية

---

23) المصدر السابق ص 117
24) انظر من وحى التراث ص 100 .
25) كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ( المسالك والممالك ) ص 43 ـ 44 ـ نشر دوســـلان ـ الجزائـر 1857 .

وتصنع لهما التماثيل . وعند اكتشاف معبدى سوسة وقرطاج عثر على انصاب واحجار واوانى ومحارق تثبت ان سكان المغرب الكبير — وخاصة منهم القرطاجنيين — كانوا يقدمون للالهة قرابين بشرية وحيوانية . كذلك « عثر فى معبد صياغة ( فى بئر بورقبة قرب خليج الحمامات ) على آلهة لها راس لبؤة جالسة على اسد ، كما عثر على ابو الهول ذى ضروع » . (26)

وربما ساعد على انتشار مثل هذه المظاهر الحضارية والثقافية فى بلاد البربر ان الفينيقيين كانوا مستوطنين ولم يكونوا مستعمرين ، يضاف الى ذلك ما يوجد بينهم كعرب كنعانيين وبين البربر كعرب حميريين من تقارب وتشابه ، خاصة فى نطاق اللغة . ولقد بلغ من انتشارها ان القديس البربرى او غستان ذكر انها فى ايامه — اى فى القرن الرابع الميلاد — كانت منتشرة فى البوادى المغربية ، كما اكد المؤرخ البيزنطى بروكوب Procope انها كانت متداولة فى القرن السادس (27) . ولا شك ان مثل هذه الظاهرة تسجل فى عهود قريبة من الفتح الاسلامى ، تضاف الى التشابه الموجود بين العربية والفينيقية لتؤكد مدى السهولة التي وجد البربر فى تعلمهم للغة القرآن .

— ⁂ —

وما ان حل القرن الثالث قبل الميلاد حتى بدات بلاد الشمال الافريقى تتحرك فى انتفاضات لاقامة امارات مستقلة ، مستغلة دخول القرطاجنيين مع الرومان فى نزاعات هى التى مثلتها الحروب البونيقية فيما بعد (28) Les guerres puniques والتى استمرت من 146 ق م الى 435 ب م ، فكان ان اقيمت فى شمال المغرب امارة موريطانيا وفى الداخل امارة نوميديا Numidie

ولكن المغرب لم يلبث بهذه الحروب ان تعرض الغزو الرومانى الذى لم يستطع ان يخضع لسيطرته غير جزء من البلاد ، اما الباقى فقد ظل

---

26) تاريخ شمال افريقيا ص 124

27) انظر Gsell — Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T IV, p. 498 — Paris Hachette 1913-28

28) نسبة الى القرطاجنيين واصلها لا تينى وهو Punicus ماخوذ من Poeni بمعنى قرطاجنة او قرطاجنى . وربما يكون الاصل فى Poeni كلمة Pouanit التي كان يطلقها المصريون على بلاد العرب ثم انتقل فيما بعد ليطلق على Poeni اى قرطاجنة او فينيقيا Phénicie

محافظا على نوع من الاستقلال ، ويؤكد التاريخ أن الرومان حاولوا القضاء على اللغة والتقاليد الفينيقية ، لدرجة أنهم دمروا مدينة قرطاجنة ومكتبتها العظيمة ، وحاولوا من أجل محو الثقافة الفينيقية ان ينشئوا مدارس لتعليم اللغة اللاتينية ، ولكن البربر ظلوا محتفظين باللغة الفينيقية وبلغاتهم المحلية القديمـــــة .

على أن هذا لا ينفى أن الرومان اثروا على طبقة معينة من البربر ذات مصالح ، هى الطبقة الارستقراطية التى كانت تختلف الى مدارسهم ، وتتسمى بأسمائهم ، وتتكلم اللغة اللاتينية ، وتعبد الآلهة الرومانية مثل مـــارس وهرمس وسيريس وباخوس وأسكولاب وايزيس وأوزيريس ومترا . أما الطبقات الشعبية فقد ظلت تقدس الآلهة الفينيقية وان اخفتها تحت ستار اسماء جديدة . فبعل حمون كان يعبد تحت اسم سترنس اغسطس ، وتانيت كان يعبد تحت أسم كيلتيس » فضلا عن ان تلك الطبقات حافظت علـــى آلهتها البربرية المحلية كما كورتا ويونا وماكورفوس وماتيلا ، وفيهينـــــا وبونشور وفارسيسيمـــــا .

وعلى الرغم من استعداد المغاربة لتقبل فكرة الوحدانية ، فانهم لـــم يميلوا كثيرا للمسيحية التى لم تنتشر الا عند النخبة المتعلمة فى المدارس الرومانية ، حيث كان التعليم يهدف الى تكوين أطر لتسيير الادارة المحلية باللغة اللاتينية . وكانت مناهجه تقتضى تدرج التلميذ من تعلم القراءة والكتابة والحساب الى النحو والآداب والموسيقى والعروض والفلسفـــة والفلك والرياضيات . وينتقل بعد ذلك الى مدارس أعلى كانت تؤسس فى أهم المدن ، وفيها يتعلم الشعر والخطابة وما يتطلبان من بلاغة وجدل وارتجال وقد ينتقل بعد ذلك الى رومة أو غيرها من مدن الدولة المركزية لتنمية معارفه أو تولى بعض المناصب .

وقد احتفظ التاريخ باسماء غير قليل من الادباء والفلاسفة وعلماء الدين الذين تخرجوا فى هذا التعليم من مختلف أقطار الشمال الافريقى ، وعبروا باللاتينية فى الغالب ، لانها كانت لغة الفاتح المستعمر ، وليس لان اللغة الوطنية كانت قاصرة كما ذهب جوليان (29) ، نذكـــر من بينهم :

1 — دوناتوس المتوفى سنة 335 » وهو مؤلف كتاب عن الروح القدس ،

---

(29) فى كتابه تاريخ شمال افريقيا ص 252

وزعيـــم المذهب الدوناتى الذى ظهر فى خضم الصراع الكنسى الدائر يومئذ (30) والذى كان ينضوى تحت لوائه كل الرافضين للسيطـــرة الرومـــانيـــة (31) .

2 ـ برمانيانوس صاحـــب كتـــاب ضخـــم فى الدفاع عـــن الدوناتيـــة ، ومجموعة من المزاميـــــر .

3 ـ الاسقف ابتا الميلى الكاتوليكى ، وقد اشتهر بانتقاده لمذهب المذكور .

4 ـ تيكونيوس المنتقد من طرف الدوناتيين « كان لاثكيا ولكنه فقيه عالـــم اريب ، نشر شرحا للجليان Apocalypse نال شهرة عظيمة ، وتفسيرا للكتاب المقدس تصدى فيه بطريقة جديدة الى النصوص والى اشتات من الكلام لم يعرف عنها الشراح شيئا قبله » . (32)

5 ـ القديس اغسطينوس ـ أو غستان ـ ولد فى سوق أهراس سنة 364 وفيها بدأ تعليمه ثم انتقل الى رومة وميلانو وعاد ليتقلد مناصب عدة كان أهمها أسقف عنابة سنة 395 . وقد اشتهر باعترافاته وبكتابه ( مدينة الله ) الذى دافع فيه عن المسيحية ، كما اشتهر بانتقاده الشديد للدوناتيين . وكان « خطيبا وكاتبا من طراز عال ، فلم يتح للمسيحية أن رزقت زعيما فى مرتبته قط » (33) .

6 ـ ترتوليانوس المتوفى سنة 240 ، أشتهر بكتاب فى الدفاع عن الديـــن المسيحى وبمذهب يدعو الى العفة والاخلاق الفاضلة وبموقف ضـــد اليهود واهل البدع .

7 ـ مينوسيوس فيليكس ، وهو صاحب كتاب فى الدفاع عن المسيحية .

8 ـ القديس الشهيد قبريانوس ، كان يعيش فى القرن الثالث ، له كتاب فى الرد على اليهودية والاحتجاج للمسيحية .

9 ـ أرنوب وهو خطيب وكاتب وشاعر ، وله كسابقيه كتاب فى الدفاع عن الديـــــــن .

---

30) من المذاهب التي ظهرت فى هذه الفترة كذلك مذهب الدوارين وكان يسير فى خط الثورة على الرومان

31) انظر
CH Courtois — Les vandales et l'Afrique, p. 147 — Paris 1955

32) انظر تاريخ شمال افريقيا ص 310 .

33) المصدر السابق ص 305

10 ـــ لكتانسيوس تلميذ ارنوب ومؤلف عدة كتب عن عقـاب المذنبـين ، والاموات المضطهدين ، والزندقة والحكمة .

11 ـــ باتيليانوس ، وهو خطيب وكاتب ، كانت له مراسلات مع اغسطينوس

12 ـــ قودانسيوس ، وهو خطيب مـن تيمكاد ، كان يعيش في منتصـف القـرن الرابـع .

13 ـــ كرنيتوس ، وهو فيلسوف وخطيب كان يشرف علـى بعض مدارس رومة في عهد كلوديوس ونيرون .

14 ـــ فلوروس ، وهو خطيب ومؤرخ وشاعر ، وكان يشارك في المهرجانات الشعرية التي كانت تقام بالكابيتول .

15 ـــ فرونتيوس ، وكان أستاذ الامبراطور مرقس اورليوس في البلاغـة الـلاتينيـة

16 ـــ ابليوس المولود حوالي سنة 123 ، وهو اشهر كتاب وشعراء هـذا العهد . وقد خلف قصة المسوخ او الحمار الذهبي ، وديوان الازاهير الذي قال فيه : « اعترف بانى أوثر من بين الآلات شق القصـب البسيط انظم به القصائد في جميع الاغراض الملائمة لروح الملحمة او فيض الوجدان لمرح الملهاة او جلال المأساة وكذلك لا اقصر لا في الهجاء ولا في الاحاجي ولا اعجز عن مختلف الروايات والخطب يثنـي عليها البلغاء ، والحوارات يتذوقها الفلاسفة . ثم ماذا بعد هذا كله ؟ انني انشيء في كل شيء باليونانية ام باللاتينية بنفس الامـل ونفس الحماس ونفس الاسلوب » . (34)

وقد نبغ الى جانب هؤلاء بعض القادة البربر الذين تربى معظمهم في احضان حضارة الرومان وثقافتهم ، وكانت لهم مع ذلك او لبعضهم مواقف وطنية تهدف الى تحرير الشمال الافريقي وتوحيده والنهوض به امثـال حنبعل ابن عبد ملقرط البرقي الذي ابلى بلاء حسنا في الحرب البونيقية الثانية ، واخوه عز ربعل ، والشهيد ماتوس زعيم البربر ضد قرطاج على اثر الحرب البونيقية الاولى ، وماسينيسا المتوفى سنة 148 ، وكانت تخطب

(34) نقل بـ فالات ، بواسطة جوليان ( تاريخ شمال افريقيا ص 252 )

وده كل من قرطاج ورومة (35) ، وسيفاكس الذى كان فى نفس موقف ماسينيسا . ومن أشهر القادة كذلك يوغورطة الذى كانت تحاول رومة كل جهدها للقضاء عليه الى أن وقع فى يدها بحيلة فشنقته . ومثله يوبا (36) الاول الذى كانت له مواقف عداء مع القيصر تمثلت فى حركات ثورية وطنية انتهت بهزيمته وانتحاره سنة 47 . ولكن لم يمر وقت طويل حتى اعتلى ابنه عرش المملكة الموريطانية ، وهو أغسطس المعروف بيوبا الثانى ، زوج كليوباطرة سيلنى بنت كليوباطرة الكبيرة . وكانت له عناية بالفنون والاداب وفى عهده أسست معاهد الموسيقى . درس العلوم وأتقن اللغات اليونانية والبونيقية واللاتينية ، وكانت له مكتبة عظيمة ونساخ عديدون ، كما كانت له عناية خاصة بجمع التماثيل والصور واستقدام النفائس من مختلف الاقطار ، وتوجد منها الآن كمية ثرية بمتحف الجزائر وشرشال .

وشرشال هذه هى عاصمة ملكه ، وسماها قيصرية تقديرا لعظمة القيصر . كما آتخذ وليلى عاصمة ثانية (37) . ولكنه لم يلبث ان اغتيل فأتاح اغتياله لرومة أن تخضع بلاد الشمال الافريقى لحكمها المباشر . ومع ذلك قام البربر فى فترات عدة من هذا الحكم بثورات وطنية متلاحقة للتحرر ، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونهم « مفطورين على قلة الولاء » (38) وهم فى الحقيقة مفطورون على حب الحرية والاستقلال .

فى خضم هذه الاحداث والاضطرابات يبقى عهد يوبا الثانى متفردا بمميزات حضارية وثقافية ، يكفى لتمثلها ـ بالاضافة الى ما ذكرنا له من اهتمامات علمية وفنية ـ أن نعرف ما كانت عليه وليلى ، ونتأمل ملامح الصورة التى اعطيت لها لتكون شبيهة برومة . فنظام الحكم فيها نيابى يقوم

(35) عند Gsell ان رومة خربت قرطاجنة لتمنع ماسينسيا من احتلالها واتخاذها عاصمة لملكه
(Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T IV, p. 496)
وانظر مدي ارتباطه فى سياسته ومواقفه بالرومان عند G. Camps
(Aux origines de la Berbérie, Massinissa ou les débuts de l'histoire - Alger 1960)

(36) يوبا أو جوبا هو الاسم الذى كان يطلق عند البربر على العاهل وهو بهذا ليس علما ولكنه مرادف ( أكليد ) أى الملك ، ويجمع على ( ايكليدن ) وهو فى اصل لفظه يعنى نفس مدلول الكلمة العربية : الجبة . انظر A. Benachenhou
(Connaissance du Maghreb, pp. 44 - 55 - Alger 1971)

(37) انظر Le Maroc antique, p. 34

(38) على حد قول جوليان فى تاريخه ص 183 .

على تمثيل الشعب بواسطة الانتخاب على طريقة مجلس الشيوخ الرومانى المعـروف بـ Sénat والمدينة محاطة بالاسوار والابراج ، وبداخلها فوروم Forum اى ميـدان عمومـى ، وكابيطـول Capitole أى معبد ، وقوس النصر تعلوه عربة تجرها ستة خيول ، وكانت بها كذلك خزائن لحفظ الكتب وتماثيل الآلهة ، وفسقيات وحمامات عمومية مفروشة أرضها بالرخام ومغطاة جدرانها بالفسيفساء المصورة لمناظر من الطبيعة ومشاهد من الحياة . اما المدينة نفسهـا فكانت مقسمة الى قسمـين : احدهما فى الجنوب تجمعت فيه المصانع والمخابز ومعاصر الزيت والدكاكين والدور الشعبية ، والثانى فى الشمال يسكنه الاغنياء والحكام .

وما زالت بعض الآثار الباقية فى وليلى شاهدة على ما كانت عليه هذه المدينة ، حيث كشف النقاب عن بعض الشوارع والمنازل والمعاصر » وعن قاعة الاجتماعات والساحة العمومية التى كانت تعتبر المكان المحورى فى المدينة ، وعن بعض التحف كتمثال برونزى لكلب وآخر لفلام وراس مرمرى وتمثالين نصفيين لبروتوس ولبعض الامراء .

بل آن مراكز حضارية أخرى غير وليلى ظلت محتفظة بما كان للمغرب فى هذا العهد من آثار فنية ومعمارية .

وقد امتد فى المغرب تاثير هذه الفترة طويلا ، وما زلنا نلاحظه حتـى اليوم متجليا فى الفسيفساء ، والزليج وهندسة بناء الحمامات والمنازل ، وخاصة هندسة القصور المعروفة فى المناطق البربرية ، فهى لا تختلف عـن هندسة الكاستروم الرومانى Castrum بأبراجه الاربعة .

ومن جانب آخر لهذا التاثير نلاحظ ان اسماء الشهور الفلاحية فى اللغة البربرية والعربية الدارجة هى نفسها التى كان يستعمل الرومان وفق توقيت جوليـان Julien » بل أن كثيرا من الالفاظ اللاتينية وخاصة ما يتعلق بالفلاحة ظلت على لسان البربر . اما الفلاحة نفسها فكانت دائما مزدهرة ومتطورة فى المغرب ، والذى قام به الرومان فى مجالها هو تنظيم الرى بحفر الآبار والسواقى وبناء الصهاريج والاحواض لتجميع الماء ، وكذلك بنـاء القنوات والسدود والخزانات والجسور . كما انهم لتسهيل العمليات التجارية شقوا طرقا كثيرة ربما كان من اهمها الطريقان اللذان يربطان طنجـة بسـلا ووليلـى .

ومع ذلك ، فباستثناء بعض الآثار العمرانية والتقاليد الفنية والبصمات اللغوية المحدودة ، فان التأثير الرومانى يكاد يكون غير موجود ، خاصة فى البنية الاجتماعية والتكوين الفكرى . وربما كان السبب فى ذلك أن البربر رفضوا أن يصبحوا رومانا كما رفضوا أن يصبحوا مسيحيين . (39)

وعلى الرغم من الطابع الاستعمارى لهذا العهد ، فقد استطاع المغرب ــ على حد ما رأينا ــ أن يفرض وجوده على رومة ، سواء فى الميـــدان الحربى بالثورات المتعددة والانتفاضات التى قادها أبطال مغاربـــة ، وفى الميدان الديني بالكيان المستقل الذى أعطى القساوسة البربر للمسيحية ، ثم فى الميدان الفكرى والادبي بنبوغ كثير من الادباء والفلاسفة الذين اغنوا بعطاءاتهم مجال الثقافة اللاتينية .

والحق أن الازدهار الشامل الذى عرفه المغرب فى هذه العهـــد كان بسبب طبيعة البلد وملاءمة مناخه ، وكذلك بسبب ذكاء المغاربـــة وحيويتهـــم . (40)

— *** —

غير أن المغرب لم يلبث أن تعرض فى أعقاب الحروب البونيقية لهجوم الوندال ( 434 ــ 534 ) قادمين اليه من جرمانيا . فقد كانت الظـــروف المضطربة وحركات التمرد التى عرفها حكم الرومان فى المغرب ، وخاصـــة على عهد قسطانس المعروف بفالتينيان ، من أهم الاسباب التى اغرت الوندال بغزو افريقيا بعد أن كانوا قد رتعوا فى أروبا فترة طويلة ، حيث عبروا مضيق جبل طارق فى صيف 429 بقيادة ملكهم جنسريق (41) الذى كان صدى قوته المتوحشة يبعث الهلع فى كل مناطق نفوذ الامبراطوريـــة الرومانية ، بل ان رومة نفسها استسلمت لجيوشه سنة 455 .

وعلى الرغم من تساؤل المؤرخين عما اذا كان الشعب المغربى تحالف مع الوندال لرد عدوان الروم ، وعما اذا كان تدخلهم يعتبر تحريرا للبـــلاد من الاستعمار الرومانى ، فان واقع التاريخ يثبت أن فترة احتلالهم للمغرب

---

(39 انظــر G.H. Bousquet — Les Berbères, p. 43
(Presses universitaires — Que sais-je ? - 1961)

(40 انظر
Gsell — Histoire ancienne de l'A rique du Nord T 1, p. 40

(41 توفى فى 24 يناير 477

وغيره من مناطق الشمال الافريقى تميزت بالتخريب والتدمير وبالحكم المطلق والاستبداد التام ، مع ما يترتب عن ذلك من استغلال للموارد وخنق للحريات وتنكيل برجال الدين . وهى فترة لم يفد منها المغاربة اى شىء ، وان عمل الوندال على ادخال بعض التقاليد الجرمانية التى كانت تمس أشكـــال بعض تنظيمات الحكم والسلطة . وهذا ما جعل وجودهم لا يؤثر على مجال اللغة والفكر الا بالقدر الذى يعطله .

ولكن حكم الوندال سرعان ما تعرض لاضطراب شديد بعد وفاة جنسريق وتولية خلفائه من بعده : ابنه الطاغية حنياريق (42) وغاتموند (43) وتراسموند (44) الذين حاولا ارجاع الحرية الدينية ، ثـم الشيخ هلدياريق المعزول سنة 535 ، وأخيرا جليمار حفيد جنسريق .

فى عهد هؤلاء بدأت تبرز عيوب الاحتلال الوندالى متمثلة فى ظهور حركات تمرد وفى بعض المصاعب الاقتصادية ، الشى الذى تمخض عنه تكوين امارات محلية مستقلة ، كمملكة « مـــازونـــا » الذى كان يدعى « ملك القبائل المورية والرومان » .

ولم يمض وقت طويل حتى فوجىء الوندال بقدوم وفود من الرحل راكبى الجمال ، جاءوا من طرابلس يقودهم الامير كابارون ، وكانت لهم خطط فى الحرب واساليب فى المواجهة لا عهد بها للوندال .

وجاء فى هذا الوقت تحـــرك الامبراطور يوسطينيانوس الذى كـــان يتوق الى اعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، فوجه جيشه وأسطوله الى الشمال الافريقى فهزم الوندال وأسر جليمار . وبذلك انتهى حكم هؤلاء ليبدأ حكم جديد ، وبالضبط فى سنة 534 ، حيث أعلن الامبراطور منح استقلال ادارى لافريقيا ، ولكن البربر لم يكونوا ليقبلوا هذا الوضع ، خاصة وأن تحركاتهم التمردية كانت قد بدأت تنجح فى عهد احتلال الوندال ، فدخلوا فى مواجهات كانت تتسم فى غالبها بالعنف .

ويبدو أن الشمال الافريقى لم يفد شيئا يذكر فى هذه المرحلة ، سواء تحت حكم الوندال أو البيزنطيين ، ومع ذلك فقد ظهرت بعض الاسماء التى لمعت فى مجال الفكر والادب أمثال الشاعر الملحمى دروكانسيوس الذى

---

42) توفى سنة 484

43) توفى سنة 496

44) توفى سنة 523

الف فى السجن ابتهالات ذاعت شهرتها فى القرون الوسطى ، ومنها استوحى ملتون اشعاره فى الجنة (45) ، وكذلك الشاعر كوريبوس صاحب ملحمة يوحنـــا .

وليس من شك فى ان الاوضاع التى كانت لا تزيد الا تأزما عملت قبيل الفتح الاسلامى على انهيار النفوذ الرومانى وظهور زعامات صغيرة فى هذا الاقليم أو ذاك ، حيث كانت توجد مناطق تعيش فى انعزال ونوع من الاستقلال لا يزال تاريخها للاسف مجهولا .

والواقع ان الفترة التى سبقت مباشرة مجىء الاسلام الى المغـرب تعتبر من أكثر الفترات غموضا فى التاريخ المغربى ، وكل ما نعرف من خلال الآثار الباقية أن البيزنطيين منذ القرن السادس كانوا قد احتلوا مدينـة سبتة ، واتخذوا منها مركزا لمراقبة الشواطىء المقابلة ، وانه ظل للرومان بعض النفوذ الدينـى واللغـوى .

ويتضح من الكتابات التى عثر عليها فى وليلى انه حتى سنة 655 كانت توجد فى المغرب جالية لاتينية مسيحية ، فى حين كانت قلة من البربر هـى التى تدين بالمسيحية أو اليهودية . بل أن التاريخ يتحدث عن آثار للمسيحية فى القرن الثامن للميلاد بمنطقة نفيس عند سفح الاطلس الكبير حيث كانت لا تزال تعيش جالية منتسبة لهذا الدين الذى لا يعرف متى دخل الى المغرب ، وان كان معروفا أن مدينة طنجة كانت أكثر مدن المغرب آثارا تشهد له بماض بعيـد فيـه .

اما اليهودية فقد كانت وبقيت موجودة فى نطاق ضيق ، وهى لا شك دخلت الى المغرب فى ركاب بعض الهجرات التى وفدت من الشرق فى القديم : مما يدل على انها كانت منتشرة قبل المسيحية . وفى هذا رد لا شك على من افترض (46) ان البربر لم يعتنقوا اليهودية الا مع الفتح العربـى بدافع محاربة المسلمين من جهة ، وبدافـع اثبات لاوثنيتهم حتى لا يحاربهـم المسلمـون . (47)

— ⁂ —

(45) انظر تاريخ شمال افريقيا ص 346
(46) هـو R. Montagne
(47) انظر : G.H. Bousquet — Les Berbères, p. 39

والحق انه اذا كان المغرب مر قبيل الاسلام بفترة غامضة ، فانه فى المراحل الاخرى سواء حين اتصل بالفينيقيين أو الرومان ، فتح لنفسه صحائف فى التاريخ وعرف كيف يضطلع بدوره الحضارى والثقافى ، متاثرا بمن حوله ومؤثرا كذلك ، وليس مجرد مقلد أو تابع .

ولعلنا — بهذا العرض المحدود — أن نكون ابرزنا بعض ملامح هذا الدور ، ولفتنا النظر الى جوانب حية من تلك الصحائف : عسى الدارسون من شبابنا أن يفروا بالبحث والتنقيب ، سواء فى آثار العمران الباقية او الوثائق المنقوشة أو المكتوبة ، أو حتى فى التراث الشعبى لما يضم من معالم هامة ودقيقة .

وفى اعتقادنا أن البحث سيظل مبتورا اذا هو لم يعتمد على نوعين من المصادر نراهما أساسيين :

احدهما : الآثار التى خلفتها هذه الفترات ، وهى رومانية فى الغالب وتحتاج الى مزيد من العناية والاهتمام ، وكذلك الآثار البربرية التى لم تلتفت اليها الانظار بعد .

والثانى : المصادر اليونانية والرومانية اللاتينية المسيحية ، وهى تطرح صعوبات فى قرآءتها ، فضلا عما فيها من توجيه يجعلها لا تكشف عن واقع التاريخ المغربى .

وفى اعتقادنا كذلك أن البحث ينبغى أن ينطلق من حقيقة طبعت مسيرة بلدنا الحضارية والثقافية على مر التاريخ ، حتى فى فترات تعثر هذه المسيرة، وهى أن موقع المغرب الجغرافى على رأس افريقيا جعله مفتوح الشواطىء على بحرين عظيمين ، متحكما فى منافذهما ، ومنفتحا بالتالى على ما وراءهما فى الوقت الذى هو يضرب بجذور ثابتة فى اعماق القارة التى ينتمى اليها ، متوسطا بذلك كل جهات الكون ، مما جعله يتحرك فى مركز ثقل العالم بتفاعل جدلى مستمر ، مع يد ونظر ممدودين ابدا الى الشرق ، فى عملية اخذ وعطاء لم يشهد التاريخ لها توقفا أو انقطاعا ، مما انتج تركيبا حضاريا وثقافيا لهذا البلد يكاد يكون متفردا بخصوصيات متميزة ، دون ان يفقد هذا التركيب خيوط الالتحام والانسجام مع العناصر التى تفاعل معها فى الاصل وما زال .

الرباط — عباس الجرارى

قصة

# لوحة لم تتم ..

عبد الكريم غلاب

المـــــراة .

عنوان اللوحة التي كانت سبيلها الى قلبـــه ،

تجـــول فى المعرض الصغير كفنان هاو اعتاد أن يـــزور المعارض الفنية بعين لاقطة ، وعقل متفتح ، واحساس مرهف ، واستعداد لتقبل العطاء . يزور المعرض كما يزور دنيا حافلة بالعطاء الانسانى فى خطوط متعارضة طافحة بالغموض ، فى وجه انسان متفتح للحياة ، أو بـــــرم بقدره ، فى شلالات نهر هادر ، أو أغصان متعانقة ، فى بسمة طفلـــة ، أو نظرة قطة ، فى اللون والضوء ، فى الفـــراغ اللانهائى ، فى الوجود المغمور بالضوضاء .

توقـــف عند اللوحـــة :

ــ شجاعة أن ترسم فنانة صورة المراة .

تطلع يكتشف ما وراء الرسم : ذكاء ، عزيمة ، اصرار ، تحدى ، لهفة ، جاذبية . .

ويجانب اللوحة ليكتشف : حنان ، نداء ، عطـــاء . .

وقف طويلا كما لم يقف عند اى من اللوحات الاخرى ومـــا يـــزال يكـــتـــشـــف .

ــ ترى هل رسمت الفنانة ملامحها ، أم لعل خيالها التقط ملامح من هذه وتلك ليرسم منها لوحة كتبت عنوانها : المراة . . . ؟

تلفت فى جوانب المعرض الهادىء يبحث بين الوجوه القليلة عن الفنانة التي تعرض لأول مرة . لم يكن يعرفها ، لم يسمع باسمها من قبل . بحث فى عيون الفتيات الثلاث اللائى كن يتجولن فى المعرض ، فى وجوههن وقدودهن ، مشيتهن ، حركاتهن ، كلهن زائرات رمى بهـــن الفضول الفنى لزيارة معرض تنظمه سيدة .

سال عنها ، عن الفنانة صاحبة المعـــرض ، وتلقى الجـــواب من شاب اتضح انه مجرد راع ، دليل ، يحلو له أن يقوم بهذه المهمة كلما عرض فنان أو فنانة .

ــ هي فى الكليـــة وستعود . . .

فى شـــوارع الربـــاط ، وقد اكتظـــت بالوافـــدين من الادارات والمكاتب ، كان يسير على غير هدى . يذكر أنه زار عدة معارض فنية فى نفس المكان البارد الهادىء الذى يوحـــى بالمـــاضى ويحـــدث عن التاريخ . خرج من بعض هذه المعارض وليس معه منها غير متعـــة آنيـــة سرعان ما تغرق فى زحام الناس والافكار وهموم الحياة . وخرج من بعضها وفى نفسه شيء تحول الى فكرة فنية أو انطباع عن الرسام . وخرج من بعضها بالقطة تحولت فى قلمه الى قصة ... مايـــزال يذكـــر القصص التى استوحاها من لوحات يحتفظ بملامحهـــا فى زاويـــة من ذاكرته . ما يزال يعتبر قصصه تلك نتاجا شرعيا لريشة فنانيـــن ربما لا يذكر حتى أسماءهم . ومن يدرى ؟ لعل اللوحات التي استوحى منها كانت هي الاخرى نتاجا شرعيا لقصص رسمتها اقلام فنانين آخرين . . ولكنه خرج من المعرض فى يومه ذاك وهو يفكـــر فى اللوحـــة ، الرسم

الذى يحمل عنوان : المراة . لم تكن اللوحة موحية بمتعة آنية ، ولا الحت عليه أن يرسم قصتها . هي ، هي التى خلقت من الالوان والضياء صورة ··· « المراة » هي التى كتبت قصتها ، ليست لقطة عابرة موحية ، انها قصة كاملة .

ومازال « المراة » تعيش فى احساسه ، يقظة تحدثه ، تقدم نفسها اليه تشعره بالحرج فى تحديها واصرارها وعزيمتها ولهفتها وجاذبيتها ، تشعره بالتجاوب فى حنانها وندائها وعطائها . عاد الى المعرض فى يوم غير يومه مدفوعا بالحاح الرسم الذى رهن عنده فكره وقلبه . ومع الفنانة الرسامة كان يحاول أن يكتشف سر « المراة » فى عينيها الذكيتين وتدها الأهيف وحديثها الجذاب واقبالها اللاهف وصفاء نظرتها وحنان صوتها ، وقلبها الكبير المتفتح .

لم يستطيع ان يؤكد لنفسه أنه كان مدفوعا باللوحة الفنية التي تدمت نفسها اليه فى المعرض الهادىء حينما عرض عليها الزواج ، ولم يستطع ان يتاكد أنها كانت مدفوعة بالصورة التي قدمتها عنه المجموعة القصصية التي اهداها اليها فى لقائهما الثانى ، حينما قبلت عرضه بالزواج ، ولكن الذى يعرفه انه تزوج الفنانة التي أنجبت اللوحة « المراة » . والذى تعرفه انها تزوجت الفنان الذى أنتج القصة : « أنت لى ··· »

شقة بسيطة كانت عشهما الهادىء الدافىء ، لم يكن يرتاده صخب زوجين شابين يجربان الحياة معا لأول مرة . كان فيه من عالم الناس الحب والتقدير والتجاوب ، وكان فيه من عالم العقل تفكير مشترك فى شؤون العلم والفن والادب والسياسة . يعيشان لمتعتهما الفنية والفكرية أكثر مما يعيشان لمتع الحياة التي اعتاد الآخرون أن يعيشوا لها . تجتذبهما واجهة مكتبة أو قاعة موسيقى أو صالة محاضرة أو مسرح ، أكثر مما تجتذبهما واجهة ملابس او جماليات أو قاعة سينما . يتحدثان فى هدوء وبصوت منخفض يبلغ أحيانا درجة الهمس . الكلمات عندهما لا تؤدى بحروفها ، ولكنها ايضا تؤدى بجرسها : مهموسة أو

صاخبة ، ذلك بعض دلالاتها . عرفـا الحب وعرفـا السعادة وعرفـا التجاوب ، ولكنهما أيضا عرفا الخلاف ، الجدل ، الخصومة . كانـا يتفقان فى الفكر ويختلفان أحيانا فى الشكل . كان يكتب فى وضوح ويعبر ببساطة وقد تكون الفكرة أعمق من وضوحه وبساطته ، ولكنه كـان يؤمن بأن من مهمة الكاتب أن يفتح المنغلق . وكانت ترسـم بغمـوض وتزاوج بين الالوان المتنافرة ، تترك ريشتها أحيانا تعربـد على سطح اللوحة وهي لا تدرى الى اى قدر تسوقها . وتنطلق ضاحكة مستبشرة :

ـ نجحت الريشة . أن تعبر عما كنت أحس به ...

كان يختار وقت الاطمئنان النفسى والراحة البدنية والفـراغ من متاعب الحياة ليكتب قصة . كثيرا ما كان يكتب السطر الاول منها ثـم يطوى الورقة أياما أو أسابيع يعمق فيها الفكرة ، ويبحث فيها عن ذاته الهادئة المطمئنة لتعبر فى جلاء عن الفكرة التى تملكته .

كانت تختار ساعة القلق النفسى ، الغضب ، الاضطراب أو حتى ساعة التعب الجسمى لتختلى الى لوحتها وريشتها . أحيانا لم تكـن تختلى . تطلق عنان المسجلة الصغيرة على موسيقى صاخبة ، ثائرة ، هائجة منفعلة وريشتها بين أصبعيها تتماوج مع الالوان فى بطء حيوى .

الافكار مفككة ، النوازع متباينة ، صراع اليأس والامل يرجهـا رجا . تلك لحظة اندفاعها نحو الزاوية الصغيرة التي اختارتها كمرسم لها فى منزلهما الصغير الثاوى فى الحي للمتواضع الهادىء .

ويقف أمام اللوحة فاغرا فاه اعجابا . ولكنه يحاول أن يفهم

ـ ليس المهم أن تفهم . لست مدرسة فى قسم ابتدائى ..

ـ ولكنى أريد ان أعرف : ماذا تقول اللوحة .

ـ انها تقول ما أردت أن تقوله

ـ مـا هـو ... ؟

وتهز كتفيها فى نشوة . ظفرت بالسؤال الذى كانت تبحث عنه :
ما هو ؟ سر الحياة الغامض الذى نقوله لأنفسنا فى وحدتنا ، نهمس به لفكرنا ، لمشاعرنا . ولكننا لا نطيق الاعتراف . الفن وحده يستطيع أن يعبر عن هذا السر دون نفاق . فى غموضه وتداخل الوانه وتقاطع خطوطه يعرب عما وراء الكلمات .

ويستسلم ، فهو صراع ابدى لا يطمع فى أن ينتصر فيه ، فيعبر عن استسلامه بقبلة حب واعجاب يطبعها بين عينيها الطافحتين بالنصر . وهو يهتف :

ـ آه لو كنت اقل غموضا ...

وتأخذ اللوحة بمجامع قلبه . يسترق اللحظات الهادئة يجلس امامها ، يسير فى مواجهتها ، يقف خاشعا كما لو كان يتعبد فى محراب . تقول له اللوحة الكثير . ويبتسم وهو يودعها . يعود اليها بعد أيام ليجلس ، ليسير ، ليقف ، وتقول له الكثير مما لم تتحدث به فى المقابلة الاولى . ويبتسم وهو يودعها .

ـ أسرار المرأة . غامضة . أنت فى حاجة الى وقت لتفصح لك . لا تقول كل شيء . أنت دائما فى حاجة اليها ، سرها

هكذا حدث نفسه وهو يلقى النظرة الاخيرة فى احدى مقابلاته مع احدى لوحاتها .

وتستمع اليه يقرأ قصته ، وقد وضع لمساتها الاخيرة ، بأذنيها وعقلها معا : المنطق ، التحليل ، الفكرة ، العقدة ، الوصف ، الكلمات مختارة لامعة مشعة ، الواقع تكاد تلمسه بيديك ، الجو تعيشه بكل حواسك ، الاثارة ، الفرحة ، الحزن ، الغضب ، الامل ، تفاهة ، سمو ، نفوس مريضة ، نفوس سليمة .

وتقف أمام القصة فاغرة فاها اعجابا . وتسأل :
ـ ... وماذا تريد أن تقول ؟

ــ قالت القصة كل ما أريد أن اقول ...

وتتطلع الى وجهه الصبوح فى وضوحه فتطبع على خده قبلة تهنئة ، وهي تهتف :

ــ آه لو كنت اقل وضوحا ...

وتسترق لحظات فائرة منفعلة فتقرا القصة من جديد ، بعينيها هذه المرة لا بأذنيها ، تعيد النظر فى الكلمات ، فى المقاطع ، فى اللمسات ، تجرد الشخصية من كل مباذلها لتتعرف عليها فى كل محاسنها . تجردها من كل محاسنها لتتعرف عليها فى كل مباذلها . تجردها من محاسنها ومباذلها لتراها عارية قبل أن يمنحها الكاتب طعم الحياة . وتعجب لهذا الوضوح الذى يخفى الكثير : ما وراء الكلمات ، الصورة ، التحليل ، التجاوب مع العواطف الانسانية .

من ذاته وقلبه وفكره منح هذه الشخصية . خلق وابداع . انه هو بكل ممكناته صاغ انسان هذه القصة .

كذلك تحدثت الى نفسها وهي تطوى آخر صفحة من الكراسة التي عاشت معها لحظات أرادت منها أن تكون بعيدة عن تأثير الصوت التي الفت أن يقنعها دون أن تفكر طويلا فيما وراء الصوت .

وتسير بهما الحياة هادئة ناعمة يتوزعها العمل ، ويجمع بينهما المرسم والمكتب ، كل منهما يعيش فى عالم منفصل ، هي ترسم بالريشة والالوان ، هو يكتب بالقلم والحبر . والشقة الصغيرة تحيل عالميهما الى عالم واحد يلتقى فيه الرسم بالكتابة ، الغموض بالوضوح الرمز بالايحاء والايماء ، الاشارة العابرة بالتحليل .

ــ زهرة ... ؟

تطلعت اليه ــ وهما على مائدة عشاء ــ بعينين متسائلتين . وكان من عادتها الا تتحدث اليه أو تستمع اليه الا وعيناها سابحتان

فى وجهه ، كأنها تسمع بهما وكأن وجهه الذى يتحدث . وجهه هـــذه المرة كان يتحدث فى شيء من الانفعال · يريد أن يقول ، ولكنه يبـــدو غامضا . التقطت شخصيته كما التقـــط شخصيتها فبـــدت واضحة ، وهي تسمع بعينيها ، وكأنها تشجعه على أن يخرج من عالم الغموض والاشارة والرمز . لم يسعه الا أن يكمل جملته .

— · · · الا تحسين اننا فريـــدان · · · ؟

وطاف بفكرها عالـــم المرسم ، يحفـــل بالشخصيـــات والافكـــار الوليدة ، عالـــم المكتب يحفل بالاصدقـــاء والصديقات ، وبالنفـــوس البريئة والشريرة جميعهم من ابداعهما وخلقهما · عـــاد بهـــا التفكيـــر الى ملاحظات عنه ظلت فى منطقة الاستفهام : فرحة الاطفال تغمره كلما صادف فى طريقه طفلا أو طفلة تجرى نحو أحضان أمها ، تناغى طفلات أو أطفالا فى مثل سنها . من مشهد كهذا اعترضه فى حديقة عمومية ، أبدع قصة مازالت تحظى لديه بالاعتزاز .

فى ملتقى نظراتهما حومت كل هذه الارتسامات . كانت تهـــم بأن تجيـــــب :

— لسنا فريدين · عالمنا طافح بالابناء والبنات · ·

تراجعت عن الكلمة حسبتها موجعة وهي تقدر ما دفعه الى هذا السؤال الحزين . استجمعت كل شجاعتهـــا ، أودعت كل انوثتهـــا فى عينين طافحتين بالبشر . هتف فمها الدقيق :

— قـــدم الطلـــب · · ·

عادت بها الذاكرة فى الحين الى ما كانا يقرآن فى الليلة الماضية فى ألف ليلة وليلة ، اكملت الجملة ، وضحكة عارمة ترن بين شفتيها :

— · · · جاريتك المطيعة رهن اشارة مولاى · · ·

احتضنها فى قبلة عارمة . فقد نضت عنه طابع حزن خيم على حديثه وهو يدلى اليها بمشاعره . كان يشعر بالحزن والأسى حينما يزوران الاصدقاء فتطفح القاعة بمناغاة الاطفال ولعبهم وحتى مضايقاتهم . وكان يسعى الى هذه الزيارات وقلبه طافح بالحب لهذا الطفل وتلك الطفلة · يحتضن هذا ويقبل تلك حتى ربطت بينه وبين الاطفال صداقات .

— بابا سليم
— عمى سليم

هكذا كان الاطفال يلهجون بذكره وهم يتحدثون عنه ، وهم يستقبلونه على الابواب ، وهم يقفون دون الباب يمنعونه من أن يخرج اذا ما هم الرحيل .

تسربت شخصيات من عالم الطفولة الى قصصه . من حيث يدرى أو لا يدرى . كان يسعى الى أصدقائه ليتزود بملامح من عالم الاطفال ، فقد كانت تنقصه التجربة حينما تعترض طريقه وهو يرسم شخصية طفل أو طفلة فى قصة من قصصه · شعر ، وزهرة تنعم بالقبول ، أنه حقق نصف الهدف ، فسيكون له أطفال يملأون فراغه ، يشعرونه بالبهجة ينتزعونه من عالم المكتب الى عالم الحياة · كان يضيق أحيانا بمكتبه وزهرة فى مرسمها ، يلجأ الى الكتاب والمجلة والصحيفة يستمد منها جميعا بعض الوحي . يخرج الى الشارع فيتطلع فى وجوه الناس ويخبر احاسيسهم من أصواتهم . يعود الى ذكريات الماضى فيجتذب الافكار والمشاعر والشخصيات . يلجأ الى الخيال فيجده أحيانا أكثر ضحالة من الواقع . كم يكون سعيدا لو استطاع أن يلمس وجه طفلة له بكيفية ، أن يحتضن صباها اللدن بين ذراعيه . أن يقبل وجنتيها الناعمتين بفمه . كم يكون سعيدا لو استطاع ان يكون ابا .

وكان بين الزوجين السعيدين تفاهم :

أحست زهرة أنها أصبحت أما . اقتحمت العالم الذى كانت تخشاه دون شعور . كل أحلامها اتجهت نحو الامومة . تملكتها صفات

الأم : الحنان ، الرقة ، الاشفاق ، التطلع ، التفكير فى الآخر ، تغيرت نظرتها الى سليم ، كانت تعتبره طفلا كبيرا . أصبحت الآن تعتبره استاذا ملهما ، قادرا على العطاء . شعرت بالحاجة اليه كما لم تشعر من قبل ، حياتها أصبحت بين يديه . لم يعد يثيرها ـــ كما كان يفعل أحيانا ـــ وهو يلح . . . لاحظت أن استجابتها أصبحت تلقائية ، عالمها حفل بالاطفال . تتوقف عند واجهة أية مكتبة تبحث عن كتاب عن الطفولة . حتى اعلانات التلفزيون عن غذاء الاطفال تشدها كطفلة كبيرة تحن الى أيامها القريبة الماضية وهي تلعب أو تجرى أو تأكل . . .

ونظرت اليه بعينين ناعمتين ذابلتين فيهما سقم ، بهما احساس بالخوف . كانت تهم أن تنطق . تراجعت فان رهبة ما تتملكها ، لاول مرة تحس بشيء ، تريد أن تفضى بشىء ليس خجلا ما تحس به . ولكنه . . لا تدرى ما هو ...

تغلبت على مشاعرها . طوت الصفحة لتعود الى الحديث العادى عن الحياة والناس والكتب والرسم .

عادت اليها الرغبة فى الالتجاء . ما تحس به لا تحتمل أن تجتره فى وحدتها . بنفس النظرة الذابلة والعينين بهما سقم همست شفتاها :

ـــ سليم . . .

توقفت قليلا . لعل الكلمات نفسها لم تطاوعها ابتسمت بعينيها . طفرت منهما سعادة اتمت جملتها الهامسة :

ـــ . . . ستصبح أبا

جمدت أعصابه لا يدرى لمه . . . تسمرت عيناه فى وجهها الطافح بالسعادة . كان فى حاجة الى قليل من الوقت ليصدق . وانطلق اليها يغمر وجهها بالقبل . ولم يتكلم .

مضت الايام بطيئة ثقيلة . زهرة عزفت عن دنياه . شيء ما كان يدفعها أن تتحاشاه تغيرت ملامحها ، ولكنها فى شحوب وجهها كانت تضيء مستقبل حياته ، فى قلقها كانت تشعره بالعطاء ، شيء ما يتحرك

فى هذه النفس لتصبح نفسين ، جسدين . تجربة . آه لو تمكن من أن يكتبها . . . آه لو تمكنت من أن ترسمها ، ، ،

وكــان المرسم ملجأهــا .

لم يكن يسمح لنفسه أن يقتحم عليها دنياها قبل أن تأذن . وقــد عودته أن يكون أول من يرى لوحاتها بعد أن تطمئن اليهــا . عودته أن تتحدث عن مشاريعها ، تناقش افكارها . انطوت على نفسها ، كلماتها اليه أصبحت محدودة .

ــ التجربة الاولى . . لعلها قاسية

كذلك حدث نفسه وهو يناقش الازمة التي تجتازها زهرة .

كانت الكتب ملجأه ، يستفهم عن تجارب الحمل ، عن الامومة ، الطفولــة .

جالس فى مكتبه الهادىء . زهــرة لم تكن فى البيت . لا ليكتب ، ولكن ليضع تخطيطا للمستقبل . الأنس سيحل بالمنزل الصغير . سيكون طفلا ، لا طفلة ، تناغى ، تحبو ، تصيح : بابــا ، ، ، مامــا ، ، ، تبكى ، تضحك ، تطلب ، تتعلق ، تجرى ، تلعب ، تكسر ، تمــــلأ البيت دفء ، تصل ما بين المكتب والمرسم . ترى أية لوحة سترسمها زهرة لياسمين ؟ ليكن اسمها ياسمين . زهرة تحب زهــر الياسمين . ترتاح نفسها لرائحته . أية قصة سيكتبها عن ياسمين ؟ والازمة التي تمر بها زهرة ؟ الاشهر الثلاثة الاولى . . . هكذا تقول الكتب . هكــذا توقع الطبيب . وسيعود البشر الى وجه زهرة ، وستألف العشرة الطيبة مع ياسمين فى اهاب واحد ، وستستعد نفسها لاستقبال عالمها الجديد ، عالم الامومة وسيمنح نصف مــا يتمتع بــه من حبهــا لياسمين . . . وستمنح زهرة نصف ما تتمتع به من حبه لياسمين .

ضحك من نفسه . اخذ يوزع الحب فى قسمة عادلة : نصف حبي ، نصف حبها . . . ياسمين ستتمتع بالحب كلــه . مستعد أن يضحى . زهرة مستعدة أن تضحى . .

وقفز على رنين حاد من جرس الباب اسْتله من احلامه .

ـ حادثة سيارة خطيرة على طريق الشاطىء . وزهرة فى المستشفى .

لم تعد زهرة الى البيت . ولا ياسمين .

وحيدا فى البيت البارد كان يلقاها فى كل ركن ، تجلس اليه ، تتحدث ، تضحك عيناها ، تجادل ، تناقش ، تقرأ له وهو يسمع ، بوجهها البشر تطارده فى خلوته . فى كل مكان كان يراها ، يسمع صوتها ، يحس بحركتها ، يتسمع الى انفاسها فى سريره ، نداؤها يوقظه من غفوته .

لم تنته زهرة من حياته .

والمرسم . محرابها المقدس لم يستطع أن يقتحمه ، كان يشعر بأنه سيجدها هناك . لا لن يجدها هناك ، كلاهما كان يرج كيانه ، المرسم بدون زهرة سيكون خرابا . كل عبقريتها تحولت الى تراب ...

وظل المرسم ثاويا مهجورا بضعة أشهر .

ـ فى المرسم كل اسرارها . من وراء القبر ستحدثك ، افتحه تسمع صوتها ، تتجلى لك بروحها ، خالدة زهرة فى مرسمها ، ، ،

كذلك تحدث له عقله فى غفلة عن عاطفته .

وفتح باب المرسم متهيبا .

زهرة كانت هناك .

على المحمل كانت اللوحة الكبيرة ، ماتزال الوانها طرية ، الريشة ومجمع الالوان تأويان تحت قدميها ، المرأة بقدها الاهيف بلونها الشاحب ، القلق ممزوجا بالسعادة ينبع من عينيها الذكيتين ، بعزيمتها ، باصرارها ، بتحديها ، بلهفتها بجاذبيتها ، بحنانها ، بندائها ، بعطائها ، فى ثيابها البيضاء الشفافة ، السابحة فى الهواء ، فى الفراغ اللانهائى كما لو كانت ملاكا تقف بين الارض والسماء ، يداها ممتدتان الى أعلى فى رجاء ، عيناها

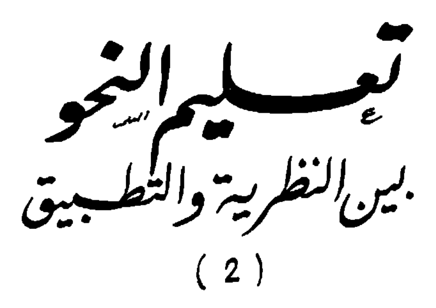
متطلعتان الى السماء فى أمل ، من بين السحب ينفـــرج ضـــوء باهت يحيط بوليد لم تكتمل بعد انسانيته ، تجاوب كامل بين نظرة الرجـــــاء والامل ، والنور الذى يحيط بالوليد المرتقب ٠ ٠ ٠

ودمعة حرى تحلل الوجه الذى كان صبوحا قبل أن يفقد زهرة ،

أخذت اللوحة مكانهـــا فى غرفتـــه

ومايزال يتطلع اليها كل صباح كما لو كان ينتظر أن تتـــم زهـــرة لوحـــتـــهـــــــا .

الـــربـــاط — عبد الكريم غلاب



( 2 )

د. تمام حسان

2 ـ التطبيـــق :

قلنا (*) ان ظروفا خاصة قضت فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ان يعنى الامريكيون بتيسير تعليم اللغة وتعلمها ، وقد أدى هذا الاتجاه الى نشأة ما يسمى بعلم اللغة التطبيقى، وهو يعنى بالنظر الى الاستعمال اللغوى باعتباره نشاطا اجتماعيا ، أو مهارة تقبل التحسين فى الوسائل والتجويد فى النتائج والواقع أن صلة اللغة بالمجتمع صلة عضوية ؛ ومن هنا عنيت الدراسات الاجتماعية باللغة ، وعنيت الدراسات اللغوية بالمجتمـــع ، فانشأت الدراسات الاجتماعية فرعاً لها يسمى ( علم الاجتماع اللغوى ) linguistic socioloov يعنى بتتبع اللهجات الجغرافية dialects واللهجات الاجتماعية sociolecets وما يدور حولها من الدراسات ، كما عنيت الدراسات اللغوية بانشاء فرع لها يسمى علم اللغة الاجتماعـــى social linguistics يعنى بدراسة أدوار الفرد فى أدائه اللغوى ، وأثر الوسط على اللغة ، واسلوب الاستعمال اللغوى والفرعان من قبل ومن بعد يقتربان حينا حتى لا يمتاز احدهما عن الآخر « ويبتعدان حينا آخر حتى يظهر لكل منهما طابعه الخاص والابن حتى فى خصائصه كثير من الملاحظات

* فى العــدد السابـــع من المناهـــل

والفصول التى تعتبر من قبيل هذا الفرع او ذاك ، فحين يدور كلامه فى العلاقة بين المعنى وعملية الاتصال ينتمى الى علم اللغة الاجتماعى ، وحين يدور فى العلاقة بين المعنى واللفظ ينتمى الى علم اللغة ، وحين يدور حول اختلاف لهجات القبائل ينتمى الى علم الاجتماع اللغوى (*)

ولعملية التعليم أركان ثلاثة : هى المتعلم والمعلم ثم التعليم بجانبيه : المادة والطريقة . فاما المتعلم فقضاياه فى جملتها اما أن ترتبط بالدراسات النفسية أو الاجتماعية . فاما من حيث الدراسات النفسية فلابد من الاخذ فى الاعتبار كيفية خلق الحوافز المرغبة فى التعلم ومراعاة التشويق فى التعليم ، والاستعداد الفطرى لدى المتعلم ، وطاقة الطفل على الاستيعاب وعلى العمل ، وما تلقاه أو يتلقاه خارج المدرسة من تعليم ، وايجاد العاطفة الصحية بينه وبين معلمه ، وتحبيبه فى جو المدرسة ، وادخال عنصر اللعب فى التعليم وأما من الناحية الاجتماعية فالمطلوب توثيق العلاقة بين البيت والمدرسة من أجل الضبط والتوجيه ، ثم مراعاة السن فى تكوين المجموعات والنشاط الاجتماعى والرياضى والثقافى فى المدرسة ، وكلها امور تساعد على اعطاء التربية طابعها الاجتماعى وسنرى كيف يمكن تطبيق ذلك فى تعليم النحو

---

(*) ولعلم اللغة التطبيقى أوجه متعددة تستعين بعلم اللغة اساسا وبفروع اخرى على المعرفة فمن أوجه نشاط علم اللغة التطبيقى ما يأتى :

1) التخطيط اللغوى ( ومنه عمل المجامع اللغوية وتخطيط السياسة التعليمية )
2) هندسة الاتصال ( ومنه الاتصال الاذاعي والهاتفي الخ )
3) لغة الاعلام ( موضوع دراسة معاهد الاعلام )
4) الاعلان التجارى وكيفية التاثير باللغة
5) كتابة المعاجم
6) تصميم النظم الكتابية
7) محاربة الامية
8) النقد ودراسة التذوق
9) التحليل النفسى
10) علاج العيوب النطقية
11) جغرافيا اللهجات
12) برامج الحاسب الاليكترونى
13) الترجمة الالية
14) تعليم اللغة

ولكن ( تعليم اللغة ) اهم هذه الفروع على الاطلاق ، واغلب الظن انه سيظل كذلك دائما.

واما المعلم فقضاياه اوسع مجالا من ذلك ، فهناك اعداد المعلـم فى ضوء تخطيط السياسة التعليمية للدولة ، وهناك اعداد المعلم من وجهـة نظر المادة والطريقة ، وهناك ظروفه الخاصة النفسية والاسرية ، وهناك موقفه من المهنة نفسها اعتزازا بها او نفورا منها ، وهناك صحته العضوية والعصبية ، ونظرة المجتمع اليه . وكل اولئك لا يمكن تجاهله فى تعليم النحو، بل اننا نرى ان نظرة المجتمع الى معلم اللغة العربية فى بلادنا العربية تؤتى اسوا الثمرات .

واما مادة التعليم فان اختيارها ينبغى ان يتم مع مراعـاة الـدور الاجتماعى والمهنى الذى سيقوم به المتعلم فى المستقبل . فالمادة التـى نقدمها لطالب يعد ليكون معلما للعربية غير المادة التى تقدمها لطالـب سيحترف الطب مثلا . وكذلك يتم اختيار المادة بحسب وظيفة ما من وظائف الاستعمال اللغوى فما يقدم منها لمحامى المستقبل غير ما يقدم منها لمحقق النصوص او الناقد الادبى . وكذلك يتم اختيارها بحسب نوع المهارة المراد كسبها ، فمن اريد له ان يكون ماهرا فى تحليل اللغة غير من يراد له ان يكون ماهرا فى الابداع الادبى . وفوق كل ذلك ينبغى عند اختيار المادة ان نتساءل عن وجهة نظر المتعلم الى اللغة اهى معرفة علمية ام عادة تكتسـب ام سلوك اجتماعى تراعى فيه الملاءمة الى جانب الصحة ، ام موضوع دراسة يتعلمه لاغراض نفعية ، ام مهارة . واذا كانت مهارة فمن اى نوع هى ؟ اهى مهارة فى الكتابة ام القراءة ام الترجمة ام الكلام ؟ وهلم جرا .

واما الطريقة فتشمل التخطيط والتحضير والتوصيل . ويمكن للتخطيط أن يكون فى احدى صورتين ، فهناك تخطيط السياسة التعليمية منقبل الدولة وهناك تخطيط برامج التعليم من قبل المتخصصين ، والتحضير يشمـل تحضير الكتاب المدرسى بحسب البرامج ، وتحضير الدرس بحسب الطرق التربوية .

اما التوصيل فيشمل ثلاثة عناصر ، هى الشرح ، والاختبار ، ووسائل الايضاح . وكل نقطة مما سبق تستحق ما لا مزيد عليه من العناية .

من الثابت اننا لا نستطيع ان نعلم الا من يريد ان يتعلم وقد سبقت الاشارة الى ذلك ومن هنا يصبح ايجاد الحافز على التعلم لدى التلميذ هاما الى اقصى حد . فما وسائل ذلك ؟ ان اول شيء في حقل الحوافز ان يحس التلميذ ان اللغة العربية تستحق ان يبذل الجهد في تعلمها ، اما لانها حقل من الحقول التى تكتسب فيها المهارة التى تولد الاحساس بالتفوق ، واما لانها وسيلة الى تحسين الفرص فى الحياة العملية المقبلة ولست اتكلم هنا عن التلميذ الطفل الذى يخطو خطواته الاولى الى تعلم الكتابة والقراءة ، وانما عن التلميذ بعد العاشرة من عمره ، لان هذه السن هى التى يبدأ عندها التلميذ فى مواجهة النحو باعتباره وسيلة الى سليقة ينبغى استضمارها . ومن الوسائل المؤدية الى احساس التلميذ بان اللغة مجال من مجـــالات التفوق خلق روح المنافسة بين التلاميذ فى الفصل الدراسى وفى النشاط المدرسى ، ورصد الجوائز المادية او المعنوية لهذا الغرض ، امـــا فى صورة انواط رخيصة الثمن ولكنها ستكون عظيمة القيمة ، او اهداء التلميذ صورة لمدير المدرسة وعليها كلمة تشجيع منه وتوقيع ، او ذكر اسم المتفوق فى لوحة الشرف او التنويه بالمتفوق عند تحية العلم فى الصباح على مسمع من جميع تلاميذ المدرسة ، او غير ذلك من الوسائل التى من شأنها ان تشحذ روح المنافسة فى سبيل اجادة الاداء اللغوى . ومن هذا القبيل ايضـــا ان ترسل المدرسة رسالة الى ولى امر التلميذ تخبره فيها بتقديرها لتفوقه ، ولاشك ان هذه الرسالة سيكون لها اثر السحر عندما يفاجأ التلميذ بامرها ويجد نظرة الفرح بها فى عين ولى أمره . وكل ذلك لا يكلف المدرسة كثيرا من الجهد ولا من المال . وكذلك يستطيع المعلم ان يوضح للتلاميذ انه عند تساوى الحظوظ من الذكاء والجهد فخير الرجلين اقدرهما على استعمـــال اللغة مهما كانت مهنتهما فى المستقبل ، وان اللغة سلاح الانسان فى معركة الاتصال الاجتماعى ، والنصر فى كل معركة لصاحب السلاح الافضل . ولن يعوز المعلم ان يضرب الامثلة على ذلك من الماضى والحاضر ، فكتب الادب زاخرة بها ، والحاضر حافل .

اما مراعاة الاستعداد النفسى والعضوى لدى التلميذ فمجال التفكير فيه هو مرحلة وضع البرامج لهذا التلميذ من جهة ومرحلة الشرح والاختبار ووسائل الايضاح من جهة اخرى . فتعليم اللغة بحكم طبيعته يمكن ان يتحول

الى عمل نظرى عنيف لا يسيغه عقل التلميذ الصغير وذلك عندما تسيطر العناية بالقاعدة على الدرس ، عندئذ يكره التلميذ درس اللغة » ثم يتدرج الى كراهية اللغة ، ويئول به كل ذلك الى الفشل والاخفاق . ويمكن لدرس اللغة أن يتحول الى نوع من انواع اللعب حين يصاغ هذا الدرس فى صورة تمرينات على الاستعمال يختار لها موضوع بعينه يقرأ ويناقش بالاسئلة والاجوبة ، مع استعمال حيل الطرق التربوية الحديثة ، فلا تدخله القاعدة الا أن تكون تعبيرا عما قام منها بحدس التلميذ فعلا ، عندئذ تقع القاعدة من نفسه موقعها الحسن ، ولا يتطلب تذكرها بعد ذلك الكثير من الجهد والاستذكار

كلنا يستطيع ان يتعلم الشطرنج بمشاركة اللاعبين وهم يلعبون . ولو سئل احدنا عن قوانين اللعبة بعد تعلمها بهذه الطريقة ما استطاع ان يحددها تحديدا دقيقا ، ولما عرف تاريخها ولا فلسفتها ، ولكنه مع ذلك يعرفها بالحدس النفسى . فاذا جاء من يفصل له قواعد الشطرنج فسيجد فى سماع هذه القواعد شيئا سارا كالذى يجده قارىء الادب حين يعبر الاديب عن أمر فى نفس هذا القارىء لم يكن القارىء يستطيع التعبير عنه . ومغزى هذا ان اكتساب « سليقة الشطرنج » ( ان صح هذا التعبير ) لا تكون باستظهار القواعد ، وانما تكون بالمشاركة فى اللعب . هذا تماما هو شأن اللغة ، ويستطيع كل الاطفال الصغار أن يتعلموا بالمشاركة ، بدليل انهم جميعا يتعلمون — لغة أمهاتهم » ولكنهم لا يستطيعون هضم الرطانة النظرية وحشود المصطلحات الدالة على أمور مجردة . فالتجريد أمر لا يستطيعه الاطفال ولا يهضمونه وليس التدريب الذى اعنيه هو التدريب على الاعراب ، فذلك يبنى على معرفة القواعد اولا . ولكننى اقصد بالتدريب التدريب على الاستعمال . كل ذلك ينبغى أن يراعى فيه استعداد التلميذ كما ينبغى أن يراعى فيه اختصار أوقات الدرس، لان التعب يسرع الى الصغار. ورحم الله بشر بن المعتمر لنصائحه القيمة فى هذا المجال ، فهى تبديه فى موقف تحسده عليه التربية الحديثة . فاذا كبر الطفل تدرج فى معرفة النحو مع سنه ، واخذ من ذلك ما يتناسب مع الغاية من اعداده وتعليمه .

وكذلك ينبغى أن تتجه العناية الى ابداع الوسائل ذات الاثر النفسى فى ايجاد الشوق لدى لمتعلم الى درس اللغة العربية ، وربما كانت الوسيلة

الناجعة الى هذه الغاية هى تاديب درس اللغة ، والمقصود استغـــلال المتعة التى يوجدها الادب بما فيه من اقاصيص عن الادباء او عن التاريخ تشتمل على نصوص ، وما فيه من امثال سائرة ، وأبيات شعرية رائعــة قريبة المتناول بالنسبة لفهم التلميذ ، على ان تشتمل هذه الفقرات القصيرة على الانماط اللغوية المراد ايصالها للتلميذ فى اطار الدرس . ومن الوسائل الحديثة فى التشويق ادخال الدرس فى اطار معامل الاستماع اللغــوى » والاشرطة المصورة برسوم متحركة تمثل الصور فيها مواقف حـــوار ، والاشرطة المصورة للرحلات تعرض ثم تقيد الملاحظات ويجرى حولهـا النقاش ، والمكتبة المشتملة على كتب تحليها صور ملونة وقصص مشوقة، والافلام الوثائقية التى تعطى بعض المعلومات العامة من جهة وتصلـــح موضوعات للتعليق والمناقشة من جهة اخرى . ومن الممكن ان يكون لدى وزارة التعليم عدد من كل نوع من هذه الانواع من الاشرطة تـوزع علـى المناطق التعليمية ، ثم تتولى كل منطقة الاشراف على اعارة هذه الاشرطة لمدارسها بالتناوب ، بحيث لا تخلو مدرسة فى فترة معينة من احد هـذه الاشرطة ، فاذا تركته لمدرسة اخرى حل محله شريط آخر . هذا الى ما يستطيع المعلم ان يخترع لنفسه من وسائل اخرى للتشويق كان يختـار حوارا من كتب الادب او التاريخ الاسلامى فيهيئه ليكون تمثيلية قصيرة يمثلها التلاميذ ، ثم تجرى مناقشة حول موضوعها ، او ياخذ التلاميذ فى رحلــة قصيرة فى بيئة المدرسة ويكلف كلا منهم ان يعد وصفا لمشاهداته فى هـذه الرحلة ، وهلم جرا . مثل هذه الوسائل كفيلة بترطيب الجفاف الذى يحسه التلاميذ فى تعليم اللغة ، وتضيف بالحركة العضوية والصورة المتحركة عنصرا من عناصر الترفيه واللعب الى الدرس . وتريح المعلم نفسه من ان يكون هو العنصر النشيط الوحيد فى قاعة الدراسة ، اذ ان استقلاله بالنشاط يتعبه ويزهده فى المهنة من جهة » ويقتل فاعلية تلاميذه وروح الاستقلال فيهم من جهة اخرى .

والطفل الصغير مصداق لما يزعم المراسيون empiricists من الفلاسفة من ان الحواس طريق المعرفة . فاول ما يعرفه الطفل من هذا العالم ثدى امه ، وهو فى معرفته به لا يعرف انه ثدى . فحسبه ان يجد فيه الشبع والرى ليطلبه كما يطلب الحيوان مورد الماء ، او كما يطلب وليد الحيوان ثدى امه . ثم يتعرف بعد ذلك على اعضاء جسمه ، وعلى صوت

امه ووجهها ، ثم على الاقربين منه ، وكل اولئك حقائق مفردة لا تعين على خلق مدركات كلية فى الذهن . ثم يتدرج بعد ذلك بحسب قدرته على الحركة، ومن ثم اتساع بيئته بهذه الحركة ، الى ان يرى من المفردات ما يمكن أن يجرد منه صوراً كلية . فمن النساء الذين رآهم يجرد ادراكا كليا للمرأة ، ومن الرجال للرجل ، ومن الاشجار للشجرة، بحيث اذا رأى من هذه الاصناف مفردا جديدا عليه امكن ان يخضعه للتصنيف. وتنمو قدرته على التصنيف واستعابه بنموه التدريجى . ويصادف الطفل سن دخول المدرسة وهو دون مستوى استيعاب التفكير المجرد الخالص كالذى يتمثل فى النحو وتبويبه ، واعرابه وتحليله . فتكليفه امر فهم النحو منذ البداية تكليف له بما ينفره من درس اللغة لانه ينوء به ولا يستطيعه . زد على ذلك ان النحو فى ذاته ليس مطلبا فلو استطاعت المدرسة ان تقلد منهج الامهات لامكن للتلميذ ان يكتسب العربية الفصحى دون أن يرد النحو فى البرنامج اطلاقا . فالنحو وسيلة الى غاية . واذا استطعنا الوصول الى الغاية بوسيلة أخرى كما تستطيع الامهات لصح أن نستغنى عن النحو . والوسيلة التى لا غناء عنها هى التدريب . والتدريب ممكن حتى فى الطفولة المبكرة لان الطفل يستوعبه . فالطفل قابل لكسب المهارات وبهذا المعنى يصبح تعليم النحو نافعا لانه يصف السليقة ، ولكنه اذا صح ان نصل الى السليقة بدونه فهو ليس ضرورة ، ولا يصبح ضرورة الا حين يكون التلميذ مرشحا لان يصبح فى المستقبل معلما للغة العربية .

ويحسن ان نضع فى الاعتبار ما حصل التلميذ عليه من معرفة باللغة من قبل . يصدق ذلك على ضرورة ان يبنى برنامج التعليم خطته على اساس المفردات التى سبق للتلميذ ان تعلمها فى البيت وفى البيئة ، فيبدأ البرنامج من منطلق هذه المفردات ليبنى عليها غيرها . ويصدق ذلك على ما قد يسلط على التلاميذ من وسائل الاعلام فتستطيع المدرسة ان تعول على فرض معرفة التلاميذ بما يتردد فى هذه الوسائل من مفردات ، وعلى دروس التقوية التى قد تعدها المدرسة نفسها للتلاميذ ، بل على الدروس الخاصة فى بعض الحالات . بل يصدق ذلك احيانا على الثقافة الشعبية السائدة فى البيئة ، وعلى النظام الذى يتعلم التلميذ النحو فى ظله . ففى المعاهد الدينية التى يفترض فيمن يتقدم لها ان يكون اكبر سنا من مثله فى التعليم العام وان يحفظ

القرآن او بعضه لابد أن تختلف المفردات والامثلة والتركيز على المادة النحوية عنها فى المدارس العامة التى نجد التلاميذ فيها أصغر سنا وأقل من الدراية حظا .

كلنا يذكر انه اعجب بأحد اساتذته وأحبه كما يحب اباه ، وان هذا الحب قد انعكس على المادة التى يدرسها هذا الاستاذ . فالعلاقة بين التلميذ واستاذه أنبل ما يقوم من علاقة بين اثنين « لانها مبرأة من الالزام والمنفعة ، ولا تمليها دوافع الطبيعة ، وانما يوجدها الاختيار الحر ، والمقاييس العملية للقدوة الحسنة . من هنا تأتى أهمية شخصية المعلم ، وضرورة التدقيق فى اختيار المرشحين لهذه المهنة الشريفة النبيلة . ولقد دعت ضرورات عملية منشؤها التوسع فى التعليم وقلة المقبلين على المهنة ان تفتحت الابواب لغير أصحاب المؤهلات وللهاربين من التعطل للدخول فى عداد معلمى العربية ، فكان لكثرة أعدادهم فى التعليم آثار مدمرة ، لان التعليم بالنسبة اليهم لم يكن تلك المهنة العظيمة التى نعرفها ، وانما كان قضاء وقدرا ، أو اخفاقا فى حياتهم يرجع الى سوء الحظ أكثر مما يعود الى حرية الاختيار ، وكثرت الشكوى فى صفوف هؤلاء من متاعب المهنة » وانعكس ذلك على موقفهم من التلاميذ ضيقا وتبرما ، وموقف التلاميذ منهم عبثا بهم اثناء الدرس وسخرية واستهجانا . وهناك تركة ثقيلة خلفها الماضى من سوء الوضع الاجتماعى لمعلم اللغة العربية ، لقلة مرتبه وضيق ذات يده . ويرجع ذلك الى أيام الاستعمار حين راى المستعمر هذا المعلم يقوم على تعليم أخطر أداتين من أدوات الروح القومية : اللغة والدين ، فدفع المستعمر أعوانا له للحط من قيمة معلم اللغة العربية والدين ، راجيا أن يكون الحط من قيمته اضعافا لشدة التمسك باللغة والدين. وظهر أثر هذا التوجيه حتى فى الفنون التعبيرية كالمسرح والسينما، فأصبح لهذا المعلم وللفقيه صورة هزلية نموذجية فى الافلام والمسرحيات ، وما زلنا نسمع الاغانى التى تسخر من هذا المعلم مثل اغنية « ابجد هوز حطى كلمن » . بل ان بعض الادباء انزلقوا فى هذا المنحدر تفكها كحافظ ابراهيم الذى أنصف اللغة بقصيدته « رجعت لنفسى » ، ولكنه سخر من محجوب ثابت رحمه الله ، لانه كان فى نظره يرغى ويزبد بالقافات . هذه التركة الثقيلة لابد من علاجها اذا اردنا لتعليم اللغة العربية أن يجد احترامه

الواجب فى نفوس التلاميذ ، أو أردنا أن تقوم علاقة الاقتداء بين التلميذ والمعلم ، أو أردنا أن ننفى قالة السوء التى تغرس فى النفوس اعتقاد صعوبة اللغة العربية وعقم الجهود التى تبذل فى تعليمها .

وكثير ما يمكن أن يقال عن علاقة التلميذ بالمدرسة . ينشأ الصغير فى بيته ولا أثر للتخطيط فى نشاطه اليومى ، فحياة ما قبل المدرسة بالنسبة اليه لعب حر متواصل ، وهذا حقه الذى لا ينازع فى السنين الاولى من حياته . ثم يؤخذ الى المدرسة ليرى لاول مرة فى حياته أن هناك قيودا على هذه الحرية ، وان هذا التقييد ربما صاحبته عقوبات بدنية تقع عليه من ناس لا عهد له بهم . ولا يدرى الصغير لم جىء به الى هذا المجتمع الغريب، ويكره كل مايتصل بهذه الحياة الجديدة . هنا يأتى دور الوعى الذى يمكن أن تتحلى به المدرسة لقد كان التلميذ قبل أن يأتى الى المدرسة فردى التكوين، فهو فى نظر نفسه على الاقل مركز هذا العالم ، وما وجد كل من حوله الا من أجله ولتحقيق رغباته التى لا ترد فاذا صادف اما تدلله وأبا يحنو عليه زاده ذلك احساسا بفرديته . وما وجدت المدرسة الا لتحد من هذه النزعة الفردية فى الطفل ، وتحول مسار حياته الى الطابع الاجتماعى . فتقدم له أول ما تقدم فرصة الحياة فى مجتمع أوسع من مجتمع البيت ، وتوقفه فى الصباح ليحيى علما يمثل المجتمع لا الاسرة ، وتعلمه فى حجرة الدراسة نشيدا يحببه فى بلاد يملكها مجتمعه ، وتاريخا يقص عليه ماضى هذا المجتمع ، وجغرافيا وطن هذا المجتمع ، وتربية وطنية يعرف منها سياسة المجتمع ، واخيرا تعلمه اللغة السائدة فى هذا المجتمع . لكل هذا تصبح المدرسة احدى وكالات المجتمع ، وليست سجنا للصغار . واذا لم ترد المدرسة ان تكون سجنا فعليها أن تصطنع من وسائل حبها ما يربط الصغار بها ويحول بينهم وبين الهروب منها بالتمارض ، أو الهروب بتسلق الاسوار . هناك الالعاب الرياضية ومبارياتها وهناك الموسيقى والاناشيد ، وهناك الدروس خارج أسوار المدرسة لملاحظة البيئة ، وهناك الرحلات ، وهناك قبل ذلك كله وبعده ما يمكن للتلميذ أن يحسه من عواطف القائمين على أمر تعليمه، وحسن معاملتهم له . ورب ابتسامة تشجيع تؤتى من الثمرات ما لا يؤتيه كل أنواع القسر والعقاب .

ان كمية الجهد الواحدة التى يبذلها الانسان فى اداء نشاط ما قد تؤدى الى التعب اذا نظر المرء الى النشاط باعتباره عملا ، ولا تؤدى الى التعب اذا نظر الى النشاط نفسه باعتباره لعبا . تلك طبيعة النفس الانسانية التى ادركها علم النفس الحديث . واقد تلح الفتاة على أمها ان تعلمها الطبخ واعمال المنزل . فلو تركت لها الفرصة لممارسة هذه الامور لنشطت اليوم كله لا تتعب ، حتى اذا تعلمت ذلك فكلفتها امها بعض هذه الامور أسرع اليها التعب بعد وقت قصير فتهربت من عمل البيت . والدرس نشاط ككل نشاط . فاذا اكتسى طابع العمل امل وأسام ، اما اذا اشرب معنى اللعب اقبل عليه التلاميذ بحواسهم ونفوسهم ، وأفادوا منه أيما فائدة . وليست هناك طريقة قياسية لطابع اللعب فى الدرس . فمن المعلمين من يعمد الى اضحاك التلاميذ كلما احس فى نفوسهم الملل ، ومنهم من يعمد الى صياغة الدرس نفسه بحيث يشارك فيه التلاميذ ، فتدفعهم لذة المشاركة الى نسيان الجو التقليدى للدرس ، ومنهم من يبتكر من الطرق ما يجعل عنصر التشويق فى الدرس يجذب التلاميذ اليه حتى يأسفوا عند انتهائه ولكل وجهة هو موليها . ولكن الذى لا يجادل فيه اثنان ، ان عنصر اللعب فى الدرس من انجح الوسائل المؤدية الى نجاح الدرس نفسه ، والى افادة التلميذ من هذا الدرس . ولقد سبق عند الكلام عن عنصر التشويق ان قدمنا لمعلم اللغة العربية بعض الاقتراحات فى هذا المجال .

أن تأثير البيت على الطفل قد لا يتجه الى الغاية التى يرمى اليها تأثير المدرسة عليه بالضرورة فلقد سبق ان أشرنا الى ان جو الحياة البيتية ينمى الفردية فى نفس الطفل ، وان الغاية التى تسعى اليها المدرسة هى محو هذه الفردية نفسها والاستبدال بها روحا اجتماعية توائم بين سلوك الفرد وصالح المجتمع . ولعل ميل الدولة الحديثة لفرض سيطرتها على التعليم تخطيطا وتنفيذا وتمويلا انما كان لضمان توجيه هذه الاداة الخطيرة بحيث تكون فى خدمة المجتمع ، ولاسيما بعد تقدم العلم تقدما خطيرا ، وتنوع الايديولوجيات تنوعا اكثر خطورة . واذا لم يتم التنسيق بين المدرسة والبيت فى تربية الطفل صدق على هذا التنافر قول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه    اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

فليس هذا التنسيق فى مبدئه طلبا للتعاون بمقدار ما هو طلب لعدم التعارض . وفى حالة تعليم اللغة العربية يبدو التعارض فى صورة المنافسة بين اللهجات الدارجة التى يستعملها الطفل فى البيت ، واللغة الفصحى التى يتعلمها فى المدرسة ، لان كلا منهما يشكل نظاما رمزيا مختلفا عن الآخر مهما كثرت جهات الشركة بينهما ، ويستند كل منهما الى عرف يؤيده ويحميه ، وتمتاز الدارجة على الفصحى بأن التلميذ اكثر تعرضا الخضوع لعرفها منه الخضوع لعرف الفصحى ، وذلك بسبب الالف ويسر الاستعمال لسبق استضمار السليقة والمعايشة اليومية ثم الارتباط بالمصالح الفورية المباشرة . ولا شك فى ان تعلم اللغة الفصحى ربما ادى بالصغير الى أن « ينتقل لسانه » اليها على حد تعبير ابن جنى ، ولكن العكس صحيح ايضا بحيث تصبح الدارجة نفسها على لسان الصغير معوقا له عن التعليم، او مؤثرا يغير من صورة الفصحى على لسانه . وآية ذلك ما نعرفه من حتمية التطور اللغوى الذى جعل الفصحى فى عصرنا هذا شديدة الاختلاف عنها فى العصر الجاهلى . والذى يمكن البيت أن يقدمه فى خدمة الغاية من تعليم الطفل الا يثبط الطفل بالضحك حين يسمع منه عبارة فصيحة فى الكلام العادى ، بل على البيت ان يشجع الصغير على ذلك ، واذا كان الطفل بحاجة الىمعونة فعلى ولى امره ان يخف الى معونته ، فان لم يستطع فلا ينبغى ان يضن عليه بالانفاق على درس خاص يعطى له . وعلى البيت فوق ذلك ان يهيىء للصغير الظروف المغرية بالقراءة ، وان يغرس حبها فى نفسه بالتشجيع عليها .

وما دامت القدرة على الاستيعاب والتجريد تختلف باختلاف السن ، فان واجب المدرسة الا تجمع الاعمار المختلفة فى القاعة الواحدة . فمن الثابت ان الصغار يحسون الغربة وهم فى صحبة من هم اكبر منهم ، ومن ثم تصبح المداومة على صحبة الكبار ضارة بالتكيف الاجتماعى الصغير ومن الثابت ايضا ان للصغار عالمهم الذى يألفونه ويأنسون اليه ، فتجد فيه قدراتهم الفطرية وسطها الطبيعى للنمو والتطور وذلك عالم يلتقى فيه الصغار فى جماعة متجانسة تبدو الرؤى والاحلام فيها حقائق للمجتمع الطفولى ، ووسائل لتربية الصغير . فاذا جمعت المدرسة بين الاعمار المختلفة فى قاعة واحدة تعارضت الرؤى ، وسفهت قسوة الكبار منهم احلام

الصغار ، فعاد ذلك عليهم بأسوأ النتائج . فوق ذلك لا يعرف المعلم لمن يوجه مخاطبته وبأى العبارات يصوغها ، أبالعبارات المناسبة لهؤلاء ، أم بالعبارات المناسبة لأولئك ، اذ لا شك أن الكبار ربما ناسبهم أن تكـون مناقشة الدرس مشربة بمذاق القواعد ، وهو ما يتعارض مع الصغار .

والنشاط المدرسى دور هام فى تعليم اللغة العربيه اذ يمثل هـذا النشاط بدوره مدخلا الى طبع التعليم بطابع اللعب . فكما يستطيع المعلم أن يستغل حب التمثيل والرحلة فى نفوس تلاميذه فى الدرس بتحويله مـن مجرد التلقين الى طابع الحوار ، وبالخروج به من بين جدران القاعة الى مجالى البيئة ، يمكنللنشاط المدرسى أن يشتمل على استغلال مشابـه لهذا الحب فيجعل من مجالاته التمثيل والمناظرة والرحلة والاناشيد مـع الموسيقى أو بدونها . وهذا النشاط نفسه مجال خصب للتكيف الاجتماعى بالنسبة للصغير واليافع على حد سواء ، لانه نشاط من التلميذ فى وسـط مناسب نفسيا واجتماعيا لتربية ملكاته تربية سليمة ، ففى نفس التلميـذ جانب لا يستطيع المعلم ولا الاب أن يغنى فيه عن قرين سنه . ذلك بأن المعلم والاب كليهما يمثلان فى نظره جيلا سابقا ، اذا استعملنا مصطلحات صراع الاجيال .

وهكذا يصبح قرناء السن عاملاً هاما فى التربية قوامه التاثيـر والتأثر ، ولضمان أن يكون هذا التأثر نافعا يأتى نشاط المدرسة بضبطه وتخطيطه ليمنع الآثار السيئة التى قد تترتب على الاختلاط الحر بقرنـاء السوء .

وهكذا ننتهى من القول فى الركن الاول من أركان عملية التعليم ( وهو المتعلم ) لنلقى نظرة على الركن الثانى من أركانها وهو المعلم . لقد كان للاولين رأى فى المعلم يضعه فى صف أصحاب الرسالات النبيلة . وأعان الاولين على اعتقاد هذا الرأى أن التعليم كان أمرا اختياريا ومن ثم كان عدد التلاميذ قليلا ، وكان الانتقاء الطبيعى لطلاب العلم مبنيا على الصلاحية العقلية ، كما أن التعليم فى نظر الاولين لم يكن سلما الى الرزق ولا الـى المهنة ، لان العلم فى ايامهم لم يكن كالعلم فى ايامنا شديـد الارتبـاط

بالتكنولوجيا ، ولان المهنة كانت تتطلب نوعا من التدريب غير وثيق الصلة بالعلم . ثم تطورت النظرة الى التعليم مع الزمن ، فأصبح التعليم من وظائف الدولة ومن مجالات تطبيق فكرة السيادة » كما أصبح من حقوق المواطن الثابتة كحقه فى المشاركة فى الماء والهواء ، وارتبط العلم بالتكنولوجيا فأصبح طريقا لكسب الرزق ، وتزاحم الطلاب على التعليم حتى أصبحت كثرة الطلاب مشكلة من مشاكل التعليم . وأضاف الى حدة هذه المشكلة حدة ما يعرفه عالمنا العربى من نقص فى أعداد المعلمين الصالحين للمهنة . وهكذا نشأت أزمة المعلم فى بلادنا ، أو قل نشأت أزمة اعداد المعلم .

كيف نعد المعلم ، ولاى شىء نعده ؟ نحن نعترف أن المعلم ليس عالما بالضرورة ، وأنما هو رجل يعرف من مادة التعليم ما يستطيع أن ينقله الى تلاميذ هم فى حاجة اليه ، وأن له طريقة خاصة ينبغى أن يعرفها هى أفضل الطرق لنقل ما لديه الى هؤلاء التلاميذ . هذا ما ينبغى أن يكون فى أذهان من يعدون المعلم حسب خطة . وتشتمل خطة اعداد المعلم على اعتبارات خارج قاعة الدرس ، ترتبط فى جملتها بسياسة الدولة فى التعليم. فالدولة تعرف أو ينبغى لها أن تعرف عدد المدارس وعدد التلاميذ وأنواع التعليم ، والتخصصات المطلوبة فى الحاضر ، وفى الخطة التى تضعها للمستقبل ، ومن هنا تصبح قادرة على التخطيط للمعلم كما وكيفا فى اطار سياسة تعليمية معينة . فاذا وضعنا تعليم اللغة القومية فى الاعتبار وجدنا أغراض البلاد العربية تتفاوت من حيث التخطيط ، فبعضها يخطط لاحلال اللغة العربية مكان لغة اخرى أجنبية احتلت المقام الاول فى مناهج التعليم فى ظل سياسة استعمارية سابقة ، وبعضها الآخر يخطط لتعليم العربية فى اطار جهد تعليمى مستحدث أو فى حكمه اذ لم يكن ثمة تعليم قبل الاستقلال وبعض ثالث مارس تعليم اللغة العربية من قبل ولكنه يخطط لتعميم التعليم بعد أن كان هذا التعليم ميزة للاقلية الحسنة الحظ . ومع أن كل موقف من هذه المواقف يتطلب تخطيطا خاصا مناسبا فى فلسفته واتجاهاته للظروف التى تمليه ، لا تكاد تجد بلدا عربيا واحدا يقيم تخطيط التعليم على فلسفة مدروسة من قبل بأبعادها واحصاءاتها ومطالبها ، وانما يعتمد التخطيط فى عالمنا العربى على مبدأ الممارسة والصواب والخطأ ، مع محاكاة النظم الاجنبية فى التعليم فى الغرب او فى الشرق بحسب الظروف .

وبالنسبة للغة العربية تجأر الاصوات بالشكوى من ضعف مستوى المتعلمين والمعلمين على حد سواء . ويحاول الفيورون من الملاحظين تحديد الاعراض وذكر الاسباب دون وصف طرق العلاج . قالوا ان ضعف المستوى يعود الى ضعف المعلم ، وقال آخرون بل يعود الى ضعف مستوى الكتاب، وعزاه بعضهم الى كثرة العدد ، وبعضهم الى زحمة المواد وقلة الساعات المخصصة لدرس اللغة ، وبعضهم الى سوء اعداد البرامج التعليميـــــة وتسمع فى بعض البلاد عن عدم الجدية وقلة الساعات المخصصة لدرس اللغة ، ــ ولست بصدد أن أحدد الاسباب ، فكل ما مر يمكن بالافراد او الجمع ان يحبط اى جهـــد فى سبيل تعليم العربية . وكل همى هنـــا أن أتكلم عن المعلـــم .

لا يصلح المعلم لتعليم النحو اذا كانت بضاعته النحو فقط ، فالذى ينبغى ان نعده هو معلم اللغة لا معلم النحو ، بل ان هذا المعلم لا يحتاج فى السنوات الاولى للتعليم ان يدرس النحو ، ومع ذلك فلابد له ان يكـــون على علم بقواعده اذ لو لم يكن على معرفة بها لما كان قادرا على ارشـــاد تلاميذه الى النطق الصحيح ، وما أحوج التلاميذ فى هذه المرحلة قبل غيرها الى سماع النطق الصحيح للغة . وعندما يصبح التلميذ فى المراحل اللاحقة قادرا على فهم التبويب والتجريد النحوى ، تصبح معرفة المعلم بمجمـــــل النظرية النحوية أمرا لا غنى عنه ، ومع هذا الفهم جنبا الى جنب قدرة على الاستعمال الصحيح والملائم للغة : الصحيح من الناحية النحوية ، والملائم من وجهة نظر المقام . ولا يصل المرشح لمهنة المعلم الى هذه القدرة بواسطة الاستماع الى المحاضرات النظرية المتخصصة فى الجامعـــة او المعاهد العليا . فالتعليم مهنة والمهنة لا تؤخذ سماعا ، وانما تأتى عـــن طريق التدريب والممارسة . والتدريب ينبغى ان يكون فى اتجاهين : تدريب فى المادة ، وتدريب فى الطريقة . اما تدريب الطلاب المرشحين لمهنـــــة التعليم فلا ينبغى أن يكون مقصورا على التحليل والاعراب ، اذ الاهم ان يمر الطالب المرشح بتدريب جاد على استعمال اللغة استعمالا ملائما . واما من حيث الطريقة فينبغى للطالب المرشح ان يتدرب على التدريـــــس قبل التخرج تحت اشراف اساتذة متخصصين . وليس اى من هذيـــــن التدريبين ممكنا فى ظل النظام الجامعى القائم على المحاضرات النظرية .

ويتبع ذلك بالطبع أن خريج الجامعة غير صالح لمهنة التدريس ، أو بعبارة اخرى أنه معلم غير مؤهل للمهنة والحل فى نظرى أن نتوسع فى معاهد المعلمين ، وأن يكون القبول بها من خلال شعبة فى التعليم الثانوى تسمى شعبة اللغات ، تحتل العربية فيها مكان الصدارة ، ويتخذ التعليم فيها طابع التدريب اكثر مما يتخذ طابع النظر . ان هذا الحل فى نظرى سيخفف الضغط على الجامعات من جهة فيختصر مجموع الطلاب المقبولين بها فتخف المئونة عليها ، ويوفر لتعليم اللغة من جهة أخرى اعدادا كبيرة من المعلمين الصالحين لهذه المهنة . وعلى الدولة ان توفر الحوافز التى تحفز الطلاب على تفضيل هذه المعاهد على الجامعات ، وأن تختار منهم احسنهم سمعة وصحة وابينهم لسانا واكثرهم حماسة .

واكبر هذه الحوافز ان ترفع الدولة اجور المعلمين ، فتمنحهم الحياة الكريمة التى تنسيهم متاعب المهنة وما أكثرها . ولكن الدولة تستطيع ايضا أن ترتب للطالب فى هذه المعاهد مكافأة شهرية منتظمة بالاضافة الى مجانية التعليم ، وأن تجعل الدراسة فى هذه المعاهد اقصر أمداً من مثيلتها فى الجامعة بحيث يتخرج الطالب بعد ثلاث سنين مثلا ، وأن يكون للنابهين من الطلاب فرصة متابعة الدراسة المتخصصة فى حقل التربية والتعليم واعداد الرسائل فى مشاكل تعليم اللغة ، ليكون أصحاب هذه الرسائل فيما بعد أولى بوظائف الاشراف على هذا التعليم ممن سواهم .

ولاشك أن الحوافز من هذا النوع ترفع من قيمة هذه المعاهد فى نظر الطلاب ، وترفع من قيمة المعلم فى نظر المجتمع ، ولا تجعل طريق التعليم طريقا مسدودا يعزف عنه الطموح ، وتوفر للاشراف على تعليم اللغة فى المستقبل عناصر متخصصة فى هذا الفرع بالذات . ثم ان هذه الحوافز نفسها تحسن الظروف النفسية والاجتماعية والمالية للمهنة فى عمومها ، وتؤتى أحسن الثمرات بالنسبة لقضية اللغة القومية .

وينبغى ان تكون صيحة المعركة فى هذه المعاهد هى التدريب أولا والتدريب اخيرا ، لان انعدام التدريب فى نظرى هو بيت الداء فى ضعف مستوى التعليم والمتعلم . لقد انفت كليات الاداب — ومن حقها ان تأنف —

عن ان تشتمل برامجها على دروس فى الخط فساء خط المعلم ، وفى المطالعة فكثر لحن المعلم ، وفى الانشاء فنبا قلم المعلم ، وفى الاملاء فأخطأ فيه المعلم وانتقل كل ذلك من المعلم الى المتعلم ، فأصبحت الحال على ما نرى . واذا لم يكن من طبيعة الجامعة ان تلقن هذه الامور فلا ينبغى أن يرتبط تعليم اللغة بخريج الجامعة . ولخريج الجامعة بعد ذلك مجـــالات نظريـــة أخرى غير التدريس هى مسرح علمه ونفعه ، وعلى الجامعة أن تقبل من الطلاب عددا لا يزيد على مطالب هذا المجالات ، وهذا خير لهـــا مـــن الحشود التى نراها تثقلها قبل التخرج ، وتمثل للدولة مشكلة تشغيل بعد التخرج . فصرف هذه الحشود عن الجامعة يعود بالنفع على الجامعة وعلى مهنة التعليم وعلى الدولة والمجتمع فى نهاية الامر .

هنا نصل الى الركن الثالث من أركان عملية التعليم وهـــو طريقـــة التعليم ، وتشمل هذه الطريقة التخطيط والتحضير . ولنا أن نسأل : مـــا اللغة التى نعلمها ؟ اهى معرفة ومن ثم نقدم للتلميذ نظرياتها المختلفة وفلسفتها ونبدا لهذا السبب بتعليم النحو والصرف وفقه اللغة واقوال العلماء وخلافاتهم وهلـــم جـــرا ؟

أهى سلوك فنعلمها بالقدوة وضرب المثل الطيب مـــن خـــلال معلم يحسن استعمالها فيقلده التلاميذ ، أم هى عادة نربيها بالتكرار حتى يكتسب التلميذ آلية حركية لصحة الاداء اللغوى ؟ أم هى مهارة يوصل اليهـــا بالممارسة العملية وتصحيح الاخطاء كالذى يحدث لمن يتعلم السباحة او الالعاب البهلوانية ؟ واذا كانت مهارة افهى مهارة فى الكلام الصحيـــح الملائم ، أم فى القراء النافعة ، أم فى الترجمة الدقيقة أم فى كل اولئـــك بالضرورة ؟ هذه اسئلة ترد على الخاطر عند التفكير فى المادة التـــى ينبغى ان يشتمل عليها البرنامج . فيمكن نظريا لدرس اللغة ان يكيف بطريقة خاصة تؤدى الى اجادة الكلام ، وطريقة اخرى لاجادة الكتابة ، وثالثة لاجادة القراءة والفهم والانتفاع بما نقرأ ، ورابعة تؤدى بالتلميذ الى اجـــادة الترجمـــة .

ثم من التلميذ الذى نعلمه ، ولاى الغايات نعلمه ؟ اهو الذى ينقطع عن التعليم بعد محو الامية ليحترف الزراعة او مهنة يدوية اخرى ؟ أم هـــو

الذى يبقى فى التعليم حتى نهاية المرحلة الثانوية ، ثم يضطر الى البحث عن عمل كتابى فى احدى المؤسسات العامة أو الخاصة ، أم هو الذى يحضر للتعليم فى ثانوية فنية زراعية أو صناعية أو تجارية ، أم هو الطالب الذى يصل الى التعليم الجامعى ؟ فاذا كان هذا فما نوع التعليم الذى نعده له ، وفى أى كلية ؟ أو بعبارة أخرى : لاى مهنة نعده ؟ هذه أيضا أسئلة تفرض نفسها على التفكير عندما نتصدى لاختيار تفاصيل مادة الدراسة .

ولكننا مادمنا لا نتنبأ بمستقبل كل تلميذ على حدة ، وليس من همنا ان نتنبأ بذلك على أى حال ، فليس أمامنا الا أن نجرد من آلاف التلاميذ تلميذا نموذجيا ونخطط له . وهذا التخطيط يقع فى اتجاهين :

تخطيط الدولة لسياسة التعليم ، وهذا جزء مما يستعان فيه بعلم الاجتماع اللغوى الذى سبق ذكره . فالدولة هى التى تعين لغة التعليم اذا تعددت اللغات فى البلد الواحد ، وهى التى تخطط سياسة التعليم بالنسبة لحاجاتها المقبلة من التخصصات وأعداد المتخصصين ، وليس هذا مجال كلامنا هنا فلكل دولة خبراؤها من اللغويين وغير اللغويين يرسمون لها سياسة التعليم ، ومنه تعليم اللغة ؟ أما الذى يعنينا هنا فهو تخطيط البرامج للطلاب وليسوا سواء اذ نرى أن هذا التخطيط فى تعليم اللغة يمكن ان يتنوع الى نوعين تخطيط لمن نرشحهم ليصبحوا معلمين للغة العربية فى المستقبل ، وتخطيط آخر لغيرهم ، ولا ترد هذه المشكلة على اى حال الا فى أخريات المرحلة الثانوية . والفرق بين التخطيطين فرق فى كمية المعلومات النظرية التى يفرضها البرنامج على الطالب ، ولابد أن تكون هذه المعلومات بالنسبة للمرشحين للتدريس أكثر منها بالنسبة الى غيرهم .

ولقد يختار البرنامج أن يكون رتلى الطابع تتابعيا ، فيعطى التلميذ قسطا من المادة فى الشهر الاول من العام يتلوه قسط آخر فى الشهر الثانى وهلم جرا ، حتى ينتهى المقرر ، وقد يختار ان يكون حلزونى الطابع دائريا فيذكر الطالب وهو فى مرحلة ( ب ) بما مر به فى مرحلة ( أ ) ، وفى ( جـ ) بما مر به فى ( أ ــ ب ) .

ومن الواضح أن النوع الثانى من البرامج أفضل لسببين : أولهما أن الذكرى تنفع المؤمنين والثانى انه اذا كان تعليم اللغة من خلال استعمالها ( وقد سبق أن أصررنا على فكرة التدريب ) فان التدريب يتم على النصوص الحية لا على الامثلة المنعزلة » واذ تقدم النصوص الى التلاميذ لا تشتمل على باب نحوى واحد ، وانما يتكون السياق من تشابك العلاقات بين أبواب مختلفة يكون الكلام عن بعضها قد مر فى دروس سابقة . وحينئذ ينبغى أن يضع البرنامج فى اعتباره العودة الى ما مضى بتكرار التطبيق عليه حسب خطة موضوعة .

وينبغى لتخطيط البرنامج أن يوضع فى سياقه الصحيح — فليس يكفى أن يجلس واضعو البرنامج معا ، ثم يقولوا : فليات كل بما يعن له من افكار واجتهادات ، ثم يتضح فى النهاية ان هذه الافكار لم تكن مبنية على منهج ، ومن ثم يأتى البرنامج ارتجاليا تلفيقى الطابع . ذلك بأن اختيار عناصر البرنامج وترتيبها انما يأتى نتيجة لمقدمات موضوعية ، وبناء على منهج محدد فى اطار الدراسات اللغوية التطبيقية — ويمكن ترتيب هذه المقدمات على النحو التالى :

1 — أن تعليم اللغة لا يتم الا فى ضوء نظرية لغوية . ولقد سبق أن عرضنا طائفة من النظريات فى بداية هذا البحث ، فاشرنا الى المنهج السياقى والبنيوى وتحليل الضمائم والمنهج التحويلى ، واشرنا الى طبيعة النظر فى كل واحد منها ، وأن كل واحد منها يبدى مشابه من نوع ما بمنهج النحاة العرب القدماء * ؟ فالسياقى يشبه فكرتى الاعراب والربط ، والبنيوى يشبه علاج الصرف العربى ، وتحليل الضمائم يذكرنا بفكرتى التلازم والرتبة ، والتحويلى يذكرنا بالجمل الفرعية وبتحويل الاسمية الى منسوخة، وتحويل التمييز عن الفاعل أو المفعول ، وتحديد أول مفعولى أعطى بانه الآخذ فى المعنى وان تأخر فى الرتبة كما فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » . غير أن المنهج التحويلى النظرى يحول من بنية عميقة الى سطحية ولكن تعليم اللغة فى الوقت الحاضر يتبع طريقة النحاة العرب ، فيحول من سطحية الى سطحية اخرى . وايا ما كانت النظرية التى ينطلق منها البرنامج فلا باس فى ذلك ، على ان تتسم هذه النظرية بالبساطة والوضوح .

* انظر العدد السابع

والواقع أن النحو العربى برهن على صلاحيته اثنى عشر قرنا امكن لـه فيها أن يخرج فطاحل العلماء والادباء ، ومن ثم لا مطعن فيه من حيث هو نظرية متكاملة ذات أصول منهجية . غير ان اعتماد النظرية النحوية علـى مجردات من أمثال التعليل والتأويل والحذف والتقدير يشبه اعتماد التحويلين على بنية عميقة ويجعله صالحا للكبار لا للاطفال ، ومن هنا جاءت محاولات التيسير فى عصرنا الحديث . وليست المحاولة التى نسبتها لنفسى فى هذا البحث * متنافى النحو فيمكن أن أقدمها للتدريس ، ولكنها نظرية متكاملـة ذات فلسفة متميزة تنفى عن النحو العربى أكثر ما ضج الناس بالشكوى منه وتمزج فى النظر بين المنهج البنيوى واصول النحو العربى بحسب طبيعة اللغة الفصحى ومن ثم تصلح لان يبنى عليها البرنامج ، على شرط أن تكتب على اساسها متون للتدريس للصغار والكبار على سواء . ومن شاء ان يرى أبعاد هذه النظرية فليقرأ كتاب : « اللغـة العربيـة ـ معنـاها ومبنـاهـا » .

2 ـ يوصل الى النظرية عادة بعد استقراء البينات data اللغوية المستخرجة من الاستعمال وعند تمام النظرية تصبح وصفاً للسليقة اللغوية . ولقد قامت نظرية النحاة العرب على جمـع البينـات بالرحلـة والوفادة من كلام طائفة من القبائل اطلقوا عليها اسم « قبائل وسـط الجزيرة» وهى قيس وتميم وأسد وهذيل ثم بعضكنانة وبعض الطائيين. ولكن هذه القبائل ان اتحدت فى الفصاحة فقد اختلفت بينها اللهجـات . وهـذه النقطة الاخيرة مثار كثير من النقد على المستوى النظرى ، لان لكل لهجـة نحوا مستقلا ، فاذا قامت نظرية نحوية لعدد من اللهجات فالنظرية تلفيقية تتسع للكثير من الشاذ والنادر والقليل والمسموع الذى يحفظ ولا يقاس عليه . وبالنسبة لنظريتى المذكورة لم يتح لى من البينات الا كلام العرب المأثور فى التراث ، وقد اقمت نظريتى عليه ، ومع الاعتراف بالطابـع التلفيقى الذى لا مفر منه لهذه البينات ، امكن لهذه النظرية أن تعالـج ظاهرة الشذوذ والندرة الـخ ، فانشات صورة موحدة للسليقة العربية ، فى ضوء مبداين هامين هما : تضافر القرائن على اداء المعنى ، وأمكان الترخص فى القرينة عند امن اللبس .

---

* انظر العدد السابع

3 ـ واذا كانت النظرية وصفا للسليقة ، وتحديدا لشروط الاستعمال ومبادئه ، فلابد أن يبنى البرنامج الدراسى على أساس الوصول بالطالب الى استضمار هذه السليقة بحدسه من خلال الاستعمال ، قبل معرفتها بوعيه من خلال الشرح . وهذه النقطة هامة جدا فى أسبقية التدريب فى الزمن على اعطاء دروس فى النحو . ومعنى هذا أن تكون المرحلة الابتدائية مرحلة التدريب الجاد على الاستعمال ، وألا يتوقف التدريب فى أية مرحلة من مراحل التعليم . ذلك ما ينبغى أن يأخذه البرنامج فى اعتباره .

4 ـ هناك منهج تطبيقى خاص لانشاء البرامج ينبنى على استعمال المقارنة والانتقاء بين الابواب النحوية لنرى أى هذه الابواب نختار ، وأى حقائق الباب المختار ، وكيف ترتب الابواب فى البرنامج ، وما الذى يكون منها للسنة الاولى ، وما الذى يكون للثانية ، وما الذى نؤخره الى مستوى أعلى لانه فوق قدرة سن معينة على الاستيعاب ، وهلم جرا . وهذا نفسه هو المقصود بالمقارنة والانتقاء . فاذا طبقنا ذلك وصلنا الى العناصر المادية لتكوين البرنامج .

5 ـ فاذا وصلنا الى هذه العناصر كان علينا أن نصوغها فى صورة برنامج . وقبل أن نصوغها لابد أن نكون على وعى من أمرين : أولهما أسلوب تكوين البرنامج ، كأن يكون مجملا يترك الحرية فى صياغة التفاصيل المنفذين ، أو مفصلا يحدد كل خطوة ويلزم المنفذين بطريقة معينة للتنفيذ . والامر الثانى طريقة العرض التى تشاهد بها العناصر المادية للبرنامج ، اى هل يتسم البرنامج بالطابع الرتلى التتابعى ، أو بالطابع الحلزونى الدائرى اللذين اشرنا اليهما من قبل .

6 ـ فاذا تم لنا ذلك وصلنا الى تكوين برنامج ذى اسلوب محدد ، وطريقة عرض معينة ، ووصلنا من خلال كل ذلك الى ما يعرف باسم : « أبواب المقرر » .

العنصر الثانى من عناصر الطريقة هو التحضير ، وهو يشمل تحضير الكتاب المدرسى ، وتحضير العمل التعليمى ، سواء من ذلك

العمل ما تعلق بالشرح او طريقة الايضاح او الاختبار او تحليل الاخطاء والكتاب المدرسى وليد البرنامج ، فهو يكتب بحسبه . والذى جرى عليه العمل فى التربية الاسلامية فى عصورها الغابرة ان يفصل المعلم بين كل من النحو وكتاب الادب ، فيقدم النحو مادة جافة تستحق ما كان يطلق عليها من صفة (( الصناعة )) . وكان كتاب النحو يشتمل على شواهد من الشعر العربى القديم لتعزيز القاعدة ، كما لو كان التلميذ يطالب بتوثيق هذه القاعدة . فالفرق بين الشاهد والمثال ان يساق الشاهد للمتخصص الذى يتطلب الدليل على صحة القاعدة * اما المثال ( وهو من صياغة واضع الكتاب ) فهو احدى وسائل الايضاح لا اكثر . وكان على المعلم فوق ذلك ان يشق على التلميذ باعراب الشاهد وان كان الشاهد يساق للشاذ او النادر ، وهكذا يجد التلميذ نفسه امام حشد من مستويات الصحة قبل ان يتعرف على النظام المقبول للغة ، او بعبارة اخرى قبل ان يعرف القواعد القياسية ، ومن شان مثل هذا الوضع ان يؤدى فى النهاية الى تكوين شخص قادر على التخريج لا على الاستعمال ، فيستطيع ان يعرب ولا يستطيع ان يؤدى اللغة باستعمالها الصحيح ، لان السليقة وصفت له ولم يتدرب عليها . فمثله مثل المتفرج على كرة القدم ، يعرف قواعدها ولا يجيد اللعب . وما زال هذا شان الكثيرين ممن تلقوا هذا النوع من التعليم فى معاهدنا الدينية التقليدية ، وان كانوا خيرا ممن سواهم على اى حال .

ويفصل التعليم فى ايامنا هذه بين كتاب النحو وكتاب القراءة اتباعا لهذه السنة القديمة من جهة ، وتمشيا مع ما كان سائدا فى تعليم اللغات الاجنبية فى بلادنا من الفصل بين مجالات ثلاثة هى النحو والقراءة والمفردات واجبة الحفظ . ولو ان كتاب القراءة العربية الذى نقدمه للتلامية اشتمل على نصوص ادبية عالية القيمة كما كانت الحال فى التربية الاسلامية لكان هناك مبرر للفصل بين المجالين ، ولكن النصوص سواء فى كتاب النحو وكتاب القراءة تبدو فيها الصنعة والاسفاف . فنصوص كتاب النحو تصاغ تحت سيطرة رغبة جامحة فى رص حشد من الامثلة للدرس ، ثم تتصل هذه الامثلة لتكوين النص على صورة تظهر فيها الصنعة التى تفسد على التلميذ فرصته فى اكتساب الملاءمة ، وفرصته فى تقليد الاسلوب الجيد ، ولا

توفر له الا جانب الصحة فقط · اما كتاب القراءة فليس احسن حظا من صاحبه الا من حيث ان النص لا تبدو فيه الصنعة . اما ما وراء ذلك من اختيار الموضوع وتوافر الذوق الجمالى والاسلوب الجيد ، فذلك متروك الى مجرد الصدفة . والذى احب ان اقوله هنا يمكن تلخيصه فيما يلى :

1 — خير للتلاميذ فى المرحلة الاولى ان تكتب لهم كتب فى القراءة دون النحو ، وان يشتمل الكتاب على مناقشات لكل فقرة بعد الفراغ منها بحيث يشتمل الموضوع الواحد على عدة مناقشات ، وان تتجه العناية فى هذه المرحلة الى الفهم والتعبير ، ويحسن فى الكتاب ان يراعى حصيلة التلاميذ من المفردات ويبنى عليها .

2 — فاذا تقدمنا الى المرحلة الثانية ( بعد سن الثانية عشرة ) اضفنا الى كتاب القراءة معلومات نحوية تتبع كل باب من ابواب الكتاب ، وتشتمل على الانواع الاساسية للجمل اولا ، ثم على الابواب الاسنادية : كالفعل والفاعل ، ونائب الفاعل ، والمبتدا والخبر وان يكون تقديم هذه المعلومات بالتلطف دون الالحاح ، على ان نركز اكبر العناية على الفهم وصحة التعبير وملاءمته .

3 — فاذا تخطى التلميذ الخامسة عشرة فصلنا كتاب النحو عن كتاب القراءة ، وابرزنا النحو فى صورته الكاملة مع تقسيم الابواب على ما بعد الخامسة عشرة من سنوات الدراسة . وينبغى لكتاب النحو ان يبنى القاعدة على النص ، وان يتعب المؤلف نفسه فى اختيار النصوص المناسبة ذات القيمة العالية ( ليقلد التلميذ اسلوبها وطريقة تفكيرها ) مع مراعاة ان تشتمل هذه النصوص الجيدة على امثلة يمكن ان تستخلص منها القاعدة ، وامثلة اخرى يمكن ان تذكر التلميذ بما مر من ابواب النحو . وينبغى للقواعد ان توضع باختصار غير مخل بحيث يسهل تذكرها عند الضرورة ، وان تخلوا القاعدة من اى اشارة الى تعدد الاوجه ، فمن المعروف عند تعدد الاوجه ان احدها افضلها ، والقرآن مثلا يفضل ما الحجازية على ما التميمية ( ما هذا بشرا ، ما هن امهاتهم الخ ) .

4 اما اذا تعلق الامر بشعبة تسمى « شعبة اللغات » فى نهاية التعليم الثانوى ، فان العناية بالجانب النظرى هنا واجبة ، ولكن ما تزال العناية بالجانب التدريبى اكثر اهمية ، وستظل كذلك حتى فى المعاهد العليا للمعلمين .

نصل بعد ذلك الى التعليم فى حجرة الدراسة « وطريقة عرض المادة النحوية على التلاميذ اتكون هذه الطريقة قياسية معيارية تقدم القاعدة وتطالب التلاميذ بمطابقتها باعتبارها معيارا للصواب ، ام تكون وصفية استقرائية تلفت نظر التلاميذ الى الامثلة اولا ثم يحاول المعلم بمشاركتهم ان يستنبط القاعدة من النص ؟ لكل من هذين الاتجاهين انصار ، ولكن الذى احب ان اكرره هنا ان النحو ليس غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة الى استضمار السليقة بصوابها وملاءمتها ، ولا ينبغى للمعلم ان يقف من طريقة التدريس موقف الباحث من منهج البحث . فالباحث يلتزم بخطوات منهجه المحدد ، ويحتم علىنفسه دائما ان ينتقل من الخاص الى ان يصل الى القاعدة . وهو يرى هذا الترتيب للخطوات عصمة لفكره ان يزيغ . اما الامر بالنسبة الى المعلم فيختلف عن ذلك . فليس من همه ان يصحح النتائج العلمية ، وهى القواعد ، فهى حاضرة فى يده وقد كفاه الباحث ( اى النحوى القديم ) جهد تصحيحها ، وكل ما ينبغى للمعلم هو ان يوصل هذه النتائج الى التلاميذ .

ولقد ثار نقاش بين انصار الطريقة القياسية فى التعليم ، وانصار الطريقة الاستقرائية قال اصحاب الاستقراء ان عملية التعلم فى كل صورها ، سواء داخل المدرسة وخارجها « لا تتم فى الحقيقة الا بواسطة الاستقراء . وان الذهن الانسانى بحكم تكوينه مهيا للاتجاه من الخاص الى العام ، وليس العكس . ويحاول المرء منذ طفولته المبكرة ان يصنف مدركاته اصنافا لكل صنف منها عنوان عام ، فيجرد من افراد الرجال صنف الرجل ، ومن افراد النساء صنف المراة ، وهكذا تصبح حياته نسقا من الملاحظة والتصنيف . ومما ينبغى لطريقة التعليم الا تخالف طبائع الاشياء ، وان تعتمد اساسا على الاستقراء .

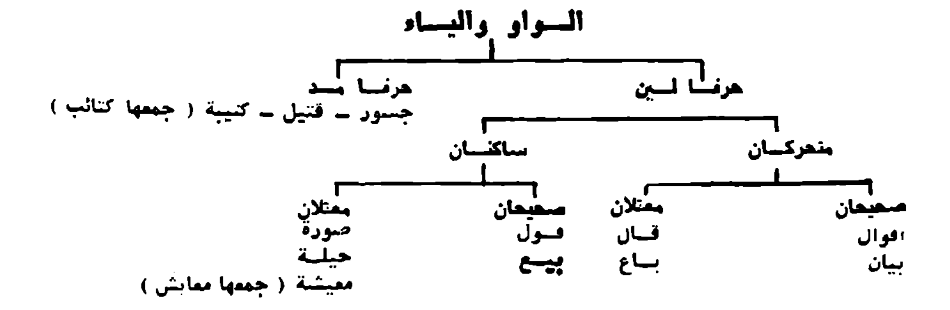
وقال اصحاب القياس : اننا لو فرضنا على الطفل ان يحصل على حقائق المادة التى يتعلمها ( على كثرة المواد ) بنفس الطريقة التى يصل بها الباحث الى هذه الحقائق ، لكلفناه من امره عسرا ، وحملنا عليه من مشقة التعليم ما لا قبل له به فاذا كان الطفل يعتمد فى كسب مدركاتــه الاولى على الاستقراء ( وهذا حقيقى ) ، فان الامر يختلف بالنسبة الــى الدراسة والتعلم ، لان المجال غير المجال . فالبيئة التى كانت فى طفولته من الضيق بحيث يمكن فهمها بسهولة تصبح فى الدراسة المنظمة مــــن الاتساع بحيث تشمل كل ما يصلح للتعلم فى برنامج الدراسة ، سواء فى ذلك المحسوسات والمجردات . ولو وضعنا الطفل حيال مواد الدراسة فى ظروف الاستقراء العادية ، لما وصل الى نتيجة ما ، حتى لو اعانه المعلم فى هذا الاستقراء ، لان الامر هنا اشبه بعمل الباحث منه بعمل المعلم . ومن هنا يرى هؤلاء ان الطريقة المناسبة للتعليم هى الطريقــة القياسية التى تشرح القاعدة اولا ثم توضحها بالامثلة ثم تدرب التلاميذ عليها ، وتطالبهم بمطابقتها فى الاستعمال .

ويرد انصار الاستقراء على ذلك بان هناك فارقا بين استقراء العالم واستقراء المعلم ، فالاول استقراء ناقص فى خضم الحياة الطبيعية ينتهى الى وصف علمى ، اما الثانى فهو استقراء تام فى مجال نص محدود ينتهى الى فرض معيار على الاستعمال . فلا ينبغى ان نخلط بين استقــــــراء واستقراء ، ولا بين ظروف وظروف . فافضل الطرق ، فيما يرى هؤلاء ، ان يقدم المعلم النحو من خلال النص يعرضه على التلاميذ ويشرحه ، ويضع ايديهم على البينات التى تعين على استخراج القاعدة ، ثم يصل بهم من بعد الى القاعدة ذاتها . ثم ينتهى بعد ذلك بمطالبتهم بمطابقتها فى الاستعمال .

وعلى الرغم من ان عمل المعلم ليس مصارعة حرة مع عقل التلميذ لا تخضع للقواعد والطرق التربوية ، ينبغى ان نشير الى ان علم اللغــة التطبيقى يعطى حرية ملحوظة للمعلم فى مجال المزج بين الطريقتين بحسب ظروفه وتقديره ، بل يرى المزج بين الطريقتين فى التعليم امرا لا مفر منه . فلو فرضنا اننا استخدمنا النص فى استنباط القاعدة ، فوصلنا الى هــذه القاعدة من النص بالاستقراء فلن يتوقف بنا الامر عند هذا الحد ، لان

التدريب ، وهو أهم وسائل استضمار السليقة ، لا يتم الا بواسطة القياس على القاعدة ، سواء فى الامثلة التى يقدمها المعلم للتحليل ، او فى الجمل التى يصوغها التلاميذ اثناء التدريب .

ومما يتصل بالطريقة ايضا الشرح وهو وصف تعليمى كما سبقت الاشارة ، وكما ان الوصف التعليمى لا يتابى على المعيارية نراه حفيا بالقياس والتعليل والتاويل ليجعل كل ذلك وسيلة الى الضبط والتوجيه . وينبغى لهذا الوصف أن يجعل من غاياته القاء الضوء على الفروق بين أنماط التراكيب اللغوية ، وعلى الطابع التنظيمى للغة . فاللغة مكونة من انظمة ثلاثة رئيسية هى نظام الاصوات ، ونظام الصرف ، ونظام النحو ، وكل نظام منها يشتمل على انظمة فرعية . فالنظام الصوتى مثلا مكون من فروع تنظيمية منها نظام الصحاح والعلل ونظام المقاطع ونظام النبر ونظام التنغيم . فاذا نظرنا الى فرع كالصحاح والعلل وجدناه يتفرع أيضا الى الصحاح من جهة والعلل من جهة اخرى ، ولكل وظائفه . فتكون الصحاح دون العلل اصولا للاشتقاق وبداية للمقاطع ، وتتحمل الحركات وتوصف بالجهر او الهمس وتشدد فيكون من تشديدها اما بداية مقطع جديد أو وقف . واما العلل ( واقصد الحركات والمدود ) فهى مناط قوة الاسماع ومحور تقليب الصيغ من الاصول الثلاثة ومركز للمقطع وعلامات للاعراب لا يشاركها فى الدلالة على الاعراب من الصحاح الا النون فى الافعال الخمسة . ويتضح فارق الوظيفة بين الطائفتين بمكان الواو والياء فى التراوح بينهما لينا ومدا على النحو التالى :



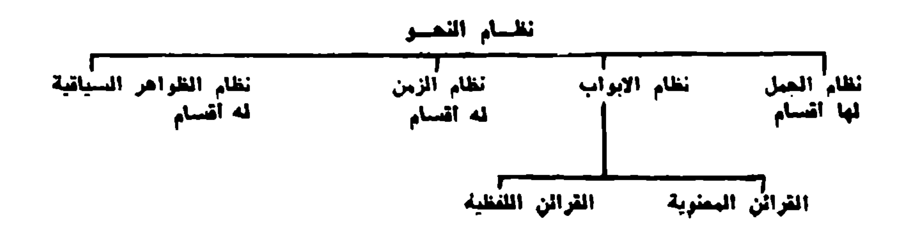
ويقوم النظام داخل الصحاح على المخارج العشرة وطرق النطق الاربع وعلى المزاوجة بين الجهر والهمس ، ثم التفخيم والترقيق . ويقوم النظام داخل العلل على اساس الطول والقصر والتقدم والتأخر بالنسبة لاعلى نقطة في اللسان اثناء النطق ويحكم النظام المقطعى نمط توزيعى في الكلمة فبعض المقاطع يصلح في بداية الكلمة وبعضها لا يصلح وبعضها يختص بالوقف وبعضها لا يختص وهلم جرا . ومعنى ذلك اننا ازاء نظام هو فرع على نظام حتى نصل الى اللغة باعتبارها النظام الاكبر .

وكذلك يتسم النظام الصرفى بدرجية في انظمته الفرعية تتمثل فيما يلى :

**نظام الصرف**

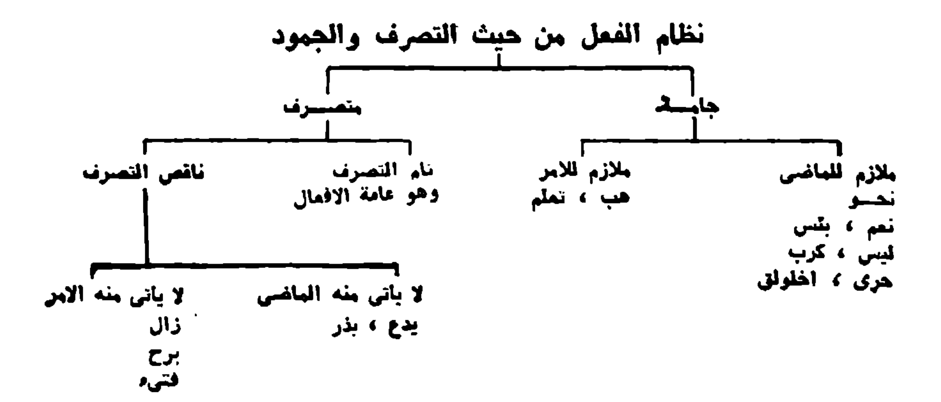
- اقسام الكلم
  - الاسماء: نظام ذو اقسام
  - الافعال: نظام ذو اقسام
  - الحروف: نظام ذو اقسام
- المطابقات
  - العدد: مفرد ومثنى وجمع
  - النوع: مذكر ومؤنث
  - الشخص: متكلم ومخاطب وغائب
  - التعيين: معرفة ونكرة
- الاشتقاق
  - الاصول
  - الزوائد

ولنظام النحو درجيته ايضا :

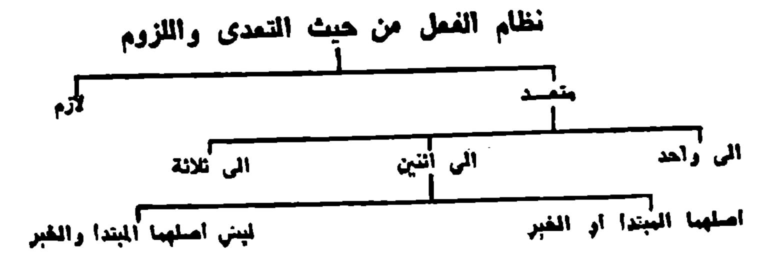


تلك صورة شديدة التركيز والاختصار لتفرع الانظمة اللغوية بعضها من بعض ، وما يزال هذا التفريع يتصاعد حتى تصبح المسالة الواحدة نظاما أصغر مشتملا على انماط فى داخل الباب النحوى كما يبدو الامر فى الامثلة التاليـــة :

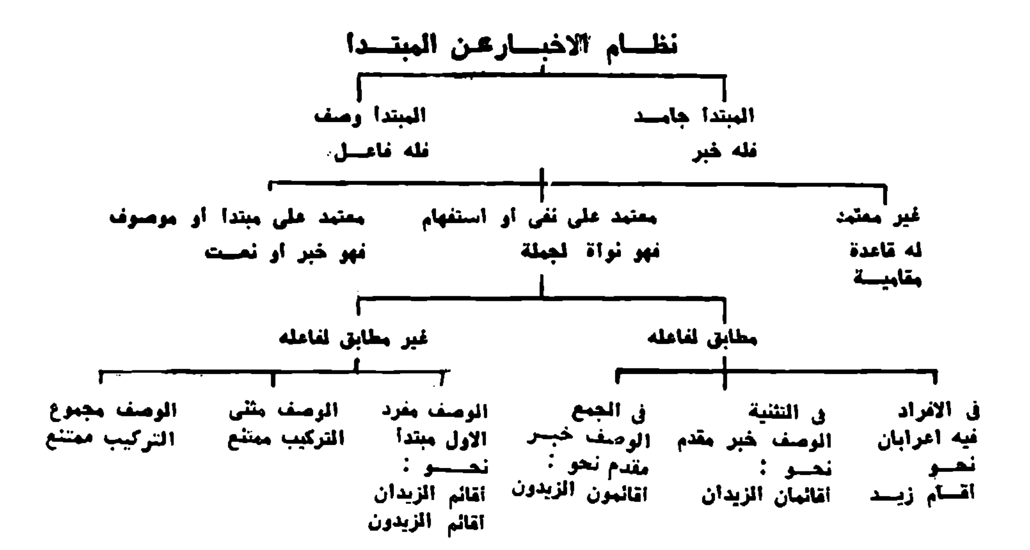
المثـــال الاول :




المثـــال الثانـــى :



المثال الثالث :




هذا ما قصدت اليه بدعوى درجية التنظيم اللغوى ، والذى يصنع النظام انما هو التوزيع النظمى للغة . وكلما كان المعلم على ذكر من هذا الطابع النمطى للغة كان اقدر على اجادة الشرح . ويحسن فى الشرح دائما ان يكون بعبارات بسيطة مع الابتعاد قدر الطاقة عن الافكار المجردة ، الا حين الاضطرار اليها كحين يسال التلميذ عن علة ، فان سال فليكن الجواب علة تعليمية لا جدلية كما اشار ابن مضاء ومن قبله ابن السراج .

سبقت الاشارة الى ان الضبط والتوجيه من مطلب التعليم . وقد يكون الضبط والتوجيه فى صورة العبارة المعيارية او القاعدة القياسية ،

كما يكونان فى صورة استعمال الوسائل الايضاحية السمعية والبصرية . واقدم الوسائل التوضيحية واشهرها الامثلة التى توضح القاعدة ، ولا يساويها فى اليسر وخفة المئونة الا ما اشرت اليه من الجداول الموضحة للانظمة . فليس أدعى للاحاطة بالقاعدة من أن تراها ماثلة امامك فى صورة جدول تتضح به علاقات الانماط ، اذ لا يثبت من الامور فى الذهن الا ما اتضحت علاقته بغيره . واما وسائل الايضاح الاخرى فلعل احقها بالعناية الاشرطة المصورة التى تشتمل على حوار باللغة الفصحى ، فتقدم للتلميذ الصواب والملاءمة فى وقت معا ، وتخرج اللغة من محبسها فى الكتاب الى فسحة الحياة النابضة ، فيقف الطالب من اللغة الفصحى موقف المشارك فى بيئة حية ، فيسهل عليه استضمار السليقة كما سهل عليه أن يكتسب لهجته الدارجة فى الحياة الطبيعية التى تتضح فيها ابعاد مقام الاستعمال بوضوح ظروف الاتصال . ولكن هذه الوسيلة باهظة التكاليف اذا وضعنا فى الاعتبار عدد المدارس والفصول والتلاميذ أما معامل الاستماع اللغوى فدون ذلك فى التكاليف المالية وفى النفع على حد سواء ، لان مجرد الاستماع بغير الرؤية قد يؤدى الى الصواب ، ولكنه لا يؤدى الى الملاءمة . والعين كما يقولون ابلغ فى التعليم من الاذن « وما راء كمن سمعا » .

وينبغى أن يكون العمل الرئيسى للمعلم هو التدريب والتمرين ، لان عرض القواعد بمفرده لا يؤدى الى اكتساب السليقة ، حتى ان ادى الى اكتساب القدرة على التحليل والاعراب وما دامت اللغة الفصحى ليست لغة البيت ، ولا لغة السوق ، فان المجال الوحيد لاستعمالها هو اليوم المدرسى وما يشتمل عليه من ساعات التدريب وضروب النشاط المخطط . فهناك دروس المحادثة ، والانشاء الكتابى ، والمطالعة الجهرية امام التلاميذ ، ثم ما يشتمل عليه النشاط الثقافى فى المدرسة من مناظرات ، وخطابة ، وعروض . كل ذلك من شانه ان يعين على استضمار السليقة ، وأن يكسر حاجز الخوف من صعوبة العربية التى اتهمت بها ظلما وعدوانا ، وكل ما هناك اننا بحاجة الى اعداد المعلم الواعى بدوره ، الفخور بمهمته ، المتحمس لعمله ، لنصل الى هذه الغاية .

وهناك الاختبار والامتحان . وينبغى ان نبتعد بهما عن طابــع الحفــظ والاستظهار ، الى طابع شحذ فاعلية التلميذ ، والكشف عن مـــدى استضماره للسليقة . فلا ينبغى للامتحان ان ينصب على القواعد والاحكام ، ولا ان تكون الاجابة عن السؤال بنعم اولا ، توقيا لحكم المصادفة فـــى التقييم ، وانما ينبغى ان يطالب التلميذ بتعيين التركيب الصحيح والخطا من جملة تراكيب معروضة ، وان يضبــط نصــا بالشكــل ، وان يكـــون عبارة صحيحة من كلمات مبعثرة ، وان يملأ المسافات البيضاء فى السياق بكلمات مناسبة ، وان يحول العبارة من المفرد الى غيره والعكس ويصف التغيير الذى تم ، وغير ذلك من اختبارات السليقة دون الذاكرة .

ولتحليل الاخطاء دور هام فى تعليم اللغة . ولقد ذكرنا من قبل ان السليقة تنسب الى متكلم مثالى فى مجتمع متجانس (*) اما على مستوى الافراد غير المثاليين فلكل منهم لهجته الخاصة التى تنبنى علــى السليقــة وتختلف قربا وبعدا من السليقة المثالية بحسب حظه من اللغة فاذا كــان الفرد تلميذا فى مدرسة كانت سليقته الفردية اكثر بعدا عن السليقـــة الفصحى ممن هم اعلى منه فى مرتبة التعلم . والفرق بين سليقته والسليقة الفصحى ( رغم ان كلا منهما نظام متكامل ) انهما قد يتطابقان فى بعض النواحى فيكون بينهما قسط مشترك common core » ولكن كلا منهما يختلف عن الاخر من جهات اخرى . وترجع نواحى الاختلاف الى تداخل اللهجة الدراجة للتلميذ مع ما تعلمه من الفصحى بحيث لو كنا على معرفة بنظام الدراجة لامكن ان نتنبأ باخطاء التلميذ فى الفصحى ، فالجهد التعليمى فى جملته يقوم على محاولة راب الصدع بين عادات التلميذ الاتية مـــن الدارجة وبين قواعد الفصحى ، اى بين السليقة الفردية والسليقة المثالية . ومن هنا يحسن بالمعلم ان يتعرف على طرفى المعادلة ، واكبر وسيلة من وسائل التعرف هى مراقبة اخطاء التلميذ وتحليلها ، لان هذه الاخطاء الظاهرة هى اعراض ظاهرة لجهات الاختلاف غير الظاهرة بين السليقتين . وهذه الاخطاء على انواع فمنها الهفوات وفلتات اللسان ، وهذه غيـــر مهمة ، لان صاحبها يعرف انه اخطأ ، ويعود الى تصحيح خطئه . وتتمثــل هذه الهفوات فى ظواهر الابدال والنقل والحذف والزيادة فى الجملة ، وتحدث عن التعب او التردد او القلق او الوقوع تحت ضغط عصبى ما ، فقــد

---

* العدد السابــع .

يقول المرء : (( رسلت القراءة )) وهو يعنى (( قرات الرسالة )) ومن الاغلاط ما يؤدى اليه الجهل بنظام اللغة كالذى نلحظه فى كلام غير العرب بلغة العرب ، وفى محاولة الاميين أن يتفاصحوا ، وهذا هو مجال التصحيح على لسان التلميذ . وقد تتعلق الاخطاء بالقواعد كما تتعلق باستعمال المفردات ، كما أن هذه الاخطاء جائزة على المتكلم حين يتكلم ، وعلى السامع حين يسمع ، ومن هنا تأتى ظاهرة سوء التفاهم ، ويستطيع المعلم أن ينتفع بتحليل هذه الأخطاء انتفاعا هاما فى توجيه تلاميذه وتدريبهم على الصواب ، كما يستطيع واضع البرامج أن يضع أصبعه على نقط هامة فى هذا المجال يعطيها عناية خاصة عند تصديه لعمله .

والله ولى التوفيق !

الرباط — د. تمام حسان

# في العاصفة

عمر بهاء الدين الأميري

**« اجواء ، ، ، وانواء ، ، ، والشاعر بين الهياجين : العاطفة والعاصفة يكابد تأجج غربته ويعاني انحراف صحته ؛ في شاعريته حنين ، وفي ايمانه يقين وفي انسانيته هم العالمين » :**

البرق يخطف من عيني غفوتها
والرعد يقصف أحلامي ويبهرها
والغيث في بحة جشاء منهمر
فوق الغصون يعريها ويهصرها
والريح تلقى على بلور نافذتى

أظافر البرد المجنون تنقرها
وللزكام دبيب قشعريرته
تسرى فترجف ذراتى وتسعرها
وفى فراشى برد الليل يجمع
أطرافى الى ، فان تمتد ينفرها
يشد أغطيتى فوقى ويمنعنى
تقلباً ، وعلى جسمى يكورها
ورحلة الوجد تجرى بى مجنحة
فوق السحاب الى الآفاق أعبرها
الى ليالى الهوى الظمآن كبلنى
عن ريه — وهو للأكباد كوثرها
حياء حر من الله الرقيب ، وما
فى ظلمة الجسم من روح ينورها
رى هو العذب وهو الندب ، أقرب من

نفسى الى ، ويحبوها ويؤثرها

ما ان تهم به الأشواق تنهله

الا وهبت لها تفوأى تزجرها

تلك الليالى التى كم كنت أجرعها

فى النأى صاباً وأوصاباً وأسهرها

واليوم ما زلت أحياها وأذكرها

وأستلذ الأسى فيها وأسكرها

ويرسل القلب ، عبر البون ، خفقته

تحية لحبيب كان يعمرها ، ، ،

●

ويرجع الرعد بى والبرق ثانية

فى غرفتى ، ، وكأن الهم يمطرها

وحدى وللعبء فى رأسى رحى ازدحمت

فيها خواطر مجد لست أحصرها

هــم العلــى ، والمنى حيرى ممنعــة

ولوعــة الكبــت فى الأنفاس أزفرهــا

فى غربــة الدهــر لكــن حامــد أبــداً

فأنــعــم الله مــلء العمــر أقدرهــا

**الربـــاط** **عمر بهاء الدين الأميرى**

# علاقة المغرب بالأقاليم الصحراوية الواقعة جنوبه

## (في ضوء رحلتي ابن بطوطة، والحسن بن الوزان)

د. شوقي عطا الله الجمل

ترجع علاقة المغرب بالصحراء الواقعة جنوبه ، وبالتالى بالاقاليم الواقعة خلفها الى عصور تاريخية بعيدة ، وكانت لهذه العلاقات آثارها العميقة على تاريخ هذه البلاد الصحراوية ، بل وعلى تكوينها البشرى والحضارى .

وكما سنرى ان المغرب كان الواجهة التى عن طريقها عرفت أروبا الكثير عن الاقاليم الداخلية فى قلب القارة الافريقية ، فقد كانت علاقات اوربا بالصحراء الغربية فى افريقيا والاقاليم الواقعة خلفها تتم عن طريق المدن والموانىء المغربية ، وكانت ثروة هذه المناطق الصحراوية والداخلية فى القارة خاصة فى الذهب ، والملح تسيل لعاب الاوربيين — لكنهم لم يكونوا يجرؤون على اختراق الاقاليم الصحراوية للداخل ، وكانت الخرائط التى يرسمها الجغرافيون الاوربيون لهذه الاقاليم الصحراوية تعبر عن هذا الجهل بهذه الاقاليم وما وراءها ، وهذا الطمع ايضا فى ثروتها ، فقد كانوا يضعون مكان الصحراء عرشا كبيرا من الذهب يجلس عليه ملك افريقى يلبس الملابس الموشاة بالذهب رمزا لهذه المناطق الافريقية الغنية

المجهولة لهم . وظل جهل الاوربيين بما وراء السواحل الشمالية والشمالية الغربية للقارة الافــريقية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حتى شاعت فى كتاباتهم عن افريقيا انها القارة المظلمة ـــ القارة التى لا يعرف العالم عما بداخلها شيئا يذكر (1) .

والعجيب انه فى ذلك الوقت الذى كان الاوربيون يجهلون كل الجهل عما بداخل القارة كان العرب ، وعرب المغرب بالذات يجوبون الصحراء الافريقية الغربية بقوافلهم التى اعتادت ان تخترق القارة من شمالهـــا متجهة صوب الجنوب فى طرق معروفة لهم تمام المعرفة حيث يستقرون فى الواحات أو غيرها من المناطق التى تعتبر بمثابة الموانى الصحراوية وكان لهم نظام خاص فى الاستقرار ، وفى الضيافة ، ومنازل تكرى لهم قبل مجىء القافلة ، وعوائد وتقاليد تمارس بين أهل الصحراء وبين القادمين من الشمال ، وتتم فى المراحل المختلفة من هذه الرحلة الصحراوية عمليات التبادل التجارى وما يتبعها من أخذ وعطاء فى مجالات متعددة .

ولو أن الكثير مما كان يمكن أن يخدم العلم والمعرفة لم يسجل ، لعدم حرص المسافرين فى هذه الرحلات على تسجيل مشاهداتهم ـــ لكن لاشك فى ان العالم كله يدين بالكثير لما سجلته فئة من الرحالة والمؤلفين العرب عن هذه الرحلات ـــ وقد ذكر ذلك بصراحة الكاتب الانجليزى بوفيـــل (BOVILL) فى كتابه القيم الذى الفه عن دور المغاربة فى تجارة الذهب عبـــر الصحراء . (2)

فقد قال : « اننا ندين بمعلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القـــارة الافريقية الى فئة قليلة من المؤلفين والرحالة العرب من أهمهم المسعودى ،

---

(1) Sykes, Percy : A History of Exploration (London 1949) P. 212-213.

(2) BOVILL, E.W. : The Golden Trade of the Moors (Oxford 1961)

هذا وللمؤلف كتاب آخر خصصه للحديث عن القوافل التجارية فى صحراء غرب افريقيا باسم:
BOVILL, E.W. : Caravans of the old sahara, An introduction to the history of Western Sudan (London 1933).

وابن حوقل ، والبكرى ، والادريسى ، وياقوت ، والعمرى ، وابــن بطوطة وابن خلدون .. » (3) .

والحقيقة التى تبرز من خلال كل ما كتب عن تاريخ المناطق الصحراوية فى افريقيا الغربية والمناطق الشاسعة الواقعة خلفها أن المغرب بعلاقاته العريقة بهذه البلاد ترك اثرا واضحا فيها وشارك بنصيب وافر فى تشكيل وتطوير حياة الناس فيها ومعتقداتهم وبقى هذا الاثر قويا الى اليوم ، بل لعل المغرب بضمه اقاليمه الصحراوية وبعلاقاته المثالية الحالية مــــع العديد من البلاد الافريقية فى غرب القارة يضيف ثراء جديدا لهذا العطاء الحضارى والثقافى الذى طبع علاقاته بهذه البلاد على مر العصور .

وقد عالجنا فى مقال سابق فى مجلة « المناهل » الغراء دور المغرب فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى غرب القارة الافريقية ، وفى هذا المجال سنحاول هنا أن نلقى نظرة عن الدور الذى لعبته التجارة ــ بصفة خاصةــ بين الشمال والجنوب فى تاريخ الصحراء فى القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وفى علاقات المغرب بهذه البلاد وذلك فى ضــــوء ما كتبه اثنان من الرحالة المغاربة زارا هذه الاقاليم الصحراوية والبــلاد الواقعة خلفها وكتبا عنها ــ وهما ابن بطوطة ، والحسن بن محمـــد الـــــوزان .

## الرحالتان وزيارتهمــا للصحراء الغربيــة

الرحالتان غنيان عن التعريف . ولذا أشير اليهما بشىء مــــن الايجاز ــ خاصة أننى سبق أن تناولت بشىء من التفصيل حياة الحسن بن الوزان بالذات (4) وذلك لكى نركز الاضواء على رحلتيهما فى الصحراء، وما لفتا النظر اليه من العلاقات التى ربطت بين المغرب والاقاليم الصحراوية الواقعــة فى جنوبـــــه .

---

(3) BOVILL, E.W. : The Golden Trade of The Moors P. 60.

(4) انظــر مجلــة « المناهــل » عــدد 2

## زيارة ابن بطوطة للصحراء الغربية ومشاهداته فيها :

ولد ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة والذى اشتهر فى البلاد الشرقية بلقب شمس الدين — فى طنجة عام 704 — 1304 م . ولقب ابن بطوطة الذى اشتهر به هو من القاب العائلة ، فالرحالة يذكر ابن عمه قاضى مدينة رندة — (5) فيعرفه بالفقيه ابن القاسم محمد بن يحى بن بطوطة (6) .

وقد طاف الرحالة معظم بقاع العالم القديم المعروف فى وقته ، فزار بلاد أفريقية ، وفارس وبلاد التبت — أو كما يقول محمد بن جزى الكلبى الذى سجل ما أملاه الرحالة من أخبار جولاته :

« انه طاف الارض معتبرا ، وطوى الانهار مختبرا ، وباحث فرق الامم ، وسبرسير العرب والعجم ، ثم القى عصا التسيار بهذه الحضرة العليا .. » (7) .

وهذه الاشارة الاخيرة من ابن جزى يقصد بها السلطان أبى عنان المرينى الذى حكم المغرب فى الفترة ( 749 — 759 هـ ) ( 1351 — 1357 م ) (8) .

---

5) رنده — بلدة بجنوب الاندلس قرب مالقة ، ويذكر ابن بطوطة انها من أمنع معاقل المسلمين فى الاندلس وأجملها .
انظر الرحلة ( طبعة بيروت 1968 ) — وهي التي سنشير لصفحاتها فى هذا البحث ص 653 .

6) الرحلة ص 653 .

7) مقدمة ابن جزى للرحلة — ص 7 .
ونشير الى انه توجد اجزاء من النسخة الاصلية التى املاها الرحالة على الكاتب محمد بن جزى الكلبى — بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم 907 .
كما عثر على نسخة كاملة للرحلة ، فنشرت فى باريس بتحقيق العالمين فريمـوى ، وسانجوينتى .
وقد نشرت الرحلة فى القاهرة فى طبعتين فى عامى 1875 ، 1904 .
كما ترجمت الرحلة بعد ذلك الى عدة لغات .

8) بويع السلطان ابى عنان فى عام 749 هـ قبيل وفاة والده السلطان أبى الحسن المرينى لكن استتب له الملك بعد وفاة أبيه فى عام 752 هـ .

فهو الذى قرب اليه الرحالة وشجعه على ان يستقر بفاس بعد طول جولاته ، وامر ابن جزى بأن يسجل ما يمليه عليه الرحالة : « مما شاهده فى رحلاته من الامصار ، وما علق بذهنه من نوادر الاخبار » . (9)

اما عن زيارة ابن بطوطة للاقاليم الصحراوية الواقعة جنوبـــــى المغرب ـ فقد تمت بعد زيارته لبيت الله الحرام عن طريق الشمال الافريقى ومصر ، وبلاد الشام ، فالحجاز ، ثم زيارته للامارات العربية بشـــرق افريقيا ، وزيارة الهند والصين وبعض الاقاليم الاسيوية الاخرى ، وعـــاد الى العراق والشام ومصر ، ومنها عن طريق شمال افريقيا الى فاس حيث مثل بين يدى السلطان ابن عنـــان . وكان ذلك فى اواخر شهر شعبـــان المكرم سنة خمسين وسبعمائة . (10)

بعد ذلك سافر الرحالة الى مدينة سبتة حيث قضى بها عدة شهور ، ثم ركب البحر الى الاندلس « عسى أن يكون له حظ من الجهاد والرباط .. وكان ذلك اثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة اشهر ، وظنه أنه يستولى على ما بقى من بلاد الاندلس للمسلمين ، فأخذه اللـــه

---

9) نستدل من مقدمة ابن جزى ان رحلة ابن بطوطة كما نشرت فى مختلف اللغات ليست كمـــا املاها الرحالة حرفيا ـ فابن جزى يذكر « انه توخى تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرها .. ونقلت معانى كلام الشيـــخ أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما اوردت لفظة على وصفه فلم اخل باصله ولا فرعه ، واوردت جميع ما أورده من الحكايات والاخبار،ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على انه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك » . انظر : مقدمة الرحلة ص 8 ، وخاتمتها ص 681 ، 682 .

10) هذا يدل على أن السلطان ابى عنان كان ـ كما ذكرنا سابقا ـ يمسك بدفة الامـــور فى المغرب فى حياة أبيه السلطان ابى الحسن .
وقد وصف الرحالة مقابلته الاولى للسلطان ، وقارن بينه وبين حكام الجهات الاخـــرى التى زارها فقال : « أنستنى هيبته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحلمه حلم ملك الروم ، وديانته ديانة ملك تركستان ، وعلمـــه علـــم ملك جـــاوه .. »
ويسترسل الرحالة فى الحديث عن الرخاء فى بلاد المغرب فى ذلك العهد مستدلا على ذلك بأمثلة عديدة لاثمان السلع بالمقارنة بما شاهده فى الاقطار الاخرى .
ولمن يريد الاستفادة من هذه المشاهدات القيمة الدقيقة عن احوال المغرب فى ذلك الوقت ـ فليرجع الـــى الرحلـــة ذاتهـــا .
انظر : الرحلة ص 644 وما بعدها .

من حيث لم يحتسب ، ومات بالوباء الذى كان اشد الناس خوفا منه — ثم عاد الرحالة الى فاس ثانية حيث توجه للسفر الى بلاد السودان . (11)

والرحالة يثير هنا قضية هامة نشير اليها اشارة عابرة لانها تحتاج لدراسة خاصة — وهى قضية جواز المسلمين من المغرب الى الاندلس للدفاع عنها ضد المسيحيين ، وللجهاد والرباط ، كما يقول هو ، واعتبارا ذلك الجهاد واجبا على كل مسلم يثاب عليه . والحقيقة انه حتى فى اشد فترات ضعف الدولة المرينية وجد من يدعو للجهاد ، ويحض الشباب المغربى على القيام بهذا الواجب ، وقد اشتهر فى هذا الميدان كثيرون منهم الشيوخ والعلماء الذين سخروا علمهم ومالهم ومكانتهم فى نفوس الناس للدعوة لهذا الواجب ولتجهيز الشباب واعداده فى الثغور المغربية للجواز للاندلس . (12)

عاد الرحالة الى فاس ، فودع كما يذكر — السلطان أبى عنان وتوجه برسم السفر الى بلاد السودان . والسؤال الذى يطرح نفسه علينا لاول وهلة هنا هو : ما دوافع هذه الزيارة ؟

---

11) انظر الرحلة ص 651 .
والاحداث التى تعرض لها الرحالة هنا فيما يتعلق ببلاد الاندلس هامة ، فزيارته تمت بعد وفاة الفونس الحادى عشر (Alphonse 11) ملك قشتالة ( 1310 — 1350 م ) ، وكان ضغط قشتالة على مملكة غرناطة الاسلامية وسلطانها اذ ذلك السلطان أبو الوليد اسماعيل شديدا ، ووقعت بين الطرفين عدة معارك ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الاندلس من هجوم ملوك قشتالة واراجون ، وفى عام 1349 زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء لفرض حصار على الجيوش الاسلامية — لكن تفشي الوباء فى جيش القشتاليين وكان ملكهم فى مقدمة الضحايا، واضطروا لفك الحصار، وهذا ما يشير اليه الرحالة .
وقد خلف الفونس الحادى عشر ابنه بيدرو الثانى (Pedro 2) الذى اشتهر فى المراجع العربية باسم ( دون بطره ) وهو الملك الذى أوفد اليه المؤرخ والفيلسوف ( ابن خلدون ) سفيرا من قبل ملك غرناطة ، وكان معاصرا للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة المشهور .
انظر — عنان ، محمد عبد الله : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين (1966 ) ص 171 — 173 .

12) انظر — البحث القيم للاستاذ محمد المنونى : التيارات الفكرية فى المغرب المرينى ( مجلة الثقافة المغربية — عدد 5 )

لقد ذكر لنا الرحالة بوضوح ان زيارته لاسبانيا كان الهدف منها أن يكون له حظ من الجهاد والرباط ، أما هذه الرحلة للاقاليم الصحراوية والبلاد السودانية فلم يفصح عن أهدافها ، ولم يحدد القصد منها ــ لكنه ذكر بصراحة أن السلطان المرينى كان على علم بها ، فهل يا ترى اقتصر الامر على مجرد العلم أم انه ــ اى السلطان ــ كان الدافع وراء قيام الرحالة بهذه الرحلة . على كل لا يمكن أن نجزم بشيء ، فابن بطوطة رحالة يجرى فى دمه حب التنقل والترحال ، فقد يكون الدافع له ان يرى ويشاهد بنفسه هذه البلاد وما فيها ، وقد يكون السلطان المرينى نفسه وهو الذى احتضن الرحالة واضفى عليه من عطفه وتشجيعه وحرص على ان يسجل ما شاهده فى رحلاته ــ قصد أن يكتمل هذا العمل بقيام الرحالة بهذه الرحلة لهذه البلاد التى تربطها بالمغرب علاقات قوية من زمن بعيد ليسجل عنها مشاهداته ، ولا شك فى أن هذه المعرفة ستخدم العلاقات السياسية والتجارية وغيرها بين المغرب وهذه البلاد .

هذا على أن بوفل فى كتابه عن دور المغاربة فى تجارة الذهب عبر الصحراء يرجح أن ابن بطوطة كان مرسلا من قبل السلطان ابى عنان نفسه، وانه ذهب الى هذه البلاد بتكليف من السلطان (13) .

وقد ذكر ابن خلدون انه كانت بين سلطان المغرب ، وسلطان مالى السلطان منسى سليمان الذى سيزوره رحالتنا ابن بطوطة كما سنشير بعد ــ صلات ودية ، وقد أرسل هذا السلطان للسلطان المغربى هدية ضمنها زرافة كانت موضع اعجاب الناس فى مراكش (14) .

ويرجح راى ( بوفل ) هذا ما ذكره الرحالة نفسه فى نهاية رحلته بانه وهو فى تكدا ــ أرسل سلطان المغرب يستدعيه ليعود الى فاس فعاد اليها فى قافلة كبيرة عن طريق ايرى ، وتوات ، وسجلماسة (15) .

---

(13. BOVILL, E.W. : Op. Cit, P. 94.

(14) كان ابن خلدون قد استقى معلوماته عن مالى من الشيخ عثمان مفتى كوبى الذى زار القاهرة فى عام 1394 م فى طريقه الى الحج ، وكذلك من ابى عبد الله محمد السلجماسى الذي كان يعمل فى عام 1374 قاضيا بمدينة غاؤ ( جنوب شرقي تنبكتو )
انظر : ابن خلدون ــ ج 6 ص 159 .
وقداح ، نعيم : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام ( دمشق 1960 ) ص 57 .

(15) الرحلة ص 670 .

وفيما يتعلق بالرحالة نفسه ــ فقد كانت الرحلات على العموم فى ذلك الوقت تجمع بين عدة اهداف واغراض منها العلمية ، ومنها الدينية ومنها التجارية ــ فحتى فى اثناء الرحلة للحج كانت تتحقق هذه الاهداف ، فالوقت كان فيه متسع للاقامة الطويلة والتجارة وتلقى العلم والذهاب للاماكن المقدسة للحج والعودة ، وقد يستغرق ذلك سنوات دون أن يشعر المسافر بالضيق أو الضجر .

أما عن الاماكن التى زارها ابن بطوطة فى رحلته ، فقد زار سجلماسة، واطنب فى مدحها ، فذكر انها من احسن المدن ، وبها التمر الطيب فهى تشبه البصرة بالعراق فى كثرة تمرها ، وان كان تمر سجلماسة ــ كما يقول ــ اطيب (16) .

ثم سافر فى غرة المحرم سنة 753 هـ / 1352 م رفقة جماعة من تجار سجلماسة الى تغازى فوصلها بعد خمسة وعشرين يوما ، وهى قرية بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها ، والملح بها على شكل الواح ضخام كأنها نحتت ووضعت تحت الارض ، ويعمل فى استخراج الملح أعداد كبيرة من مسوفه (17) ، ويتعامل السودان بالملح كما يتعاملون بالذهب والفضة ويقطعونه قطعا ويتبايعون به ، وقرية تغازى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر .

ويشير الى ظاهرة منتشرة فى هذه الجهات ، وقد فرضتها طبيعة الصحراء وهى تتعلق بمن يطلقون عليه اسم ( التكشيف ) ، وهو كما يذكر يطلق على الرجل من مسوفة يكتريه رجال القافلة ليسبقهم للبلدة التالية التى سيحطون رحالهم فيها حاملا معه رسائلهم الي أصحابهم ليكتروا الدور وليخرجوا للقائهم بالماء لمسافات قد تصل الى مسيرة اربعة ايام ، ومن لم

---

16) الرحلــة ص 658

17) مسوفه ــ قبائل منتشرة فى هذه الجهات من الصحراء الغربية ، وهم مسلمون يحافظون على القيام بالشعائر الدينية ، وتعلم الفقه وحفظ القرآن ، لكن اخذ عليهم ابن بطوطة أن النسب عندهم ( اموى ) أى ينتسبون للام لا الى الاب ، والرجل يرثه ابناء أخته دون بنيه، كما اخذ على نسائهم انهن لا يحتجبن ولا يحتشمن مع الرجال .
انظر : الرحلة ص 661 ، 662 .

يكن له صاحب معين يكتب اليه — يكتب عادة الى من اشتهر بالفضل من التجار بالمدينة المقصودة ليقوم بهذا العمل — وتدفع للتكشيف فى مقابل هذا العمل مبالغ كبيرة تصل الى مائة مثقال من الذهب (18) .

ومن طريف ما يذكر ابن بطوطة أن التكشيف الذى دفعوا له مائة مثقال من الذهب ليسبقهم الى ( ايولاتن ) كان كفيفا (19) .

ووصل الرحالة بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة الى مدينة ( ايولاتن ) (20) وهى أول عمالة السودان ، وقد نزل فى دار اكتراها له رجل فاضل من اهل سلا يقيم بهذه المدينة كان قد كتب له أن يكترى له دارا

وهذا دليل على انه كان يقيم فى هذه الجهات عدد من المغاربة ليكونوا حلقة اتصال فى سلسلة التجارة بين المغرب وهذه البلاد ، وكان هؤلاء معروفين لاخوانهم ويقومون بالخدمات والتيسيرات المطلوبة للقادمين من المغاربة من الشمال ، هذا وليست هذه الاشارة الوحيدة لوجود المغاربة من تجار وعلماء وفقهاء فى هذه البلاد ، فقد أشار الرحالتان ابن بطوطة ، والحسن بن الوزان ، الى ذلك فى اكثر من موضع من رحلتهما كما سنوضح بعد .

ويتحدث ابن بطوطة عن بعض علماء مدينة ايولاتن الذين قابلهم كالقاضى محمد بن عبد الله واخيه الفقيه المدرس يحيى ، كما يشير الى عادات السكان بها والى مأكلهم وثيابهم .

---

18) الرحلة ص 659 ، 660 .

19) من العجيب ان الحسن بن الوزان بعد هذا الزمن بقرن ونصف تقريبا . يذكر ان قافلة ضلت طريقها ، لكن أنقذها دليل أعمى كان يعرف طريقه عن طريق حاسة الشم .
وقد سجل هذه الظاهرة كثير من الرحالة فى الصحراء ، فالادلاء المكفوفون أدوا لهم خدمات لم يستطع الادلاء المبصرون أو يؤدوها . وقد ذكر المستكشف دنهام (Denham) الذى أسهم فى كشف نهر النيجر أن العرب فى الصحراء جنوب فزان كانوا يعرفون اين توجد الينابيع المائية عن طريق شم رمال الصحراء .

20) هى مدينة ولاتة .

وسافر الرحالة بعد ذلك الى مالى ، وبينها وبين ايولاتن — كما يقول — مسيرة اربعة وعشرين يوما ، وكان ذلك ايضا بصحبة دليل من مسوفة . ويتميز الطريق اليها بوجود اشجار ضخمة يتجمع الماء فى جوفها اذا سقط المطر فيخزن ليشرب منه الناس فى زمن الجفاف (21) .

ويذكر أن المسافر لهذه البلاد لا يحمل معه زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما — انما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس ( المنظم ) وبعض السلع العطرية ( كالقرنفل والمصطكى ) فيبادل هذه بما يحتاجه من مأكل أو مشرب ، حيث يجىء نساء السودان بالدجاج والدقيق والنبق والارز واللبن وغيرها من منتجاتهم لمبادلتها بما تجلبه القوافل من البضائع السالفة الذكر (22) .

وكان وصول ابن بطوطة الى مالى فى الرابع عشر من جمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة حيث قابل سلطانها منسى سليمان (23) وقابل قاضى المدينة والفقهاء ، وكانت مالى فى ذلك الوقت امبراطورية عظيمة تفرض سلطانها على مناطق واسعة من السودان ، وقد أسهب ابن بطوطة فى شرح مشاهداته فى بلاد مالى ، فتحدث عن بعض نظم الحكم السائدة عندهم ، فالسلطان يجلس لتدبير شؤون الدولة فى قبة مرتفعة بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات ، ويحيط به نائبه والامراء والفقهاء وخطيب المسجد ، بينما الجنود فى الخارج مسلحين بالرماح والقسىوالاطباق والابواق وهى من أنياب الفيلة ، واشار الى أن السودان أعظم الناس تواضعا لملكهم واشدهم تذللا له يحلفون باسمه ، واذا دعى أحدهم لمقابلة السلطان بالغ فى اظهار صنوف التذلل ، فهو ينزع ثيابه ويلبس ثيابا بالية وينزع عمامته ويجعل شاشيته وسخة — ويرمى بالتراب على راسه وظهره وقد استهجن الرحالة هذه العادات كما استهجن كون الخدم والجوارى

(21) هذه الظاهرة موجودة حتى اليوم فى اقليم دارفور بسودان وادى النيل حيث تجمع مياه الامطار فى اشجار التبلدى للاستفادة منها زمن الجفاف .
انظر — شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ( القاهرة 1969 ) ج 2 ص 177

(22) الرحلة ص 663 .

(23) منسى معناها فى لغة أهل مالى السلطان كما يذكر ابن بطوطة ( الرحلة ص 665 ) وقد حكم السلطان منسى سليمان فى الفترة ( 1336 — 1359 م ) .

والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ــ لكنه سجل ايضا ما لمسه فى مالى من الحسنات والفضائل كاحتفالاتهم بالاعياد الاسلامية وبشهر رمضان المبارك واحسانات السلطان على رجال دولته وأفراد شعبه فى هذه المناسبات ، كذلك حبهم للعدل ، فهم ــ كما يقول ــ أبعد الناس عن الظلم ، وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه ، وكذا شمول الامن فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق أو غاصب ، وعدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من الاجانب ولو كان القناطير المقنطرة ، فهم يحتفظون به حتى يأخذه مستحقه ، وكذلك ذكر لهم مواظبتهم على الصلاة والتزامهم بها فى أيام الجمع وضربهم أولادهم عليها ، حتى اذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلى لكثرة الزحام (24) .

وفى مالى مرض ابن بطوطة بسبب اكله عصيدة مصنوعة من شىء يشبه القلقاس وهو طعام مفضل عندهم ، لكن عالجه طبيب مصرى مقيم هناك فأعطاه دواء يسمى ( بيدر ) مركب من عروق بعض النباتات فشفى بعد أن أرقده المرض شهرين (25) .

وغادر ابن بطوطة مالى فى الثانى والعشرين من محرم سنة أربع وخمسين وسبعمائة فى رفقة تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب فى طريقهم الى قرية ميمه حيث يوجد قبر أبى اسحق المهندس الغرناطى المغربى المعروف بالطويجن (26) .

ويقص لنا قصة طريفة لها دلالتها ، وهى تتصل ايضا بهذا المهندس المغربى أبى اسحق الساحلى ــ فيذكر ان السلطان منسى موسى لما كان

---

(24) الرحلة ص 666 ــ 672 .
(25) الرحلة ص 665
(26) الرحلة ص 675 .
وقد كان هذا المهندس الاندلسى المغربى على راس بعثة معمارية ارسلت فى عصر السلطان ابى الحسن المرينى الى مالى للاشراف على بناء مسجد وقصر للسلطان منسى موسى بها ، وقد اشرنا الى هذه البعثة بالتفصيل فى بحث سابق عن الحضارة الاسلامية العربية فى غرب افريقيا ودور المغرب فيها .
انظر مجلة المناهل ــ العدد السابع ص 138 .

فى طريقه للحج مر بمصر ولكثرة ما أسرف فى صرف الذهب والمال احتاج الى مال فاقترضه من تاجر مصرى ثرى يدعى سراج الدين ، كما اقترض أيضا منه أمراء السلطان — فلما عاد السلطان الى مالى توجه سراج الدين بنفسه ومعه ابنه فوصلا الى تنبكتو لاقتضاء ماله فاستضافهما المهندس المغربى ابو اسحق الساحلى فى منزله بتنبكتو — لكن شاء القدر أن يموت سراج الدين تلك الليلة — فتكلم الناس فى ذلك واتهموا انه سم ، لكن ولده نفى ذلك نفيا قاطعا قائلا : انى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكن انقضى أجله ، ورحل الولد الى مالى واقتضى مال أبيه وانصرف الى ديار مصر (27) .

والعجيب ان ابن بطوطة لا يقف بنا وقفة طويلة عند مدينة تنبكتو رغم اهميتها ، فقد أسرع وخرج بنا منها مبحرا فى النيجر (28) . أبحر ابن بطوطة من تنبكتو فى مركب منحوت من خشبة واحدة ، وكانوا كما يذكر يتوقفون فى قرى صنغاى ليحصلوا على ما يحتاجون اليه من الطعام بديلا عن الملح والعطريات وحلى الزجاج ، وفى احدى هذه القرى أعطى عبدا ظل معه حتى وقت كتابة رحلته .

وسار الرحالة الى مدينة ( كوكو ) وهى مدينة كبيرة على النيجر من احسن مدن السودان واكبرها ، واقام بها شهرا فى ضيافة ثلاثة من

27) تعتبر رحلة الحج هذه التى يشير اليها هنا ابن بطوطة والتى كان على راسها السلطان منسى موسى فى عام 724 هـ / 1323 م من اشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التى سجلها التاريخ — ولمن يريد تفاصيل اكثر عنها — انظر :
العمرى : مسالك الابصار ص 943 وما بعدها .

28) يذكره خطا باسم ( النيل ) وهذا راجع الى أن مشكلة النيجر — وهل له صلة بنهر النيل أم لا واتجاهه ظلت قائمة حتى القرن الثامن عشر .
وسنرى الحسن بن الوزان نفسه يقع فى خطا آخر بخصوص نهر النيجر فرغم انه أبحر فيه لمسافة طويلة فقد ذكر انه ( يسير نحو الغرب الى المحيط ) والحقيقة ان الانسان لا يجد تفسيرا لهذا الخطا الذى وقع فيه الرحالة الحسن بن الوزان الذى استطاع ان يبحر فى النيجر لاكثر من خمسمائة ميل .

المغاربة هم محمد بن عمر من اهل مكناس ، والحاج محمد الوجدى التازى، والفقيه محمد الفيلالى امام مسجد البيضان (29) .

ورحل ابن بطوطة بعد ذلك الى مدينة تكدا مع قافلة كبيرة للتجار الغدامسيين وكان فى رفقته مغربى من اهل تادلى . وفى تكدا نزل فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى (30) .

ويذكر أن أهل تكدا حرفتهم الاساسية هى التجارة ، وكل سنة لهم قافلة كبيرة تسافر الى مصر لهذا الغرض — هذا بالاضافة الى استخراج معدن النحاس من باطن الارض حيث يسبكونه سبائك يشترون بها ما يحتاجون اليه من اللحم والحطب والعبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويتاجرون بها مع بلاد كوبر ، وبرنو وغيرها (31) .

## علاقة المغرب بالاقاليم الصحراوية فى ضوء رحلة ابن بطوطة :

ان من يقرأ رحلة ابن بطوطة الى هذه الاقاليم الصحراوية بغرب افريقيا تأخذه الدهشة من مدى النشاط التجارى فى هذه المناطق — فقد كانت حركة القوافل لا تنقطع فيها ، تنقل منتجاتها الى الاقاليم الساحلية فى الشمال لتعود محملة بما يحتاجه سكان الصحراء من ملابس وبضائع .

ويعطى لنا ( بوفل ) مثلا لتنظيم تجارة هذه الاقاليم الداخلية مع التاخل فيذكر ان اسرة من الاسر التجارية الكبيرة فى المغرب هى اسرة

(29) الرحلة ص 677
ملاحظة : لم يذكر لنا الرحالة بصراحة ما يزاوله هؤلاء المغاربة من عمل ، وسبب مجيئهم الى هذه البلاد ، لكن يفهم من حديثه ان منهم التاجر والفقيه وامام المسجد، فهم يقومون بالتجارة ونشر العلم ، والدين فى هذه البلاد .

(30) اشارته هنا الى وجود شيخ للمغاربة فى تكدا تعنى ان بها جالية مغربية كبيرة لها شيخ يتولى امرها .

(31) الرحلة ص 677 ، 678 .
واشارة ابن بطوطة الى توفر معدن النحاس بهذه البلاد ، والى قيام الاهالى باستخراجه من باطن الارض وسبكه قضبانا يستغلونها فى التجارة لها اهميتها فى القاء الاضواء على النشاط التجارى بهذه البلاد .

( المقرى ) كونت شركة تجارية من خمسة أخوة للتجارة مع الاقاليم الصحراوية بغرب افريقيا ، فكان اثنان منهم يقيمان فى ولاتا حيث تتجمع لديهم كميات البضائع المطلوبة من العاج وخلافه ، وكانا يزوران الاسواق الهامة فى الجنوب من حين لآخر ، وكان اثنان آخران يقيمان فى موانى المغرب ويحرصان على تزويد الآخرين بالتجارة الاوربية ؛ أما الخامس فكان رئيس الشركة وكان يستقر فى سلجماسة التى كانت لا تزال أهم مراكز الشمال فى تجارة القوافل ، حيث كان قادرا على أن يراقب الاسواق عن قرب ويرسل الى بقية اخوانه عن اسعار البضائع . (32)

ولابد أنه كان هناك آخرون مثل ( اخوان المقرى ) .

هذا على أننا فى تتبعنا لرحلة ابن بطوطة التقينا أكثر من مرة بالمغاربة المستقرين فى هذه المناطق التى زارها الرحالة ، وكان منهم النجار ، ومنهم رجال الدين ومنهم الذين يعملون لنشر العلم والثقافة فى هذه البلاد النائية .

ولا شك فى أن رحلة ابن بطوطة تدل على الاهتمام الذى كان يوليه حكام المغرب منذ زمن بعيد لهذه الاقاليم .

والرحلة — بالاضافة الى ما أحتوته من معلومات متعددة عن مراكز التجارة فى الطريق الصحراوى الطويل بين المغرب وهذه البلاد فى غرب القارة — فانها تعطينا صورة لما كان يجرى فى هذا الطريق ونظام القوافل ، والتبادل التجارى والسلع مجال هذا التبادل .

ونشير الى أن الرحالة اتبع فى عودته طريقا آخر غير طريق الذهاب فقد كانت هناك طرق متعددة للقوافل لكنها كانت كلها معروفة ومحددة ومطروقة ومنظمة بطريقة تثير الاعجاب .

BOVILL : The Golden trade of the Moors P. 98. (32

## زيارة الحسن بن الوزان للصحراء الغربية ومشاهداته فيها :

سبق ان تدمنا فى بحث نشر فى مجلة المناهل تعريفا بالرحالة الحسن بن الوزان الذى اشتهر باسم ليو الافريقى ، والظروف التى ارتبطت بنشر كتابه عن « تاريخ افريقيا ووصفها » من واقع مشاهداته فى رحلاته المتعددة . (33)

لكن تهمنا هنا بالذات رحلته للصحراء الغربية فى افريقية ومشاهداته فيها ، فالظروف التى تمت فيها هذه الرحلة الهامة مرتبطة بالعلاقات الوثيقة التى كانت بين المغرب وهذه المناطق منذ ذلك الوقت .

فقد ارسله سلطان فاس رفقة عمه فى بعثة الى صنغاى (34) ، وكان عمره فى ذلك الوقت دون العشرين عاما (35) ، هذا وقد اتيحت له فرصة زيارة هذه البلاد مرة اخرى فى خلال سنوات قليلة .

---

(33 انظر — مجلة المناهل عدد 2

(34 يشير د. روبرت برون (Dr. R. Brown) الذى كتب مقدمة الطبعة الانجليزية للرحلة والتعليق عليها والتى نشرت فى ( 1896 ) الى ان تاريخ رحلة الوزان هذه هو بين 1513، 1515 وان سلطان فاس المشار اليه هو ( مولاى محمد القائم ) بينما المعروف ان فاس لم تسقط فى يد السعديين الا عام 956 هـ / 1549 م وذلك على يد السلطان ابى عبد الله محمد الشيخ ، فالارجح ان سلطان فاس الذى ارسل محمد بن الوزان فى هذه الرحلة هو السلطان محمد البرتغالى الوطاسى ( 910 — 931 ) ، اما الشريف ابو عبد الله القائم فقد كان نشاطه فى ذلك الوقت فى جنوب المغرب فى بلاد درعة ، والسوس الاقصى، ثم بسط السعديون بعد ذلك نفوذهم على مراكش فى حدود عام 930 ، لكن فاس — كما ذكرنا — لم تسقط فى ايديهم الا سنة 956 هـ بعد حصار طويل دام ما يقرب من سنة .
انظـر :

« The History and description of Africa and of the Notable things there in contained written by Al Hassan Ibn Mohammed Wezan Al Fasi, A moor, Baptised as Giovanni Leone but Better known as Leo Africanus ».
(London 1896) P. 124-125. وهى الطبعة التى سنشير دائما لصفحاتها .

(35 حاولت فى البحث السابق نشره فى مجلة المناهل عن الحسن بن الوزان — تحديد تاريخ ميلاده ، اذ انه مختلف عليه ، وقد رجحت انه ولد سنة 904 هـ / 1498 م .
ارجع للبحث المذكور — بمجلة المناهل عدد 2

ولاشك فى أن بعثة الحسن بن الوزان التى زار فيها هذه الاقاليم تدل دلالة واضحة على اتصال المغرب بهذه البلاد ، واهتمامه بها وعلـى العلاقات الاقتصادية والسياسية ، والدينية التى كانت تربطه بها . واذا ربطنا بين هذه البعثة وبعثة ابن بطوطة السابقة يمكن أن نصل الـى حقيقة وهى أن العلاقات بين المغرب وهذه البلاد الصحراوية كانت قوية ، والبعثات الرسمية بينهما كانت مستمرة ومنتظمة ، وذلك لخدمة المصالح المشتركة الاقتصادية والسياسية والدينية ، ولرعاية شؤون ومصالـح المغاربة الذين كانوا يتعاملون مع هذه البلاد بالاضافة الى الذين استقروا بها ليكونوا حلقة فى الاتصال التجارى أو لنشر الدين والعلم بين سكانها .

ولعله من الافضل أن نتتبع هنا أيضا الرحالة فى رحلته فى هذه البلاد ، وفيما سجله من ملاحظات عنها .

سلكت سفارة الحسن بن الوزان صوب الجنوب طريق القوافـل المعتاد الذى يقطع الصحراء من سجلماسة الى اغاديس ، ومنها الـى تمبكتو ــ لكنها عادت بطريق آخر طريق اغاديس ــ توات ــ تلمسان ــ فـــاس .

ويشير الحسن بن الوزان فى بداية حديثه عن رحلته هذه ــ الـى شعوب الصحراء فيذكر أنها كانت فى الماضى تعيش حياة بدائية لا تخضع لملك أو أمير الى أن خضعت بعض هذه القبائل لنفوذ المرابطين ، فكانت هذه نقطة تحول فى تاريخهم فبعد أن كانوا يعبدون الشمس ، وبعضهـم يعبد النار ــ انتشر الاسلام بينهم على نطاق واسع ، واخذوا من البربر

الكثير من مظاهر الحضارة والتقدم ، وحتى بعد أن نجحوا فى تأليف ممالك مستقلة كانوا فى نظمهم وثقافتهم متأثرين بنظم البربر وثقافتهم (36) .

عبر الحسن بن الوزان ورفاقه جبال الاطلس ووصلوا الى سجلماسة، ويذكر انها كانت فى ذلك الوقت فى طريقها الى التدهور ، بعد أن كانت من قبل مدينة مزدهرة بحكم موقعها فى طريق القوافل للمناطق الصحراوية الداخلية ، ولا يعلل لنا سبب تدهورها ، لكن لا شك فى أن ذلك مرتبط بالظروف الداخلية فى المغرب ، ففى ذلك الوقت كانت الثغور المغربيـــة تتعرض لاطماع البرتغال ، وقد شارك الحسن بن الوزان نفسه فى الحملات التى وجهت ضد أصيلا ، والمعمورة (37) .

واوغلت البعثة فى الصحراء ، وتوقفت فى تغازه ، ومنها الى ولاتا ، ويعطينا الرحالة صورة عما آلت اليه هذه المملكة الصغيرة من فقر وتدهور بعد أن كانت من أهم مراكز التجارة بين الشمال والجنوب فى عهد الملثمين ، لكن خضوعها لمملكة صنغاى أدى لفرار عدد كبير من تجار البربـــر

---

(36 Leo Africanus : vol III P. 820

لعب المرابطون كما يشير هنا الحسن بن الوزان — دورا هاما فى نشر الاسلام بالاقاليم الصحراوية والسودان . والمرابطون هم اللمتونيون من قبيلة صنهاجة اعظم قبائل البربر، وكان موطنهم الاصلى الصحراء الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان وكان يقال لهم الملثمون لانهم كانوا يلثمون لشدة الحر والبرد فى بلادهم ولوقاية وجوههم من عجاج الصحراء ، وقد دانت لهم كثير من بلاد السودان فترة من الزمن ، لكن تفرق امر الملثمين ثم عادوا من جديد للتجمع حول الامير أبى عبد الله محمد ابن تيفاوت اللمتونى ، وخلفه يحيى بن ابراهيم الكندالي ، ثم عبد الله بن ياسين ــ الذي قام بدور هام فى نشر الاسلام ومبادئه فى الاقاليم الصحراوية ، وحين دخل المرابطون المغرب بقيادة عبد الله ابن ياسين فى سنة 447 هـ / 1053 م وادى انشغالهم بشؤون المغرب الى اختلال الامر بالصحراء ــ سارع الامير ابو بكر الى الصحراء ليعيد النظام الى نصابه . وكما سترى ان الحسن بن الوزان يشير مرارا اثناء تسجيل أحداث رحلته هذه ــ الى دور المرابطين فى نشر الاسلام وتعاليمه وحضارته فى الصحراء وبلاد السودان .

والحقيقة انه اذا كان دور المرابطين فى المغرب قد طغى على دورهم بالصحراء ــ فلاشك فى أن دورهم البطولى والحضارى فى الصحراء والسودان جدير بان يلقى نفس العناية والدراسة . فقد كان جهدهم نواة لظهور امبراطوريات اسلامية عظيمة تقع عواصمها على طول خط الالتقاء بين الصحراء وبلاد السودان .

انظر : محمد صفى الدين : افريقيا بين الدول الاوربية ( القاهرة 1909 ) ص 52 .

(37 ارجع لما ذكرناه بالتفصيل عن ذلك فى بحثنا عن الحسن بن الوزان فى العدد الثانى من مجلة المناهل .

منها ، وترتب على ذلك اضمحلال حياتها الاقتصادية . واهل ولاتا فى تقاليدهم وعاداتهم وحياتهم العامة — كما يصفهم الرحالة — لا يختلفون عن بدو الصحراء فى الشمال فهم اهل لثام ، واكثر شعوب السودان ميلا وحبا للغرباء ، لكنهم اصبحوا يفتقرون الى قيام حكام عادلين وقضاة يفصلون فى شؤونهم (38) .

ويحدثنا الرحالة بعد ذلك عن مدينة ( جنى ) الواقعة بين ولاتا فى الشمال ومالى فى الجنوب وتمبكتو فى الشرق والبحر المحيط غربا ، وهى تمتد — كما يقول — 250 ميلا على طول نهر النيجر ، ويكثر بها الشعير ، والارز ، والاغنام ، والاسماك ، كما يكثر بها القطن الذى يشتريه التجار المغاربة ليصدرونه لاوربا مقابل ما يستوردونه من اقمشة اوربية واوانى نحاسية واسلحة ، والعملة المستخدمة هنا فى المعاملات التجارية هى عملة ذهبية ليس عليها اية نقوش او كتابة ، كما توجد عملة حديدية تستخدم فى المعاملات اليومية البسيطة ، ويصف لنا مبانى اهل جنى فهى نوع من الحجر الجيرى ، والسقوف من قش ، ويذكر ان جنى لها نشاط تجارى ملحوظ فى وقته فطوال اشهر يوليه واغسطس ، وسبتمبر حين يفيض النيجر يحل تجار تمبكتو ببضائعهم فى قواربهم الصغيرة المصنوع كل منها من ساق شجرة جوفت وفرغت ، ويتجولون بها طول النهار للتجارة بينما ترسو ليلا قرب الشاطىء (39) . وقد كانت جنى فى الماضى خاضعة لحكم الملثمين لكنها وقعت بعد ذلك فى يد سلطان صنغاى . (40)

وعن مملكة مالى التى تمتد لمساحة 300 ميل على طول شاطىء احد روافد النيجر — يذكر الحسن بن الوزان انها تستمد اسمها من بلدة مالى

---

(38 Leo Africanus - P. 821.

(39 يصف السعدى مدينة ( جنى ) بانها احد اسواق العالم الاسلامى الكبيرة حيث يستطيع الانسان ان يلتقي بتجار الملح من تغازه ، وهؤلاء الذين يحملون الذهب من مناجمه فى بيتو انظر : السعدى ، عبد الرحمن عبد الله بن عمران السعدى : تاريخ السودان ( طبعة هوراس 1893 ) ص 20 .

(40 Leo Africanus : Op. cit. P. 822.
وانظر Bovill : Op. cit. P. 128.

العاصمة ، وهى اكبر اقاليم المملكة وتسكنها 6000 أسرة وبها قصـــر الملك . وقد قابلهم الملك باحترام وترحاب ، وذكر الحسن بن الوزان أن سكان مالى يتميزون بالثروة والذكاء والثقافة بالاضافة الى المهارة الصناعية فقد لفت نظر الرحالة كثرة الصناع والتجار بها ، كما توجد بها أماكن العبادة حيث يتعبد الناس ، كما تعقد بها حلقات العلم حيث يتلقـــى الطلاب العلم على يد العلماء والفقهاء ، فلا توجد هنا مدارس تقوم بمهمة التعليم فحسب — ويذكر ان دخول الاسلام وانتشاره على نطاق واسع فى مالى كان أيام الامير يوسف الذى كانت البلاد لفترة تحت سلطانه (41) .

ويلاحظ الحسن بن الوزان أن مالى التى كانت فى القرن الرابع عشر امبراطورية عظيمة ( أى حين زارها ابن بطوطة ) — لم تلبث فى وقته أن فقدت هذه الزعامة وغدت جزءا من امبراطورية صنغاى (42) .

وحين وصل الحسن بن الوزان الى مملكة تمبكتو كانت فى أوج مجدها . ويذكر أنه علم أن المملكة تشتق اسمها من اسم مدينة تمبكتو التى أسسها منسى سليمان فى سنة 610 هـ وهى تقع على بعد اثنى عشر ميلا من أحد روافـــد نهر النيجـــر (43) .

---

41) انظر Leo Africanus : Op. cit. 823.
— والمقصود هنا الامير يوسف بن تاشفين .
راجع ما ذكرناه من قبل عن دور المرابطين الثقافي والحضاري ، فى الصحراء .

42) تاسست مملكة صنغاى فى القرن السابع الميلادى ، وانتشر الاسلام فيها واعتنقه ملوكها بفضل جهود المرابطين ، ثم خضعت لنفوذ دولة مالى — لكن حين ضعفت مالى استطـــاع حكام صنغاى ان يكونوا امبراطورية عظيمة ضمت اليها مالى ، وتمبكتو ، وممالك الهوسا، وكانت عاصمتها هى — جاؤ .
انظر : حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ( 1963 ) ص 223

43) يتحدث الرحالة الانجليزى بارث (Barth) عن تمبكتو — فيذكر ان كلمة تمبكتو فى لغة الصنغاى تعنى الفراغ ، فلعل هذه التسمية ترجع الى ان المدينة بنيت فى منطقـــة كانت وقتها خالية من العمران — ويشير بارث الذى زار هذه المدينة فى القرن التاســـع عشر ان أكثر ما لفت نظره فيها كثرة المكتبات والكتب وكذلك الاسلحة النارية .
هذا وقد كان بارث قد وصل الى الساحل الشمالى الافريقى فى عام 1849 ضمن حملـــة بهدف كشف وسائل اعادة النشاط الى الطرق التجارية عبر صحراء افريقيا الغربية كوسيلة للقضاء على تجارة الرقيق ، وقد وصل الى كانو وساح فى منطقتى كانم وباجرمى ، ووصل الى تمبكتو ونشر مشاهداته فى خمسة مجلدات .
انظر :
Barth : Travels and Discoveries in North and Central Africa (1849-1855) (London 1857-1858) Vol. IV. P. 584.

وقد وصف الرحالة مبانيها وذكر ان بيوت عامة الناس لا تخرج عن كونها أكواخا مبنية من الحجر الجيرى ومغطاة بالقش ، فهى لا يمكن مقارنتها بمساكن الناس الفخمة فى بلاد المغرب ، لكنه اشار لمسجدها الكبير والقصر الملكى المبنى من الحجر ، ورغم انقضاء وقت بعيد على تشييدهما باشراف المهندس الغرناطى المغربى ابى اسحق الساحلى فقد كانا لا يزالان فى حالة جيدة وتدلان على ما كانا عليه من الروعة (44) .

وقد لفت نظره كثرة الصناع بتمبكتو خاصة من ناسجى الاقمشة التيلية والقطنية ، ومع ذلك يجلب التجار المغاربة اليها الكثير من الاقمشة الاوربية . والتجارة هى الحرفة الرئيسية هنا ، وهى سر ثراء ملوك تمبكتو الذين اشتهروا — كما يقول — بالترف والاحتفالات التى تدل على التبذير المطلق ، ويذكر أن قصر ملك تمبكتو يحتوى الاطباق من ذهب ، وكذا الصولجانات التى يصل وزن بعضها 300 رطلا ، والقصر مؤثث بأفخم الاثاث ، وعندما ينتقل الملك الى مكان يركب جملا يقوده بعض النبلاء من رجاله وكذلك نفس الشىء عندما يخرج للحرب ، هذا بينما يركب جنوده الخيول ، ومن يخاطب الملك عليه أن يركع عند قدميه ، ويثير التراب على راسه وأكتافه علامة الخضوع . وجيش تمبكتو من ثلاثمائة فارس وعدد كبير من المشاة المسلحين بالسهام المسمومة .

ويمتدح الحسن بن الوزان الملك لانفاقه بسخاء على عدد كبير من الاطباء والقضاة ، ورجال الدين والفقهاء . ويذكر أن مخطوطات الكتب النادرة المكتوبة فى بلاد المغرب ترد الى تمبكتو حيث تباع بأثمان باهظة اذ تدفع فيها مبالغ تفوق ما يدفع مقابل اية سلعة أخرى ، ولذا لا تكاد تخلو قافلة قادمة من المغرب الى هذه البلاد من بعض هذه المخطوطات (45)

والعملة المستخدمة فى تمبكتو من الذهب ، وليست عليها أية كتابة أو ختم ، لكن يستخدمون فى المعاملات البسيطة نوعا من الفخار . ويدلل على مكانة التجار هنا بأن الملك زوج ابنتيه لاثنين من التجار الاثرياء .

---

(44) ارجع لما ذكره ابن بطوطة عن هذا المهندس — وقد اشرنا الى ذلك سابقا فى هذا البحث

(45) Leo Africanus : Op. cit. P. 824.

ورغم توفر القمح والماشية واللبن والزبد فى تمبكتو ــ فالملح نادر لانهم يجلبونه من تغازة التى تبعد خمسمائة ميل ، ولذا فثمنه باهظ . ويذكر انه رأى حمولة جمل من الملح بيعت بثمانين من الدوكات ، ويشير الحسن بن الوزان الى روح المرح التى يتميز بها الناس فى تمبكتو ، فهم يقضون شطرا من الليل فى الغناء والرقص فى شوارع المدينة ، ويذكر ظاهرة كثرة الحرائق التى تتعرض لها المدينة ، ففى زيارته لها حرق نصف المدينة فى مدى خمس ساعات . (46)

هذا على أن ما كتبه الحسن بن الوزان ، وابن بطوطة من قبل ــ عن تمبكتو اسبغ على هذه المدينة فى أوربا سحرا ظل لمدة طويلة . لكن كما يقول الرحالة رينيه كاييه (Rene Caillie) الذى زارها بعد ذلك بثلاثة قرون « ان نظرة الاوربيين لهذه المدينة بعضها يعود الى بعدها أوالى اشتراكها الوثيق فى تجارة الذهب ــ لكن حين وقع نظرى عليها لاول وهلة كونت فكرة مغايرة تماما عنها ــ اذ لم أر بها الا مجموعة من المنازل الكئيبة المبنية بطريقة بدائية » . (47)

وبعد ذلك أبحر الحسن بن الوزان عن طريق النيجر الى جاو ــ عاصمة صنغاى التى تقع ــ كما يقول ــ على بعد 400 ميل جنوبى تمبكتو ، وهى مركز تجارى هام للاقمشة الواردة من المغرب وكذلك القمح والسمك والليمون والبرتقال والارز ، وبها سوق كبير للرقيق والبهارات التى تباع بأثمان باهظة ، ولعل الملح يعتبر من أغلى السلع بها . ويذكر انك لا تكاد تسأل عن أى نوع من الاقمشة او البضائع الاوربية الا وتجده فى أسواق المدينة ، فالتجار المغاربة يغمرون الاسواق بالبضائع من بلادهم ، ومن التى يستوردونها من البلاد الاوربية ، وتكثر بها آبار المياه العذبة . (48)

---

46) Leo Africanus : Op. cit. P. 825

47) انظر BOVILL : Op. Cit. P. 127 et 215.

48) Leo Africanus : Op. Cit. P. 826.

ومساكن الاهالى بسيطة مثل بيوت تمبكتو — لكن قصر الملك غاية فى الفخامة ، ويضم اعدادا كبيرة من الجوارى والعبيد ، وله حرس خاص من الفرسان والمشاة ، كما أن له مستشارين وضباط وسكرتيريين

وفى الشتاء يرتدى السكان ملابس من جلود الحيوانات وفى ارجلهم نوع من الاحذية من جلود الجمال — لكن الرحالة لاحظ هنا أن العلم والثقافة غير منتشرة بعكس ما لاحظه فى تمبكتو (49) وزار الرحالة بعد ذلك ممالك الهوسا التى تنتشر فى مساحة واسعة فى شمال نيجيريا فى مقاطعات جوبير ( غوبر ) ، وكانو ، وزنفارا ، وكتسنـــا (50) .

ويشير الى أن هذه الممالك التى كانت زاهرة تخربت من جراء غزو صنغاى لها ، وقد ترتب على خضوعها لهم أن قتل ملك صنغاى حكامهم، واسر أولادهم وعين عليهم حكاما ظلموا الناس وافقروهم بعد أن كانوا يرفلون فى أثواب الثراء بسبب نشاطهم فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ولم ينج من هذه الكارثة الا امير كانو الذى صمد لهذا الغزو واضطـــر اسكيا أن يعقد صلحا على أن يبقى على راس شعبـــه بشرط دفع ثلـــث دخل بلاده ضريبة لاسكيـــــا .

هذا ويعطى الحسن بن الوزان تفصيلات عن كل مملكة من ممالك الهوسا الهامة — فيذكر عن مملكة جوبير التى تقع الى الشرق من جاو بما يقرب من 300 ميل أنها تضم عدة قرى ، وسكانها غالبيتهم من الرعاة ، كما توجد قرى تضم طرائف التجار ، ومن سكانها أيضا عدد غير قليـــل يزاول الصناعة ، فهم النساجون وصناع الاحذية التى تصدر الى تمبكتو وجاو ، كما يزرع بعض الاهالى القمح ، والارز . ويشرح طريقة زراعته ، هناك ، فحين يفيض نهر النيجر وتغطى الارض بالمياه يلقى الاهالـــــى بالبذور ويتركونها حتى تنبت (51) .

---

(49 Leo Africanus : Op. Cit. P. 827

(50 عن ممالك الهوسا انظر :
Crowder, Michael : The Story of Nigeria (London 1966) p. 21.

(51 Leo Africanus : Op. Cit. P. 828.

اما مملكة كانو التى تقع على بعد 500 ميل شرقى نهر النيجر — فهى اقليم واسع ، به صحارى كثيرة ، ومناطق جبلية تنمو بها الغابات ، كما تزرع كميات من القمح ، والارز ، والقطن ، وينمو البرتقال والليمون بريا . كما يعمل عدد كبير من السكان بالتجارة .

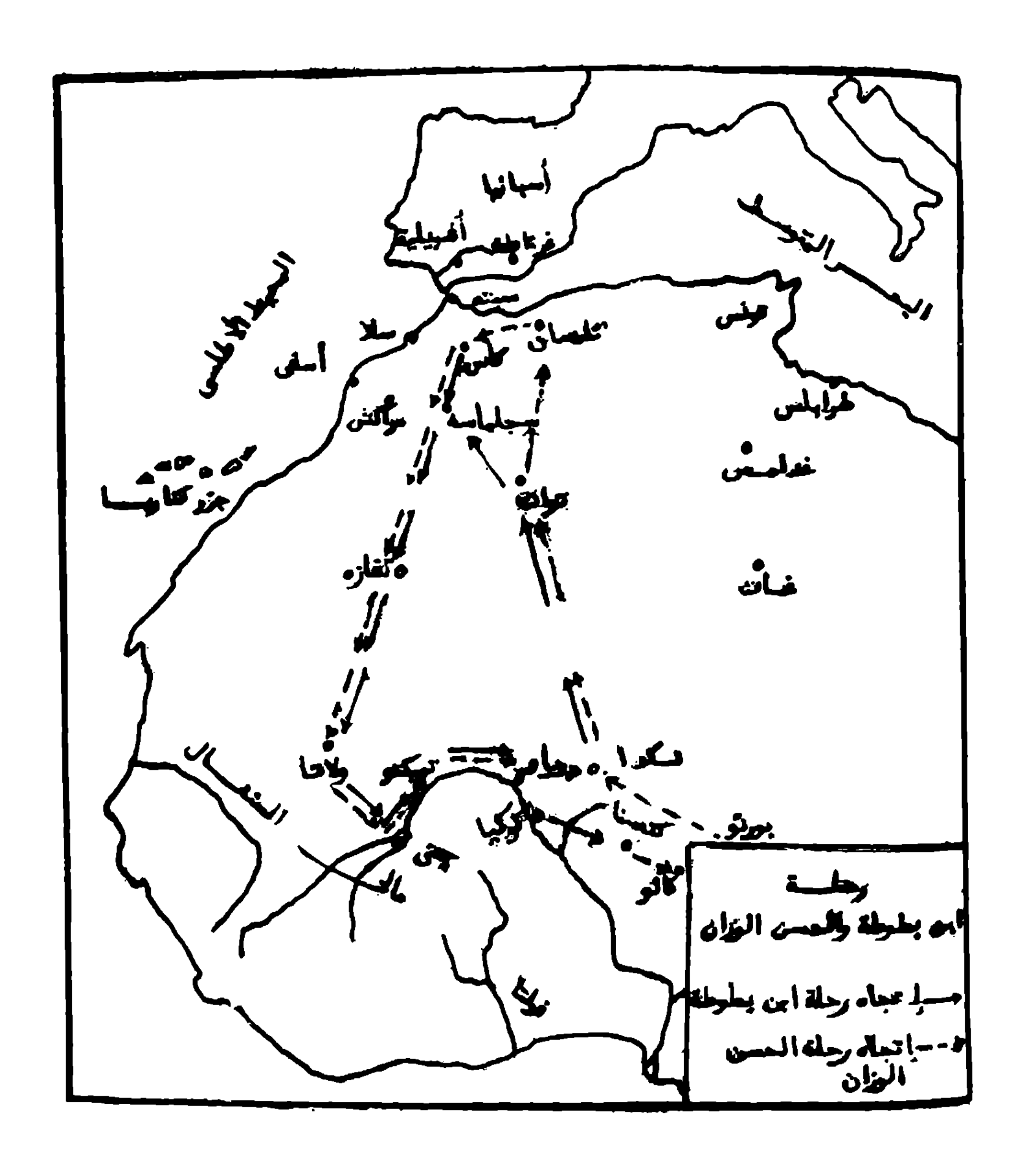
وعاصمة مملكة كانو تحمل نفس الاسم ، وكانت لملك كانو سيطرة ونفوذ ، وتحت أمرته جيش قوى من الفرسان ، لكن ظهور مملكة صنغاى وفرض سيطرتها على معظم ممالك الهوسا اضعف سلطة مملكة كانو رغم مقاومتها الباسلة لهذا الغزو (52) .

ويتابع الحسن بن الوزان حديثه عن باقى ممالك الهوسا — كمملكة كتسنا ، وزنفرا ، ومملكة ونجارا حيث مناجم الذهب . والطرق المؤدية لهذه المناجم وعرة لكن يستغل العبيد فى نقل هذا المعدن من موطنه فى الجنوب صوب الشمال فيقطع هؤلاء البؤساء — كما يقول — مسافة عشرة أميال فى اليوم بأحمالهم الثقيلة ، ومع ذلك يلاقون اقصى معاملة من سادتهم .

وقد زار الحسن بن الوزان مملكة بورنو أيضا ، ووصف هذه البلاد بأنها متباينة السطح فهناك مناطق جبلية شاهقة يقطنها الرعاة ، كما أن هناك سهولا منبسطة يزرع فيها القمح ، كما تنتشر القرى التى يسكنها التجار .

ويعطى صورة قاتمة لسكان بورنو ، فهم وثنيون يحيون حياة أبعد ما تكون عن التحضر ، ولا يعرفون فكرة الزواج ، ولا يتخذون أسماء خاصة بهم — لكن يميز الواحد منهم بأوصافه فى الطول أو القصر وغيرها من الصفات — وملك برنو يشتهر بالثراء فجميع ما يستخدمه من أوانى مصنوع من الذهب الخالص ، بل حتى سلاسل الكلاب الخاصة به من الذهب — ويحصل الملك على عشر انتاج الارض كضرائب ، كما يحصل من جيرانه على الغنائم عن طريق الغزو والسلب والنهب ، ولبرونو معاملات تجارية مع المغرب فيصل اليها التجار المغاربة ببضائعهم وخيولهم للاتجار فى أسواقها (53) .

(52) Leo Africanus : P. 829.
(53) Ibid : P. 832.


أسبانيا
أشبيلية
غرناطة
سبتة
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
سلا
أسفي
تلمسان
فاس
مراكش
سجلماسة
تونس
طرابلس
غدامس
غات
توات
جزر كناريا
تغازة
ولاتا
تمبكتو
جاو
تكدا
بورنو
كانو
جني
مالي
السنغال
رحلة
ابن بطوطة والحسن الوزان
اتجاه رحلة ابن بطوطة
اتجاه رحلة الحسن الوزان

## علاقـة المغـرب بالاقاليـم الصحراوية
## فى ضـوء رحلـة الحسـن بـن الـوزان :

جال بنا الحسن بن الوزان فى صحراء افريقيا الغربية متنقلا فى بلادها المختلفة متتبعا طريقا او آخر من الطرق التى كانت تتبعها القوافـل التجارية فى حركتها الدائمة عبر هذه الصحراء .

واوضح لنا كيف ساهم المغاربة بسهم وافر فى التجارة عبر هـذه الطرق ، والتقى الرحالة فى كل بلد هام مر به بواحد او اكثر من المغاربـة المستقرين فى هذه البلاد والذين يلعبون دورا هاما فى الاتصال بين تجار الشمـال وتجار الجنـوب .

وذكر الرحالة كيف أن الملابس الاوربية وغيرها من المنتجات الاوربية التى كانت ترد للسواحل المغربية ــ تجد طريقها الى أعماق الصحراء عن طريق التجار المغاربـة .

وقد لعب الملح الذى اشتهرت بـه تغازة بالذات والذهب الذى اشتهرت به مملكة صنغاى دورا هاما فى هذا التبادل التجارى فقد كان العملة الرئيسية فى المعاملات التجارية .

وقد أعطانا الرحالة صورة دقيقة واضحة عن حياة الناس فى كـل بلدة زارها ، وعن منازلهم وملبسهم وعاداتهم وتقاليدهم . وفى كل بلـدة كان للاحتكاك بالمغاربة آثاره الواضحة فى ثقافة الناس وفى نشر الاسلام بينهم وفى تعديل عاداتهم وتقاليدهم ، بل لمس الرحالة ــ كما لمس سلفه ابن بطوطة ــ اثر الهندسة المعمارية المغربية فى قصور الملوك وفيما بناه المغاربة مـن مساجـد .

وبالاضافة الى التجار المغاربة التقى الرحالة فى هذه البلاد بالفقهاء والقائمين على شؤون التعليم .

واشار الرحالة ــ كما اشار ابن بطوطة من قبل ايضا ــ الى اثر المرابطين واتباعهم العميق فى الصحراء واهلها ، فعلى ايديهم انتشـر الاسلام على نطاق واسع عبر الاقاليم الصحراوية ، كما كانوا مثلا حيا

للصحراويين فى التضحية والتمسك باهداب الدين السليم وما يأمر به من سمو روحى وترفع عن حطام هذه الدنيا .

واذا كانت رحلة الحسن بن الوزان ، وكذا رحلة ابن بطوطة — ينظر اليها عادة من زاوية أهميتها العلمية لما أمدتنا به من معلومات عن هذه المناطق الصحراوية فى قلب افريقيا فى وقت لم يكن الاوربى يجرؤ فيه على أن يتعدى حدود السواحل للداخل — فان قيمة الرحلتين فى القاء الاضواء على علاقة المغرب بهذه الجهات وعلى دوره الحضارى الرائد فيها لا تقل أهمية عن القيمة العلمية التى يبرزها الكتاب عادة .

## كلمـــة ختاميـــة :

القى الرحالتان ابن بطوطة والحسن بن الوزان أضواء مركزة وقوية على التجارة عبر الصحراء الغربية فى افريقيا ، وأمدانا بمعلومات هامة عن البلاد الواقعة على طول هذا الطريق وسكانها وعاداتهم وتقاليدهم وأوجه نشاطهـــم المختلفـــة .

على أن التجارة لم يقتصر أمرها على نقل البضائع سواء المغربية أو الاوربية الى داخل القارة او نقل انتـــاج هذه المناطق الداخلية من افريقيا للعالم الخارجى — بل انها اهم من كل هذا فتحت هذه البـــلاد للحضارة العالمية بوجه عام وللحضارة الاسلامية العربية التى كـــان المغرب هو مصدر اشعاعها بوجه خاص ، فالاحتكاك التجارى أتاح الفرص للاحتكاك الحضارى والثقافى .

واذا كان الرحالتان ابن بطوطة وابن الوزان قد أبرزا الدور الهام والنشاط الدائب الذى تميز به المغاربة من علماء وفقهاء وتجار ومهندسين فى هذه الاقاليم الصحراوية — فان هذا الاتصال الذى بدأ فى عصر مبكر جدا قبل أن تفتح هذه الجهات للعالم الخارجى ظل قائما ومستمرا وقويـــا منذ ذلك الوقت حتى أيامنا هذه رغم ما أوجده الاستعمار أو اصطنعتـــه ظروف سياسية طارئة من حواجز مفتعلـــة .

الربـــاط د . شوقى عطا الله الجمل

# الأمان المخيف ...!

علي الصقلي

لـــقـــد قـــيـــل · ان أبـــا مـحـجـــن
واكـــرم بـــامـــثـــالـه فى الـــرجـــال
سبـــتـــه الـــطـــلا فـــتـــعـــاقـــرهـــا
من الـــصـــبـــح لللـــيـــل دون مـــلال
ولـــم يـــثـــنـــه الـــحـــد عن غـــيـــه
ولا صـــده عن ســـبـــيـــل اضـــلال

الـــى آن غـــدا الـــحـــد فى نـــفـــيـــه
وفى قـــيـــده ، وهـــو غـــير مـــبـــال

ونـــال بـــبـــغـــداد كـــأس الـــنـــوى
زعافـــا ، فيـــا ســـوءه من مـــنـــال

* * *

وذات صـــبـــاح افـــاق عـــلـــى
صـــدى الـحـــرب مـــنـــذره بالوبـــال

فقـــال ينـــاشـــد زوجـــة ســـعـــد .
اريـــد القـــتـــال ! اريـــد القـــتـــال !

فـــمـــنـــى علـــى اذن بـــالـــفـــكـــاك
اشـــد لـــحـــرب الأعـــادى الرحـــال

وان يـــنـــســـا اللـــه فى أجـــلـــى
، ومـــا ذاك شىء عـــلـــيـــه مـــحـــال

رجعت لقيدى كأن ليس لى

عن القيد ، ما ان حييت ، زيال

* * *

وريئى فتى عنترى الضراب

اذا غشى القوم صال وجال

يجندل هذا ، ويصرع ذاك

ويدعو جموع العدى للنزال

وما وهنت فى يديه قناة

ولا كسرت لسهام نصال

ولا بسواه اقتدى فارس

ولا مال الا الى حيث مال

* * *

وقيل : كأن الملثم ذا

أبو محجن فى غمار النضال

كـذلـك كـــراً وفـــراً يـــــرى

وطعـــنــاً وضربــاً ، وفى كل حـــــال

يـــســيـــل كــتــائــبــه عــلــقــمــاً

وأنـــى لــهــا ، دونـــه ، ان تــســـال

ولـــولا الحجـــال لقلــنـــا : الفــتـــى

أبـــو محجن ! هـــل سلته الحجال ؟ !

* * *

وأقـــبــل ســـعــــد ، وفى بـــــرده

مشى النصر يخـــتـــال أى اختـــيـــال

ولكــن أمــر « الفـــتـــى » مـــالـــك

أزمـــــة أفـــكـــــاره والـــخـــيــــال

فكاشـــف بـــالسر مـــن لــم تـــدع

من الـــسر ما يـــســتـــبـــد بـــبـــال

فــجــاء أبــا مـحــجــن قــائــلا :

أمثــلــك يلقـــى رهــين اعتــقال ؟ !

اذا حـــد مـــثـــلــك حـــد الـــعـــلا

وأقـــفـــر من نـــظـــراك الـــمـجــال

ومـــن نـــصر اللـــه مســـتـــبـــســلا

فمـــا حـــده ، مـــا انتشى ؛ بحـــلال

ألا اـــن يـــنـــالـــك من شـــرطـــى

، مـــن الآن ، مـــا كنت قبــل تنــال

فــقـــال لســـعـــد أبـــو محـــجـــن :

، وأعظــم بـــه ، وبمـــا هـــو قـــال ،

اذا أنـــت بالـــعـــفـــو أكرمـــنـــى

ولـــم تـــر أخـــذى بســـوء الفعـــال

فـــمـــاذا عـــســـاى أقـــول غـــــداً

هـــنـــالـــك بين يـــدى ذى الجـــلال ؟

ومـــن أيـــن يا سعـــد لى بمـــقـــيـــل
عـــثـــارى يـــوم العـــثـــار يـــقـــال ؟

ومن لـــى بمن حين تعـــنـــو الوجـــوه
يـــؤمـــنـــنـــى من عـــوادى الـــمـــآل

الـــى اللـــه أبـــــرأ من شربـــهـــا
مدى العمر ، ما العمر يا سعـــد طـــال

أمـــانـــك خـــوفـــنـــــى انـــــــه
لـــخـــيـــر دواء لـــدائـــى الـــعـــضـــال

أمنـــت العقـــاب ، وخفـــت الأمـــان
كذلـــك يـــا سعـــد حـــالـــى حـــال

**الربـــاط** **على الصقلى**

---

من ديوان الشـعر التعليمى

قصة

# طريق قوس قزح

عبد المجيد ابن جلون

قــال محــدثــى :

ذات مساء مشؤوم لسعنى عقرب نفث فى دمى السموم ، وكانت لسعته قاسية ومباغتة ووجيعة ، سرعان ما طوحت بى الى عالم حم فيه خيالى ، وتصبب عرقى ، وانطلقت أعدو فى سراديب ملتوية ، وشعرت بأننى ذهبت ضحية غدر قاتل ، لان المرء لا يلتقى مع العقارب على ميعاد . . كما لا أحتاج أن أقــــول .

ولا زلت أرى فى الحمى عارضا يصيب الانبياء يستقبلون الوحى . . . ورواد الفكر يغوصون فى أثر لآلــىء الحقيقية . . والحالمين يرسمون طريق المستقبل . . والبناة يستجلبون الآجر والخرسان المسلح والفولاذ من عالم الخيال . . .

والتصق وجهى الملتهب بالوسادة المبتلة ، ولم أكن يوحى الى ، ولم أكن من الغائصين ولا الحالمين ولا البناة ، ولكن حواسى التـــى سرى فيها ســـم الغضب كانت مستيقظة الى درجـــة التوهج . . . عيناى المغلقتان تريان كل شىء كما لو كان كـــل شىء قـــد أضاء فى أعماقى . . . وأسمـــع ضجيجا هائلا مـــن الاصوات كما لـــو كانت الاصوات التى ترددت فى العالم منـــذ الأزل سجينة فى غرفتى . . . تصدح وتبكى وتصرخ وتئـــن وتتوسل وتضحك ، وتخنع وتستهتر وتتوعد ، كأنهـــا تبحـــث عن منقـــد تنطلق فيه مـــن أغلالها .

ولم يكن ما بى اغماء ولا نوم ، فقد كنت فى تمام اليقظة حينما ألقيتنى أقود سيارتى فى طريق « الدار البيضاء » فى ساعة متأخرة من ذلك المساء النوفمبرى التعس ، وكان النسيم البارد يداعب وجهى بالرغم من أن زجاج النوافذ كان محكم الأغلاق ، ولم تعترضنى أية سيارة مقبلة ، ولم تتجاوزنى أية سيارة قادمة لا بنور خافت ولا وهاج وانما كنت أشق الطريق الخالـــى فى سرعة ناعمة ، وكانت الصوى تجرى عن يمينى جرى من تقمصته حياة مجنونة ، وكان تراقص الصوى على ضوء السيارة فى سكون الليل الدليل الوحيد على السرعة التى كنت أسير بها فى الطريق الخالى الساكن البهيم .

وعندما كنـــت أترقب مفترق الطرق لانحرف يمينا الـــى « الدار البيضاء » ، بدلا من طريق « مراكش » ، كما أعتدت أن أفعل ، بدا لى أننى أرى أمامى نورا يتوهج وخفت السرعة ،

حتى اذا ما اقتربت اليه رأيت فتاة يافعة أشرقت ابتسامتها الساحرة فى فحمة ذلك الليل الدامس الكليل ، وكانت السيارة تتوقف من تلقاء نفسها فى سهولة ويسر ، حتى اذا ما جمدت الى جانبها سمعت ارتطاما هائلا ، تلاه انهيار ، ثم صعدت نفحات من دخان ، ثم ساد صمت مطبق عجيب ، كأن لم يحدث شىء . . .

وفى الصمت الشامل أخذ الهدوء يعود الى نفسى وأنا أستعيد ما حدث : أمر طبيعى ، حادث من حوادث السيارات التى يلقى فيها الحتف أغلب السائقين وكثير من الركاب أو بعضهم فى كل دقيقة على مدار الساعة . . . لقد توفانى الله الى ما لا أدرى من رحمة أو عذاب . . . ولا داعى للقلق ، فسينجلى الامر عما قليل . . . وقد كانت البداية حسنة على كل حال ، فما خطر ببالى أن لقاء الموت يكون بهذا اليسر وهذه السهولة . . . ورب بداية تكون طليعة نهاية . . .

أية نهاية . ان السيارة لا تزال تلهب الطريق ، والطريق لا تزال ممتدة الى ما لا نهاية وان تكن مجهولة . . . هذه قوس قزح تحولت الى طريق . . . ألوان مضيئة مختلفة ، لا عهد للعين بها من قبل ، ضاربة فى السماء والالحان الناعمة الهادئة تهمس من كل اتجاه ، كلا ان السيارة لا تنهب الطريق ، وانما هى تهفت فى الطريق سريعة نعم ، ولكن خفيفة متجردة كما لو لم يعد لها وزن . . . وعلى اليمين صوى خضراء باهتة ، وعلى الشمال صوى أخرى حمراء مشتعلة . . . ويبدو الطريق

غريبــا . . . يسحب السيارات أو ينسحب من تحت السيارة . . سيــان . . . فالهدف هناك ، خلف طريق قوس قزح . . عند تلك الاضواء الضاربة فى السماء ، كأنها أضواء معرض مــن معارض الــدار الآخرة . . .

وعاودنى الهدوء النسبى من جديد ، ليحدث ما شاء أن يتحدث ما دام الامر لا يتعلق بارادتى ، وسواء كانت السيارة مندفعة من تلقاء نفسها ، أو كانت الطريق تنسحب تحتها أو تسحبها ، فالنتيجة واحدة ، ان القضاء والقدر هنا يتمثلان بأروع ما فيهما من هناء ، وعدم مسؤولية . . .

وذهبت أتمتع بالانوار والالحان والالوان ، وما راعنــى حينما التفت متأملا الا أن وجدت الى يمينى من جديد فتــاة نورانية ، ومن تكون غير تلك التى اعترضتنى عند مفترق الطرق بين « الدار البيضاء » و « مراكش » ، فى ذلك المساء المشؤوم . . . تلك الفتاة اليافعة التى صحب ظهورها الارتطام والانهيار ونفحات الدخــان . . . ثم طريق قوس قزح .. والتخفف من الثقل ، ثم الالوان . . . والالحان ، وأخيرا ها هى ذى الى جانبى .

فهمســت فى شبــه صــراخ :

ــ أنــت ، من تكونيــن ؟

وهنا لاحظت فى توجس أن ما يزين رأسها الصغير هالــة لا اكليل ، هالة باهتة لا تكاد تدركها الابصار الا بعد تأمل ، ولما همست فى شبه صراخ ، لم تزد على أن غضت من طرفها فى خفر،

وقد توهجت فوق خديها وردتان شفافتان . . . وكانت الفتاة السحرية غريبة ، ولكن انسا عميقا كان يتمثل فى وجودها بالقرب منى هنا الى يمينى مباشرة ، كأننى أعرفها منذ ما قبل العهد بالميلاد . . .

وسألتها هامسا من جديد فى اندهاش صادق :

ــ أما بك خفر ، أم لا تحسنين الكلام ؟

فارتفع الوطف ذو الظلال ، ومن خلف العينين الصافيتين أطلت نظرة فيها عتاب مبتسم ، فنسيت للتو لسعة العقرب وسمومها ، ودغدغت روحى رعشة نشوى وسألت فى ابتهاج :

ــ مفاجأة لقياك فى الطريق وما أعقب ذلك ، أتلف من أدراكى القليل ، ولست أعرف بالدقة ما وجهة السيارة . . ولكن هل تقضين الى جانبى بقية الطريق ؟ ان قربك يؤنسنى .

فبرقت عيناها من جديد وعادت الابتسامة الوديعة تطل منهما فى انشراح ، وقالت وبلسانها لثغ محبب :

ــ بقية الطريق نعم . . وعند نهاية الطريق نفترق ، ألم تستطع أن تتبين الى الآن مقصدنا ، يا لك من حميم مجهول ، اننا فى الطريق الى الدار الآخرة . .

ــ معا فى الطريق الى الآخرة . . . يا للسعادة الابدية . . السرر . . والجنات التى تجرى من تحتها الانهار . . .

ـ معـا فى الطـريـق .

ـ والآخـرة ؟

ـ سأنتظرك هناك الى أن تؤوب .

ـ لماذا ؟ هل على أن أصطدم من جديد وأموت مـرة أخـرى فى طريق قوس قزح . . . وتطيريـن وحدك الـى الجنـة . . وأبقى أنا هنا روحـا هامدة . . . الى يـوم القيامـة . . .

فتضاحكت بظرفها الذى بدأت أتعوده وازداد به هياما ، ولما لم أكن أحس بأى تأثير لتناولـى مقود السيارة تركتـه وأقبلت عليها وقصصت عليها الحديث ، وداعبتها وأخذت راحتها بين راحتى ، ولكننى عندما هممت بأن ألثم شفتيها اختفت ، كمـا لو كانت فوقعة مضاءة أطفأتها أنفاس قبلـة . . .

وتضاعفت الدهشة حينما توقفت السيارة فى نفس الوقت عند بوابة بناية ضخمة تشبه محكمة هائلة تعترض قلب الطريق وقد كتب عليها بحروف ناصعة كبيرة « الدار الآخرة » والـى اليمين سهم ضخم أبيض كتب عليه بحروف من نور « الى الجنة » والى الشمال سهم أبيض آخر كتب عليه بحروف من نار « الـى جهنـم » .

وتقدم الى فارس عظيم يشبه ما يركبه فرسا مطهما مجنحا أو مجنحا مطهما ، وكان يتوقع دون ريب أن استرشده الطريق ولكننـى سألتـه :

ــ هل تستطيع أن تدلنى أيها الفارس على الطريق الذى انتهجته فتاة نورانية كانت منذ عهد قريب تجلس الى جانبى قبل أن أصل اليــك بقليل ، ثــم اختفت كما لــو كان قد ابتلعهــا المجهـــول . . .

فاستخرج الفارس من صدره قائمة جال فيها بنظـــرة وتغرسنى مليا ، ثم تساءل :

وما شأنك أنت وفتيات النور هنا فى العوالم البعيدة . . . ومهما يكن من شىء فهذا سابق لاوانه لا تنس أنك ما زلت من الاحياء ، ان الذين تلسعهم العقارب الحقيقية لا يموتون حتما ، فكيف تريد أن تموت وقد لسعك عقرب وهمى لا يتجاوز مفعول لسعــه رفع درجــة الحمــى . . .

ــ ولكننــى علــى ميعــاد .

ــ مــع العقـــرب ؟

ــ لا ، مع الفتــاة النورانية .

ــ انهما معا لا يخلفان الميعاد . . . فعد الى الدنيا واتمم

نصيبك منها أولا ، وعندما تعود نتحدث عن المواعيد .

ــ مــع العقــرب ؟

ــ لا مــع فتــاة النــور .

ــ العقرب . . العقــرب نفســه .

وعندما انتفضت الانتفاضة الاولى وجدتنى أنهب الطريق الصلب فى سيارتى الحديدية الى « الرباط » ، أسوقها فى سرعة جنونية كأننى أسابق الهواجس والخطرات .

ولكننى عندما انتفضت الانتفاضة الثانية كدت أتنفس الصعداء اذ ألقيتنى ما أزال فى المكان الذى ألقيت فيه بنفسى كأننى ما برحته ، وقد تحررت الاصوات الراسفة من أغلالها ، وهدأت الاغانى وتلاشت الخيالات والاشباح ، ودارت مقلتاى فى المكان والزمان للتأكدمن أننى لا أزال على قيد الحياة . . . ما أجمل أن يوغل بك ملك الموت فى الظلمات ، ثم فجأة تجد نفسك ما تزال على قيد الحياة . . .

وذهبت أجتر ثمالة الحمى :

ماذا يعنى أنك لا تزال على قيد الحياة أيها المغوار ؟ أمبتهج أنت بحياة تلسعك فيها عقارب لا تضرب لك الميعاد ، حتى لا تستل من لسانها ما يضطرم به من سموم .

وفجأة تذكرت الحوار مع الفارس عند باب الدار الآخرة ، الى أن سألته من يضمن لى صدقه فى القول ، وأجاب : العقرب .

واذن فلا بد أن يلسعنى العقرب من جديد لالقاها ، فهلم أيها العقرب المقدس ، واضرب لى ميعادا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد برح بى الجوى الى الحروف الخضراء ، الى التى صحب ظهورها الارتطام ، الى التى حفت هالة النور برأسها الصغير . . . ذات الخدين الشفافتين

. . والعينين الصافيتين البراقتين . . . والابتسامة الوديعة . . . التى تنتظرنى هناك فى الجنة تحت حراسة ذلك الفارس العظيم الى أن أؤوب . . . والتى اختفت حينما أطفأتها أنفاس قبلة . . فى نهاية طريق قوس قزح . . . قبل الوصول مباشرة الى الدار الآخرة . . .

هكذا قال محدثى .

**الرباط** **عبد المجيد ابن جلون**

دراسات معجمية

# كتاب استدراك الغلط الواقع في كتاب العين

عبد العلي الودغيري

لا شك ان الاندلسيين الذين رحلوا الى المشرق العربى فى طلب العلم قبل القرن الرابع الهجرى ، كانوا على معرفة بكتاب ( العين ) للخليل بن احمد الفراهيدى ( ت 170 او 175 هـ ) ، فهو اشهر الكتب اللغوية اذ ذاك واكثرها ذكرا فى مجالس العلماء ، ولكن الظاهر انه لم يدخل الى بلاد الاندلس الا فى نهاية القرن الثالث او على الاقل ذلك هو ما يجزم به احد رجالات اللغة ومؤرخيها الاندلسيين ، ممن اشتغلوا بدراسة هذا الكتاب طويلا ، وهو ابو بكر محمد بن حسن الزبيدى ( ت 379 هـ ) الذى يقول فى ترجمة ثابت بن عبد العزيز السرقسطى وابنه قاسم : « وهما اول من ادخل كتاب العين بالاندلس . » (1) .
وقد كانت رحلة هذين الرجلين الى المشرق للسماع من علمائه سنة 288 هـ (2) ، ثم عادا بعد مدة ، فتوفى قاسم سنة 302 هـ واعقبه والده ثابت سنة 313 هـ ويحدثنا الزبيدى فى طبقاته بعد ذلك فيقول ان احمد

(1) طبقات الزبيدي ص 284
(2) انظر مقالة الاستاذ عز الدين التنوخي عن ( قاسم بن ثابت السرقسطي وكتابه فى غريب الحديث المسمى بالدلائل ) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج 1 مجلد 41 ، يناير 1966 ، ص 3 وما بعدها .

ابن بشر بن الاغيس ( ت 326 هـ ) وعبد الملك بن شهيد ( وهو جد ابى عامر الشاعر ) قد تمالآ على عفير بن مسعود (3) ( ت 317 هـ ) واستخرجا من كتاب العين حروفا مهملة ، ونسخا من ذلك دفترا خاصا ، ولقياه بالكتاب واغربا به عليه (4) فربما كانت هذه النسخة من كتاب العين التي استخرج منها الرجلان دفترا خاصا وحروفا مهملة ، هى نفس النسخة التي جلبها ثابت السرقسطي وابنه قاسم من قبل او كانت مستنسخة منه فقط ، وربما كانت نسخة ثانية جلبها الى الاندلس من لا نعرفه الآن .

وسيرا مع التاريخ نرى ان نسخة اخرى من الكتاب قد دخلت على يد منذر بن سعيد البلوطي ( ت 355 هـ ) وقد حملها معه من مصر مروية عن ابن ولاد ( ت 332 هـ ) (5) على اننا سنلاحظ بعد قليل ان خزانة الحكم المستنصر كانت تكتنز نسخا عديدة منه ، ولكنا لا نعرف منها غير نسخة منذر بن سعيد المذكورة

والى هذه المرحلة لم يكن معجم الخليل قد لقى اهتماما كبيرا من لدن الدارسين فى الاندلس ، ولكن هذا الاهتمام اصبح بارزا ومتزايدا بعد مقدم ابى على القالى ( ت 356 هـ ) الذى كان اشد العلماء تاثرا بطريقة هذا المعجم ، ولذلك الف على منواله ونظامه كتاب ( البارع فى اللغة ) وقبل ذلك وضع كتاب ( المقصور والممدود ) — وهو نوع من معاجم المبانى — فاحتذى فيه الخليل فى ترتيب صيغ المقصور والممدود والمهموز حسب مخارج الحروف وقد كان البارع الاول معجم لغوى شامل يؤلف فوق ارض الاندلس ، ويعمل على احياء مدرسة العين ، بعدما سار التاليف المعجمى فى المشرق نحو اتجاه آخر . والذين قاموا بعد موت القالى من العلماء بمقابلة كتابه هذا بالنسخة المجمع عليها من كتاب العين ، لاحظوا انه زاد عليه بنحو خمسة آلاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة (6)

---

(3) انظر ترجمتي ابن الاغبس وعفير بن مسعود فى طبقات الزبيدي ص 282 و 275 .
(4) الطبقات ص 275 ـ 276 .
(5) كذا قال الحميدي فى النص الذي سنراه بعد قليل ، وذكر الزبيدي فى كتاب ( استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ) ان منذرا قرا الكتاب بالقيروان ثم قابله فى مصر بكتاب ابن ولاد .
(6) انظر التكملة لابن الابار (371/1 ط. الحسيني) ، والذيل والتكملة للمراكشي (175/6)

وفى حياة القالى ايضا وباشرافه ، كان اول عمل اثار الانتباه وقوى الاهتمام بهذا المعجم ذلك أن الحكم المستنصر — وهو من المعجبين بالشيخ ابى على الذى نشط للتاليف بايعاز منه — قد كلف لجنة بمقابلة نسخ العين واستخراج نسخة صحيحة معتمدة لهذا المعجم اللغوى الشهير . ويحكى المؤرخون ان هذه اللجنة كانت مؤلفة من القالى وثلاثة من اشهر تلاميذه ، وهم : ابو بكر محمد بن الحسين الفهرى ، وأحمد بن ابان بن سيد ، واخوه محمد بن ابان . قال الحميدى رواية عن ابى بكر الفهرى المذكور : « امرنا الحكم المستنصر بالله رحمه الله ، بمقابلة كتاب العين للخليل بن احمد مع ابى على اسماعيل بن القاسم البغدادى ، وابنى سيد فى دار الملك التى بقصر قرطبة ، واحضر من الكتاب نسخا كثيرة ، فى جملتها نسخة القاضى منذر بن سعيد التى رواها بمصر عن ابن ولاد فمر لنا صدر من الكتاب بالمقابلة

فدخل علينا الحكم فى بعض الايام ، فسألنا عن النسخ ، فقلنا نحن : أما نسخة القاضى التى كتبها بخطه ، فهى أشد النسخ تصحيفا وخطا وتبديلا ، فسألنا عما نذكره من ذلك ، فانشدناه ابياتا مكسورة ، واسمعناه الفاظا مصحفة ، ولغات مبدلة ، فعجب من ذلك ، وسال ابا علي فقال له نحو ذلك ، واتصل المجلس بالقاضى ، فكتب الى الحكم المستنصر رقعة وفيها :

جَزى اللهُ الخليلَ الخيرَ عنّا
بأفضلِ ما جزى فهو المُجازي

وما خَطّا الخليلَ سوى المغيلى
وعُضْروطَيْن فى رَبَض الطّراز

فصار القومُ زِرْيَةَ كلِّ زارٍ وسُخْرِيّاً ، وهزاةَ كلِّ هازِ

فلما دخلنا على المستنصر قال لنا : اما القاضى فقد هجاكم ، وناولنا الرقعة بخط يد القاضى ، وكانت تحت شىء بين يديه ، فقراناها وقلنا : يا مولانا ، نجل مجلسك الكريم عن انتقاص احد فيه ، لاسيما مثل القاضى

فى سنه ومنصبه ، وأن احب مولانا ان يقف على حقيقةما أدركناه ، فليحضره وليحضر الاستاذ ابا على ، ثم نتكلم على كل كلمة ادركناها عليه ... )) .
ثم يتحدث بعد ذلك عن الشعر الذى كتبه الفهرى هذا مجيبا القاضـــى البلوطـــى ، وفيـــه يقــول :

رويتَ عن الخَليـــل الوهمَ جهــرًا (7)
لجهـــلٍ بالكـــلام وبالمَجَـــــازِ
دعـــــوتَ لــهُ بخيــرٍ ثـــم أنحَــتْ
يــداكَ علـــى مَفَــاخــرهِ الـعِـــزازِ
تُهــدِّمهُــــا وتجعــلُ مــا عَــلاهـــا
أَســافِلَهــا ، ستُجزيــكَ الجَــوازي
جــزى اللــهُ الإمــامَ العــدلَ عنـــا
جــزاءَ الخيــرِ ، فهــوَ لــه مُجــازي
بـــــهِ وَريَــتْ زنـــادُ العلــمِ قدْمـــًا
وشَــرَّف طــالبيـــه بــاعتــــزازِ
وَجلَّـــى عـــن كتــاب العيـــن دُجْنـــًا
وإظــلامـًا بنُــورٍ ذي امتيـــازِ
بــأُستـــاذِ اللغـــات أبــي علـــيٍّ
وأحـــداثٍ بنــاحيـــةِ الطِّـــرازِ
بهـــمْ ـَـحَّ الكتــابُ وَصيَّـــروهُ
مــنَ التصحيــفِ فى ظــلِّ احترازِ (8)

(7) وفى انبـــاه الـــرواة للقفطـــي : ( جهـــلا )
(8) جذوة الحميدي ص 47 ـ 48 ـ 49 وانباه الرواة 3/ 71 ـ 72 .

وهذه القصة تطلعنا على حقائق كثيرة ، منها : ان خزانة الحكم المشهورة بنفائسها كانت تشتمل فيما تشتمل عليه ، على نسخ عديدة من كتاب العين ، مما جعل عملية تحقيقه وتوثيقه مهمة سهلة ومنها : ان كلاما ما قد أثير حول الكتاب قبل اجتماع هذه اللجنة وفى عهد الحكم المستنصر ، وهو ما يدل عليه قول البلوطى :

وما خَطَّا الخليلَ سوى المغيلى
وعُضروطين فى رَبَض الطراز

فالبيت يشير الى أن جماعة قليلة وتافهة (فى نظر القاضى) منها أبوبكر المغيلى الشاعر (9) وآخران ، قاموا بتخطئة الخليل فيما ورد بكتابه .

والذين يعرفون عن القالى انه وقف على أخطاء العين وتصحيفاته الكثيرة ، بحكم مشاركته فى اللجنة المذكورة التى قابلت نسخه وأطلعت على ما فيه من عيوب ، ربما ذهبوا مع الرأى القائل بأن لابى على موقفا صريحا من نسبة العين لصاحبه الخليل ، حسب ما يفهمه بعضهم خطأ من نص نقله السيوطى عن كتاب ( استدراك الغلط . . . ) للزبيدى (10) . والواقع أن النص المشار اليه ، ليس فيه ما يفهم بتاتا بأن للقالى موقفا معينا من هذا الكتاب ، بل انه أكثر من النقل عنه فى بارعه بعبارات صريحة لا لبس فيها (11) . والذى له رأى صريح وواضح من كتاب العين ، هو تلميذه الزبيدى الذى خصه بدراسات فريدة ، فاختصره وهذبه ، ثم استدرك عليه ما فاته من الزيادات الموجودة بكتاب البارع ، ونبه على أخطائه ، وقارنه بمعجم شيخه .

وقد كان مجمل راى الزبيدى فى كتاب العين ، انه لا يصح نسبته للخليل ولا يثبت عنه لما فيه من الخلل الذى يتنزه عنه رجل عرف بحدة الذكاء ،

---

(9) وكان فى عصر الحكم ( انظر ذكره فى الجذوة ص 368 ) .

(10) المزهر 1 / 83 — ومن الذين نسبو للقالي انكاره لكتاب العين وانه ليس للخليل : الدكتور حسين نصار فى ( المعجم العربي ) 1/ 280 و 282 والدكتور عبد الله درويش فى ( المعاجم العربية ) ص 48 .

(11) وقد بينت ذلك تفصيلا فى رسالتي عن ابي علي القالي واثره فى الدراسات اللغوية والادبية بالاندلس .

والعبقرية النادرة فى كثير من العلوم . ولما لقى هذا الراى مــن بعض الاندلسيين مقاومة واعتراضا بلغا سمع الزبيدى فى رسالة بعث بها اليه احد اصدقائه ، اضطر الى مواجهتهم بكتاب خاص ، جرد فيه أغلاط العين واخطاءه ، واخرجها فى كتاب سماه : ( استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ) (12) وقد بسط فيه حججه وادلته التى تثبت صحة رأيه ، وتبطل انكار معارضيه .

ويعتبر ابو بكر الزبيدى من اشهر اعلام اللغة فى الاندلس ، وانبه تلاميذ القالى واجل اصحابه ، فلما مات شيخه ، ورثه فى غزارة علمــه وكثرة تآليفــه التــى منهــا :

- كتاب الواضح فى علم العربية ( مطبوع )
- كتاب لحــن العــوام ( مطبــوع )
- طبقات النحويين واللغويين ( مطبوع )
- مختصر العين ( طبع منه قسم صغير بالمغرب )
- ابنية الاسماء والافعال ( او ابنية سيبويه ) ويسمى ايضا ( المستدرك علــى ابنية سيبويه ) ( مطبوع )
- كتاب الامثلة ( وردت الاشارة اليه مرارا فى هوامش نسخة القرويين من مختصــر العين )
- المستدرك من الزيادة فى البارع على كتاب العين ( ويسمى ايضا : المستدرك فى اللغة ) ( مخطــوط )

---

(12) لم يرد هذا العنوان فيما تبقى لنا من قطع الكتاب ، وقد جاء فى مقدمته ما نصــه : ( وأنا ذاكر الآن من الخطاء الواقع فى كتاب العين ، ما لا يذهب على من شدا شيئا من النحو .. ) - والذي اورد هذا العنوان هو صاحب المزهر ( 1/ 79 ) فقال : ( وقال ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي اللغوي مؤلف مختصر العين ، فى اول كتابه - استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين - وهو مجلد لطيــف .. ) وقــد آثــرت استعمال العنوان الذي ورد فى المزهر لاحتمال ان يكون هو الاصل الذي نقله السيوطي.

ـ الانتصار للخليل فيما رد عليه فى العين . ذكره القفطى فى انباه الرواة ( 109/3 ) وغيره ، ولكنه مشكوك فى نسبته اليه .

ـ كتاب استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ( مخطوط )

ويهمنا الآن من هذه الكتب ، الكتاب الاخير الذى وقع حوله خلط كبير ، ولم يشر احد من الدارسين المحدثين الى وجوده قبل اليوم . وقد كان اول من ذكره من القدامى حسب علمى ، هو القاضى عياض فى المدارك ( 4/ 582 ) ، وتبعه ابن فرحون فى الديباج ( ص 263 ) ، وسمياه معا : كتاب ( غلط صاحب العين ) ، ثم اشار اليه السيوطى بعد ذلك ، ونقل عنه فى مزهره ( 79/1 ــ 381/2 ) وسماه : ( استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ) . وقد وقع لكثير من الدارسين خلط بين هذا الكتاب و ( مختصر العين ) ، وظنوهما كتابا واحدا ، ومنهم الشيخ مرتضى الزبيدى فى تاج العروس ، والقنوجى فى كتاب ( البلغة فى اصول اللغة ) ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون ، وعلى عبد الواحد وافى فى ( فقه اللغة ) ، ونبه على اخطائهم جميعا محققا القسم الاول من مختصر العين (13) .

اما الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم ، فقد خلط اولا بينه وبين ( كتاب الانتصار للخليل ) فى مقدمة تحقيقه لطبقات النحويين ، وخلط ثانيا بينه وبين كتاب المختصر فى حاشية تحقيقه لكتاب ( انباه الرواة ) للقفطى ، فقال : ان استدراك الغلط الذى ذكره السيوطى جزء من المختصر ( 109/3 ) .

وقد كنت اهتديت اثناء اشتغالى بموضوع ابى على القالى (14) الى وجود ثلاث قطع من هذا الكتاب ، لم يكن معروفا منها قبل اليوم سوى قطعة واحدة ، وهذه هى القطع الثلاث :

---

(13) انظر مقدمة تحقيق القسم المطبوع من مختصر العين للمرحومين : محمد بن تاويت الطنجي وعلال الفاسي ، وقد طبع بالدار البيضاء سنة 1963 م .

(14) وهي رسالة لدبلوم الدراسات العليا نوقشت بفاس بتاريخ : 30 ــ 1 ــ 1976 م .

1 ــ قطعة مضمنة فى كتاب ( المستدرك فى اللغة ) المخطوط بالقرويين تحت رقم 64 ، وذلك فى صفحات متفرقة .

2 ــ قطعة محفوظة بالقرويين تحت رقم 118 .

3 ــ قطعة فى المزهر للسيوطى ، وهو كتاب مطبوع متداول .

القطعـــة الاولـــى :

اما القطعة الاولى فهى اكبر القطع المتبقية من الكتاب اذ تقع فى 34 صفحة ، ولكن العيب فيها انها موزعـــة بشكل غريـــب بين ثنايا كتـــاب المستدرك فى اللغة بحيث يصعب فرزها منه الا بمشقة تتطلب فيما تتطلبه شدة المراس وطول التفكير ، ومعرفة تامة بالموضوع . وقد تبين لى اخيرا ان كتاب ( المستدرك .. ) كان فى اصله اوراقا منفصلة ، فلما اراد الموكلون بخزانة القرويين ان يرتبوا هذه الاوراق ويضموها فى سفر واحد ، لـــم يحترسوا جيدا « فجمعوا فيما جمعوه أوراقا أخرى من كتاب ( استدراك الغلـــط .. ) . والواقع أن هناك اشياء عملت عملها فى حدوث اللبـــس ترجع فى جملتها الى الشبه الموجود بين موضوع الكتابين ، والى الورق المقصوص على حجم واحد ، ثم الى الخط الذى كتبا به ، وهو خط واحد أيضا . وانى لاعجب كيف لم يتنبه أولئك الموكلون بالخزانة القروية الى ان القطعة الثانية التى سنتحدث عنها تشترك مع كتاب المستدرك ( وضمنه القطعة الاولـــى ) فى كل هذه الخصائص ( الخط ــ نوع الورق وحجمه ــ الموضوع ) فحق تلك الاوراق التى ضمت غصبا الى كتاب المستدرك أن تضم الى القطعة الثانية لانها جزء منها وتتمة لها كما سنرى . وهكذا فقد وجد هذا القسم المتبقى من كتاب ( استدراك الغلط .. ) مضمنا فى الكتاب الاصلى وموزعا بين ثناياه بشكل يوهم انه بعض منه . وقد توصلت الى جمعه وتبويبه علـــى هذا النحو : (15)

---

(15) راعيت فى ترتيب هذه الحروف نظام الخليل فى كتاب العين ؛ لان الزبيدي حافـظ عليه فى مختصره ومستدركه على العين حتى يسهل تتبعه . ولم اذكر هنا من الحروف سوى ما وجدته بهذه القطعـــة .

## 1 ـ حـــرف الحـــاء

| الموجـــود منـــه | موضعه من كتاب المستدرك |
| --- | --- |
| قطعة من الثلاثى الصحيـــح | ص 62 |
| الثلاثـــى المعتـــل | ص 63 |
| الربـــاعـــى | ص 64 |
| الخمـــاســـى | ص 65 |

## 2 ـ حـــرف الهـــاء

| | |
| --- | --- |
| بداية الثنائى المضاعف ( غير تام ) | ص 56 |
| الثلاثـــى الصحيـــح | ص 56 |
| الثلاثـــى المعتـــل | ص 57 |
| الربـــاعـــى | ص 58 |
| الخمـــاســـى | ص 58 |

## 3 ـ حـــرف الخـــاء

| | |
| --- | --- |
| الثنائـــى المضاعـــف | ص 59 |
| الثلاثـــى الصحيـــح | ص 59 |
| الثلاثـــى المعتـــل | ص 61 |
| الـــربـــاعـــى | ص 61 |
| قطعة اخرى من الرباعـــى | ص 68 |
| الخمـــاســـى | ص 68 |

## 4 ـ حـــرف الغيـــن

| | |
| --- | --- |
| الثنائـــى المضاعـــف | ص 68 |
| الثلاثـــى الصحيـــح | ص 69 |

9 ــ حــرف الضـــاد



10 ــ حــرف الصـــاد



11 ــ حــرف السيــن

17 ـ حرف الثاء



18 ـ حرف الراء



19 ـ حرف اللام



20 ـ حرف النون



21 ـ حرف الفاء

**22 ـ حـرف البـاء**

| | |
|---|---|
| الثلاثـي المعتـل ( قطعـة منـه ) | ص 202 |
| اللفيـــف | ص 202 |

**23 ـ حـرف الميـم**

| | |
|---|---|
| قعطـة مـن اللفيـــف | ص 203 |

**24 ـ حـرف الهمـزة**

| | |
|---|---|
| الثنـائـي المضاعـف ـ اللفيـــف | ص 203 |

ذلك هو الموجود والمتبقى من الكتاب بهذه القطعة ، وبالاضافـة الى النقص الذى اصاب بعض الابواب المذكورة ، فان هناك نقصا آخـر يتجلى فى ضياع حرفى العين والدال من الحروف الصحيحة ، وخلو هـذه القطعة منهما ، اما حروف العلة الثلاثة ( أ و ى ) فانه لم يعقد لها بابا ونبه على ذلك فى ( ص 201 ) . وفى آخر القطعة نجد خاتمة قصيرة يقول فيهـا الزبيـدى :

« .. قال ابو بكر : محمد بن حسن بن عبد الله بن مذحج : هذا آخر ما ذكرناه مما نبهنا عليه « فيما نسب الى الخليل بن احمد رحمه الله ، ويعيذ الله الخليل بن احمد منـه . » ( ص 203 ) . وهى بالطبع ليسـت خاتمة كتاب المستدرك ، بل خاتمة كتابنا الذى نتحدث عنه . واما مقدمته فسنجد جزءا كبيرا منها فى القطعة الثالثة ، وهى تامة فى القطعة الثانية .

القطعـــة الثـانيـــة :

وهى قطعة صغيرة جدا ، محفوظة بالقرويين ، وتقع اصلا فى 14 ورقة ( 27 صفحة ) . وتشترك مع القطعة الاولى فى حجم ورقها ـ وهـو حجم متوسط ـ وفى الخط الموحد ، وهو خط مغربى او اندلسى قديم ،

من خصائصه انه يهمل نقط كثير من الحروف المتشابهة . ولكن هـــذه الاوراق ليست كلها جزءا من كتاب ( استدراك الغلط ) ، بل ليس فيها سوى ثمانية اوراق ( 15 صفحة والورقة الاولى مكتوبة من الظهر فقط ) تتضمن كتاب الغلط ، وهى المقدمة التى لا يصرح فيها باسم الكتاب ، وانما يشيــر الى انه سيذكر الخطأ الواقع فى كتاب العين ــ كما سبق ــ وهناك مــع المقدمة حرف العين » وقسم صغير من حرف الحاء ( المقدمة ــ حــرف العين ــ بداية حرف الحاء ) . واما الورقات الست الباقية ( 9 ــ 10 ــ 11 ــ 12 ــ 13 ــ 14 ) فهى جزء من كتاب ( المستدرك فى اللغة ) وبه فقط باب الهمزة الذى لم يبق منه بدوره سوى الحروف الاتية :

( بقية الكاف ــ الجيم ــ الشين ــ الضاد ــ الصاد ــ السين ــ الزاى ــ الطاء ــ الدال المهملة ــ التــاء ــ الظــاء ــ الذال المعجمة ــ الثــاء المثلثة ــ الراء ــ الــلام ) حسب الترتيب . فهو يذكر الهمزة مع الكاف وسائر الحروف ، ثم الهمزة مع الجيم وسائر الحروف وهكذا .. وكل ذلك داخل فى ابواب الثلاثى الصحيح فقط ، وليس حرف الهمزة مع بقية الحروف موجودا بكتاب ( المستدرك ) مخطوط القرويين رقم 64 .

ولا يخفى بعد هذا ما لهذه القطعة على صغرها من قيمة علمية ، فقد احتفظت لنا بمقدمة الكتاب تامة ، على حين وردت فى مزهر السيوطى ناقصة مبتورة ، كما تضمنت ابوابا ومواد بعضها يتمم النقص الموجود بالقطعة الاولى ، وبعضها يضيف لها ما ليس فيها .

القطعــة الثالثـــة :

واما القطعة الثالثة ، فهي ليست جديدة على الدارسين المهتمين ، اذ يعود كل الفضل لجلال الدين السيوطى ( ت 911 هـ ) فى الاحتفاظ بها فى كتابه المزهر اذ نقل فى الجزء الاول ( ص 79 وما بعدها ) مقدمة الكتاب » ثم نقل فى الجزء الثانى ( ص 381 وما بعدها ) ابوابا منه اغلبها موجود بالقطعتين السابقتين ، ولكن الجديد الذى كشف عنه وجود تينك القطعتين هو ان السيوطى كعادته ، قد تصرف فى هذه النقول تارة بالاختصار مــن عبارات المؤلف ، وتارة بالاختيار والانتقاء من النص الطويل او المواد الكثيرة

بالشكل الذى يوصل الى غرضه المقصود . والمثال على ذلك ان الزبيدى ذكر في كتابه : ( باب عنــك ) من حرف العين ، فقال :

« . . وفى باب عَنَــك : ــ العانكُ من الرمْل : الأحمرُ . قال أبو بكر : العانك من الرمل : المنعقِــد ، يقال : عَتَنَّكَ البعيرُ إذا لم يُطقِ السيرَ فيه . وذَكَر (16) فى هذا الباب أيضا : عاتِقٌ : أصفر . قال أبو بكر : الصواب ، عاتِك ، ويقال خَمْر عاتِك وهي ( الصافية ) . . . » (17) .

فنقل السيوطى هذه المادة مختصرة على النحو التالى :

« .. وذكر (18) فى باب عَنَك : عرقٌ عانك : اصفر . والصواب : عاتــك » (19) . وسنرى ايضا كيف أنه تصرف فى المقدمة نفسها بالحذف والاختصـــار .

غير ان هذا لا يقدح تماما فى قيمة الاشياء التى نقلها السيوطى الــى كتابه ، ــ وقد جعلناها قطعة ثالثة ــ فان لها فضلا كبيرا مع ذلك ، يتجلى فى كونها انفردت بذكر مواد غير موجودة فى غيرها . واذا عرفنا ان القطعتين السالفتين قد أصابهما من العبث والاتلاف شىء كثير ، وان فيهما خروما عديدة تستعصى معها القراءة فى بعض الاحوال ، ازداد تقديرنا لهذه القطعة التى تفيدنا فى التحقيق والمقابلة فضلا عن القراءة .

وباستطاعة الدارس الآن ، وعلى ضوء هذه القطع المتبقية من الكتاب ، ان يكون فكرة شبه تامة عن حجمه وموضوعه ، وطريقة تاليفه ، وتاريخ كتــابتــــه .

---

(16) يقصــد الخليــــل
(17) استدراك الغلط ــ الورقة الخامسة / الوجــــه
(18) يقصـــد الخليــــل
(19) المــزهـــــــر 2 / 382

فاما عن حجمه ، فان جميع المتبقى لا يعدو 42 صفحة من القطع المتوسط بمعدل 27 سطرا فى كل صفحة ، ولكن المفقود منه ليس شيئا كبيرا ، بل هو فى تقديرنا لا يزيد عن بضع صفحات فيها تكملة لبعض الابواب الناقصة ، بالاضافة الى حرف الذال المعجمة الذى ضاع برمته . وهكذا فان الكتاب فى اصله كان صغير الحجم ، واقعا فى حوالى 50 صفحة . ونحن على كل حال لا نعرف الآن قطعة اخرى سوى ما سبق ذكره .

واما عن موضوعه ، فقد عرفنا قبل ان السبب فى تاليفه هو الرد على من عارضه فى رايه المشهور الذى قال فيه بعدم صحة كتاب العين للخليل ابن احمد ، وقد جاء هذا الرد فى الشكل الذى يتصوره الباحث ، وهو تقديم الادلة التى تثبت ما ذهب اليه ، وعرض اخطاء العين واحدا فواحدا ، مع التعليق عليها بما يراه صوابا .

واما طريقة تاليفه ، فتتلخص فى الخطوات التاليـة :

1 ــ فقد رتب الاخطاء التى اجتمعت له من قراءاته الفاحصة للكتاب ، ترتيبا معجميا يسير وفق نظام الخليل نفسه الذى يعتمد المخارج الصوتية الحروف ، بدل الترتيب الالفبائى الذى ظهر فى المعاجم المتاخرة عنه ، ولذلك بدا الزبيدى كتابه بحرف العين ــ كما فعل فى المختصر والمستدرك ــ ثم بما يتلوه من الحروف حسب ذلك النظام .

2 ــ وقد عمد المؤلف بعد هذا الى كل حرف من حروف المعجم التى يقسم اليها الكتاب ، واجراه بدوره فى ستة اقسام هى :

الثنائى المضاعف ــ الثلاثى الصحيح ــ الثلاثى المعتل ــ اللفيف ــ الرباعى ــ فالخماسى على الترتيب . ولا بد من ان نلاحظ ان الزبيدى سار فى هذا التقسيم سيره فى ( مختصر العين ) ، الا انه فصل هنالك بين الصحيح والمعتل من الثنائى المضاعف ، فى حين نراه هنا قد مزج بينهما وجعلهما قسما واحـدا .

3 ــ ثم يعود الى كل قسم من الاقسام الستة المذكورة ، فيورد ما تحته من الكلمات التى اخطا فيها كتاب العين ، مرتبة ترتيبا صوتيا . وطريقته هنا

انه يورد اولا الباب الذى ذكر فيه الخطا : ( باب عـــك ــ باب ؟ ــع ــ باب عقر .. الــخ ) ثم يعقبه بتحديد موضع الخطا من الكلمة . ويتلـــوه مباشرة بالصواب الذى يراه . ولتوضيح ذلك ، نورد هذا المثال علـــى الطريقـــة الآتيـــة :

| | |
|---|---|
| الحـــرف | العيـــن |
| الصيغـــة | الثلاثى الصحيح |
| البـــاب | نَقـــــــق |
| النـــص | « .. وفى باب نَعَق (20) ، يقال : نَغَق بالغين المعجمة أُعرفُ ، قال ابو بكر (21) : نَغَق غير معروف ولا صحيح ، الا فى قولهم : نغق الراعي بالضـّـــانِ اذا صـــاح بهـــا . » (22) |

ويجب التنبيه اخيرا على ان تعليقات الزبيدى وتصحيحاته قد وردت فى شكل مختصر مركز ، خالية ــ على الاغلب ــ من الاستشهادات والاحالات على اقوال العلماء ، ومن المصادر الكتابية والشفوية ، وذلك ان الكتاب فى جملته عبارة عن رسالة طويلة اقتضت طبيعتها ان تكون مختصرة . ويعد هذا مظهرا من مظاهر اختلافه عن كتاب ( المستدرك فى اللغة ) واما المظهر الآخر ، فيتجلى فى طريقة التنظيم والترتيب التي تبدو هنا اقل تعقيدا واكثر تبسيطا عما فى الكتاب الآخر الذى اتبع فيه طريقة تفصيلية مراعيا تقاليب الكلمة وترتيبها الداخلى الدقيـــق .

واذا كنا نعتبر الزبيدى باعث مدرسة العين المعجمية بالاندلس بعد القالى ، فان له جانبا خاصا تميز به عن بقية معاصريه ولاحقيه ، وهو المتمثل فى دراساته النقدية للمعاجم ولاسيما كتاب الخليل ، ومن ثم نعتبر كتاب

(20) يقصـــد : قـــال الخليـــل
(21) اي الزبيـــــدي
(22) استدراك الغلط ــ الورقة 5 / الوجـــه

استدراك الغلط ) واحدا من هذه الدراسات النقدية الاصيلة ، لتى تدل على تضلع صاحبها فى ميدان اللغة ، ونقد المعاجم .

اما عن تاريخ كتابته ، فليس لدينا ما يدل عليه سوى ما نستفيده من قول الزبيدى فى مقدمة الكتاب : « ، ، ولو لم تكن قدوتنا فيما ذكرنا الا بمن طالع جميع العلوم ، واشرف على اصناف الفنون ، وعرف احوال العلماء وسيرهم ومراتبهم فى العلم ، ومآخذهم فيه ، ووقف على تاريخ ازمنتهم فى مواليدهم وكتبهم ، وتصرفهم فى ايام حياتهم الى انقضاء اعمارهم وانقطاع مددهم : أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله رضى الله عنه ، لكنا جدراء باتباع امره ، و ( اقتفاء ) مذهبه ، فقد عهد الى أعزه الله ، وادام خلافته ، حين امرنى بتنقيح الكتاب البارع وتهذيبه والزيادة فى ابوابه ، الا احكى فيه عن الخليل حرفا .. » (23) .

فهو يذكر الحكم الاموى ، ويمدح صفاته العلمية ، ورعايته للعلماء ، ثم يدعو له بدوام الخلافة . وهذا دليل صريح على ان الزبيدى وضع كتابه فى خلافة الحكم التى استمرت من سنة 350 هـ الى سنة 366 هـ ، ولذلك اصبح من الثابت لدينا ان التاليف وقع خلال هذه الفترة ، وان كنا لا نستطيع تحديدها بالضبط .

مقدمة الكتاب :

ونورد بعد هذا العرض ، النص الكامل لمقدمة كتاب ( استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين ) ، لما لها من اهمية وفائدة فى ميدان الدراسات اللغوية بالاندلس . وقد جعلت النص المخطوط الوارد بالقطعة الثانية اصلا ، ثم قابلت عليه النص المطبوع بمزهر السيوطى ( 79/1 ) ( القطعة الثالثة ) وبينت فى الهوامش مواضع الاختلاف والنقص او الاضافة ، كما نبهت على كل فقرة انفرد بها الاصل المخطوط الذى ارمز له بحرف ( أ ) ، اما المطبوع فارمز له بحرف ( ب ) .

---

(23) استدراك الغلط ـ الورقة 2 / الوجه

( 1 ــ الظهــر ) :

« بسم الله الرحمن الرحيم [و] صلى الله على سيدنا محمد النبيّ الكريم وآلــــه .

كَتَبَ أَبو بكر (24) محمدُ بن حسن بن عبد الله الزبيدى رحمه الله ، إلــى بعض إخوانه : عصَمَكَ اللهُ من دَواعي الفِتَن ، وأعاذَكَ من ضُروف المِحَن ، وسَلكَ بك سبيلَ الصدق ، وعرَّفكَ اتبــاعَ الحق ، وجنَّبكَ الهوى وزَيْغَــهُ ، وكَرَّهَ إليكَ الكذب وشَيْنــــه ، وَصَلَ (25) إلينا ــ أيدكَ اللهُ ــ كتابُكَ تذكرُ فيه ما أُولعَ بــه قومٌ من ضَعَفة أهل النظر ، من التحامل علينا والتسرُّع بالقول فينا ، بما نسبوه إلينا من الاعتراض على الخليل [بن أحمد] (26) فى كتابه ، والتخطئة له فى كثير من فصوله . وقلتَ إنهم قــد استمالوا جماعةً من الحُشْوَة (27) إلى مذهبهم ، وعَدلوا بهم إلى مَقالتهم ، بما لَبَّسوا به وشَغَّبوا (28) القولَ فيه ، وسألتَ أن أحسمَ مــا نَجَم من إفكهم ، وأَرُد ما ( نَدَرَ مــن ) (29) غَرْب ألسنتهم ببيانٍ من القول مُفصِحٍ ، واحتجاجٍ من النظر مُوضِحٍ .

وقد كنتَ ــ أيدكَ الله فى صحة تمييزك ، وعظيم النعمة عليكَ ــ فى نظركَ جديرًا ألا تُعرجَ على قوم همْ بالحال التى ذكرتَ

---

(24) فى ( ا ) ابو بكر بن محمد . وهــو تصحيــف

(25) هذه اول كلمة فى ( ب ) وما قبل ذلك انفردت به ( ا )

(26) الزيـــــادة مــن ( ب )

(27) الحشوة بالضم والكسر : الرذل الردىء من الشيء . وفى ( ب ) : الحشوية

(28) فى ( ب ) : وشنعــوا

(29) كذا فى ( ب ) وفى ( ا ) : ( وارد من عرب السنتهم ) . ومــن معانــي ( نــدر ) : زال ــ خــــرج ــ ظهــــر ..

وأن يَقعَ لهمُ العذرُ لديكَ بوجوهٍ جمةٍ، منها : تَخلفُهم فى النظر، وقلةُ مطالعتهم للكتب، وجهلُهم بحدودِ الادب، مع أن العلة الموجبةَ لمَقالتهم، والباعثةَ لِتسرُّعِهم، علــةُ الحسدِ الذى لا يُداوَى سَقمُــه، ولا يُؤسى جرحُه، فقد قــال الحكيــمُ :

كــلُّ العَــداواتِ قــد تُرْجَــى إفاقَتُهــا

إلا عــداوةَ مــن عَــاداكَ مِــنْ حَسَــدِ

أو ليس من العَجَب العَجيب، والنادِرِ الغَريب، أن يَتَوهَّمَ علينا من به مسكةٌ من نظر، أو رَمَقٌ من فهم، تخطئةَ الخليل فى شيءٍ من نظرهِ، أو (30) الاعتراض عليه فيما دَقَّ أو جَلَّ من من مذهبه . والخليل ابنُ أحمدَ واحدُ (31) العصر، وقَريعُ الدهر، وجِهْبذُ الأمة، وأستاذُ أهل الفِطْنة الذي لم يُرَ نظيرُه، ولا عُرِفَ فِي الدنيا عَديلُه، وهو الذي بَسَطَ النحوَ ومَدَّ أَطنابَهُ، وسبَّبَ عِلله، وفتقَ معانِيَهُ، وأوضحَ الحِجاجَ فيه، حتى بلغَ أَقْصَــى حُدوده (32)، وانتهى إلى أبعدِ غاياته، ثم لم يَرْضَ أن يُؤلف فيه حرفًا، أو يَرسمَ منه رَسْمًا، نزاهةً بنفسه، وترفعًا بقَدْره، اذ كان قد تَقدَّمَ إلى القول عليه والتأليفِ فيه، فكَرِه أن يكــون لمن تقدمه تاليا، وعلى نظر من سَبَقه مُحتويًا (33)، واكتفَى فى ذلك بما أَوْحَى إلى سيبويهِ من علمه، ولَقنهُ من دقائقِ نظرهِ، ونتائجِ فكره، ولطائف حكمته . فحَمَل سيبويهِ ذلك عنه وتَقلدهُ، وألَّفَ

---

(33) فى ( ب ) : محتــذيــا

(31) فى ( ب ) : أوحــــد

(32) هذه الكلمة غير واضحة فى ( ا )

(33) فى ( ب ) : محتذيــــا

فيه الكتابَ الذي أعجزَ من تقدمَ قبلَه ، كما امتنَع (34) على من تأخرَ بعدَه . ثم ألفَ على مذهب الاختراع وسبيل الإبداع ، كتابَيْ : ( الفرْشِ ) و ( المثال ) (35) في العروض ، فحَصَر بذلك جميعَ أوزان الشعر ، وضَمّ (36) كلَّ شيءٍ منه إلى حَيِّزه ، وألحقَه بشكله ، وأقام ذلك على (37) دوائرَ أعجزتِ الأذهانَ ، وأسرتِ (38) الفِطَنَ ، وغَمَرتِ (39) الألبابَ . وكذلك ألفَ (الورقة 2 : الوجه) كتابَ الموسيقى (40) فزَمّ (41) فيه أصنافَ النغَم ، وحصَرَ بـه أنواعَ اللحون ، وحدّد ذلك كلَّه ، ولخصه ، وذكر مَبالغَ أقسامه ونهاياتِ (42) أعدادِه . فصارَ الكتابُ عبرةً للمُعتبرينَ ، وآيةً للمتوسِّمين (43) . ولما صَنعَ إسحاقُ بنُ إبراهيمَ (44) كتابَه في النغَم واللحون ، عرَضَه على إبراهيمَ بنِ المَهديِّ فقال له : لقد أحسنتَ يا أبا محمدٍ وكثيرًا ما تُحْسِنُ ، فقال إسحاقُ : بـل أَحسنَ الخليلُ ، لأنه جعلَ السبيلَ إلى الإحسانِ فقال إبراهيمُ : ما

---

(34) الكلمة مخرومة في ( ا )
(35) الكلمة مخرومة في ( ا )
(36) الكلمة مخرومة في ( ا )
(37) في ( ب ) : عـن
(38) في ( ب ) : وبهـرت
(39) الكلمة في ( ا ) بعين مهملة
(40) الكلمة مخرومة في ( ا )
(41) الكلمة مخرومة في ( ا )
(42) الكلمة مخرومة في ( ا )
(43) الكلمة مخرومة في ( ا )
(44) اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، كان على معرفة بكثير من العلوم والفنون ، كالكلام ، والفقه ، واللغة ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وتوفي سنة 235 هـ ( انظر ابن خلكان 1 / 202 ـ وابن النديم ص 201 ) .

أَحسنَ هذا الكلامِ فممّن أَخذتَهُ ؟ قال : من ابنِ مُقْبلٍ (45) ، إذ سمع حمامةً فأهتاجَ فقال :

ولو قبلَ مَبْكاها بَكَيْتُ صَبابةً
إِذاً لشَفَيْتُ النفسَ قبلَ التّنَدُّمِ

ولكنْ بَكتْ قبلي ، فهاجَ لِيَ البُكا
بُكاها ، فقلتُ : الفضلُ للمتقدِّمِ

ثم (46) ذهبَ بعدُ فى حصْرِ جميعِ (47) الكلامِ ، مَذْهَبَهُ منَ الإحاطة التى لم يَتعاطَها (48) غيرُه ، ولا تَعَرَّضَها سواهُ (49) ، فثقف الكلامَ وزَمَّ جميعَهُ ، وَبَيَّنَ قيامَ الأبنية من حروف المعجم وتَعاقُبَ الحروفِ لها، بنظرٍ لم يُتَقدَّمْ فيه، وإبداعٍ لم يُسبَقْ اليه، ورَسَم فى ذلك رُسوماً أكملَ قياسَها ، وأعطى الفائدةَ بها ، فكان هذا قدْرَهُ فى العلماء (50) ومنزلَتَهُ (51) من النَّفاذ والفَهْم ، حتى قال (52) بعضُ أهلِ العلمِ : إِنه لا يجوز على الصراط بعدَ الانبياء عليهمُ السلامُ أحدٌ أَدقُّ ذهناً من الخليل . ولو أنَّ الطاعنَ علينا يتصفحُ صدرَ كتابنا : ( المختصر من كتاب العين ) ، لعَلِمَ أنا نَزَّهنا الخليلَ عن نِسبةِ المُحال اليه ، ونَفيْنا عنه منَ القول ما

---

(45) هو تميم بن ابي بن مقبل العجلاني ، شاعر مخضرم
(46) الكلمة مخرومة فى ( ١ )
(47) فى ( ب ) : جمع
(48) فى ( ب ) : لم يتعاطاها
(49) فى ( ب ) : احد سواه . وتعرض : تصدى
(50) فى ( ب ) : فى العلم
(51) فى ( ب ) : ومبلغه
(52) فى ( ١ ) : لقال

لا يَليقُ به . ولم نعدُ في ذلك ما كان عليه أهلُ العلم وحُذّاقُ أهلِ النظرِ ، وذلك أنّا قلنا في صدر الكتاب :

« ونحنُ نَرْبأُ بالخليل عن نسبة الخَلَل اليه أو التّعرُّض للمُقاومة له ، بل نقول : إن الكتابَ لا يَصحُّ له ، ولا يَثبُتُ عنه ، وأكبرُ (53) الظن فيه أن الخليلَ سبّب أصلَه ، وثقّف كلامَ العرب (54) ثم هَلَكَ قبلَ كمَاله ، فتَعاطَى إتمامَهُ مَنْ لا يَقومُ في ذلك مقامَهُ ، فكان ذلك سببَ الخَلَل الواقع به (55) ، والخطأ الموجود فيه . »

وهذا لفظُنا نَصّاً ، وقد وافقنا بذلك (56) مَقالةَ أبي العَباس أَحمدَ بنِ يحيى (57) ثَعلبِ قبل أن نُطالعها ، أو نسمعَ بها ، حتى ألفيْناها في بعض كتُبِ أَمير المومنين — الحكم المستنصر رضيَ اللهُ عنه — بخط الصولي (58) في ذكْر فضائلِ الخليل ، قال الصّولي :

« سمعتُ (59) ثَعلباً يقول : إنما وَقَع الغَلطُ في كتاب العين ، لأن الخليل رَسَمه ولم يَحشُه ، ولو أن الخليل هوَ حَشّاه ، ما بَقّى فيه شَيْئًا ، لأن الخليل رجلٌ لم يُرَ مثلُه . وقد (60) حَشّا الكتابَ

(53) في (ب) : اكثر
(54) في (ا) : العرب فيه
(55) في (ب) : فيه
(56) في (ا) : وافقنا على ذلك
(57) في (ا) : يحيى بن ثعلب
(58) في (ب) اختصار للجملة الاخيرة على هذا النحو : ( حتى الفيناها بخط الصولي)
(59) (ب) : سمعت ابا العباس ثعلبا
(60) في (ب) : قال وقد ...

قومٌ علماء ، إلا أنه لم يؤخَذْ عنهم روايةً ، وإنما وُجد بنَقْلِ (61) الورّاقينَ ، فلذلك اختلّ ( 2 : ظ ) الكتــابُ . »

ومن الدليل على ما ذكَرَه أبو العباس من زياداتِ الناس فيه . اختلافُ نُسَخه واضطرابُ رواياته (62) ، الى ما وَقَــعَ فيه من الحكايات عن المتأخرين ، والاستشهادِ بالمرْذول من أشعار المحْدَثين (63) . فهذا كتابُ مُنْذِر (64) بن سعيدٍ القاضي الذى (65) كتبه بالقيروان ، وقابَلَه بمصرَ بكتاب ابنِ وَلاد (66) ، وكتابُ ثابتٍ (67) المنتسخ بمكة ، قد طالعناهما فى خزانة أمير المومنين (68) ، فألغيْنا فى كثيرٍ من أبوابهما : أخبرَنا المِسْعَريُّ (69) عن أبــى عُبَيْــد (70) وفى بعضهــا (71) قــال أبــنُ الاعرابــيّ (72) ، وقال الاصمعى (73) فهل يجوز أن يكون الخليلُ يَرْوي عن الاصمعي وابن الاعرابى أو أبى عُبَيد ، فضلاً عن المسعري ؟ وكيف يَرْوي الخليلُ عن أبى عبيد ، وقد توفي الخليلُ سنةَ سبعين

---

(61) الكلمــة فى ( ا ) مخرومــة الاول
(62) الكلمــة فى ( ا ) مخرومــة
(63) فى ( ا ) : المحدثيــن فيــه
(64) فى ( ب ) : كتاب ابن منذر بن سعيد . وهو تصحيف
(65) هذه الكلمة ساقطة من ( ا )
(66) هو ابو العباس احمد بن محمد بن ولاد ( ت 332 هـ ) ( انظر الوعاة : 169 ـ وانباه الرواة 1 / 99 ـ وطبقات الزبيدي ص 219 )
(67) وهو ثابت بن عبد العزيز السرقسطي وقد مر ذكره . وفى ( ب ) : ابى ثابت
(68) يقصــد الحكــم المستنصــر
(69) هو محمد بن وهب المسعري من تلاميذ ابى عبيد القاسم بن سلام ، وقــد سلكــه الزبيدي فى الطبقــة الرابعــة من اللغويين الكوفييــن ولــم يذكــر لــه ترجمــة ( انظــر الطبقــات ص 206 )
(70) هو ابو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 223 هـ او 224 هـ
(71) الكلمــة مخرومــة فى ( ا )
(72) هو ابو عبد الله محمد بن زياد المتوفى سنة 232 هـ
(73) هو ابو سعيد عبد الملك بن قريب المتوفى سنة 213 هـ او 217 هـ

ومائة ، وفى بعض الروايات سنةَ خمس وسبعين ومائة ، وأبو عبيد يومئذ ابنُ ستَّ عشرةَ سنة ، وعلى الرواية الأخرى ابنَ إحدى وعشرين سنة ؟ لأن مولدَ أبى عبيد سنة أربع وخمسين ومائة ، ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين . ولا يجوز أن يُسمَعُ من (74) المسعري علمُ أبي عبيد إلا بعدَ موته ، وكذلك كان سَماعُ الخُشَنيّ (75) منه سنة سبع وأربعين ومائتين ، فكيف تَسمعُ (76) المَوْتى فى حالِ مَوْتهم ، أو يَنْقلون عمّنْ وُلِدَ مِنْ بَعْدِهم ؟

وحدثَنا إسماعيلُ بنُ القاسمِ البغدادي (77) قال :

« لمّا وَرَدَ كتابُ العين من بَلدِ خُراسانَ فى زَمَنِ أبي حاتم (78) أنكَرَهُ أبو حاتم وأَصحابُه أشَدَّ الإنكار، ودَفَعَهُ بأبلَغِ الدَّفْع »(79)

وكيف لا يُنكِرُه أبو حاتم على أنْ يكونَ بريئا من الخَلَل سليما من الزلل ؟ وقد غَبَرَ أصحابُ الخليل بعدَهُ (80) مدةً طويلةً لا يَعرفون هذا الكتابَ ولا يسمعون به ، منهم النضْر بن

(74) فى ( ا ) : عن

(75) هو ابو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني ، رحل الى الشرق ومكث حوالي خمس وعشرين سنة ، وسمع عن المازني وابي حاتم والرياشي والمسعري وغيرهم ، وهو من رجالات الاندلس المشهورين بالحديث ، وقد توفي سنة 286 هـ ( انظر جذوة الحميدي 63 ـ وطبقات الزبيدي ص 268 )

(76) فى ( ب ) : يسمع

(77) فى ( ب ) زيادة من السيوطي وهي قوله : ( وهو ابو علي القالي )

(78) هو ابو حاتم سهل بن محمد السجستاني توفي سنة 250 هـ او 255 هـ

(79) هنا ينتهي قول ابي علي ، وما بعده كلام الزبيدي ، وقد وهم بعض الدارسين فنسبوا للقالي ما ليس له ، وبنوا على ذلك احكاما لا تصح

(80) فى ( ب ) : بعد

شُمَيْل (81) ومُؤَرِّج السَّدوسي (82) ونَصْرُ بنُ علي (83) وأبو الحسن الأخفش (84) وأمثالهم . ولو أن الخليل ألف الكتاب لحَمَله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من رجلٍ مجهولِ الحال غير مشهور في العلم ، انفرَدَ به ، وتوحَّدَ بالنقل له (85) . ثم دَرَجَ أصحابُ الخليل ، فتوفي النضْرُ بن شُميل (86) سنة ثلاث ومائتين ، والأخفشُ سنة خمسَ عشرة ومائتين ومؤرج سنة خمس وتسعين [ ومــائــة ] (87) ، ومضَتْ بعدُ (88) مدةٌ طويلة ، ثم ظهر الكتابُ بأَخَرةٍ من (89) زمن أبي حاتم وفي حالِ رياسته ، وذلك فيما قَاربَ (90) الخمسين والمائتين ، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلم يلتفتْ أحدٌ من العلماء إليه

---

(81) اخذ النصر عن الخليل وعن فصحاء العرب ، واخذ عنه ابو عبيد ، وقد توفي سنة 203 او 204 هـ ( انظر نزهة الالباء 85 ـ والوعاة ( 404 ) وطبقات الزبيدي 55 )

(82) هو ابو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي اخذ عن ابي زيد وصحب الخليل ، وتوفي سنة 195 هـ وكلمة : ( السدوسي ) ساقطة من ( ب )

(83) هو نصر بن علي الجهضمي اللغوي البصري من اصحاب الخليل ، هكذا ترجم له القفطي ( 3 / 345 ) ، وذكر الزبيدي فى الطبقات ( ص 75 ) والسيوطي فى الوعاة ( ص 358 ان صاحب الخليل هو علي بن نصر الجهضمي المتوفى سنة 187 هـ . وهو والد نصر بن علي

(84) وهو الاخفش الاوسط ابو الحسن سعيد بن مسعدة اخذ عن سيبويه

(85) ذكر ابن النديم كتاب الخليل فقال : (( .. قال ابو بكر بن دريد : وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان واربعين ، قدم به وراق من خراسان وكان فى ثمانية واربعين جزءا فباعه بخمسين دينارا وكان سمع بهذا الكتاب انه بخراسان فى خزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق . وقيل ان الخليل عمل كتاب العين وحج وخلف الكتاب بخراسان فوجه به الى العراق من خزائن الطاهرية ، ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ، ولا روى فى شيء من الاخبار انه عمل هذا البتة ، وقيل ان الليث من ولد نصر بن سيار صحب الخليل مدة يسيرة ، وان الخليل عمله له واحداه طريقته وعاجلت المنية الخليل فتممه الليث )) . ص 64

(86) سقطت من ( ا ) كلمة : ( بن شميل )

(87) فى القطعتين معا : ( سنة خمس وتسعين ) ، والزيادة أضافها محققو المزهر من فقه اللغة للثعالبي .

(88) فى ( ا ) : بعده

(89) فى ( ب ) : فى

(90) الكلمة مخرومة فى ( ا )

حينئذ (91) ولا استجازوا رواية حرفٍ منه ، ولو صَحَّ (92) الكتابُ عن الخليل لبَدَرَ الأصمعيُّ واليزيديُّ وابن الاعرابي وأشباهُهُم (93) إلى تَزْيين كتبِهم ، وتَحْليةِ علمهم بالحكاية عن الخليل والنقلِ لعلمه . وكذلك مَنْ بَعدَهُمْ كأبي حاتم وأبى عبيد ويَعقوبَ (94) وغيرهم من المصنفين . فما علمنا أحدًا منهم نَقلَ فى كتابه عن الخليل من اللغة حرفـــًا .

ومن الدليل على صحة ما ذكرناه : أَن جميعَ ما وقع فيه من مَعاني (95) [3 / و] النحو ، إنما هو على مذهب الكوفيين وبخلاف مذهب البصريين ، فمِنْ ذلك ما بُدِئ (96) الكتابُ به ، وبُنِـيَ عليه من ذكر مَخارجِ الحروف فى تقديمها وتأخيرها ،وهو (97) على خلاف ما ذكره سيبويهِ عن الخليل فى كتابه (98) . وسيبويهِ حاملُ علمِ الخليل وأوْثقُ الناسِ فى الحكاية عنه ، ولم يكـــن ليَختلفَ (99) قولهُ ولا ليَتناقضَ مذهبُه ، ولسنا (100) نُريـــد تقديمَ حرفِ العين خاصة للوجه الذي اعتَلَّ به (101) ، ولكنْ تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها ، وكذلك ما مَضَى عليه الكتابُ كلُّه من إدخال الرُّباعي المضاعف فى

(91) فـى ( ب ) : يومئـذ

(92) الكلمــة مخرومــة فـى ( ا )

(93) نفـس التعليــق

(94) هو ابو يوسف يعقوب بن السكيت من العلماء بنحو الكوفيين ( ت 244 او 246 هـ )

(95) الكلمــة غيـر واضحـة فـى ( ا )

(96) مخرومــة فى ( ا )

(97) نفـس التعليـق

(98) الكلمــة مخرومــة فى ( ا )

(99) فـى ( ا ) : لتختلـف

(100) مخرومــة فى ( ا )

(101) نفـس التعليـق

باب الثلاثي المضاعف ، وهو مذهب الكوفيين خاصة ، وعلى ذلك استمرّ الكتابُ من أوله إلى آخره ، إلى ما سنذكرُه من نحوِ هذا ــ إن شاءَ اللهُ ــ (102) . ولو أنّ الكتابَ للخليل لَمَا أعجزَه ولا أشْكلَ عليه تثقيفُ (103) الثنائي الخفيفِ من الصحيح والمعتل ، والثنائي المضاعف من المعتل ، والثلاثي المعتل بعلتين . ولِمَا جُعل ذلك كلُّه في بابٍ سماهُ اللفيفَ ، فأدخلَ بعضَه في بعضٍ وخلطه (104) خلطاً لا يَنْفصِلُ منه شيء عما هو بخلافه ، ولوَضعَ الثلاثيَّ المعتلَّ على أقسامه الثلاثة ، ليَسْتبينَ معتلُ الياء من معتل الواو والهمزة ، ولَمَا خَلَطَ الرباعيَّ والخماسي من أولهما الى آخرهما .

ونحن على قَدْرنا قد هذّبنا جميعَ (105) ذلك في كتابنا المختصر منه ؛ وجعلنا لكل شيء منه بابا يَحصُرُه ، وعَددا يجمعه . وكان الخليلُ أَوْلَى بذلك وأجدرَ (106) . ولو لم تكنْ (107) قدوتُنا فيما ذكرْنا إلا بمن طالعَ جميعَ العلوم ، وأشرفَ على أصنافِ الفنون ، وعرَفَ أحوالَ العلماء وسِيَرَهم ومراتِبَهم في العلم ومآخذَهم فيه ، ووقفَ على تاريخ أزمنتهم في مواليدهم وكتُبهم ، وتصرُّفِهم في أيام حياتهم الى انقضاء أعمارهم وانقطاع مُدَدِهم ، أمير المومنين الحكم المستنصر بالله رضيَ اللهُ عنه ، لكنا جُدَرَاء

---

(102) الجملة ساقطة من ( ب )
(103) في ( ا ) : تثقيل
(104) في ( ب ) : وخلط فيه
(105) سقطت هذه الكلمة من ( ا )
(106) هنا تدخل السيوطي ليحذف فقرة من كلام المؤلف ، وذلك من قوله : ( ولو لم تكن قدوتنا ) الى قوله : ( ولم نحك عن الخليل حرفا .. )
(107) في الاصل : تكن

باتباع أمره ، [واقتفاء] (108) مذهبه . فقد عهد إلي أعزه الله وأدام خلافته — حين أمرني بتنقيح الكتاب البارع (109) وتهذيبه والزيادة في أبوابه — ألا أحكي (110) غبه عن الخليل حرفا ، وأن [لا] (111) أنسب ما وقع في الكتاب عنه مما لم يذكره غيره من العلماء الى كتاب العين، توخيا للحق وقصدا الى الصدق .

وأنا ذاكر الآن من الخطأ الواقع في كتاب العين ، ما لا يذهب على من شدا شيئا من النحو ، أو طالع بابا من الاشتقاق والتصريف ، ليقوم لنا العذر فيما نزهنا الخليل عنه (112) . وندع استقصاء ذلك كله ، اذ قد ذكرناه بكماله في كتابنا الاول ؛ [فمن شاء] (113) أن يراه [بتمامه] (114) نظر في ذلك الكتاب فألفاه مجموعا فيه (115) . [فـ] (116) إن أنصفنا الطاعن جعل مكان لومه حمدا ، وبدل ذمه مدحا ، وإن استمر في غيه وتمادى في جهله ، لم نحفل بذلك منه ؛ واستبان لمن نظن جهله وعناده [3/ظ] إن شاء الله . » اهـ

الربـــاط — عبد العلى الودغيري

(108) الكلمة مخرومة فى الاصل ، وهى هنا من تقديرنا

(109) وهو ( البارع فى اللغة ) لابي علي القالي

(110) هنا استؤنف الكلام فى (ب) ولكن بعبارة مغايرة فقال : (ولم نحك فيه عن الخليل ..)

(111) هذه زيادة من تقديرنا ، واما فى (ب) فقد غيرت العبارة على هذا النحو : (ولا نسبت)

(112) هنـــا ينتهي النص الذي نقله السيوطي من المقدمة

(113) العبارة من تقديرنا وهي مخرومة فى الاصـــل

(114) الكلمة مخرومة فى أولها ، وهي هنا من تقديرنا

(115) لا شك ان الكتاب الذي يحيل عليه المؤلف هو ( مختصر العين ) ، اذ لم يكن مجرد اختصار بل فيه تنقيح وتهذيب لما جاء مختلا ، وتنظيم للابواب المختلطة وحذف للشواهد وغير ذلك . وقد أشار الزبيدي الى بعض ما صنعه فى هذا المختصر ، فقال فى مقدمته : ( ومذهبنا ان نصلح ما ألفيناه مختلا فى الكتاب ، وان نوقع كل شيء منه موافعه ، ونضعه فى بابه ان شاء الله ) ـ مخطوط القرويين .

(116) زيادة يقتضيها السياق ، وليست بالاصـــل .

## بيـان المصـادر والمـراجـع

— استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين — للزبيدى ، محمد بن حسن ، مخطوط القرويين رقـم 118 .

— انباه الرواة على أنباه النحاة — للقفطى ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيـم — القاهرة ، 1950 م

— بغية الوعـاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطى — بيروت .
— التكملة لكتاب الصلة ، لابن الابـار ، نشر عزت العطار الحسينى ، — القـاهـرة ، 1956 م

— ترتيب المدارك ، للقاضى عياض — تحقيق د. بكير محمود ، بيروت 1965 م .

— جذوة المقتبس ، للحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، مصر .
— الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، لابراهيم بن فرحون — ط. 1 ، مصر ، سنة 1351 هـ

— الذيل والتكملة ، للمراكشى ، ج 6 ، تحقيق د. احسان عباس ، بيروت دار الثقافة ، ط 1 سنة 1973 م .

— طبقات النحويين واللغويين ، للزبيدى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط. 2 ، دار المعارف ، مصر سنة 1973 م .

— الفهـرسـت ، لابن النديم ، مصر ، سنة 1348 هـ .
— مختصـر العين ، للـزبيـدى .

أ) القسم المطبوع ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى وعلال الفاسى ، الدار البيضـاء ، سنة 1963 م .

ب) مخطوط القرويين رقـم 363 .

— المزهــر فى علم اللغة وانواعها ، السيوطى ، نشر محمد احماد جاد المولى وزميليه — مصر .

— المستدرك فى اللغة — لازبيدى — مخطوط القرويين ، رقم : 64

— المعاجم العربية ، د. عبد الله درويش ، مصر 1956 م

— المعجم العربى ، د. حسين نصار ، القاهرة 1956 م

— نزهة الالباء فى طبقات الادباء ، لابى البركات عبد الرحمن الانبارى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مصر ، 1967 م .

— وفيات الاعيان ، لابى خلكان ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، سنة 1972 م .


**الربــاط** **عبد العلي الودغيري**

# المنبر الساحر

د. عبدالكريم الأ ر

ما أكثر ما أشكو الى نفسى ما يعانى الاستاذ فى جامعاتنا من هم التفكير ، فانى أراه فى كل صباح ، فى طريقه الــــــى الجامعة ، مطرقا ، آخذا فى حساب المعلوم والمجهول ، كأنه يحصى عثرات الايام ، فيدخل فى الخضرة والزهر دون أن يفطن اليهما ، ويلقى على النهر الذى يجرى انى جانبه نظرة عابرة ، لا تكاد تميزه مما حوله . فاذا جاز باب القاعــة الى المنبر ، وأخذ سمته ، ونظر فى العيون المتطلعة اليه ، تحرك فى أعماقه المعلم ، فنسى كل شىء من حولــه ، وأخــذ ينشىء الحيــاة ويقيسها ، كأنما سحره المنبر فقطع ما بينــه وبين واقعه ،

ورفعه درجات الى عالمه المسحور الذى يعرفه أستاذ الجامعة ساعات من العمر ، ولا يعرف النبى عالما سواه .

فاذا شكوت الى نفسى ما نعانى تمثل لى هذا المنبر الحى الذى أقف من فوقه ساعات كل يوم ، أخاطب النفوس الضاوية وأناجى حقائقها ، حتى تنفتح على منها أكوان رائعة أستلقى فى أحضانها وأذوب فى حرارتها ، فكأنى أتسرب فى شقوق الارض أسمع هدير الحياة الخفى ، وأراها فى مهدها العميق تتنفس وتدب وتسعى وتطير . ثم أخرج منها بغتة ، فيخالطنى أسى أحسه ، وأرانى أجمع أوراقى فى بتايا النشوة الغامرة ، وأهبط درجات المنبر الى عالم الزيف !

فليس هذا المنبر أعوادا من الخشب اذن ، ولكنه عالم الحقيقة الذى أعيش فيه . من رقعته المحدودة أجوب أقطار الارض ، وأتسلق حيطان الطبيعة ، وأهز الموتى فى قبورهم ، وأخالط الناس فى أحلامهم . تأخذنى النشوة فأهتز كما تهتز الغصون ، وأغضب فتتداعى الكواسر فى كل جبل ، وأخاف فتهب على الرياح التى هبت على أوديسيوس ، وجلفر ، والسندباد .

فأى حياة أغنى من هذه الحياة ؟ وأى عالم أبعد من هذا

العالم ؟ أجمع فى يدى كنوز الملاحم والاساطير وحقائــــق الدنيا ، وفى عينى رؤى الاحلام وعيان الحس ، وفى قلبى آمال البشرية وأفراحها وأحزانها ، وأنا لم أجاوز ، فى مدى البصر ، ساحــة هــذا المنبــر !

وتنكسر لى عليــه حــدود الزمــان والمكان ، فتستوى العصور والقارات ، وتختلط الامم ، ويتداعى خصوم التاريخ وأصدقاؤه وعشاقه . فمنــه أطللت على حــرب البسوس ، وداحس ، والغبراء ، وشهدت طروادة ، وفتح بيت المقدس ، وعمورية ، وعرفت هيلانة ، وعبلــة ، وليلــى ، وجولييت ، ورأيت المهلهل ، وعنترة ، وعمرو بن معد يكــرب ، وصلاح الدين ، ولويس الاسيــر .

حيــاة النــاس تفرقنى ، والمنبر يجمعنى ويوحدنى . آتيه مثقل القلب أنوء بأعباء الحيــاة وهمومها ، فيتلقانى فى لطف ، ويبدأ يستلنى شيئا فشيئا من عالم الحقد والحســـد والنميمة والخيبة ، ويطهرنى ويغسل قلبى . جئته بعد هزيمة حزيران ما أكاد أبصر اليه الطريق ، ممرورا تائهــا ، فنظرت من فوقه الى عيون طلبتى الغارقــة فى أحزانها ، فمــا أسرع ما أحسست بالخجل ! لقد رفعنى المنبر اليه ، فكأنى أتحدث

فيهم بلسان أمتى وتراثها العريق . كأنى صوتها المنبعث من أعماق تاريخها ، فأنا ضميرها وعينها . بدأت أتحدث اليهـم فى بطء كأنى أسير بهم الى معركة خفية كانوا يريدونها . ثم غامت عيناى فلاحت لى ، على أسوار التاريخ ، ألويـــــة اجنادين ، وحطين ، واليرموك ، والقادسية ، وعين جالوت ، وماج فى قلبى التاريخ كله ، وتوهجت الصحراء حتى لقـــد أحسست حرقة الرمل ، وارتفع من حولى تهليـل الحـق ، فرأيتهم يتحركون ، كأنهم يفيقون من النوم . فهنا أسترخى صوتى وابتـل حلقـى .

وجئته يوما أقرأ عليهم نصا لأحد الكتاب يبكى فيه ولده الرابع ، بعد أن دفن بيديه من قبله اخوته الثلاثة . وكـان الكاتب يتفطر فى النص ويسكب فيه آلام عمره كلها . وقـد كتبه فور عودته من المقبرة ، بعد أن نفض يديـه من تراب ولده كما قال . ابتدأت أقرأ النص فى غير احتفال ، كأنى أريد أن أصرفهم عنه . وكان المنبر يرقبنى فى صبر . وسرعــان ما أحسست أن الرجل يحمل فى النص ظلمـة القبـر والقلب معاً ، وآلام الشيخوخة وظمأها ، فكأنـه يجـر وراءه ، من المقبرة الى النص ، خيط الدم الذى يصله بها . ومـا أدرى كيف تمثلت ـــ والكاتب يصف مرض ولده قبل أن يموت ـــ

مرض ولدى آنذاك ، فاختلج صوتى كأنى على فراشه . ولكنى تماسكت ، وسكت قليلا . ثم عاودت ، وكان الكاتب يقترب من نهاية النص وقد أخذ يناجى أولاده الاربعة الذين ماتوا متعاقبين ، فيسألهم أن يقفوا فى جنان الخلود ، ويفتحوا لربهم أكفهم الصغيرة ويسألوه أن يلحق بهم أباهم فقد أضناه الصبر . فما لبثت أن أحتبس صوتى ، فأسرعت ، فتناولت نظارتى السوداء فركزتها على عينى ، وأشرت الى أحد الطلاب ، على غير اتفاق ، بأن يتابع عنى قراءة النص . وقلت فى نفسى : يا للمنبر ! كيف يقفنى هذا الموقف !

على أن سحر المنبر يستحكم فى ساعات الصباح ، والنفس صافية ، وغدير اليوم ، فى ساعاته الاولى ، لم يضطرب بعد . فحينذاك تنفتح على المنبر عوالم لا حدود لها ، وتبدو الحياة فى عينى كالبستان العظيم : لون وطعم ورائحة وحفيف . فما أدرى ، كأنما ينبت لى على المنبر جناحان فأطير وأحوم ، وأنقبض وأنبسط . ويحس طلبتى أنى أدور فى الآفاق نهماً ظمآن ، كأنى أضطرب فى صدر الحياة ، كأنى أحاول أن أعب من نبع الأزل ، واجمع مفاتيح الكون فى يدي ! فحينذاك يسحرهم المنبر كما سحرنى ،

فيذوقون معى لحظات من نشوة النفس لا تقاس بمقاييس الزمان .

فاذا اجتمع الى الصباح الربيع ، تهدلت على النوافذ أغصان ، وفاحت عطور ، وتدفق تيار عجيب من المحبة نظل ندور فيه . فحينذاك أغادرهم من النوافذ المفتوحة الى الحدائق وأجرهم ورائى ، نتوثب كالاطفال ، ثم نعود مع الدقائق الاخيرة .

قرأت مع طلبتى ، على المنبر ، فى مثل هذه الساعة من الصباح ، نص المتنبى الذى وصف فيه معارك سيف الدولة مع الروم سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ، وقد ظفر بالنصر ، وبابن الدمستق ، ونال من الدمستق نفسه منالا صعبا . واستدعانى المنبر منذ أول الطريق ، والصباح يفتق فى كل عين . وشق المتنبى والربيع كلاهما طريقه الى القلب ، فغادرنا حلب الى مرعش ، ثم تجاوزنا الثغور ، والمتنبى والربيع يفعلان فينا ما لا يفعله شىء ، وقد استحكم سحر المنبر فنثرنى مع الجيش الغازى فى يومه المشرق الذى وصفه المتنبى ، ذى الشمس الساطعة .

كنت أحس بين الحين والحين أن المنبـــر يتحـــرك تحت قدمى ، ولكنى غائب بين اليقظة والمنام . وأخذ الجيـــــش العربى يتقدم بخيله الاصيلة الجميلة ، فيراها الروم كالقـــدر القبيح . وما تلبث الحصون أن يعييها الصبر ، فتلقى بأهلها وتزول . ويأخذ المتنبى ، بأفعاله حيناً ومدىد الصوت حيناً ، يخرك الجيـــش بعدها حركـــة خفيـــفة سريعـــة كما يتحرك السحاب ، فيزحف على السهل والجبل ، وتخوض خيـــــله الفـــرات فيغمر أجسادها فـــلا تبيـــن الا رؤوسها وأعناقهـــا وتخرج فتطوى الارض ، وتكر شمالا وجنوباً ، ويقع جيش الروم فى قبضتها ، ويقبل المتنبى على الامير لا مخضباً مختالا لا تسعه الارض . . . رفعت وجهـــى عن الكتـــاب ، فلـــم أبصر أحدا : كانوا جميعـــا ما يزالون فى أرض التاريـــخ العظيم . تلك ساعة من ساعات المنبر التى لا تنسى .

على أن المنبر يفقد سحره حين تنقطع صلتـــه بالعيون الشاخصة اليه ، فحينذاك يعـــود كتلـــة بايـــدة من الخشب لا يحركه شىء . وما أتمنى حيـــنذاك شيئـــاً كمـــا أتمنى أن تنقضى الساعة لأزيـــح كابوسه عن صـــدرى . ومـــا أدرى ما السر فى هذا كله ، فقد تستهوى المادة الصعبة الطلبة فى ساعات ، وقد لا تستهويهم المادة السهلة فى ساعات . وقـــد يتحرك فى شىء لا أفهمه فى ساعات ، فأحسب أنى أمـــور

بالحياة . وقد يسكن فى شىء لا أفهمه فى ساعات ، فأحسب أنى مكلف بسكنى القبور ومسامرة الموتى ! والغريب أنى منذ أعتلى المنبر ، فى دقائقه الاولى ، أعرف الى أى جانب أميل .

على أنى قد أبدأ الساعة وأنا أحسب أنى استنطق الجماد ، وأنفخ فيه الروح ، فتبدر من أحد الطلاب بادرة لا أرضاها ، فما أشعر الا وقد برد فى أعماقى كل شىء . وحينذاك ما تنفع فى حيلة . تنغلق أبواب النفس وتحكم أقفالها ، ويبدأ الكلام يسترخى ويصطف بعضه الى بعض فى رتابة وملل أحسهما يسيلان من كل عضو من أعضائى . وما أحسب الطلبة يعانون من ساعة ما يعانون من ساعتى تلك . فلهذا أعرف أنهم يتواصون دائماً بالتزام الحذر . وتراهم يدورون بأعينهم يتفحص بعضهم بعضاً ، خشية أن تقع بادرة لا يتوقعونها ، فيعانون بعدها مخاض الساعة كلها .

ثم انى فى الحالين ، ما أكاد أغادر المنبر حتى أشعر بالكلل . وقد ألبث ساعة أو ساعات مكدودا واهناً من شدة الانفعال . وقد أعانى النهار كله ، ثم أحاول أن انام فما

أستطيع ، فأفيق فى اليوم التالى ومن حول العينين هالتـــان سوداوان . وأحسب انى سأقضى يوماً تعساً على هذه الحال

ولكننى للعجب ما أكاد أسير الى المنبر واعتليه حتـــى يتبخر عنى احساسى بالوهن ، ويبدأ سحر المنبر يطغى على ، ويبدأ هذا الاحساس الحى اللطيف بجمال الكلمة وقدرتها على الاثارة يملأنى بغبطة أجهل بدايات يقظتها فى النفس . كأنى فى عربة مجهولة تتحرك بى فى اتجاه الافق القريب فى طـرق رخوة مبللة لا تراها العينان ! فحينذاك يبدأ يهدر فى الاعماق صوت رائع تتجاوب بـــه أطراف الكـــون كلهـــا ، وكأنى أرى الحقيقة عياناً كالفكرة المجردة ، وأنا ألاحقها باللفظ والاشارة، وأحاول أن ألتقطها بملاقط الحواس الخمس : باليدين والعينين والأنف والاذنين وصفحة الجبين وأرى أصابعى تتحـــرك وتلتوى فى حركات مبهورة . وأتحسس جبينى كأنى أوشك أن أبسط تجاعيد الفكرة والطلبة أمامى تلتمع أعينهم وتنقبض أيديهم كأنهم يسابقوننى اليها . فما وجد الصوفية حينذاك ؟ ومـــا غبطـــة العارفـــين ؟

دمشق عبد الكريم الأشتر

فصل من كتاب

# " فاس
# والظل في فاس "

عبد الكبير الفهري الفاسي

يشدنا الى فاس ، ما لا يشدنا الى غيرها من مدن الشرق والغرب ، يشدنا اليها مع شقة النوى ، نوازع الحنان والتعلق بمباهج الاوطان ، ونوازع الارتباط ، وبواعث الاغتباط ، وهيام بماضيها ، وحسرات على حـاضـرهـا . . .

وتجدنا ونحن خارجها ، كأننا لا نجد متسعا أو راحة في الارض ذات الطول والعرض ، كما نجد الوانا من ذلك بالقسط الوافى والنصيب الوافر ، وهكذا فان الانسان مع أوطانه ، وقد عجن من طينها ، ونمى بفضل هوائها ، وارتوى بعذب مائها ، واكتوى بحرها وقرها .

فليست هى مسقط الراس ومجال النور لاول مرة فى الحياة ، ولا مهد الآباء والاجداد وما اورثوه من أمجاد فحسب ، بل هى فوق ذلك بكثير لاشياء قد يعسر تبيانها ، وهى من نوع ما يشعر به ولا يفصح عنه ، وبه او معه تتعطل لغة الكلام ، وينضب معين الاقــلام .

فمن الصعب اذلك كله ، أن نقيس فاس — مهما كانت الفوارق ، ومهما كثرت المميزات — بغيرها من المدن ، فانها فاس . وما ادراك ما فاس . وكفى ! !

نحن نعلم انها ليست من المدن الازلية ، وانها انشئت بعد كثير من المدن العربية والاسلامية مثل آريحا والقدس ودمشق وعمان وطنجة ومكة والمدينة وبابل واور ونينوة وغيرها ، ورغما عن حداثة تاريخ بنائها ، فاننا ننظر اليها كأنها وجدت قبل أحداث التاريخ ، لانها اتخذت من القدم حلته ومن التاريخ سيمته ، واصطبغت من ذلك بأبهى الحلل ، حلل القديم الذى يوحى دائما بعظمة لا يوحى بها الحديث ، وان تضاخم بنيانه ، واتسعت اركانه ، وتكاثر عمرانه ، كما هو الشأن فى بعض مدن أوروبا وامريكا . فهى لذلك ، لا يعرف أماضيها قريب ، أو هو مغرق فى القدم . (1) لاحتمال أن فى موقعها وجدت مدينة قبلها اندثرت قبل تأسيس فاس الاسلامية . والواقع هو انها من تلك المدن التى تكون الاحداث ، وتصنع التاريخ ، وتبنى الحضارات ، مما يرد عليها ومن مواردها ومن معادنها ومما تصنعه هى من مظاهر الحضارة لنفسها على تعاقب الايام .

وفاس تلك المدن التى تلمس فيها روحا ، نعم ، روحا كأرواح الاحياء ، وهذا شىء لا يشعر به الا ذوو حساسية خاصة ، ولا يرتابون فى وجوده ، فهى فى ذلك كالقدس الشريف مثلا ، وتشعر بذلك فى شيراز او فى اصبهان او فى دمشق ، او فى الآستانة ، أو حتى فى القاهرة مع حداثة بنائها . تلك من مدن الشرق التى أعرفها ، فأما مدن الغرب فهذا الشعور يغمرك وانت فى روما أو فى باريس او فلورنسة ، أو فى بعض المدن الايطالية الاخرى ، التى كانت من معاقل الحضارة الانسانية ، وخصوصا فى مضمار الفنون ، حتى يخيل اليك وانت فيها انك تزور متحفا من متاحف الفن . ولن تجد زائرا لنيويورك يحدثك عن هذا الشأن لا قليلا ولا كثيرا . وهذا الانطباع هو الذى خلقته زيارة نيويورك فى أعقاب الحرب العالمية

1) من المؤرخين من يعتقد أن فى موقع فاس الادريسية ، كانت مدينة سابقة لها وعفى عليها الزمن فاندثرت . وقد نشرنا فى هذا الموضوع قصة رمزية سنة 1934 تحت عنوان « انسيتنا الاقدار ، أم أهملتنا »

الاولى فى نفس الكاتب الافرنسى أبير لوتى ، الذى تقدم له أن كتب كتابا عن رحلته للمغرب فى معية أحد سفراء فرنسا للبلاد المغربية فى أواخر القرن المنصرم ، وتكلم عن فاس فى كتابه متحدثا عنها حديث ذواقة ، وقـــد زار قبلها وبعدها كثيرا من مدن الشرق كالقاهرة واسطنبول واصبهان وغيرها . لم ير فى نيويورك الا ركاما من الحديد والاسمنت ، ولم يلمس فيها روحا ، ورغما عن علو ناطحات السحاب الشامخة ، فانها لا تصطبغ بسيمات الروح والامجاد الماضية لاغراق أهلها فى الماديات من غير ذوق ومن غير حنين للروحيات ، رغما عن تعدد النزعات الدينية التى لا توجد فى غيرها : فجو نيويورك خلو من كل فكر أو روح ، ولا ترفرف عليه أجنحة الارواح ، كما ترفرف فى سماوات المدن الاخرى التى اشرنا اليها .

ففاس من تلك المدن التى ترفرف فى سمائها الروح كما يشعر فيها الانسان بسمو الفكر . الامر الذى لا يشعر به الا العارفون ويتخطاه غيرهم ، فهى فوق ذلك جميلة فى شكلها ، معقدة فى تاريخها ذات الدروب المنعرجة ، والساحات المنفرجة كثيرا ما تظللها اغصان اشجار عكشة (1) وارفة الظلال تخالها لكبرها كأنها غرست يوم بنيت مدينة فاس ، وتتطاير على افنانها عصافير ينضم تغريدها الى خرير المياه المتدفقة من النافورات أو مـــن السقايات ، فيتكون من ذلك نغم هو أقرب الى السانفونية منه الى الضجيج أو الهـــرج والمـــــرج . . .

ولفاس قداسة فى النفوس وحرمة ، وما هى الا قداسة الدين ، وحرمة الفكر ، ورعاية المعرفة الانسانية . كان لها ذلك على تعاقب الايام منذ نشأتها وما يزال ، ورغما عن بعد الهيمنة السياسية عنها بفقدانهـــا طابعها كعاصمة المغرب وقاعدة الملك ، فانها ما تزال هى بذاتها السلطة السياسة بحكم ماضيها وحكم أمجادها ما بين طريف وتليد ، ورغما عن ذلك فانك ما تزال تلمس أمجادها فى مبانيها وقصورها ، وفى أسوارها تلمس فيها أبهة الملك ورونقه . وكان الملك فى المغرب أين ما كان واين ما حل وارتحل ، يكون له مزيد من الرونق والابهة بمعالم ابهتها ورونقها ، لانها منذ كانت ، وهى والملك صنوان ، هى اطاره وهو تاجها .

1) كثيرة الفروع ملتفتها .

ويلمس جمال فاس فى مجموعها قبل أن يظهر فى أطرافها اذا ما امعنت النظر فيها جزءا جزءا ، فى بكورها أو فى أصالها ، وسواء اشرفت عليها وانت فى سفح جبل « زلاغ » المطل عليها وكأنه يحتضنها بعطف وحنان ، أو اشرفت عليها من قباب « باب فتوح » ، وعند « المصلى » ، وضريح « الشيخ أبى المحاسن » أو من قباب « بنى مرين » الاماجد ، الذين امعنوا فى زخرفة مدارسها واطلقوا فيها العنان لكل فنان صانع .

أما حدائقها وجنانها الغناء ، فكانت حقا « وما يزال بعضها كذلك » جنات قبل أن يطغى عليها الاستهتار فى البناء ، غير أن أهاليها اذ أرادوا أن يطعموا قديمها بجديد صاحبهم التوفيق تارة ، واخطأهم تارة أخرى ، لان جمال الطبيعة الذى صقلته السنون لا يطعم وانما يستلهم فيوحى بما قد يقاربه من جمال من صنع الانسان .

ولقد تغنى بجمالها وبنهرها وبواديها ، « وادى الجواهر » الشعراء والكتاب وملأوا بذلك بطون الكتب والدواوين ، كانوا يشيدون بذلك الوجه الباسم ، والجانب الناعم للحضارة المغربية ، كما اشاد غيرهم بالوجه الفحل المترجل الذى تتسم به الحضارة المغربية فى مدينة مراكش ، والذى لا يتنافى مع ما فى طباع أهلها من خفة ومرح .

ووادى فاس ، أو وادى الجواهر ، الذى ينساب فى دورها وحدائقها انسياب المدام فى الكاسات ، يسقيها من معينه فى جداول وقنوات ، ثم ينفى عنها الادران كما ينفى الايمان الخبائث عن النفوس ، فيطهرها تطهيرا .

ولقد قيل عنه — وبئس ما قيل — أن أهلهايشربون الثورة منه وما علموا أنهم انما يشربون منه سلامة فى الخلق ، وسلامة فى الذوق ، وطراوة فى الفؤاد واللسان ، وخفة فى الروح ، مع ما فى ذلك من سحر فى النكتة ، وحدة فى اللسان ، وكلذلك يجعلهم من أكثر الناس تذوقا لاطايب الحياة ويدعو الحاكم لرميهم بالثورة التى اذا جنحوا اليها — وكثيرا ما فعلوا عبر التاريخ — فانما يفعلون ذلك لعز وفهم عن ضيم سافر ، أو ابائهم لظلم فاجر ، مع العلم أن سكانها الاصليين قد تلقحوا بمن رحل اليها من سكان

قرطبة أو القيروان الفارين بعزتهم من المظالم التى كفتهم فى تلك الربوع ، واستوطنوا فاسا لينعموا بها بما كان ينعم به أهلها من عدل الادارسة الشرفاء بناتهــا الاوليــن ٠

ويجرنا الحديث عن وادى فاس ، الى الحديث عن المشروع الضخم الذى اضطلعت به السلطات المحلية الرامى الى تغطية مجرى النهر بعدما يدخلها فى اماكن معينة بدعوى السعى وراء ازالة آثار العفونات من الهواء وتيسير السير فى داخلها للسيارات الخ ٠ ٠ ٠ المعزوفة التى قدمت لتبرير هذا العمل الذى يعد اهمالا فى نظر التاريخ والمحافظة على الامجاد والاثار والبيئة وما تقتضيه من سلامة السكان ، علاوة على سلامة الذوق فــى الاختيــارات العمرانية . . .

فهل يتسم هذا المشروع وهذا التصرف بشىء من السداد والصواب ؟ وهل من الضرورى أن نحاول ازالة عفونات — اذا كانت هناك عفونات — وهى طبيعية ، لتعويضها ، بسموم صناعية ناشئة عن تلوث صفاء هوائها بالبنزين المحروق فى السيارات التى ستحول هدوء المدينة الى هــــرج ومرج صاخبين ، وتأتى على طمأنينة النفوس وعلى سلامـــة الارواح ؟

فهل من المعقول أن نأتى الى مدينة تاريخية طبقت شهرتها الآفاق ونحولها الى بؤرة دخان ثبت علميا أنه من مسببات السرطان ، وضاق أهل الغرب درعا فى التخلص منه ومن عواقبه ؟ وهل من المعقول أن نأتى على احياء برمتها فيقتلع منها شجرها وصفاء هوائها بدعوى أن أصحاب تلك العقارات لهم كامل الحق فى الاستفادة من ارتفاع اثمانها بتجزئتها لاحداث احياء سكنية جديدة ، مع أن الدول كلها تتصرف فى مدنها التاريخية بخلاف ذلك ، حيث انها تستملك املاك المدن التاريخية ويعوض أصحابها بالمال أو بأراض الدولة خارج المدينة لاحداث احياء جديدة فيها جميــع اسباب الراحة والمرافق والخدمات الصحية الحديثة ؟

وغريب ما فى الامر ، أن الاستعمار الذى حاول أن يطمس ما كان لفاس من أمجاد كعاصمة للمملكة لم يخطر على بال رجال أن يشوه معالمها ، هذا التشويه الذى لا نريد أن نصفه الآن بشىء ، ونكتفى بالاشارة اليه فى

هذه الكلمة التى ان عبرت عن شيء ، فانها تعبر عن اعجاب وتعلق بمدينة كانت وما تزال تمثل أول عاصمة للبلاد ، وقاعدة للدول التى تعاقبت على عرشها الذى قارع الاحداث ، وخصوصا فى عهد الدولة العلوية المجيدة ، التى أظهرت وما تزال تظهر حبها لفاس ، وأعربت غير ما مرة عن تعلقها بأمجادها ، وضاعفت من مفاخرها بمفاخر جديدة ، هى عنوان من عناوين عظمتها حتى يصح لنا أن نقول بأن جلالة (*) الملك الحسن الثانى سيدخل التاريخ فى جملة ما سيدخل به من النعوت والصفات صفته الملك البناء . وكأنه جعل شعاره فى هذا الشأن قول الشاعر :

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبالسن البنيان

ان البناء اذا تعاظم شأنه
أضحى يدل على عظيم الشان

**الرباط** **عبد الكبير الفهرى الفاسى**

(*) ولا شك أن القراء قد استمعوا للكلمات الذهبية التى قالها جلالته عن فاس بمناسبة استقباله الكريم ، للمجلس البلدى ، الذى نرجو من الله أن يكون عونا مع مؤسسة اليونسكو على المحافظة على ما تبقى من معالم فاس الاثرية .

# رسالة لم ترسل

مقبولة الحلي

امـا قاسيت لـيـلا مثـل ليلـى
وهـل عانيـت سـهـد البعـد مثلـى
وهـل كنت احترقـت بنـار شـوقى
فكـم فى البعد اغـرى الشوق رحلى
وهـل بلـغـتـك اخـبـارى فانـى
جعلـت نجـوم هـذا الليـل رسلـى

أرقـــت ومـــل مـــن أرقـــى فـــراشى

ونمـــت وكنـــت طـــول الليـــل شغلى

وعشت لكل مـــا يضـــنـــى ويشـــقى

وضقـــت بكل مـــا ينسى ويـــسلـــى

فانـــت وان قســـوت نعيـــم عمـــرى

والقـــى فى هـــــواك ســـداد عقـــلـــى

*   *   *

لأجلـــك لم تنـــم عيـــنى اللـــيـــالى

فهـــل عيـــنـــاك لم تغمـــض لأجلـــى

واكبـــر علـــتـــى فى الـــبـــعـــد أنـــا

بعـــاد لـــم اقـــل لـــك أو تـــقـــل لى

ارى احلـــى بـــلاد لـــســـت فيـــهـــا

كقفـــر مظلـــم الانـــحـــاء .. محـــل

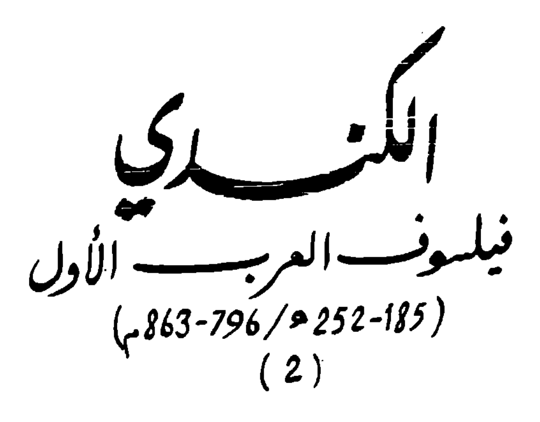
فمـــا اشتعلــت لغـــيرك نـــار شوقى

ولـــم تـــسرع لغـــير لقـــاك رجـــلـــى

وويلـــى من عـــذابـــى واغـــتـــرابى

ومن ليـــلـــى المعـــذب ألـــف ويـــل

**بغـــداد** **مقبولة الحلى**




د. فوقية حسين محمود

ومن الموضوعات الاخرى التى يمكن ان نتبينها عند الكندى «الخبر» . فقد التفت الكندى الى الخبرى من الموضوعات ، اذ تعرض :

لـ « شهادات الاخبار » (79) . وهو بصدد الكلام عن « النظر التمييزى ومقتضياته » .

كما ان اثباته لكلام الله سبحانه وتعالى على لسان الرسل صلوات الله عليهم ، يؤكد الخبر كموضوع للمعرفة ، بحيث نستطيع أن نقول :

« ان الخبر لديه يشير اما الى ما هو منزل : الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الشريفة (80) . واما الى ما هو « ليس بمنزل » ، من اخبار العباد .

---

(79) انظر « رسالته فى كمية كتب ارسطو » صفحة 372 وما بعدها .
(80) نفس المرجع صفحة 273 .

يقول الكندى فيما يتعلق بالخبر المنزل :

« . . . فاما الرسل صلوات الله عليهم وبركاته ، فلا شيء من ذلك بل بارادة مرسلها جل وتعالى بلا زمان يحيط بطلب ، ولا غيره — تستيقن العقول ان ذلك من عند الله جل وتعالى ، اذ هو موجود عندما عجز البشر بطبعها عن مثله ، فان ذلك فوق الطبع وجبلها فتخضع له بالطاعة والانقياد ، وتنعقد فطرها فيه على التصديق بما أتى به الرسل عليهم السلام (81) .

اما ما هو ليس بمنزل من اخبار العباد ، فيتجلى فى قبوله لاراء الاوائل من اهل صناعة الفلسفة ، يقول فى ذلك :

وينبغى لنا ان لا نستحى من استحسان الحق ، واقتناء الحق من اين اتي وان اتى من الاجناس القاصية عنا ، والامم المباينة لنا ، فانه لا شيء اولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغى بخس الحق ، ولا تصغير بقائله ولا بالآتى به ، ولا احد بخس بالحق بل كل يشرفه الحق (82) .

ثم يقول بعد ذلك :

« . . . فحسن بنا — اذ كنا حراصا علي تتميم نوعنا . . ان نلزم فى كتابنا هذا ، عاداتنا فى جميع موضوعاتنا ، من احضار ما قال القدماء فى ذلك قولا تاما على اقصد سبله . . . الخ (83) .

بهذه التصريحات وبغيرها يعترف الكندى بالخبر كموضوع للمعرفة .

غير ان هذا الموضوع كغيره من الموضوعات ، يخضع لدى الكندى لدراسة وفحص وتمحيص ، لأنه يهدف دائما الى « اقتفاء الحق » كما

---

(81) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحة 103 .
(82) نفس المرجع السابق .
(83) نفس المرجع السابق .

يقول ، واقتناء الحق ، يقتضي على اسلوب عقول البشر ، اللجـــوء الى مختلف الحيل ، أى الطرق للتثبت مما هو حقيقى .

وان كان لكل من نوعى « الخبر المنزل » و « غير المنزل » طبيعته التى تقتضى موقفا مخالفا من قبل العقل عند مزاولة التحقق من كل .

ذلك ان الكندى اذا كان قد اخضع مضمون التراث الدخيل ، وهو من « اخبار العباد » او من الخبر « غير المنزل » لهذا اللون من الفحص والتمحيص الذى جعله يلغى الكثير من مضمون مفـــاهيم هذا التـــراث لمجانبتها للحقيقة ، على نحو ما نحن بصدد بيـــانه ، اى انه اخضع هذه الاخبار غير المنزلة ، لعدد كبير من الفحص والتمحيص ، لتبين الحق ، فانه قد بين أن « الخبر المنزل » ، خلافا « لغير المنزل » لا يخضع لاعمال الفكر ، الا من اجل تدبر معانيه وتثبـــيتها .

ومما هو جدير بالذكر ، ان الكندى قد فطن الى انه من بين الخبر المنزل ما هو فى مستوى قدرة الفكر البشرى (84) . ومنه مـــا هو فوق مقـــدوره .

وهنا نصل الى ما يعرف « بالغيبيات » فى التراث الاسلامى ، وهو ما اطلق عليه الكندى تعبير « مـــا فوق الطبيعة » يقصـــد بذلـــك ذات المبدع جل وعلا وصفاته . كما اشرنا الى ذلك .

« وما فوق الطبيعى » لديه يقتضى بحكم انـــه موضوع مميـــز من موضوعات المعرفة ، ليس فقط منهجا خاصا فى متناوله ، بل هو يمثـــل استحالة بالنسبة للعقل الانسانى من ناحية التعرف على حقيقته .

فالعقل ازاءه لا يملك سوى اثبـــات وجوده ، وليـــس فى مقدوره التعرف على حقيقته وكنهه ، فالعقل كقدرة بشرية يعجز بحكم جبلته عن التعرف على حقيقة ذات الله سبحانه وتعالى .

---

(84) لا يغيب عن الباحث ان « الخبر المنزل » ، وبالذات ، ما هو فى مقدور العقل البشري، قد ادى تدبره الى ظهور العلوم الدينية،حول الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، من علوم اللغة والتفسير والحديث والفقه والاصول ، وغير هذا وذاك ، مما جعل المفكر المسلم دائما قريبا فى فكره من الواقع ، وهو ما ظهر عند الكندي فى اهتمامه بالمصطلح المعبر عن واقعية الوجود .

ويتحدث الكندى عن « ما هو فوق الطبيعى » فيبين انه لا يشارك فى شىء « الطبيعى » ، فهو ليس بمتحرك ، أزلـــى ، « لا جـــنـــس » و « لا نوع » لا يفســـد . . . الخ .

يقــول فى ذلــك : ــ

« . . . ان الازلى هو الذى لم يجب ليـــس هو مطلقـــا ؛ فالازلى لا قبل كونيا لهويته ؛ فالازلى ، هو لاقوامه من غيره ، فالازلى لا علة له ، فالازلى لا موضوع له ، ولا محمول ؛ ولا فاعل ، ولا سبب . . . الخ (85) .

كمـــا يقــول :

« فالازلى لا جنس لـــه . . . لا يفســـد . (86)

وينتهى الى « انه لا يمكن أن يكون جرم ازلى ، ولا غيره مما لـــه كمية أو كيفية . . . الـــخ (87) .

بهذا يوضح الكندى اختلاف « ما فوق الطبيعى » عن « الطبيعى » الذى جبل العقل البشرى على بحث حقيقته دون « مـــا فوق الطبيعى » هذا بالفطرة والجبلة ، وان كان العقل البشرى لا يعجز عن اثبات وجود « ما فوق الطبيعى » بالحجج والبراهين العقلية ، من خلال تدبـــر آيات الكون التى تسوق الى تبين وجود صانع لها كما بيـــنا .

« ان فى الظاهرات للحواس . . . لاوضح الدلالة على تدبير مدبـــر أول ، اعنى مدبرا لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكونـــا لكل مكون ، وأولا لكل اول ، وعلة لكل علة ، لمن كانـــت حواسه الآليـــة موصولة باضـــواء عقــله . . . الـــخ » (88) .

---

(85) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحة 113 .
(86) نفـــس المـــرجـــع السابـــق .
(87) نـــس المـــرجـــع صفحـــة 114 .
(88) انظر « رسالته فى الكون والفساد » صفحـــة 214 .

هذا هو موقف العقل مما هو « فوق الطبيعى » .

« وما فوق الطبيعي » موضوع أيضا للقلب ، ولكن بطريق مخالف لطريق العقل — لا يأخذ بالتقسيم « والحيل » وهو طريق الايمان .

وهذا يبين لنــا ان الكندى باعترافه بمختلف هــذه الموضوعـــات للمعرفة : « الحسى » و « العقلى » و « الخبرى » : « الطبيعى » منها « وما فوق الطبيعى » قد اثبت سلامـــة مفاهيمه المستـــندة الى عقـــل اســـلامـــى صحيـــح .

ذلك انه عرف كيف يفرق بين ما يخضع للعقـــل من موضوعات ، وما لا يخضع لـــه ، أى عرف حدود العقـــل بالنسبة لكل نوعيـــة من الموضوعات ، بعد أن تبين حدود الحس .

وتبين حدود مقدرة العقل بالنسبة لموضوعات المعرفة ، أمر لـــم يصرح به ارسطو ، لأنه من الذين وثقوا فى العقل ثقـــة كاملـــة ، فاذا كانت قد ظهرت عنده شكوك ، فهذه كانت بالنسبة للحس .

كما انه اى ارسطو ، لم يقـــدر « الخبـــر » كموضوع للمعرفة ، خاصة فى شقه « المنزل » ، وامكانيات العقل من هذا المنزل .

ولقد وفق الكندى كمفكر مسلم ، الى ابـــراز موقف العقل البشرى من « المنزل » الذى ليس به ما يعجز العقل عن ادراكه الا فيما يتعـــلق بما هو فوق ادراكه ، مما يتعلق بحقيقة ذات الله وصفاته . التى فى مقدور العقل اثبات وجودها ، وليس التعـــرف على مـــا عليه من حقيقتـــه ، فهذه لا تتبين الا عن طريق الايمان كما بيـــنا .

وبهذا خرج الكندى من نطـــاق العقـــل المحدود ، كمـــا هو عند ارسطو ، الى رحابة مجال موضوعات الفكر الاسلامى .

* * *

ولقد كان لتبيين الكندى تعدد موضوعات المعرفة ، اثـره فى انـه اهتدى الى ما يقتضيه هذا التعدد من ضرورة تباين الاساليب او الطرق او المناهج التى تحصل بها معرفة هذه الموضوعات .

« ولقد ظهرت هذه التفرقة اول ما ظهرت عنده بالنسبـة لاسلوب تحصيل ما هو حسى وما هو عقلى » .

قـــال :

« . . . لان من طلب تمثل المعقول ليجده بذلك ، مـع وضوحه فى العقل عمى عنـه كعشاء عين الوطواط عن نيـل الاشخاص البـينـة الواضحة لنا فى شعاع الشمس » (89) .

هنا اراد ان يبرز انه بالنسبة للمعقول او مـا هو عقلى لا يجـوز طلب « المثال » او « المثل » التى تكون بما هو محسوس فقـط ، بعـد ان يتخلص من « طينته » ، لان المعقول او العقلى « ليس مما له وجود مجسد فى الخارج ، وبالتالى يجب الا يقوم اسلوب تحصيله على طلـب « المثل » اى لا يكون بـ « تمثل العقول » .

فاسلوب معرفة الحسى يقوم على التمثل « بيـنما اسلوب العقلى لا يقوم على تمثل » .

ويؤكد الكندى على ان اغفال هذه الحقـيقة يـؤدى الى طمـس المطلوب ــ اى انه لا بد من ان يكون منهـج التحصيل مناسبـا لطبيعة الموضوع ــ والا عمى الباحث عن الحقيقة التى يبحث عنهـا اى عمى عن « وجدان الحق وخواصه » (90) .

اما بالنسبة « لما فوق الطبيعى » فلما كان مـا ذكـره بصـدده لا يتعدى امكانية توكيد وجوده سبحانه وتعالى ، وتوكيد صفاته المباينة

---

(89) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحة 110 .
(90) انظر « رسالته فى الكون والفساد » صفحـة 214 .

لصفات الطبيعى ، فهو يبين ان تحصيل معرفة وجوده قائمة ، وانهـا مما يدخل فى حدود البحث العقلى .

يقـول فى ذلـك :

« . . . ولهذه العلة تحير كثير من الناظرين فى الاشيـاء التى فوق الطبيعة اذ استعملوا فى البحث عنهـا تمثلهـا فى النفـس على قـدر عاداتهم للحـس . . . » (91) .

وهو ما لا يراه مناسبا لموضوع « ما فوق الطبيعى » الذى يقتضى تحصيله الابحاث العقلية .

يقـول فى ذلـك :

« . . . فمن بحث الاشياء التى فوق الطبيعة ، اعنى التى لا هيولى لها ولا تقارن الهيولى ، فلن يجد لها مثلا فى النـفـس ، بـل يجـدها بالابحاث العقليـة . . . » (92) .

فالطبيعى اذن ، حيث يلتحم الحس بالعقل ، له اسلوبه .

اذن الحس له مقتضياته بحيث نجد الكندى ينـبه الى عدم صحة استعمال الرياضيات ، او الفحص الرياضى فى « ما له طينة » .

ولذلك فهو يوجب على كل باحث ضرورة التنبه الى معرفة حقيقة او طبيعـة موضوع علمـه .

وقد تبين ان هذا يتأتى عن طريق طلب مـا سمـاه : ـ « علـة الواقع تحت ذلك العلـم » (93) .

---

(91) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحـة 110 .
(92) نفـس المـرجـع السابـق .
(93) نفـس المـرجـع صفحـة 111 .

اى حقيقة الواقع تحت هذا العلم ، فتقسيم العلة يكشف عن الحقيقة .

وقد قدم الكندى ما سماه « المطالب العلمية التى شرحها فى بداية مقدمة رسالته فى الفلسفة الاولى » .

وهى : ــ

« . . . هل ــ ما ــ أى ــ لم . » (94)

وهذه المطالب فى غاية الاهمية بالنسبة لموقف الكندى الفلسفى فى مذهبه فى المعرفة بل وفى آرائه فى تفسير الوجود .

ذلك ان هذه المطالب تقوم اصلا على تبين « الانية » أولا كموضوع للمعرفة .

وتبين « الانية » من الامور التى يحرص الكندى على اثباتها بالنسبة لموضوعات المعرفة ، وهو ما يميزه عن أرسطو ــ وخاصة فيما يتعلق باثبات « الانية » للموضوع الحسى ، أى اثبات وجوده الخارجى منفصلا عن الذات العارفة ، كما سبق وبينا ذلك (95) .

وهذا ما يزيد من اصالة موقف الكندى الفلسفى بالنسبة لرأى ارسطو فيما يتعلق بالبحث العلمى .

ولعل الصيغة التى عبر بها الكندى عن هذه المطالب ، يكون لها اثرها فى ابراز ابعاد هذه المطالب ، خاصة اذا تبينا ما يقوله عن العلل فى مواضع متعددة من رسائله .

يقول الكندى : ــ

---

(94) انظر نفس المرجع ، صفحة 101 .
(95) انظر صفحة 16 من هذا المقال .

« . . . والمطالب العلمية اربعة كمـــا حددنـــا فى غير موضـــع من اقاويلنا الفلسفية :

امـــا : « هل » واما : « ما » واما : « أى » واما : « لم » .
فاما « هل » فانها باحثة عن الانية فقط .

فاما كل انية لها جنس ، فان الـــ « ما » تبحث عن جنسها .

و « اى » تبحث عن فصلها ، و « مـــا » و « أى » جميعا تبحثان عن نوعهـــا . . . الـــخ (96) .

ويتبين من واقع هذا النص ان « هـــل » قد جـــاءت على رأس المطالب العلمية ، وهذا يتفق تماما مع موقف الكندى منذ البداية ، عندما اكد وجود الموجودات الخارجية ، كما يتـــبين أن هذه الانيـــة هى محور المطالب الاخرى ، اذ يقـــول :

« . . . فاما كل « انية » لها جنس ، فان الـــ « ما » تبحث جنسها .

ومن المفيد هنا أن نقف معه عندما قاله عن علل تفسير الوجود .

فاذا وقفنا عند مفهومه عن العلل الاربع ، نجد أنه احتفظ بالتقسيم الارسطى ، الا ان كل علة صارت تدل لديه ، لا على اسباب عقليـــة مكونة للوجود ـــ عن طريق التعقـــل ، ولكـــن على حـــالات أو نواحى ترصدها النفس عن الموجودات الخارجية التى لها نظامها وترتيـــبهـــا « فى الواقع الخارجى » .

هذه النواحى منها ما ينصب على محاولة تبـــين الوجـــود العيـــنى للكائنات ، وما به من عنصر سواء كانت من ذوات الطيـــنـــة ، أو ذوات الطبيعـــة اللطيفـــة .

---

(96) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحـــة 101 .

ومنها ما يتعلق بتبين النظام الذى تنقاد له الموجودات ، اى العلاقات التى تربط هذه الموضوعات ، ومنها ما ينسبه الى مبدعها وخالقها ، ومنها ما يبين أنها تتجه الى تحقيق نظامها الذى أراده الله لها سبحانه وتعالى .

يقول الكندى بالنسبة للوجود الطبيعى :

« . . . ان كل كائن ففى عنصر ما . » (97)

ثم يضيف :

« . . . فعلة كون كل كائن ، وفساد كل فاسد ، علة عنصرية . » (98)

لذلك نجده يحد العنصر ، بأنه : ـ « طينة كل طينة » (99) .

فالعلة العنصرية لديه مادية ، ذات وجود متحقق فى الواقع الخارجى ، خلافا لمفهوم العلة المادية الارسطية ، التى تعطى مكان الصدارة للعقل فى تفسير الوجود .

ولذلك كان للكندى الفضل فى أنه ادخل فى الفكر الفلسفى المطلب العلمى الاول « هل » و « هل » تدل على « انية » أى انية الموجود الخارجى (100) . وهذه نقطة مصدرها الصقل الاسلامى الحاصل من واقع تدبر الآيات المنزلة .

فادخال « هل » على المطالب العلمية يبين أن الكندى يعرف كيف يبقى متسقا مع نفسه من أجل ابراز المفاهيم التى أراد ان يكون لها

(97) انظر « رسالته فى الكون والفساد » صفحة 218 .
(98) نفس المرجع السابق .
(99) انظر « رسالته فى حدود الاشياء ورسومها » صفحة 166 من نفس المرجع .
(100) لقد علق الدكتور أبو ريدة على هذا المطلب بما يبين تشككه فى دلالته، اذ قال «وقد يكون فى هذا ما يدل دلالة ما على قصد الكندي من ذكره «هل» بين المطالب العلمية، وهو انها تبحث عن انية الشيء اعني هل هو موجود ، او غير موجود ـ ( انظر هامش رقم 2 من صفحة 101 من نفس المرجع ) معنى هذا ان الاستاذ الفاضل بين انه غير موجود عند ارسطو ، وهذا هو سبب حيرته فى تفسيره ، لان هذا لايتفق مع كون الكندي ارسطيا .

وجود فى الفكر الفلسفى ، واهم مفهوم ابرزه الكندى بفضل اصالة تفكيره هو « اثبات الوجود العينى » للمحسوسات .

فـ « هل » لها دلالة كبرى من جهة ابراز اساس الفكر الكندى ، وبيان حقيقة مقصوده .

ثم « هل » كمطلب علمى ، يتبين أثره اكثر بعد تبين العلل الاخرى . ومن المطالب العلمية التى اثبتها من بعد « هل » العلة الصورية .

فاذا أخذنا فى حسباننا ما سبق وبيناه من ان « موضوعات العقل لديه ليس بينها وبين الحس فاصل لا من ناحية مصدرها — فلكل مصدره كما بينا ، ولكن من ناحية ان الحس لا يتبين حقيقته الا بالعقل — اى باعمال الفكر فيه (101) كانت العلة الصورية كما سبق واشرنا الى ذلك عند حديثنا عن « الصورة » لديه — معبرة عن طبيعة الموجود العينى التى هى مجموع ما يحكمه من علاقات وخصائص تكشف عن تغيراته : كون ، فساد — استحالة — اضمحلال — ربو . . . الخ (102).

اى أن العلة الصورية — بحكم ما صارت تعبر عنه « الصورة ». عند الكندى ، ترتبط بالعلة العنصرية التى تمثل واقعا عينيا ، اى انها تكشف عما للعنصر من صفات وسمات تحدد كيفية كونه وفساده ، اى عن القوانين التى تحكمه ، وهنا يجب أن نبين انه عند ما يقول : —

« . . . العلة الصورية ، فصورته التى باتحادها بعنصره كان الكائن فيها . . » (103) لا يعنى — طبعا — ان الصورة هى التى تعطى الوجود او الكينونة للكائن ، وانما يقصد انه بالالتفات اليها ودراستها نتبين حقيقة هذا الكائن التى تتمثل فيما يخصه من احوال وصفات . . . الخ

اما العلتان الفاعلة والتمامية ، فالكندى يدمجهما تقريبا ، اذ يقول :
« . . . فان لم تكن العلة الفاعلة موجودة ، وكانت هى التمامية ، فالتمامية غير موجودة (104) » .

---

(101) انظر صفحة 10 من هذا البحث .
(102) انظر « رسالته فى الكون والفساد » صفحة 216 .
(103) نفس المرجع صفحة 218 .
(104) نفس المرجع السابق .

كمـــا يقــول بعد قليــل : ـــ

« . . . فان لم تكن العلة الفاعلة موجودة لم تكن العلــة التمامية مــوجــودة . . . (105) » .

وهذا الادماج يؤكد وجود العلة الفاعلة وليس التمامية .

وبالتالى ، فالتمامية لديه خلافا لما عليه الامر عند ارسطو ، ليس لها اية اهمية ، وانما الفاعلة هى التى تفسر وجود الاشياء ، وذلك عند ما يعنى بها « العلة الاولى » اى :

« . . . المبدع للكل ، والمتمم للكل ، علــة العلــل ، ومبدع كــل فاعل (106) . فهو يؤكد اذن انه لا يقبل علة تمامية بلا علة فاعلة .

والسبب فى ذلك كما تبين ، ان الوجود لديه من العدم وليـــس من تلك « المادة القديمة اللامتعينة » التى هى « الهيولى » ، كما هو الامر عند ارسطو ، حيث لا ايجاد من عدم ، ولكن خروج من القوة الى الفعل وبالتالى فهو يحتاج الى علة توجده « فاعلة » ، لان « الفاعلة » لو وجدت كانت هى التمامية فى نفس الوقت كما يقول .

فان لم تكن العلة الفاعلة موجودة ـــ لم تكن العلة التمامية موجودة .

وبهذا يتبين بوضوح الفرق بين الكنـــدى وارسطـــو ، وان العـــلة التمامية لديه اصبح لها دور محدود جدا ، وهو اتمام أو تحقيق النظام بالنسبة لكل موجود جزئى اى تحقيق ما يحكمه من قوانين فطـــر عليها بفضل ارادة الخالق سبحانه وتعالى .

فالكندى بادماج العلتين أو بجعل « الفاعلة » هى الاساس دون « التمامية » قد اثبت مرة اخرى توافقه مع نفسه ، بالنسبة لما يقرره من اصول لفلسفته ، تتفق مع نقطة الانطلاق الاولى فى مذهبه ، وهى اثبات « الاشخاص » فى الخارج كموجودات عينية واقعية .

---

(105) نفـــس المـرجــع السابـــق صفحـــة 219 .

(106) نفـــس المـرجـــع السابـــــق .

وهذا ينتهى بنا الى ان المناهج على اختلافها فيما يتعلق بالموجود الطبيعى عند الكندى تقوم على اسس فلسفية مميزة عن الفكر الفلسفى الدخيل الذى يعلى من شان العقليات ، غاضا النظر عن الحسيات .

فوقفة الكندى المنهجية من الموجود الطبيعى التى تلجا الى الملاحظة والتجربة مطبقة المطالب العلمية على نحو ما بينا ، تؤدى الى اهتمامه بطرح الموجود دائما على بساط البحث للتعرف على حقيقته بقدر الطاقة الانسانية ، وهذا موقف علمى من الدرجة الاولى .

لقد قرر الكندى اذن الملاحظة الخارجية ، وهو ما يتبين لديه فيما يقوله بالنسبة للمتبدلات بالذات ، مما يكشف عن تقديـــره لاستقـــراء الجزئيات ، وهو ما يسميه بـــ « تقفى آثار الطبيعة » (107) على نحو ما سبق واشرنا الى ذلك .

ولقد توصل الى تصنيف للظواهر الطبيعية .

وهذا « التقفى » يتجه كما نتبين : من الواقع الخارجى ذى الانية اى الموجود المتعين الى الداخل ، أى أنه يصدر فيما يقرره وينتهى اليه ، من راى ، عما يقدمه الواقع فى « انيـــته » .

يقـــول الكنـــدى : —

« . . . وكل متبدل فانما تبدله بضده الاقرب ، واعنى الذى معه فى جنس واحد ، كالحرارة المتبدلة بالبرودة . . . والاضـــداد المتقاربة هى جنـــس واحـــد . . . (108) » .

وبهذا يتوصل الكندى الى تكشف طبيعة أو حقيقة العلاقات بقـــدر طاقته الانسانية طبعا ، على اساس انه يقرب بين مـــا هـــو متقارب

---

(107) انظر « رسالته فى ايضاح تناهي جرم العالم » صفحـــة 187 .
(108) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحـــة 113 .

ويضعه فى فئة واحدة ، ويستخلص العلاقة التى تنظمه ، وبهذا ينـــتهى الفرد الى « صورة الاشياء التى هى قوانينه » .

أما المنهج الاستدلالى ، وهو ما يسميه الكندى « بالرياضى » فهو المنهج الذى يليق بالمعقولات ، وبما هو « فوق الطبيعيات » .

وهو يقوم على مقومات أو أوليات عقلية تسمح ببناء ما يرغب فى بنائه من الانسقة الذهنية التى تنتهى به الى اثبات مطلوبه .

ومن الامثلة على ذلك ما ذكره فيما يتعلق باثبات تناهى الجرم فى « رسالته فى الفلسفة الاولى » مثلا ، حيث يقدم عـــددا من الأوليـــات يتخذها كمقدمات أو أسس لبناء نسقه الذى يريده .

يـــقـــــول :

« . . . ان من المقدمات الاول الحقية المعقولة بلا توسط :

( أ ) ان كل الاجرام التى ليس منها شىء أعظم من شىء متساوية .

(ب) والمتساوية ابعاد ما بين نهاياتها متساوية بالفعل والقوة .

(ج) وذو النهاية ليس لا نهاية لــه .

( د ) وكل الاجرام المتساوية اذا زيــد على واحد منها جـــرم كان أعظمها وكان أعظم مما كان قبل أن يزاد عليه ذلك الجرم .

( هـ ) وكل جرمين متناهى العظم اذا جمعا كان الجرم الكائن عنهما متناهى العظم ــ هذا واجب أيضا فى كل عظم ، وفى كل ذى عظم .

( و ) وأن الاصغر من كل شيئين متجانسين بعد الاكبـــر منهما أو بعد بعضه (109) »

---

(109) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحـــة 114 .

وبعد اثبات هذه المقدمات التى نلاحظ انها تتضمن المطلوب ، وهو اثبات التناهى ، ذلك ان كل مقدمة من الاولى الى الاخيرة ، تقوم على خلفية معينة ، وهى ان الباحث امام كتلة متعينة لها ابعاد ، وبينها مسافات ، وانها متناهية العظم .

وهو فى هذا متسق مع نقطة الانطلاق فى فلسفته ، وهى أن الوجود متعين .

نقول ان هذه المقدمات تخضع لديه بعد ذلك لنوع من التفنيد والدراسة للتحقق من انها مؤدية الى مطلوبه .

فاذا به يفرض عكس المطلوب وهو أن يفرض جرما لا نهاية له ، ويحاول بعد ذلك اعمال الفكر من اجل تبين امكان تطبيق هذه المقدمات على هذا الفرض .

وبالقيام بهذا التطبيق يتبين تعذر استقامة التفكير السليم ، أى التفكير الذى لا يتعارض مع أوليات الذهن ، التى تتلاءم مع الواقع الخارجى لتظهر وتتبين على حال يؤكده الواقع ، ويؤكده الذهن ، وينتهى الى اثبات استحالة قبولها .

وذلك عن طريق ما يسمى ببرهان الخلف المعروف فى عصره .

يقول بعد اثبات المقدمات :

« . . . فان كان جرم لا نهاية له ، فانه اذا فصل منه جرم متناهى العظم ، فان الباقى منه متناهى العظم ، فانه اذا زيد عليه المفصول منه المتناهى العظم ، كان الجرم الكائن عنهما جميعا متناهى العظم ، والذى كان عنهما هو الذى كان قبل ان يفصل منه شىء . وهذا خلف لا يمكن (110).

(110) نفس المرجع صفحة 115 .

ثم يتناول فرض ان « يكون الباقى لا متناهى العظم » (111) .

وبنفس الاسلوب ينتهى الى أن فرض عكس المقدمات التى ذكرها فيه خلف .

وبهذا الاسلوب يؤكد انه لا يمكن ان يكون جرم لا نهاية له .

ولما كان الكندى يثبت الحدوث ، أى « الأيس عن ليس » بالنسبة لكل ما يتعلق بالموجودات المخلوقة « الاشخاص » أى الجزئيات أو الموجودات الجزئية ، فهو يحرص ايضا على بيان أن الزمان — الذى هو كمية — متناه .

وكذلك الامر بالنسبة للحركة فهى ايضا متناهية لانه يرى انه اذا كان هناك جرم وجب أن تكون حركة اضطرارا (112) .

ويرى انه لا جرم بلا زمان لان الزمان انما هو عدد الحركة اعنى انه مدة تعدها الحركة (113) .

والحركة لديه انما هى حركة الجرم .
الامر الذى يجعله يؤكد بيسر « أن الجرم والحركة والزمان لا يسبق بعضها بعضا ابدا » (114) .

أما نسقه فى رسالته « ايضاح تناهى جرم العالم » فانه يؤكد نفس النتيجة (115) . ويعتمد فيما يقدم ، على مفهوم « العظم » حيث يلجأ الكندى الى مزيد من طرق الرياضيات . والامر بالمثل بالنسبة

---

(111) نفس المرجع صفحة 116 .
(112) نفس المرجع .
(113) نفس المرجع صفحة 117 .
(114) نفس المرجع صفحة 119 .
(115) انظر « رسالته فى ايضاح متناهي جرم العالم » صفحة 186 وما بعدها .

للرسالتين الآخريتين اللتين عالـج فيهمـا نفـس الموضـوع (116) ، اى تنـاهى جـرم العالـم .

وبهذا يتبين كيف اهتم الكندى بأسلوب الاستدلال ، أو الاستنباط فى موضوع يتناسب وطبيعة المنهـج .

وذلك أن التناهى عن طريق الاستقراء ، أمر متقرر فى الواقع ، يحدث عنـه الواقع ، ويفرضه على العقول ، بحيـث أن هذه العقـول لا يمكن ان أرادت برهانا ــ الا ان تستعين بالاستـدلال الذى تحـوى مقدماته النتاج المطلوبة والتى هى صادرة من ملاحظة هذا الواقع .

فالاستدلال اذن عند الكندى ، يعين على توكيد الكثير من الحقائق التى تكون مقررة من ناحية الاستقراء ، ولكن العقـل فى حاجـة الـى برهنتها ــ فالاستدلال بالعقل يؤكـد باسلوبه الحقائـق المطروحـة ، اى يضيف عليهـا يقيـنا عقليا .

ولذلك استعمله فى تثبيت الحقائق العقائدية .

ولقد عرف الكندى ايضا مقتضيات (( التفسير )) مثلا بالنسبة للخبر المنزل ، وعرف تحقيق الاخبـار .

ومـا ورد فى (( رسالته فى سجود الجرم الاقصى وبيـان طاعتـه لله)) (117)، دليل على ذلك ، وهو على العموم قد خرج مرة أخرى من ضيق القياس الارسطى (( الى رحابه تعدد المناهـج لتعـدد الموضوعات )) ، وهذا أمر يؤكد انه كان صاحب فكر متميز له اصالته ، وان هذه الاصالة تستند الى ثراء المفاهيم الاسلامية .

* * *

(116) انظر من صفحة 194 الى 198 ــ ومن 201 الى 204 .
(117) انظـر صفحـة 244 .

اما فيما يتعلق بمراحل كسب المعرفة :

فيقدم الكندى شرحا لما يحدث فى داخلية النفس بالنسبة لمـــا تمده بـــه منافـــذ المعرفة .

فيبين انه بالنسبة للاشخاص الجزئية الهيولانيـــة الواقعـــة تحت الحواس ، أن كل محسوس واقعى تباشره الحواس يحدث له فى النفس « مثال » أى انطباع يمثل هذا الواقعى الخارجى داخل النفـــس ، بدون طينـــته الموجودة وجودا خارجيـــا .

لذلك « فالمثل » لدى الكندى تشير الى المرحلة الاولى التى تعرف بها المعارف الآتية عن طريق الحواس ، والتى بحكم انهـــا صـــادرة عن موجودات حقيقية فى الخارج ، وليس عن قوى النفس كما هو الامر عند أرسطو (118) ، فلا بد وان تتخلص مما سماه « بالطينة أو العنصر » .

فالمرحلة الاولى بالنسبة للمعرفة الآتية عن طريق الحواس ، لهـــا نقطة بداية هى الاشخاص الموجودة وجودا خارجيا متعينا ، أى وجودا منفصلا عن الذات العارفة .

ثم من الاشخاص او من « المثل » للاشخاص الخارجية ، يصل الى الكليات فهو يقول :

« . . . و « الاشياء كلية وجزئية » (119) كما نعلم .

وهو يدرج تحت الكليات التقسيمات الذهنـــية التى اســـتبقاها من الفلسفة الارسطية مثل « الانـــواع » و « الاجنـــاس » وان كانت هذه التقسيمات تثبت لديـــه مدلولات اخرى تجعلهـــا دالـــة على علاقـــات الموجودات الخارجية التى تعبر عما تخضع له من نظام هو « سنة الله التى ليس لها تبديلا كما سبق وبينا ذلك (120) .

---

(118) انظـــر صفحـــة 11 مـــن هـــذا المقـــال .

(119) انظر « رسالتـــه فى الفلسفـــة الاولـــى » صفحـــة 107 .

(120) انظـــر صفحـــة 27 ، 28 من هـــذا المقـــال .

فهو اذن يحرص على أن يسير فى طريق متواصل من حصيلة الحس الى العقـل .

فهناك المحسوس ، ثم « التمثل » الذى يتمثل فى النفس باجتلاب الحس الكلى له ، وتمثله فى نفس الانسان لاحقه تلحق المثال الحسى (121). و « الشجار » الذى ينشب فى النفس (122) .

اما العقل الذى لا يقارن « هيولى » فهو ايضا لا يتحدد ولا يتبلور الا بمعاناة النفس له عن طريق الاتيان بالحجج والبراهين التى تثبـته .

فهو مثلا بالنسبة لفكرة « الملاء والخلاء » قـد قدم براهين تنـتقل بالذهن من مرحلة الى اخرى ، حتى يخلص الى ما يهدف الى اثبـاتـه مستعملا برهان الخلف لاستبعاد ما يرغب فى ان يعرف الذهن عنه .

وهو فى كل هذا يقيم مواجهة بينه وبين الموضوع المدروس ، تمثل مرحلة معاناة يكون فيها الباحث فى حالة تنقل بين النفي والاثبات ، اى ان الباحث يكون فى حالـة اخذ ورد مع الموضوع . وهذا « فى كل امـر شجر بينـه وبين نفسـه » (123) .

وهذه المعاناة هى التى تصل به فى النهاية الى الحقيقـة ، او الى معرفة الاشياء على حقيقتها (124) . كما يقول فى تعريفه للفلسفة .

فالتعبير الكندى « شجار » يعبر عن حقيقة ما يقوم فى النفس من اجل تحقيق كسب المعارف .

وينبه الكندى الى ما يمكن ان تقع فيه النفس من اخطاء — بسبب طول الالف والعادات (125) اى بسبب ارتكانهـا الى مفاهيـم خاصة

---

(121) انظـر فى « رسالتـه فى الفلسفـة الاولـى » صفحـة 108 .
(122) انظر « رسالته فى علـة الكون والفسـاد » صفحـة 214 .
(123) انظـر « رسالته فى الفلسفـة الاولـى » صفحـة 97 .
(124) نفـس المرجـع صفحـة 110 .
(125) نفـس المرجـع السابـق .

تجافى الحقيقة أو بسبب اللجاجة (126) . أو سوء استعمال للمنهج ، أى الاسلوب المناسب للموضوع المدروس ، وهو ما ينبه عليه مرارا من اجل عدم الوقوع فى الحيرة (127) .

ويثبت الكندى أن الوصول الى الحقيقة يتم فى وقت وبمقتضى كثير من الحيل ، أى الطرق ، فهذه طبيعة المعرفة الانسانية .

وهو يثبت ذلك بمناسبة حديثه عن المعرفة الحاصلة للرسل ، بفضل الله سبحانه وتعالى ، تلك المعرفة التى تحدث :

« . . . بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحيلة بالرياضات والمنطق ، ولا بزمان ، بل مع ارادته جل وتعالى » (128) . والتى :

« . . . اذا قصد الفيلسوف الجواب فيها بجهد حيله التى اكسبته علمها لطرل الدؤوب فى البحث والتروض ، ما نجده أتى بمثلها فى الوجازة ، والبيان ، وقرب السبيل ، والاحاطة بالمطلوب . . . الخ » (129)

فالنفس وهى تعانى موضوع المعرفة ، أو وهى فى « شجار » مع نفسها ، تتخذ الطرق والحيل والاساليب التى تقوم كلها على تساؤل النفس ، أو الانتقال من النفى ، الى الاثبات ، حتى تنبلج لها الحقيقة .

ويحرص الكندى دائما على بيان ان « الحق » أو « الحقيقة » بالنسبة للعالم الخارجى تمثل فيما يحكم هذا العالم ، من نظم وقوانين . اذ يقول :

« . . . فان فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض ، وانقياد بعضه لبعض ، وتسخير بعضه لبعض . . . » الخ (130) .

---

(126) انظر « رسالته فى ايضاح تناهي جرم العالم » صفحة 136 .
(127) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحة 111 ، ومواضع اخرى من نفس الرسالة.
(128) انظر « رسالته فى كمية كتب ارسطو » صفحة 373 .
(129) نفس المرجع السابق .
(130) انظر « رسالته فى علة الكون والفساد » صفحة 215 .

الامر الذى يؤكد لنا اكثر واكثر ، ان الكندى لم يرض الا ان يكون للعالم الخارجى الاولوية فى تبين النظم التى تحكمه ، والتى تجعله مسخرا بعضه لبعض ، بحيث لا يكون للذات العارفة من خلال افعالها العقلية ، سوى الفحص والتمحيص ، من اجل ازالة « الشجار » الذى ينشب فيها عند مواجهة موضوعاتها .

وهذا موقف يختلف كما نتبين فى اسسه عن موقف ارسطو ، الذى لا يصدر فى معرفته عن اعتراف بوجود العالم الخارجى ، ويجعل الكندى كمفكر مسلم مؤسسا لمذهب فى مواجهة الوجود ، هو اساس النظرة العلمية فى مناهج البحث العلمى الحديث .

* * *

اما فيما يتعلق بدرجة يقين المعارف لديه ، فهو يرى الآتى :

« . . . انه بالنسبة للحس ، فالمعارف الآتية عن طريقه سيالة متغيرة غير ثابتة . » ويبلغ حرصه على تبين هذه الصفة فيها ، اذ يقول :

« . . . الجزئيات ليست بمتناهية ، وما لم يكن متناهيا لم يحط به علم . . . (131) » .

والنص – على نحو ما هو عليه – يبدو وكانه يصف « الجزئيات » بعدم التناهى من جهة الوجود ، ولكن الكندى يؤكد تناهى جرم العالم كما بينا ، اذ انه يتناول مفهوم تناهى جرم العالم فى اكثر من اربع من رسائله (132) ، وانه يقيم آراءه كلها على اساس تناهى العالم ، حيث يؤكد الحدوث .

---

(131) انظر « رسالته فى الفلسفة الاولى » صفحة 124 .

(132) كتب الكندي فى هذا : « رسالته فى ايضاح تناهي جرم العالم » ( 186 – 199 ) و « رسالته فى مائية ما لا يمكن ان يكون لا نهاية له وما الذي يقال لا نهاية له ( 194 – 198 ) « ورسالته فى وحدانية الله وتناهي جرم العالم » ( 201 – 207 ) هذا بالاضافة الى ما ورد عن التناهي فى الفن الثاني من رسالته فى الفلسفة الاولى ( 106 – 122 ) وما ورد فى مواضع كثيرة اخرى من رسائله .

اذن فما يقصده الكندى بهـذا التصريـح ، ليـس اللاتنـاهى فى وجودها ، ولكنه مجرد الاشارة الى أنها فى تغير مستمـر (( سيـالة )) كمـا يقـول :

ولما كان العقل البشرى قد جبل على التـثبـت من اجـل اجـراء تقاسيمه ، فالمعرفة الآتية عن طريق الحواس اذن تحتاج الى اعمال الفكر فيهـا .

فكان الكندى بهذا التصريح يبين انه يفطن الى طبيعة المحسوسات كما يفطن الى اسلوب العقل فى مواجهتها .

ويؤكد الكندى على العموم هذا المعنى ، باسلوب أقل حدة عند ما يقـول : —

(( . . . غير ثابت لزوال ما نباشر سيلانه وتبـدله فى كل حـال ، باحد أنواع الحركات وتفاضل الكمية منه بالاكثر والاقل والتساوى وغير التساوى . . . )) الـخ (133)

وقوله ان المحسوس : —

(( . . . فهو قريب من الحاس جدا لوجدانه بالحـس مع مبـاشرة الحـس ايـاه . . . )) (134)

قول يؤكد معرفة المحسوس من حيث ان لـه وجـوداً خارجيـا ، فهذا أمر يقينى ، ورأى الكندى فيه واضح وهو (( لوجدانه أى لادراكـه بالحس مع مباشرة الحس ايـاه )) .

---

(133) انظر (( رسالته فى الفلسفة الاولى )) صفحـة 106 .

(134) نفـس المرجـع .

أما معرفة المحسوس من حيث العلاقات التى تنظمه وترتبه ، فهذا أمر يحتاج الى تفكير وهو من عمل العقل .

فالمعرفة الآتية عن طريق الحواس اذن معرفة يقينية من ناحية توكيد الاشخاص فى العالم الخارجى .

فالآثار الحسية تمثل معرفة ضرورية ، لا من حيث صدق دلالتها من أول وهلة ، على حقيقة الجزئيات الخارجية ، فهذا أمر يستدعى الدراسة ، ولكن من حيث دلالتها على وجود ماله حقيقة تحتاج الى تكشف .

ومن هنا كانت المعارف الجديدة ، اى استمرار تجدد المعارف العلمية للواقع الخارجى .

أما بالنسبة للمعارف العقلية فاوائلها يقينية ، اضطرارا ، اذ يقول:

« . . . فان هذا وجود للنفس ، لها اضطرارى . » (135)

كما يقول : —

« . . . انما تقر بها لما يوجب ذلك اضطرارا ، كقولنا ان جسم الكل ليس خارجا منه خلاء ولا ملاء . . . (136) »

وكذلك قوله :

« . . . فهذا واجب اضطرارا ، وليست له صورة فى النفس ، انما هو وجود عقلى اضطرارى (137) » .

(135) نفس المرجع السابق صفحة 108 — 109 .
(136) نفس المرجع صفحة 110 .
(137) نفس المرجع السابق .

اذن فالاوائل العقلية عند الكندى تمثل معارف يقينية بالضرورة ، أما بالنسبة للمعارف العقلية الحاصلة اعتمادا على يقينية الوجود الحسى والاوائل الذهنية ، فالكندى يرى أن هدف الفيلسوف هو « علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان » ، أى انه يعتقد فى ضرورة الوصول الى الحقيقة .

وهذا يعنى أن الجهود التى تبذل « بقدر طاقة الانسان » لا بد وان تصل فى النهاية الى اليقين مهما طال الوقت بالباحثين .

ومن هنا كانت المعارف العقلية مؤدية الى يقين .

اما بالنسبة للمعرفة الآتية عن طريق القلب ، أى الايمانية ، فهذه يبدو كما هو مؤكد وواضح لدى الكندى ، انها اعتقادية .

وقد حدثنا عن المعارف المنزلة على لسان الرسول صلوات الله عليه ، التى لا يملك الفرد الا أن يتبين فيها الصدق دون تعب أو جهد .

فالمعرفة عند الكندى وبالذات الفلسفية ، اى تلك التى تعتمد على طاقات الانسان ، لا بد وان تنتهى الى اليقين ، اذا ما وفق الفرد الى استجلاء الموضوعات المطروحة أمامه .

فاليقين يتاتى ، ولكن بجهد ، خاصة وان المعارف عند الكندى لا تكون بطريق التامل وانما تحدث بالاحتكاك بالحقائق الخارجية التى تقدم للدارس دائما الجديد كلما اقبل عليها ليتقصى حقيقتها .

* * *

اما من ناحية هدف المعرفة ، فان ما سبق ، ينتهى بنا الى أن المعرفة لديه سواء من ناحية التعرف على الكون أو من ناحية اثبات الحقائق فوق الطبيعية ، أى اثبات وجود الله ، فهى تهدف الى اليقين .

وحرص الكندى على الوصول الى الحقيقة ، هو الذى دفعه الى طرق العلوم الفلسفية من اجل تيسير السبل للدارسين بالنسبة لكسب يقين جديد .

* * *

فاذا كان الامر كذلك فاننا نخلص الى ما يلى : —

ان مذهب الكندى فى المعرفة ، يعرفنا بما يتميز به من اصالة .

فمن ناحية المصادر ، نجد انه قد اعترف بمصادر ثلاثة : الحس والعقل والقلب ، مع تقدير لما لكل من حدود ، بحيث لا يملك الباحث ان يرجح احدها على الآخر ، لان الحس يؤكد الوجود الخارجى ، وجودا له « انيته » فى ذاته ، ولكنه لا يكشف عما يحكم هذا الوجود من انظمة وقوانين ، الا باعمال الفكر ، اى باللجوء الى المصدر الثانى وهو العقل ، او بـ « مواصلة العقل » كما يقول :

وهذا العقل كما نتبين من واقع تصريحاته ، له قدراته ، وله أثره الكبير فى مواصلة كسب المعارف المتعلقة بهذا الواقع ، خارجيا كان ام نفسيا ، ام غير هذا وذاك مما يتصل بامور العباد من اخبار واحوال وهو فى كل ما يقوم به يمكن ان يوصل الى اليقين ، اذا اتخذ الاسلوب الذى يناسب هذا الواقع ، والذى يقوم على تقفى آثاره ، اى على الملاحظة والتجربة ، اذا كان الهدف من البحث هو التعرف على هذا الواقع فى حقيقته ، كما يمكن أن يقوم على الاستدلال اذا كان الهدف من الاعتماد على الواقع هو اثبات حقيقة عقائدية عليا .

لذلك فالحس لديه مرتبط بالعقل ، بالنسبة لما له « انية » محسوسة ، اى بالنسبة « للمشاهدات » اما « الغيبيات » ، فما يملكه العقل تجاهها لا يعدو اثبات وجودها .

ومن هنا نجد ان القلب لديه الذى يختلف طريقه عن طريق العقل ، لانه يقوم على التصديق والايمان ، يكمل من ناحية كسب المعارف ما يقف عنده العقل عاجزا عن معرفة حقيقته ، وان كان فى مقدوره أن يثبت وجوده .

وهو بقبوله للمصادر الثلاثة ، قد وسع دائرة امكانية كسب المعرفة ، مخالفا فى ذلك مضمون التراث الارسطى ، الذى لم ير فى المعرفة الآتية عن طريق الحواس ، سوى انها ظنية ، لا تؤكد حتى مجرد الوجود ، لان العقل فى الفكر الارسطى على نحو ما تبينا ، يجب مجالى المعرفة والوجود ، اما القلب فلا وجود له فى هذه الفلسفة ، حيث يسود العقل بصفة مطلقة لا حدود لها ، وهذا الاسراف فى الثقة فى العقل كمصدر ، هو الذى أدى الى ما ظهر من عقم فى الفكر الارسطى .

وهذا يعنى أن قبول الكندى ، كمفكر ، للمصادر الثلاثة للمعرفة ، قد أدى ليس فقط الى آراء تختلف اختلافا جذريا عما قال به ارسطو بالنسبة لنقطة الانطلاق التى هى الاعتراف بانية الموجودات الخارجية ، على نحو ما بينا ، وليس فقط الى اثبات رحابة تفكير وتنوع فيه ، لتنوع مصادره ، ولكن وبالذات الى ابراز نوع من التكامل بين مختلف هذه المصادر ، لان كلا منها عند الكندى ، له حدوده التى يكملها الآخر ، وذلك فى اتساق يؤكد ما عليه الوجود الانسانى من تكامل متحقق فيما جبل عليه من فطرة ثرية ، بالنسبة لامكانيات الاتصال بالوجود .

من هنا كانت موضوعات المعرفة متعددة ، منها ما يتعلق بالواقع المشاهد ، ومنها ما يتعلق بما فوق الواقع المشاهد ، أو ما عبر عنه بالنسبة لبعضه « بالطبيعى » « وما فوق الطبيعى » ، او ما قال عنه ايضا فى مواضع اخرى « بالمشاهدات » ، بالنسبة للاول ، مما يجعل الآخر ، يمكن أن يسمى « بالغيبيات » وهو ما يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وغير ذلك من أمور العقائد الغيبية .

وهذا التعدد ليس له وجود فى الفكر الارسطى الذى لا يتبين سوى الموضوع العقلى ، دون الحسى والقلبى .

ثم حرص الكندى على ربط الحسى بالعقلـــى ، كموقــف معرفى ، يقوم على عدم الرغبة فى جعل العقل يهيم فى متاهات المجردات ، قد ادى الى جعل انية الواقع الخارجى مطروحة على بساط البحــث من اجــل مزيد من المحاولات للتعرف على ما يحكمنا من انظمـــة وقوانين متحققة فيهـــا خارجيـــا .

ومن هنا قوله بتعدد المناهج ، طبقـــا لتعــــدد طبيعـــة موضوعات المعرفة ، حيث نجد ان « الرياضات » مثلا لا تناسب الحسى الذى تتـــم معرفته بتقفى آثاره ، عن طريق تطبيق المطالب العلمية التى يقوم أولهـــا على تبين وجود الانية ، بينما تهتم الثلاث الاخرى بالتعرف على « جنس » و « فصل » و « نوع » ، وهدف هذه الانيـــة من ناحية انهـــا تتحقـــق بقانونها الذى جبلت عليــــه .

الامر الذى جعل الكندى يوجـــه النظـــر الى قيمـــة التعرف على الاساليب المرتبطة بحقيقة الجزئيات ونوعياتهـــا : التى ادت الى التعرف على ما يجمع هذه الموجودات جميعا من صفات عامـــة تبـــينها بأساليب عقلية ، مثال ذلك انها متحركة فى زمان ومكان ، بحكم انها متـــناهيـــة وصادرة عن « ليـــس » بفعل العلة الفاعلـــة ، وهى اللـــه سبحـــانه وتعـــالى . . . الـــخ .

لذلك كان لديه ما يمكن أن يسمى « بالاستقراء » بالنسبة للجزئيات النوعية ، وكذلك ظهر لديه الاستـــنباط أو الاستـــدلال الذى استعمله فى توكيد سمات للواقع عامـــة جدا ، ومتضمنـــة فى اســـس فهمه للوجود القائم على مفهوم الحدوث من « ليس » اى من العدم المحض .

اما بالنسبة لمراحل كسب المعرفة لديه ، فهى بالنسبة لما يصـــدر عن الحس والعقل تكشف عن مجهود ، لا يقتصر على استـــنباط نتـــائج متضمنة فى مقدمات على نحو ما كان عليه الفكر الارسطى فى مجموعه ، ولكن تقوم على نوع من المعاناة بين الذات العارفـــة وموضوعها ، الذى له وجود خارجى متعين ، من اجل التعرف على حقيقـــتـــه ، والـــذات

العارفة تجاه هذا الموجود ، اذا ما واجهته من اجل تبين صورته ، اى قوانينه كما بينا ، تحصل دائما على الجديد .

وهذا هو الموقف العلمى بالمعنى الحديث ، الذى اخرج اوربــا من ظلمات الجهل الى النور بعد أن تعرف مفكروها فى عصر النهضة ومستهل العصر الحديث ، على الفكر العربى ، ليس فقط فيما قدمه من نتائج فى العلوم الجزئية ، ولكن وبالذات بالنسبة لما كشف عنــه من وقفــة أو اسلوب ، أو منهج ازاء موضوعات المعرفــة ، حتى ان بدايــة العصور الحديثة قد عرفت « بعصر المناهج » .

والكندى فى كل ما يقدم من جهد فى مجال المعرفة يؤكــد امكانيــة التحقق باليقين ، فالوجود الحسى يقيــنى عنــده ، ومعرفــة احــوال المحسوسات اى نظمها وقوانينها يتاتى بالعقل بعد تعب بحكم اللجوء الى « الحيل » كما قال ، فطريق العقل وعر ، لكثرة الآفــات التى يمكن أن يتعرض لها فى كسبه للمعرفة ، أما القلب لديه فمعرفته يقيــنــيا تقــوم على التصديق والايمان .

والهدف من طرق طريق المعرفة هو امــا من اجــل التعرف على الوجود الخارجى فى ذاته وهذه معرفة علمية ، او من اجل تناول الوجود الخارجى بغية اثبات حقيقة عليا — وهذه معرفة دينــية .

اذن ، فدراستنا لمذهب الكندى فى المعرفة قد ادت الى تبين الاسس التى اقام عليها وقفتــه الفكرية فى مواجهــة موضوعات المعرفــة على اختــلافهــا .

وهذه الوقفة تكشف عن اصالة قوية ترجع الى صقله الاسلامى من خلال ما كان سائــد من علوم قامت حول الكتاب الكريم والسنة النبــوية الشريــفــة .

اذ أن هذه العلوم اللغوى منها والدينى ، قــد صدرت عن خلفيــة قوية ممثلة فى احترام الواقع حيث ما كان :

فبالنسبة (( للغة )) ، مــا كان العرب يضعون لفظــا ، الا للذى ادركوه وما لم يدركوه لا يضعون له لفظا ، وهذا هو الذى جعل الفــاظ اللغة العربية تؤكد الوجود الخارجى ، وتشير دائمــا الى واقــع والى حقيقة . فالواقع مؤكد بحكم الخلفية الذهنية لوضع الالفاظ اصلا .

أما العلوم الدينية ، من تفسير وحديث وفقه واصول فقه . . . الخ ، فهى كلها تقوم على احترام مقتضيات موضوع بحثها ، وهذه واقعية فى فهم كيفية مواجهة الموضوعات .

فاذا كان الامر كذلك ، فالكندى اذن قد صدر فيما قدمــه من آراء عن اصول تختلف تماما عن اصول الفلسفة الارسطية ، رغم احتفــاظه ببعض الالفاظ والتقسيمات الذهنية التى استعارها من هذه الفلسفة من اجل أن يكون ما يقدمه من (( صناعــة الفلسفة )) كما أشرنــا ، لان هذه الصناعة كانت تستهوى العقول فى عصره .

فالكندى ينطلق كما يتبين لنا ذلك من واقع ما قدمناه ، من منطلق ، يؤكد الوجود الخارجى ، خلافا لارسطو الذى نجد ان الموجودات لديه من العقل والى العقل .

الامر الذى يجعل طريق كل من الفيلسوفين بعد ذلك ، مختلفا تمام الاختلاف ، ذلك ان الكندى قد اثبت (( العنصر )) وهو المادة ، أى الطبيعة الخارجية (137) ، جاعلا الهيولى ممثلة لمرحلة من مراحل كسب المعرفة ، كما بينا ، أى ان لفظ الهيولى لم يعد له فى فلسفتــه سوى دلالــة على مستوى المعرفة ، وليس الوجود خلافا لما عليه اللفظ فى فلسفة ارسطو ، حيث الوجود : عقلــى .

كما أن ارتباط الحسى بالعقلى (138) اثناء كسب المعرفة ، يؤكد الوجود العينى الذى له انية متحققة تحقيقا كتليا فى الخارج .

---

(137) نفــس المرجــع صفحــة 110 .
(138) انظــر صفحــات 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12 من هــذا المقــال .

ثم نجد ان الصورة قد ارتبطت باحوال هذا الموجود الخارجي .

ولما كان هذا الموجود قد اثبته الكندى متناهيا ، وانه بالتالى حادث وله مبدع هو الله سبحانه وتعالى ، وان الابداع هو الايجاد عن « ليس » اى من العدم المحض ، وليس عن « مادة قديمة لا متعينة » ، كما هو الامر لدى ارسطو ، فقد اصبحت الصورة معبرة عن احوال هذا الموجود المتعين خارجيا ، ومن هنا صارت معبرة عن النظم التى تخضع لها الموجودات ، اى عما نسميه حاليا بالقوانين العلمية التى تندرج تحتها الجزئيات الواقعية .

وهذا المفهوم هو الذى سرى الى اوربا ، وظهر عند فرنسيس بيكون ، الذى احتفظ بنفس التعبير « صورة » للدلالة على قوانين الموجودات كما سبق ان اشرنا الى ذلك ، ثم ان الكندى تمشيا مع اصول فلسفته ، قد اثبت المطلب العلمى « هل » (139) ، وهو ما لا نجده عند ارسطو ، لان « هل » كما بينا وكما ذكر الكندى نفسه تشير الى « الانية » او الوجود الخارجي للاشخاص ، ولفظ « اشخاص » عند الكندى يعبر بقوة عن فهمه للوجود ، وهو من انسب المصطلحات للدلالة على الوجود العينى المتحقق تحققا بشخصه ، اى منفصلا عن الذات العارفة .

وارسطو صاحب فلسفة لا تعنى بالمتحقق تحققا خارج الذات العارفة ، اى لا تعنى بالموجود الواقعى ، ولذلك قال الكندى « بالاشخاص » .

ثم نجده يعطى للعلة المادية التى سماها «العلة العنصرية» ، مفهوم ضرورة التحقق فى الواقع المحسوس وللعلة الصورية دلالة التعبير عن واقع هذا المحسوس ، من خلال ما ينظمه من قوانين .

---

(139) انظر صفحة 16 من هذا المقال .
(140) انظر صفحتي 20 ـ 21 من هذا المقال .

ونجده يلغى تقريبا العلة التمامية ، لانه يجعلها مرتبطة بالعلة الفاعلة .

فهو يصرح بانه « لا علة تمامية بلا فاعلة » ، لانه ليس فى حاجة اليها ، وهو الذى الغى « القدم » اى قدم المادة مؤكدا « الحدوث » عن « ليس » .

والحدوث يتطلب علة فاعلة ، وليس علة غائبة ، لانه وجود من عدم كما بينا ذلك .

فالعلة التمامية لم يعد لها قيمة اطلاقا فى فلسفة الكندى ، بالنسبة للخلق والايجاد .

ولكن لها دور مع وجود العلة الفاعلة بالنسبة لتفسير اتجاه الموجودات الجزئية الى تحقيق ما تتطلبه طبيعتها ، وهو تحقيق مقتضيات نظمها وقوانينها التى جبلت عليها اى « سنة الله التى ليس لها تبديلا » ، كما بينا ذلك .

وبهذا يتضح لنا ان الكندى يتمايز بفلسفة تختلف ليس فقط فى نقطة انطلاقها ولكن ايضا فى نهايتها ، وفيما ظهر بين البداية والنهاية من امور تتسق دائما مع اصوله التى صدر عنها ، وتختلف مع مفاهيم ارسطو .

الامر الذى يجعل الباحث يتبين من واقع استطلاع نواحى مذهبه الذى عرضناه فى المعرفة ، ان الكندى صاحب مذهب فى « المعرفة » واقعى ، ادى الى مذهب فى تفسير الوجود ، واقعى ايضا فى الوقت الذى كان فيه ارسطو عقليا كما بينا .

وتلك اصالة ظاهرة ، لا تحتاج الى مزيد من البيان ، صدر فيها الكندى عن اصول تمتد جذورها الى اساليب القرآن ، دون اساليب اليونان ، فهو بحق فيلسوف العرب الاول .

فاس د . فوقية حسين محمود

# قلادة النور

د. صالح الأشتر

أمن جيـدك الناعم المترف قـلادة نـور مع المصحف
تدلـت ! فأيـة أرجوحـة تميس على صدرك المشرف
تعلق فيها الملاك الحفيـظ ليرصد كنـز الجمال الخفى
يطـل عليـه بـأم الكتاب وسورة مريم أو يوسـف
وبالسور المحكمات الطوال وبـالآى منهـا وبالأحرف
يعـوذ حسنك من حاسـد ومن عين ذى شرة مرجـف
ويحمى مفاتـن ما صورت بغـيرك يومـا ولم توصف
حبـاك الالـه بآلائـهـا وزادك مـن نوره الأشرف

تذوب الشموس على مقلتيك وتنصب فى جفنك الأوطف

وأقمار ليل بلألائها تسيل على قدك الأهيف

فهأنت حلم لآلى الجمال وزهو الصبا الاظرف الالطف

* * *

رعى الله حسنك من أذؤب بغير الخديعة ام تعرف

تحوم عليك بأطماعها وأنياب ضارى الطوى أعجف

شحوب الهزال على وجهها قناع دعى الهوى المدنف

يصوغ لسمعك عذب الحديث ويخلب لبك بالزخرف

فلولا الملاك وآياته دهتك الشرور ولم تسعفى

ملاك من النور يحمى العفاف اذا ما تضعضع فى موقف

حياؤك حرز يذود الذئاب بحد كنصل القنا المرهف

اذا كان حرزك هدى الاله وتقوى الضمير فلن تتلفى

ستهدى خطاك قلادة نور بجيد ملاك الهدى الأرأف

فمصحفك الذهبى الملاك وصوت الضمير من المصحف !

**فـــاس** **د . صالح الأشتر**

# المغرب والأندلس
## في كتاب صبح الأعشى

محمد ابن تاويت

في سنة 1951 نشر الاستاذ « لويس سيكودى لوثينا » كتابا سماه : المغرب في اوائل القرن 15 اعتمادا على ابي العباس احمد القلقشندى :
MARRUECOS A COMENZOS DEL SIGLO XV
Segun ABU-L -ABBAS AHMED AL-QALQASANDI

فكانت هذه التفاتة بالنسبة الى ، وان لم تحفزني الى استيعاب الكتاب الا متاخرا،على انه كانت علاقتي به منذ تلمذتي بالثانوي حيثاقتنيته في أجزائه الاربعة عشر مجلدة تجليدا فاخرا ، بشراء ثمنه 300 فرنك مغربي ، ولم أنته من قراءة الجزء الاول ، حتى كان الكتاب ، مما بعته للمعهد الخليفي بتطوان ، فهو لا يزال حيا يرزق بمكتبة معهد مولاي الحسن بها وعليه تعاليق بخطي القديم .

وبعد قرات الكتاب ، واستخلصت منه ما يتصل بالمغرب والاندلس ، وكنت أود أن أقيم على ذلك دراسة ، لكني عدلت عنها الآن واكتفيت بتقديم ما ورد في الكتاب من ذلك ، مادة تكاد تكون خامة ، يستفيد منها من يريد أن يقدم على هذه الدراسة الخاصة ، وان كان الاستاذ الدباغ،قد

استعرض الكتاب ، فيما مضى بمجلة دعوة الحق ، استعراضا على نحو لا نستطيع وصفه ، لعدم تتبعنا اياه فى حلقاته التي طال تسلسلها جدا .

وقد اكتفيت فى هذا التقديم أيضا ، بالسير مع صفحات الكتاب ، سيرا رتيبا من أوله لآخره ، فعملي هذا أشبه بفهرس يفتقر اليه والى غيره هذا الكتاب الحافل ، وقد أعد له بعض المعاصرين من المصريين ، فهارس منسقة ، الا أنها لم تجد من يشجع على نشرها ، كما اخبرني بذلك صديقنا الاستاذ السيد محمد عبد الله عنان ( وهو الاستاذ محمد عبد الجواد الاصمعي الموظف بدار الكتب المصرية ) .

وهكذا نجد المغرب والاندلس فيما يلي من الجزء الاول : بالصفحة 94 وما بعدها :

وكانت بلاد المغرب والاندلس بأيدي نواب الخلفاء من حين الفتح الاسلامي فى خلافة عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، ولا عناية لهم بديوان الانشاء للتقرب من البداوة ، وغايته المكاتبة الى ديوان الخلافة ونحو ذلك، فلما غلب بنو العباس على الخلافة، هرب طائفة من بني أمية الى بلاد المغرب، وجازت البحر الى الاندلس ، فانتزعوه من النواب الذين كانوا به وملكوه ، وصاروا ينصبون فيه خليفة بعد خليفة ، جارين على سنن ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين لخلافة بني العباس ببغداد ، من اقامة شعار الخلافة ، واتخاذ ديوان الانشاء واستخدام بلغاء الكتاب ، وتعدت دولتهم الى بر العدوة من بلاد المغرب ، فحكموه ، ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا ، باستيلاء المستولين المستبدين عليهم بالامر ، الى أن انقرضت دولتهم من الاندلس وبلاد المغرب ، واستولت عليهما طوائف من الملوك ... وتتابعت الدول فى كل حين ... على ما سيأتي ذكره فى مكاتبات ملوكهما .

واستمر ذاكرا كون ديوان الانشاء فى هؤلاء ارتبط بما كانوا عليه من بداوة او حضارة ، الى ان استقر أمره بالاندلس اخيرا عند بني الاحمر ، وفى المغرب الاقصى بيد بني مرين ، وفى المغرب الاوسط بيد بني عبد الواد ، وفى افريقية بيد بقايا الموحدين .

ثم تعرض لمن اشتهر بالبلاغة من كتاب المغاربة ـ كما قال ـ فذكر ابن زيدون ، وابن برد الاصغر ، وابا المغيرة ابن حزم ، وابا القاسم ابن الجد ، وهؤلاء أندلسيون متقدمون ، ومن متاخريهم عبد المهيمن الحضرمي السبتي كاتب أبي الحسن المريني ، ثم ابن الخطيب ، وزير ابن الاحمر ، ممن أدركـــه من معاصريـــه .

وفى الصفحة 299 ، اورد ثلاثة ابيات لابن عبد ربه صارت من الامثال المستفيضة على السنة العامة ، وهي :

قالوا شبابك قد ولى فقلت لهـــم هل من جديد على كر الجديديـــن

صل من هويت وان ابدى معاتبـة فاطيب العيش وصل بين الفيـــن

واقطع حبائل خدن لا تلائمـــــه فربما ضاقت الدنيـا باثنيــــــن

وتناول فى الصفحة 360 وما بعدها الكلام على البربـــر واصلهـــم والاختلاف فى كونه عربيا ، حميريا او غيره ، ناقلا عن العبر ، لمعاصره ابن خلدون فيهم وقبائلهم ، واهمها مصمودة ، ومنها الموحدون ، وفيها هنتاتة التي منها أبو حفص احد اصحاب ابن تومرت وجـــد الحفصيين ملـــوك افريقية لعهده ، ثم زناتة ، التي منها بنو مرين ، ومن زناتة ايضا بنو عبـد الواد ، ملوك تلمسان ، لعهده كذلك ، ثم صنهاجة ، ومنها لمتونة ، ومن لمتونة ملوك المرابطين ، الذين منهم يوسف بن تاشفين باني مراكش ، ثم ذكر عن العبر ، قبيلتين استقر منهما قوم بمصر ، وهما هوارة ولواتة ، وذكر كثيرا من بطونهما المستقرة المتشعبة بمصر ، شمالا وجنوبا ، ناقلا عن ابن حزم وغيره ، كما تعرض لبني زيري وغيرهم فى هذا الجزء الاول.

ثم وردت لابن رشيق القيرواني ابيات خمسة فى الصفحـــة 408 يفضل الصيف على الشتاء فيها .

اما الجزء الثاني ، فلم يرد فيه ذكر للاندلس او المغرب .

بل ورد فقط ذكر للزنجفر المغربي فى الصفحة 478 وهـــو ممـــا يستعمل فى الكتابة ، ثم ورد فى الصفحة 488 ذكر لورق أهل الغــــرب والفرنجـــــــة .

وفى الجزء الثالث ، تعرض بالصفحة 229 فما بعدها ، لبحر اوقيانوس ( المحيط الاطلسي ) ، فقال انه ياخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الاقصى ، من زقاق سبتة الذي بين الاندلس وبر العدوة الى جهة الجنوب، حتى يتجاوز صحراء لمتونة ، وهي بادية البربر ، ناقلا فى هذا من الشريف الادريسي ،،، ويمتد على سواحل أمم مختلفة من الكفار ، حتى يسامت بلاد رومية من غربها ،،، ويسامت البلاد التي بينها وبين الاندلس ، ويتجاوزها الى سواحل الاندلس ، ويمتد على غربي الاندلس جنوبا حتى يتجـاوزه ، وينتهي الى زقاق سبتة الذي وقعت البداية منه .

ومن الخارج منه ، بحر الروم ( الابيض المتوسط ) واضيف الى الروم لسكنى أممهم عليه من شماليه ،،، وقد يعبر عنه بالبحر الشامي ، لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه ، ومخرجه من المحيط ،،، بين الاندلس وبر العدوة من بلاد المغرب ، ويسمى هناك بحر الزقاق ، وربما قيل زقاق سبتة ،،، ونقل عن الشريف الادريسي ، أن الكتب القديمة ذكرت سعته بعشرة اميال ، ولكن اتسع بعد ذلك ، وعن ابن سعيد ، أنه اتسع فى زمانه ثمانية عشر ميلا ، وعن الروض المعطار ( لعبد المنعم الحميري ) أنه كان عليه قنطرة عظيمة ، بين الاندلس وساحل طنجـــة .

ويمتد البحر على سواحل المغرب الى حدود الديار المصرية ، فيمر على طنجة ، ثم يعطف ــ كما قال خطأ ــ الى مدينة سلا جنوبا ، ثم يمتد شرقا وشمالا الى سبتة ، حتى يسامت مدينة فاس ، قاعـــدة المغــــرب الاقصى على بعد ، ثم يمتد الى حدود تلمسان قاعدة المغرب الاوسط ، ثم ياخذ شرقا حتى يصير عند الجزائر ، فرضة بجاية ، ويمر حتى يسامت بجاية ، ثم يمتد حتى يجاوز مدينة مرسى الخرز ، شرقي قسنطينة ، ثم يتجاوز مملكة بجايه ، الى اول حدود افريقية ، ويمر فى سمت وســـط المشرق ، حتى يقابل مدينة تونس قاعدة افريقية ثم يعطف جنوبا حتـــى

يصير له دخلة كبيرة فى الجنوب ، وفى فم هذه الدخلة جزيرة قوصرة ، مقابلة لجزيرة صقلية ، ثم يمتد الى قريب من مدينة سوسة ، ثم ياخـــذ شرقا وجنوبا الى المهدية ، ثم يمر حتى يتجاوز مدينة صفاقس ، ويمتد حتى يجاوز جزيرة جربة ، ثم يعطف ويمتد حتى يبلغ مدينة طرابلس ، ثم يمتد شرقا ، فشمالا على سواحل برقة ، الى طلميثا ، الى راس أوثان ، الى رأس تنبي حتى حدود مصر ويدور الى أن بنتهي الى جبل البـــرت ، وهو الجبل الفاصل بين جزيرة الاندلس ، وبين الارض الكبيرة ( فرنسا ) ويمتد على سواحل الاندلس الى مدينة برشلونة ، ثم الى مدينة طرطوشة ، قال فى الروض المعطار : ويقابلها من البر الآخر ، مدينة بجايـــة الى أن يمتد الى مدينة بلنسية ، ثم يعطف الى دانية غربا ، ثم الى مالقة ، ثم يمر الى الجزيرة ( الخضراء ) وهي مقابلة لساحل سبتة وطنجة .

ثم ينقل عن ابن سعيد ، أن الخليج القسطنطيني وهو ضيق للغاية ، بحيث يرى الانسان صاحبه من البر الآخر ، طوله خمسون ميلا ، كما ينقل عنه بعد أن من البحور الخارجة من المحيط ، بحر برطانيـــة ، المعروف ببحر برديلا ، يخرج من شمالي الاندلس ، وياخذ شرقا الى خلف جبـــل الابواب ، الفاصل بين الاندلس والارض الكبيرة ، وهناك مدينة برديل ، التي بضاف البحر اليها .

ثم ينقل عن الشريف الادريسي ، ان بحر جرجان ، مدور الشكل الى الطـــــول .

وفى الصفحة 250 يتعرض للخلافة ، فيذكر ممن وليها ، خلفاء بني أمية بالاندلس ، بعد ذكره للخلفاء الفاطميين بمصر .

وعند ذكره لبرقة فى الصفحة 291 نقل عن ابن سعيد ، انها سلطنة طويلة ، وان لم يكن لها استقلال ، لاستيلاء العرب عليها ، وهي الى افريقية اقرب منها الى مصـــر .

ولم يرد ذكر للمغرب او الاندلس فى الجزء الرابـــع ، وان كان ابن سعيد قد ورد ذكره فى وصف بعض البلاد ، كما في الصفحة 155 .

اما الجزء الخامس ، فنجد تونس تذكر بالصفحة 99 وما بعدها ، في الفصل الثاني المتعرض للممالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية، فذكر حدودها ، وأن قاعدتها على بحيرة مالحة ونقل عن البكري ، أن دورها نحو أربعة وعشرين ميلا بعد نقله عن ابن سعيد أن آخر سلطنة بجاية من الشرق «، بونة »، وعن الادريسي أن سبيطلة كانت مدينة « افريسيس » وعند ذكر المهدية ، قال : ان البحر يحيط بالمهدية ، ثم قال عند مدخلها انه ضيق كما في سبتة ، وقبلها كانت القيروان القاعدة ، بعد سبيطلة ، وعن مسالك الابصار انه ، مدخلا الاندلس من اهله ، وأووا الى تونس مصروا اقليمها ، ونوعوا بها الغراس ، فكثرت منتزهاتها ، وبها يعمل القماش الافريقي ،»» ومنه جل كساوي أهل المغرب ، وللسلطان بها قلعة يعبرون عنها بالقصبة ، كما هو مصطلح المغاربة .

وعند تعرضه لمدينة سوسة ، نقل عن الادريسي ، انها عامرة بالناس، كثيرة المتاجر ، والمسافرون اليها قاصدون ، وعنها صادرون ، وعليها سور من حجر حصين ، وفي تعرضه لصفاقص ، وأنه من بحرها يستخرج الصوف المعروف عند العامة بصوف السمك ، نقل عن ابن سعيد أنه رآه كيف يخرج ، يغوص الغواصون في البحر ، فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل باعناق ، في أعلاها زويرة ، فتنشر في الشمس ، فتنفتح تلك الكمائم عن وبر ، فيمشط ويوخذ صوفه فيغزل ، ويعمل منه طعمة لقيام من الحرير، وتنسج منه الثياب ، وكذلك نقل عن ابن سعيد عند ذكره لاطرابلس ، بانها حيث الطول ثمان وثلاثون درجة ( في الاقليم الثالث ) والعرض اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

وعند ذكره لبنزرت ، وان لها بحيرة حلوة وبحيرة مالحة ، تصب كل منهما في الاخرى ، فلا الحلوة تفسد ولا المالحة تعذب ، نجده يقول : قال الشيخ عبد الواحد : اما زيادة الحلوة ، فبكثرة السيول أيام الشتاء ، وتقل عنها السيول في أيام الصيف ، فتعلو عليها الملاحة ، ولا شك انه ينقل عن غير عبد الواحد المراكشي ، فهذا النص غير وارد في المعجب، وكذلك ينقل عنه ، عند ذكره لتوزر ، بوساطة تقويم البلدان (لابي الفداء)

ضبطها ، وموقعها ، ثم ينقل عن ابن سعيد طولها وعرضها ، وينقل عـــن هذا ايضا عند ذكره لقفصة ، أنها قاعدة مشهورة من بلاد الجريـــد ، بها النخل والفستق ، وأنه لا يكون ببلاد المغرب ، الا فى قفصة ، وينقل فى المسيلة ، عن الشيخ عبد الواحد ، بوساطة تقويم البلدان ايضا ، ضبطها ، ووصفها ، وفى بسكرة ، ينقل عن ابن سعيد ، أنها قاعدة بلاد الزاب ، ولها بلاد ذات نخيل ، وفى طرا ، ينقل عن الشيخ عبد الواحد ، بوساطةالتقويم، ضبطها ايضا ، ولم يرد فى النسخة التي بأيدينا ذكر للمسيلة وطرا .

وفى تكلمه عن الجزائر ، بالصفحة 109 وما بعدها ، نقل عن مسالك الابصار ( للعمري ) أنها بلدة على ساحل البحر ، تقابل ميورقة من الاندلس، بانحراف يسير ، وبعدها عن بجاية ستة أيام .

وفى تكلمه عن قسنطينة ، نقل عن الادريسي ، أنها على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض استدارة ، لا يتوصل اليه الا من جهـة بـــاب فى غربيها ليس بكثير السعة ، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها ،،، وهي مدينة عامرة ، وبها أسواق وتجارات ، وتقيم الحنطة فى مطاميرها مائــــة سنـــة لا تفســـد .

وفى تكلمه على تاهرت بالصفحة 111 ، نقل عن ابن سعيد ، بوساطة تقويم البلدان ، الذي قال صاحبه : ونقلت من خط ابن سعيـــد ، عوض الالف ياء مثناة تحت ، قال ، وهو الاصح ، لان ابن سعيد مغربي فاضل ، ثم نقل هو عن الادريسي فيها ، أنها كانت فى القديم مدينتين القديمة منهما على رأس جبل ليس بالعالي ،،، وتاهرت الجديدة على مرحلة منها ، وهي اعظم من تاهرت القديمة ، والمياه تخترق دور اهلها وهي ذات اســـواق عامرة ، وبارضها مزارع وضياع جمة ، ويمر بها نهر ياتيها من جهة المغرب، ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع فيه ، منه شرب اهلها ، وبها البساتين الكثيرة المونقة ، والفواكه الحسنة ، والسفرجل الذي ليس له نظيـــر ، طعما وشما ، ولها قلعة عظيمة مشرفة على سوقها ، وتاهرت كثيرة البرد، كثيرة الغيوم والثلج ، وسورها من الحجر ، ولها ثلاثة ابواب ، باب الصفا ، وهو باب الاندلس ، وباب النازل ، وباب المطاحن ، وعند تعرضه لصفات أهل تونس بالصفحة 115 ، نقل عن مسالـــك الابصـــار ، أن لاهـــل

افريقية لطف اخلاق ، وشمائل ، بالنسبة الى أهل بر العدوة وسائر بلاد المغرب ، بمجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ، ومخالطتهم اياهم ، ومخالطة من سكن عندهم من اهل اشبيلية ، من الاندلس ، وهم من هم ، خفة روح، وحلاوة بادرة ، وهم على كل حال أهل انطباع ، وكرم طباع ، وناهيك من بلاد ، من شعر ملكها السلطان أبي العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الرحمن يحيى بن عبد الواحد أبي حفص قوله :

مواطننا فى دهرهن عجائــــب     وأزماننــا لم تعرهــن الغرائــب
مواطن لم تحك التواريخ مثلهـا     ولا حدثت عنها الليالي الذواهـب

وقـولـــــه :

انظر الينا تجدنا ما بنـا دهـــش     وكيف يطرق أسد الغابة الدهش
لا تعرف الحادث المرهوب أنفسنا     فاننا بارتكاب الموت ننتعـــش

وقـولــــه :

عسى الله يدني للمحبين أوبـــة     فتشفي قلوب منهم وصــــدور
وكم من قصي الدار امسى بحزنه     فاعقبه عند الصباح ســــرور

وفى الصفحة 120 وهو يتكلم عن ابراهيم بن الاغلـــب ، قال : وفى ولايته ظهرت دعوة الادارسة ، من العلوية بالمغرب الاقصى .

وعند تكلمه على العبيديين بالصفحة 122 وما بعدها ، قال : ان عبيد الله لحق بمصر ومعه ابنه ابو القاسم ، وكان ابو عبد الله الشيعي قد بعث اليه ،،، من البلاد الغربية ، فعزم على اللحوق به ،،، وخرج حتى وصل الى سجلماسة من بلاد المغرب ، فورد على عاملها كتاب بالقبض عليـــه ، فقبض عليه وحبسه هو وابنه ابا القاسم ، ولما استفحل امر ابي عبد الله الشيعي ، استخلف على افريقية اخاه ابا العباس ، وارتحل الى سجلماسة، فاخرج المهدي وابنه من الحبس وبايع للمهدي ،،، وبنى المهدية ، وجعلها دار ملكه ، ولما فرغ منها صعد على سورها ، ورمى فى جهة الغرب وقال : الى هنا ينتهي صاحب الحمار ، فكان الامر كذلك ، وذلك انه خرج بالمغرب خارجي اسمه ابو يزيد يعرف بصاحب الحمار ، وتبعه الناس فقصد مدينة

المهدية يريد فتحها فانتهى الى حيث انتهى سهم المهدي ، ثم رجع من حيث اتى ، فعظم امر المهدي ، واستولى على فاس ، ودخـــل ملوكها من الادارسة ، تحت طاعته في سنة ثمان وثلاث مائة ، ومهد المغرب ، ودوخ اقطـــــاره .

وفي الصفحة 124 وما بعدها ذكر أن المعز لدين الله ، انتهت مملكته بالغرب الى البحر المحيط .

وفيها ذكر أن المعز ، استخلف على افريقية والمغرب ، بليكين بـن زيري ، ولما انتهت الخلافة الى ابنه العزيز ، ولى على افريقية والمغرب، بعد بليكين ابنه المنصور ، وبعد وفاته قام بأمره ابنه بادس ، وبعده المعز ابن بادس ، وهو ابن ثمان سنين ، فعظم ملكه واستمر ، وكان منحرفا عن التشيع ، منتحلا للسنة ، وأعلن ذلك وخلع طاعة العبيديين ، وخطب للقائم ابن القادر العباسي ، فاضطرب ملكه ولما توفي قام مقامه ابنه تميم ، وبعده ابنه يحيى ، فراجع طاعة العبيديين ، وأكثر غزو الافرنج ، حتى لقبـــوه بالجرية من وراء البحر ، وملك بعده ابنه علي ، وبعد هذا ابنه الحسن ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فقام بأمره مولاه صندل ، ثم مولاه موفـــق ، وغلبه النصارى على المهدية وبلاد الساحل كلها ، الى ان استنقذها منهم عبد المؤمن شيخ الموحدين ، ولحق الحسن بالجزائر ، ولما فتح الموحدون الجزائر ، بعد ملكهم المغرب والاندلس ، خرج الى عبد المؤمـــن فاحسن اليه ، وبقي معه حتى افتتح المهدية فانزله بها ، ثم ســـار الى مراكش فمـــات في طريقـــه .

وفي الصفحة 126 وما بعدها تعرض للطبقة الرابعة من الخلفاء ، وهم الموحدون ، الذين كان أول من افتتح منهم افريقية عبد المؤمن أحد اصحاب ابن تومرت والخليفة بعده ، وكان الموحدون قد استولـــوا على الاندلس والمغرب الاقصى والمغرب الاوسط الى بجاية ، فبعث عبد المؤمن العساكر الى افريقية مع ابنه عبد الله ، فافتتحها واستكمل فتحها سنـــة ســـت وخمسين ، وولى عليها ابنه السيد ابا موسى عمران واسره علي بن يحيى المعروف بابن غانية ، عند فتحه بجاية سنة احدى وثمانين وخمسمائة ، ولما ولي المنصور يعقوب ( بن يوسف ) بن عبد المؤمن ، بعد ابيه (يوسف

ابن ) عبد المومن ، ولى على افريقية ، أبا سعيد بن الشيخ ابي حفص بن عمر ، ثم غلب ابن غانية على أكثر بلاد افريقية واستولى على تونس ، وخطب للخليفة العباسي ، ثم جهز الناصر ابن المنصور بن ( يوسف بن ) عبد المؤمن الشيخ ابا عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص من مراكش الى افريقية فانتزعها من ابن غانية ، ثم وصل الناصر بن المنصور الى افريقيا ودخل تونس ثم عزم على الرحيل الى مراكش وولى الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ ابي حفص عليها ، ورحل الى المغرب .

وبعد وفاة عبد الواحد تولى ابنه ابو زيد عبد الرحمن الى أن عزله المستنصر ابن الناصر ، وولى مكانه السيد أبا العلى ادريس بن يوسف ابن عبد المؤمن فتوفي واليا عليها بتونس سنة عشرين وست مائة .

ولما مات المستنصر ، وصار الامر لعبد الواحد المخلوع ، ابن يوسف بن عبد المؤمن ، بعث بولاية افريقية الى ابي زيد بن ابي العلى ثم صار الامر الى العادل ، فولى أبا محمد عبد الله بن ابي محمد عبد الواحد ابن الشيخ ابي حفص ، فدخل تونس سنة ثلاث وعشرين ، ثم ثار عليه أخوه أبو زكريا يحيى وولي مكانه ، ودخل تونس سنة خمس وعشرين، وافتتح قسنطينة وبجاية ، وانتزعهما من بني عبد المؤمن ثم ملك تلمسان منهم وبايعه أهل الاندلس ، وبعد وفاته بويع ابنه المستنصر بالله ابو عبد الله محمد ، وهو اول من تلقب من الحفصيين بالقاب الخلافة ، وانتهى الى أن بويع له بمكة ، وبعث اليه بالبيعة ، واستولى على ما كان بيد ابيه من المغرب الاوسط بجاية وقسنطينة وفتح الجزائر ، وتوفى سنة خمس وسبعين ، فبويع ابنه الواثق يحيى ، وبعث اليه اهل بجاية بالبيعة ، وخرج عليه عمه أبو اسحاق ابراهيم ودخل بجاية ، واستولى على قسنطينة فتيقن المستنصر ذهاب الملك منه ، فانخلع عنه لعمه ، فعرف بالمخلوع ، فاستولى اسحاق على المملكة واعتقل الواثق وبنيه ثم دس عليهم من ذبحهم سنة تسع وسبعين ، وبقي حتى خرج عليه احمد بن روق بن ابي عمارة من بيوتات بجاية عليها من المسيلة ، وكان شبيها بالفضل بن يحيى المخلوع ، فعرف بالدعي ، واستولى على تونس ، ولحق ابو اسحاق ببجاية فمنعه ابنه ابو فارس ، عبد العزيز من دخولها ، فانخلع له واشهد

عليه بذلك ، ودعا الناس الى بيعته ، فبايعوه وتلقب بالمعتمد ، وكان بينه وبين الدعي موقعة قتل فيها سنة اثنتين وثمانين ، وخرج ابو اسحاق فلحق بتلمسان ، ومعه ابنه ابو زكريا ، ودخل اهل بجاية في طاعة الدعي ثم خرج عليه ابو حفص عمر بن يحيى بن عبد الواحد بن ابي حفص ، فكانت بينهما حروب انتهت بانهزام الدعي واستيلاء خصمه على تونس وسائر المملكة ، وتلقب بالمستنصر ، واختفى الدعي ، ثم تمكن منه ابو حفص فقتله ، وبايعه أهل تلمسان وطرابلس وما بينهما .

ثم خرج ابو زكريا يحيى بن ابي اسحاق على بجاية وقسنطينة ، فملكها ، وقسم دولة الموحدين بدولتين ، وبقي ابو حفص في ملكه الى ان توفي سنة اربع وتسعين .

وخلال استعراضه للملوك الحفصيين ذكر في الصفحة 130 وما بعدها ان ابا بكر صاحب بجاية ، لما غلب ابا ضربة على تونس ، لحق هذا بتلمسان ، ولما عهد ابو بكر لابنه أبي العباس الذي كان ببلاد الجريد ، ارسل العهد الى السلطان ابي الحسن المريني ، صاحب تلمسان ـ كما يقول ـ وساله في الكتابة عليه ، فلما قتل ابو العباس المذكور ، في موقعة بينه وبين أخيه أبي حفص ، ثقل ذلك على السلطان ابي الحسن ، وخرج الى افريقية في سنة ثمان واربعين وسبعمائة ، وامتلك بجاية وقسنطينة ثم توجه الى تونس ، حيث كانت بينه وبين ابي حفص حروب انتهت بالقبض على ابي حفص وقتله واستيلاء ابي الحسن على تونس ، فكمل له بذلك ملك جميع المغرب ثم غلب ابو العباس الفضل ابن السلطان ابي بكر على بجاية وقسنطينة ، وسار ابو الحسن الى المغرب ، واستخلف على تونس ابنه ابا الفضل فقصد الفضل تونس فخرج منها ابو الفضل فارا الى المغرب حيث ابوه .

ولما قبض على الفضل وقتل ، بويع اخوه ابو اسحاق ، فاستولى على افريقية وبجاية وقسنطينة ، وبقي حتى غلبه بنو مرين عليهما فملكهما ابو عنان سنة ثلاث وخمسين ، ثم استولى ابو العباس بن محمد بن ابي بكر على قسنطينة ، ثم غلبه عليها ابو عنان ، وقفل الى المغرب سنة سبع

وخمسين ، ثم تجهز اليها ابو اسحاق ، وامتلكها من يد عامل ابي عنان، ثم قوى أمر أبي العباس فعاد آلى قسنطينة وملكها وانتظم فى ملكه افريقيـــة وبجاية وقسنطينـــة وأعمالهـــا .

وفي الصفحة 133 تعرض الى ملوك افريقية من الموحدين فى النسب وهم الحفصيون ، نسبة الى ابي حفص احد العشرة اصحاب آبن تومرت اذ كان من تقرير ابن تومرت ان الموحدين هم اصحابه ، ولم يبق ملـــك الموحدين ، لعهد المؤلف ، الا فى بني أبي حفص هذا .

ثم قال في الصفحة التالية وما بعدها ، واعلم ان النسابين قد اختلفوا فى نسبه على ثلاثة اقوال ، احدها نسبة الى عمر الخطاب ، والثاني الى بني عدى بن كعب ، والثالث آلى هنتاتة ، قبيلة من قبائل المصامدة ، بجبل درن المتاخمة لمراكش ، ويقال لها بالبربرية (( ينتي )) وكان ابو حفـــص شيخهم وكبيرهم ، دعا قومه الى اتباع آبن تومرت .

ثم ذكر في الصفحة 135 ان المستنصر ابا عبـــد الله محمـــد ابن السلطان ابي زكريا يحيى بن عبد آلواحد ، انما حمله على التلقب بالقـــاب الخلافة ، ما كان فى زمنه من تعطلها فى سائر الاقطار ، وذلك ان الخلافة الاموية ودعاوي بني عبد المؤمن قد زالت عنها فى المغرب بغلبة بني مريـــن عليهم ، وخلافة العبيديين قد زالت من مصر ، وخلافة بني العباس قـــد زالت من بغداد باستيلاء آلتتر .

واصل قيام دولتهم ابن تومرت ، وهو محمد بن عبد الله تومرت ، بن وجليد ، بن يامصال ، بن حمزة ، بن عيسى ، فيما ذكره محققو المؤرخين، وبعضهم يقول »» بن نطاوس ، بن سافلا ، بن سيعون ، بن اكليديس ، بن خالد ، أصله من هرغة ، ومنهم من يجعل نسبه فى اهل البيت فهو محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان ابن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان ابن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي وسليمان هذا اخو ادريس الاكبر آلذي كان لبنيه الدولة بالمغرب بر العدوة .

ويذكر فى الصفحة التالية ان سليمان لحق بالمغرب اثر اخيه ، وقيل بل هو من قرابة ادريس اللاحقين به الى المغرب ، وعلى هذا يكون نسبه قد التحم بالمصامدة ، وكان اهل بيته اهل دين وعبادة ، وشب فيهم قارئـا محبا للعلم ، وارتحل فى طلب العلم الى المشرق ، ومر بالاندلس ودخل قرطبة ، ثم لحق بالاسكندرية وحج ، ودخل العراق ، ولقي اكابر العلماء به ، كما لقي فحول النظار وائمة الاشعرية من اهل السنة واخذ بقولهم فى تاويل المتشابه ، ويقال انه لقي الغزالي ، واستشاره فيما يريده من قيام الدولة بالمغرب ، ثم رجع الى المغرب ، وقد حصل على علم غزير ، وطعن على اهله فى الوقوف مع الظاهر ، وحملهم على القول بالتاويل والاخذ بمذهب الاشعرية ، والف العقائد على رايهم ، مثل المرشدة وغيرها ، وكان مع ذلك يقول بعصمة الامام ، على مذهب الامامية من الشيعة ، وانتهى الى بجاية ، فاقام بها يدرس العلم ، ويامر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهناك لقيه عبد المؤمن ، وارتحل معه الى المغرب ، وصار الى بلاد هرغة ، فاجتمع اليه الطلبة ونشر علمه ومذهبه ، وكان المنجمون يتحدثون بظهور ملك من البربر بالمغرب ، وشاع فى الناس انه هو ، واختار من اصحابه عشرة ، كانوا خاصته ، هم عبد المؤمن ، وابو حفص ، ومحمد بن سليمان، وعمر بن تافركين ، وعبد الله بن ملويات وغيرهم ، ودعا المصامدة الى بيعته على التوحيد وقتال المجسمة ، ولما تكاملت بيعته ، لقبوه بالمهدي، وكان يلقب بالامام ، وكان عبد المؤمن اخص اصحابه ، وكان يلقبه بالخليفة، وابو حفص بعده فى الخصوصية ، وكان يلقبه بالشيخ ، وسمى اتباعه بالموحدين تعريضا بمن يجنح عن التاويل فيقع فى التجسيم ، ولم تحفظ له بدعة الا الاول بعصمة الامام .

وفى هذه الصفحة 137 ذكر ان الذي قرره ابن تومرت ثم عبد المؤمن واولاده ، أنه ليس لهم امراء ولا اتباع ، يطلب بعدتهم كعدة الامراء بمصر وانما لهم اشياخ من اعيانهم ، ولكل طائفة رئيس يسمى المزوار ، وكان جندهم من الموحدين والاندلسيين وقبائل العرب والممالك والفرنج

وفى الصفحة 138 تعرض لطبقات الجند عندهم ، فنقل عن المسالك، انهم على سبع طبقات :

الاشياخ الكبار الذين هم بقايا اتباع المهدي بن تومرت .

الاشياخ الصغار وهم دونهم فى الرتبة .

الوقافون ولهم خاصية بالسلطان ، يسكنون معه فى القصبة ، وهم كبار وصغار ، وكلهم يقفون فى اوقات جلوسه للناس .

عامـــة الجنـــد .

الجنـــد من قبائـــل العـــرب .

الصبيان وهم جماعة من الشباب ، يكونون فى خدمـــة السلطان .

الجند من الفرنج ، وهم العلوج ، لا يطمئن الا اليهم لخاصة السلطان

وعدة العساكر ، لا تبلغ عشرة آلاف ، وانما العدد الجم فى العرب اهل البادية ، كما هو فى مسالك الابصار ، عن ابن القويع .

وفى الصفحة التالية تعرض لارباب السيوف ، فذكر انهم ثمانية .

الوزراء وهم ثلاثة ، وزير الجند ، ووزير المال ( وهـــو صاحـــب الاشغال ) ، ووزير الفضل وهو كاتب السر .

شيخ الموحدين ، وهو الشيخ المعظم الذي يتولى عرض الموحدين وامـــورهـــــم .

اهل المشورة ، وهم ثلاثة من أشياخ الموحدين ، يجلسون بمجلسه للـــراي والمشـــورة .

صاحب الرقاعات ، قال فيه ابن سعيد ، انه الذي يتولـــى ابـــلاغ الظلامات الى السلطان وايصال قصصهم اليه وعرضها عليه ، ثم يخـــرج بجوابهـــا عنـــه .

صاحب العلامات ، وهو المتولي امور الاعلام ، واليه آمر دق الطبول، عند ركوب السلطان فى المواكــــب .

الحافظ ، وهو صاحـــب الشرطـــة .

محركو الساقة ، وهم قوم يكون فى ايديهم العصي ، يرتبون الناس فى المواكـــب .

صاحـــب الطعـــام .

وفى الصفحة 140 تعرض لارباب الاقلام ، وهم ثلاثة ، قاضي القضاة، والمحتسب ، وصاحب كتب المظالم ، وهو الموقع على القصص وفيهـــا والتي بعدها ، تعرض للارزاق المطلقة من جهة السلطـــان ، وان الحـــال مختلف فيها باختلاف اربابها .

فلأشياخ الموحدين الكبار ، كما نقل عن ابي القاسم بن بنون ، ارض يزرعونها او يحكرونها ، ولهم عشر ما يطلع منها ، ولكل واحد حرث عشرة أزواج بقرا كل سنة ، كل زوج بشعبتين ، والشعبة هي المسماة فى دمشق بالفدان ، ومع ذلك راتب سنوي ، يسمى البركة ، تفرق في عيد الفطـــر والاضحى ، وربيع الاول ، ورجب ، ويصيب كل واحد من ذلك اربعيـــن دينارا ، وياخذ السلطان معهم بسهم على السواء ، مجموعها مائة درهـــم مغربية ، وما يتحصل من مغل عشرين فدانا بقدر مثلها .

وللاشياخ الصغار ، حرث خمسة ازواج من البقر ، والبركات فى كل سنة ، تفرق اربع مرات فى السنة كذلك ، يقول ابن بنون ، ان لعامـــة الاشياخ والوقافين والجند غير هذا يفرقه السلطان عليهم ، يسمى المواساة، وهي غلة تفرق عليهم عند تحصيل الغلات فى المخازن ، وشيء يقال لـــه الاحسان ، وهو مبلغ يفرق عليهم ، وكلاهما من السنة الى السنـــة ، على حسب ما يرى السلطان وباقدارهم .

وكذا القبائل ومزاويرهم على هذا النحو ، قال ابن القريع ، والجند الغرباء ، يتميزون على الموحدين ، وللعرب البداة اقطاعات كثيرة ، ومنهم من يخرج مع السلطان عند الاستدعاء .

وفى الصفحة 141 وما بعدها ، نقل عن ابن سعيد ، ان لبس سلطان مملكة افريقية ، عمامة كبيرة من صوف وكتان فيها طراز من حرير وتكون عذبتها خلف اذنه اليسرى ، وجباب يلبسها ، ولا يلبس خفا الا فى السفر، وغالب لبسه من قماش يدعى السفساري ، من حرير وقطـــن أو صوف رفيع ، وقماش يعرف بالتلمساني ، من صوف خالص ، او حرير خالص ، مختم وغير مختم ، وعن ابن بنون ان السلطان يمتاز بلبس الخز ولونه لون الخضرة والسواد ، يسمى بالجوزي ، وبالفيار وبالنفطي ، قال ابن سعيد : وهو ما يخرج من البحر بصفاقص ، وهي أفخـــر ثيـــاب السلطـــان ، وفى مسالك الابصار عنه ، أنه يلبس ثياب الصـــوف الرفيعـــة ، ذوات الالوان البديعة ، وأكثر ما يلبس المختم المتزج بالحرير ، بكمين طويلين ضيقين ، وثيابه دون شد نطاق ، الا فى الحرب ، ويلبس الاقبية ، ولـــه طيلســـان صـــوف .

وفى الصفحة 143 ينقل عن ابن سعيد ، ان سلطان هذه المملكـــة ، يخرج باكرا كل يوم الى موضع يعرف بالمدرسة ، فياتيه وزيـــر الجنـــد مسلمـــا الـــخ .

وفى الصفحة 144 وما بعدها ، تعرض لجلوسه للمظالم ، فنقل عن الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي ، أنه اذا جلس جلس حوله ثلاثة من كبار أشياخ الموحدين ، للراي والمشورة ››› فاذا أمر السلطان بأمر بلغه وزير الجند لآخر واقف وراءه ، وهكذا حتى ينتهي الى من هـــو خارجا ، وقد ذكر ابن سعيد أن يوم السبت مخصوص عنده بأن يقعد فى قبة كبيرة فى القصبة ››› ويقرأ الكاتب المعين ما وقع له على قصص المظالم .

وفى الصفحة 145 نقل ايضا عن ابن سعيد ، أن من عادة السلطـــان بافريقية أنه لا يجتمع يوم الجمعة باحد ››› وليس له مقصورة للصلاة .

وفي الصفحة 146 نقل ايضا عن القاضي الزواوي المذكـــور ، ان عادة السلطان في ركوبه لصلاة العيدين ، ان يكون عن يمينه ويساره فارس. ويمشي امام جماعة المشائين ، نفر كثير من الموحدين ، وقدامهم عبيد سود ، وامامهم قوم يعبر عنهم بعبيد المخزن ›› ويطيف بالسلطان جماعة يقرأون حزبا من القرآن الكريـــم .

وفي الصفحة 147 نقل عن ابن سعيد في خروج السلطان للتنزه ، إنه ربما خرج الى بستانه ، فيخرج في نحو مائتي فارس من الشباب .

وفي الصفحة 148 نقل عن مسالك الابصار عن ابن سعيد ، عن ابـي عبد الله ابن القريع ، وهو بمعرض الكلام عن مكاتبات السلطان ، انـــه لا يعلم على شيء يكتب عنه ، وانما يعلم عنه في الامور الكبار صاحب العلامة الكبرى ››› والعلامة الحمد لله او الشكر لله ، بعد البسملة ››› ومن عادته وعادة سائر المغاربة ، ألا يطيلوا في الكتب ولا يباعدوا بين السطور ›› اما الامور الصغار فالكتابة فيها عن وزير الجند .

وفي الصفحة 149 والتي بعدها تعرض لملكة تلمسان من ممالك بلاد المغرب ، فذكر انها تحد من الغرب بمملكة فاس ، ومن الجنوب بالمفاوز الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، ثم نقل عن العبر لابن خلدون ، ان حدها من جهة الغرب ، من وادي ملوية ، الفاصل بينها وبين المغرب الاقصى ، وقال في تقويم البلدان ، من المغرب الاقصى متاخمة ، قاعدتها تلمسان للمغرب الاوسط ، شرقي فاس ، في أوائل الاقليم الرابع ، قال ابن سعيد حيث الطول اربع عشرة واربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون واثنتا عشرة ››› ومن فرضها هنين التي تقابل المرية ، ومستغانم التي تقابل دانية ، من الاندلس ››› قال الادريسي في (( كتاب رجار )) وبها آثار الاول ، ولها اسواق ضخمة ومساجد جامعة . وعن مسالك الابصار ، ان أبا يعقوب المريني ، صاحب فاس حاصرها عشر سنين ، وبنى عليها مدينة سماها فاس الجديدة ، وأعجزه فتحها .

وفي الصفحة 152 وما بعدها ، تعرض لملكة المغرب الاقصى ، او بر العدوة ، كما قال ، فقال : ان موقعها في الاقليم الثالث ، وبعضها في الثاني وبعضها في الرابع ، وان حدودها ، كما نقل عن صاحب العبر ، من مدينة

آسفي ، حاضرة البحر المحيط ، الى وادي ملوية ومدينة تازة من جهة الشرق ، وجبال درن وما يليها من جنوبيه ، وجبال تازا من شرقيه ، والبحر الرومي من شماليه ، وهو ديار المصامدة وغيرهم من البربر ، وعن مسالك الابصار ان ابا عبد الله محمد بن محمد السلالجي ، حدها من الجنوب بالصحراء الكبيرة ، الآخذة من بلاد البربر الى جنوب افريقية ، ومن الشرق جزائر بني مزغنانة ، وما هو آخذ على حدها الى الصحراء الكبيرة »» وعنه ان طولها من الجزائر الى المحيط وعرضها من بحر الزقاق بسبتة الى نهاية بلاد البربر المتصلة بالصحراء الفاصلة بينها وبين بلاد السودان ، ثلاثون يوما .

وفي الصفحة 153 تعرض لقواعدها ، فبدأ بفاس ، وهي واقعة في آخر الاقليم الثالث ، بالمغرب الاقصى ، قال ابن سعيد حيث الطول عشر درج وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون ، وسميت بفاس ، كما قال ابن سعيد ، لانهم لما شرعوا في حفر اساسها ، وجدوا فاسا بحفرها ، وفي تقويم البلدان انها مدينتان ، يشق بينهما نهر ، الاولى فاس القديمة ، والمياه تجري باسواقها وديارها وحماماتها ، وهي ذات ارتفاع وانخفاض، وفيها عدة عيون ، قال ابو عبد الله العسلي : عدتها ثلاث مائة وستون ، قال ابن سعيد : ولم أر قط حمامات في داخلها عين تنبع الا في فاس ، قال : وهي اكثر مياها من دمشق ، وقال في (( المغرب )) وهي مدينتان ، احداهما بناها ادريس بن عبد الله »» وتعرف بعدوة الاندلس ، والاخرى بنيت بعدها وتعرف بعدوة القرويين ، قال في الروض المعطار : وكان بناء عدوة الاندلسيين سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبناء عدوة القرويين سنة ثلاث وتسعين ( فكلتاهما من ادريس الاصغر ) وهذه اكثر عيونا وبساتين واشجارا ، ورجال الاخرى أشجع ، ونساؤهم أجمل ، وبها تفاح حسن طيب الطعم يعرف بالطرابلسي ، اما عدوة القرويين فرجالها أجمل وبها اترج حسن .

والثانية فاس الجديدة ، وهي ثلاث مدن بناء الملوك القائمين بها ( المرينيين ) لما ملكوا المغرب الاقصى ، وهي على ضفة النهر الغربي ، اولها المدينة البيضاء ، وتعرف بالجديدة ، بناها يعقوب بن عبد الحق ،

وثانيها مدينة حمص وموضعها بالملاح ، بناها ابنه عثمان ، وثالثها ربض النصارى ، للفرنج المستخدمين ، تقابل فاس القديمة ، على بعد من ضفة النهر ، والبيضاء آخذة من شمالها الى ضفة النهر ، وحمص راكبـــة على النهر بشماله ، آخذة الى ربض النصارى ·

والقصبة في غربيها مرجلة على الارض لا تتميز على المدينة ، والنهر متوسط المقدار ، وعن ابن سعيد انه يلاقي وادي سبو يصب بالمحيـــط بين سلا وقصر عبد الكريم ، وعنه أن على انهارها داخل المدينة نحو ست مائة رحى تدور بالماء .

وفاس العتيقة بسور واحد والجديدة بسورين ، وسقوف جميعها من الخشب ، وربما غشي بعضها بالقصدير والاصباغ الملونة ، وارض دور رؤساء المدينة مفروشة بالزليج الملون ، وربما اتخـذ منـــه الـــوزارات بالحيطان ، قال فى مسالك الابصار ، وسالت السلالجي عن مقدار عمارة فاس ، فقال تكون مقدار ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما ، وبكـــل مـــن القديمة والجديدة جوامع ومساجد ومآذن وحمامات واسواق ، وبالعتيقة مارستان وفى وسط صحن دورها بركة يصب بها الماء ، تسمى الصهريج، وحماماتهم صحن واحد لا خلاوي فيها ، ولذلك يتخذ الرؤساء حمامات ببيوتهم ، وعن ابن سعيد ، آن بين فاس ومراكش عشرة أيام ، وبينهما وبين تلمسان كذلك ، وهو ما بينها وبين سبتة وسجلماسة ، فهي متوسطة الملك وفى مسالك الابصار انها تشبه الاسكندرية فى المحافظـــة على علـــوم الشريعة ، والقيام بالناموس ، وتشبه دمشق فى البساتين .

وعن ابن منقذ رسول صلاح الدين الى المغرب ، انهم اخرجـوا الى بستان بفاس ، يقال له البحيرة ، متحصله كل سنة خمسة واربعون الف دينار ، وبه بركة ، كل جانب منها مائتان وستة عشر ذراعا ، وعن مسالك الابصار ان لاهلها حسن الصنعة فى الخشب والنحاس ولكنها ، كما يقول السلالجي : وخمة ثقيلة الماء ، تعلو وجوه سكانها صفرة ، وتحـــدث فى اجسامهم كسلا وفتورا .

وقد تناول في الصفحة 157 وما بعدها ، سبتة ، فنقل عن الروض المعطار ، انها بفتح السين ، ولكن النسبة اليها بالكسر ، وهي مدينة بين بحرين ، المحيط ( خطا ) وبحر الروم ، ومدخلها من جهة المغرب ضيق، ولو شاء اهلها لجعلوها جزيرة ، ولها اسوار صخرية والماء يجلب اليها فى الشواني ، حتى للحمامات ، وبها صهاريج من ماء المطر ، وهي سبعة اجبل صغار ، ويتصل بها على ميلين جبل موسى بن نصير ، يجاوره بساتين واشجار وقرى ، وهناك يزرع قصب السكر ويحمل الى البلدان ، ولها نهر يصب بالبحر ، وبها كنيسة جعلت جامعا ، ويستخرج من البحر شجر المرجان ، ويقابلها من الاندلس الجزيرة الخضراء ، والبحر بينهما ضيق، وميناها شرقيها ، وبه اسماك مختلفة .

كانت سبتة قاعدة هذا القطر قبل الاسلام ، بها ديار غمارة من المصامدة ، حاكمها من قبل ملك الاندلس من القوط ، وعند آتيان المسلمين، كان حاكمها يدعى يليان ، تقدم بالهدايا الى موسى بن نصير ، واذعن لاداء الجزية ، وآسترهن ابناءه وانزل طارقا بطنجة ، ولما هلك استولى المسلمون على سبتة بالصلح فعمروها الى ان كانت فتنة ميسرة الخارجي، فاخذ به كثير من غمارة ، فزحف من بطنجة من البربر الى سبتة واخرجوا العرب منها ، وخربوها الى ان عمرها ماجكس من وجوه غمارة ، واسلم وصحب اهل العلم فعاد عمرانها ، وبعد موته تولاها عصام ابنه ، ولما توفي تولاها مجير ابنه ، وبعد موته تولاها أخوه الرضي ، ويقال ابنه ، وطاعتهم لبني ادريس من العلوية ، ولما سما الناصر الى ملك المغرب من يد الادارسة ، نزلوا للناصر عن سبتة ، فانتزعها من يد الرضي سنة تسع عشرة وثلاث مائة .

ثم كان علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس ، قد لحقا بالاندلس لما اخرج المستنصر الادارسة من المغرب ، فاقاما به الى ان كان المستعين سليمان بن الحكم الذي عقد لعلي على طنجة ، فنزلها ودعا لنفسه ، وعاد الى الاندلس فولي الخلافة بقرطبة ، وولى على طنجة ابنه يحيى ، وعند وفاته ، اجاز يحيى الى الاندلس واستقل اخوه ادريس بطنجة ثم اجاز الى الاندلس بعد مهلك اخيه ، وعقد لحسن ابن اخيه على عملهم بسبتة وطنجة ، وآرسل معه نجا الخادم ، ثم

اجاز نجا الى الاندلس واستخلف من وثق به من الموالي الصقالبة ، وهكذا الى أن استقل بسبتة وطنجة سقوط البرغواطي من موالي الحموديين ، واتصلت أيامه الى ان جاء المرابطون ، الذين غلبوا على مغراوة بفاس ، ثم نازلوا سقوطا وقتلوه ، ولحق ابنه ضياء الدولة بسبتة ، الى ان نازله المعز بن يوسف ثم قبض عليه وقتله ، وبقيت فى يد المرابطين ، الى أن امتلك الموحدون مراكش ، فدخل اهل سبتة فى طاعتهم ، ولما ضعفوا ، ثار فى غمارة محمد بن محمد اللثامي المعروف بابي الطواجن ، فنزل سبتة وادعى النبوة ، ثم قتله بعض البربر غيلة ، بعد ما اتبعه جماعة منهم.

ولما غلب بنو مرين على المغرب امتنعت عليهم سبتة ، وقام بأمرها الفقيه العزفي ابو القاسم ، فبقيت بيده ويد بنيه الى ان امتلكها منهم بنو مرين سنة تسع وعشرين وسبع مائة ، أيام ابى الحسن ، وهي بايديهم الى زمننا بعد العشر والثمان مائة .

وفى الصفحة 161 وما بعدها تعرض للقاعدة الثالثة من المغرب ، وهي مراكش ، فنقل عن ابن سعيد فى تحديد موقعها أول الاقليم الثالث، بانها حيث الطول احدى عشرة درجة والعرض تسع وعشرون ، بناها يوسف بن تاشفين فى ارض صحراوية وجلب اليها المياه ، وعن ابن سعيد أيضا ان أول ما بني بها القصر المعروف بقصر الحجر ، ثم بنى الناس حوله ، ثم زادها يعقوب الموحد وكبرها ومصرها وفخرها . وعن الروض المعطار أن علي بن يوسف بنى سورها سنة ست وعشرين وخمس مائة ، وليس حولها الا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى به علي بن يوسف قصره ( قصر الحجر ) .

قال ابن سعيد : سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليها ، ويكفي ان كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمامات والاصطبلات والمياه ، وغير ذلك ، حتى ان الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله واقاربه وما يحتاج اليه ، ولا يخرج من بابه الى خارج داره لحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لماكل ، ولا يقرىء أولاده فى مكتب ، ويخرج من بابه راكبا ، فلا تقع عليه العين راجلا، قال : ولا ادري كيف أصل الى غاية من الوصف ، أصف بها ترتيب هذه

المدينة المحدثة ، فانها من عجائب همات السلاطين ، ذات اسوار ضخمة وابـواب عاليـة .

وبظاهرها مدينة اختطها المنصور الموحد له ولخواصه ، تعـرف بتامراكش ، وبها قصر الخلافة ، وبها بستان يعرف بالبحيرة ، قال العقيلي: طول بركته ثلاث مائة وثمانون باعا ، محاطة بشجر النارنج والليمون ، وهي اكثر بلاد المغرب بساتين ، كثيرة الزرع والضرع ، وبهـا دار الضيافـة المعروفة بدار الكرامة ، يقول فيها محمد بن محمد البربري من آبيـات يمدحهـم :

خير قوم دعـوا الى خيـر دار هي للملك نضـرة وكمامـة

عالم السبعة الاقاليـم فيهـا وهـم فى فنائهـا كالقلامـة

وبها جامع جليل يعرف بالكتبيين ، وعلى بابه ساعات مرتفعـة فى الهواء خمسين ذراعا ، كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تتحرك لنزولها اجراس تسمع على بعد ، تسمـى عندهـم بالبجانة ( المنجانـة ؟ )

وقد هجاها ابو القاسم بن ابي عبد الله محمد بن ايـوب بن نـوح الغافقي من أهل بلنسية ، فقال :

مراكش ان سالت عنهـا فانها فى البلاد عـار

هواؤها فى الشتاء ثلـج وحرها فى المصيف نـار

وكل ما ثم وهو خيـر من اهلها عقـرب وفـار

فان أكن قد مكثت فيهـا فان مكثي بها اضطـرار

ثم قال : وكانت هذه المدينة دار ملك المرابطين من الملثمين الذين ملكوا بعد بني زيري ، ثم الموحدين من بعدهم ››› وبينها وبين جبال درن نحـو عشريـن ميـلا .

وتعرض في الصفحة 163 وما بعدها ، للقاعدة الرابعة ، سجلماسة ، فقال : انها مدينة في جنوب المغرب ، في آخر الاقليم الثاني ، وعـن ابن سعيد ، حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنتان وعشرون دقيقة ، والعرض ست وعشرون واربع وعشرون دقيقة .

وهي مدينة عظيمة اسلامية ، ليس قبليها ولا غربيها عمران ، وبينها وبين غانة مسيرة شهرين ، في رمال وجبال قليلة المياه ، اختطها يزيد بن الاسود ( كذا ) من موالي العرب ، وقيل مدرار بن عبد الله ، وكان من اهل الحديث ، يقال انه لقي عكرمة مولى ابن عباس بافريقية اجتمع اليه قوم من خوارج الصفرية ، فلما بلغوا اربعين ، قدموا عليهم يزيـــد بن الاســـود ، وخلعوا طاعة الخلفاء ، واختطوا المدينة سنة اربعين ومائة ، على نهر كثير المياه ياتي من جهة المشرق من الصحراء ، يزيد في الصيف كزيادة النيل، وهي بلدة شديدة الحر ، يتناثر زرعها ويدخل في الشقوق ، وعن ابـــن سعيد انه في السنة الاولى يكون قمحا ، وفي باقي السنين ( التي ينبـت بعد فيها ) ، يكون سلتا ، وهو بين القمح والشعير وان لها ثمانية ابواب من اي باب منها خرجت ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر ، وعليهـــا وعلى جميع بساتينها حائط يمنع غارة العرب مساحته اربعون ميلا وتمرها يفضل تمر سائر بلاد المغرب ، ولها متاجر الى بلاد السودان ، يخرجـون اليها بالملح والنحاس والودع ، ويرجعون منها بالذهب التبر ، قال ابـــن سعيد : رايت صكا لاحدهم على آخر مبلغه اربعون الف دينار ( فاهلهـــا مياسيـــــــر ) .

وفي الصفحة 165 وما بعدها ، تعرض لمن وليها من امرائها الاول ، فذكر انهم قدموا عليهم عيسى بن الاسود ، ثم قتلوه سنة 155 وولوا ابا القاسم سمكو بن واسول بن مصلان ، وكان سمكو من اهل العلم ارتحل الى المدينة وادرك التابعين واخذ عن عكرمة ومات فجاة سنة 167 وكان صفريا، ومع هذا خطب للمنصور والمهدي ، وولي مكانه ابنه الياس ، المدعـــو بالوزير ، ولكنهم خلعوه سنة 174 وولوا اخاه اليسع ، ابا منصور ، فبنى سور المدينة وشيد بنيانها ، فاستفحل امرها وتوفي سنة 208 فولى ابنه مدار المنتصر وكان له ولدان اسمهما ميمون ، فوقع الحرب بينهما انتهت

بغلب أحدهما على الآخر واخراجه من المدينة وخلع ابيه وتوليه مكانــه ، ولكنه ساءت حاله فخلعوه واعادوا اباه ، الذي حدث نفسه باعادة ابنــه المخلوع ، فخلعوه وولوا مكانه اخاه الآخر المغلوب ، ويعرف بالاميــر ، ومات مدرار سنة 253 وبعده بعشر سنوات مات ابنه ميمون الامير ، فولى ابنه محمد الذي توفي سنة 270 فخلفه اليسع ابن المنتصر ، الذي وفد أيامه عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم على سجلماسة في خلافة المعتضد، وكان اليسع على طاعته ، فقبض عليهما ، ولما اتى ابو عبد الله الشيعي داعي المهدي حاربه فانهزم امامه فدخل الداعي المدينة وقتل اليسع سنة 296 وافتك عبيد الله وابنه وبايع له ، فولى المهدي على المدينة ابراهيم ابن غالب المزاتي ، وانصرف الى افريقية ، ثم انتفض اهل سجلماسة على ابراهيم سنة 298 ، وبايعوا الفتح ابن ميمون الامير وهو واسـول . ومات على راس المائة الثالثة ، فولي أخوه أحمد واستقام له الامر حتــى زحف عليه مصالة بن حبوس سنة 309 فقبض عليه وافتتح سجلماسة التي ولى عليها ابن عمه المعتز بن محمد بن يادن بن مدرار فاستبد وظل حتى مات سنة 321 قبل موت المهدي فولى بعده ابنه محمد ابو المنتصر ، فاقام عشرا ثم هلك ، وولى ابنه المنتصر سمكو شهرين ودبرته جدته لصغره،ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون الامير فتغلب عليه وشغل عنه بنو عبيد الله بفتنة ابي العافية وغيرها ، فدعى لنفسه مموها بالدعاء لبني العباس وتلقب الشاكر لله وأخذ بالسنة وكان جميع سلفه على الصفريــة والاباضية ، وضرب السكة باسمه ولقبه ، وبقي كذلك حتى زحف جوهر سنة 347 ، فامتلك سجلماسة وفر الشاكر فقبض عليه وحمله الى القيروان فلما انتقض المغرب على العبيديين وفشت فيه الاموية ، ثار بسجلماسة قائم من ولد الشاكر ، وتلقب المنتصر بالله ، ثم وثب عليه أخوه ابو محمد سنة 352 وقتله ، وقام مكانه وتلقب المعتز بالله ، واقام مدة وأمر مكناسة الى الانحلال وأمر زناتة في استفحال الى ان زحف خزرون بن فلفــول المغراوي الى سجلماسة سنة 366 فهزم المعتز وقتله واستولى على بلاده، وبعث راسه الى قرطبة ، لاول ما صار ابن ابي عامر حاجبا لهشام ، فعقد لخزرون على سجلماسة ، وشاعت في المغرب دعوة الامويين وانقرض امر مكناسة منه اجمع ولما هلك ولي ابنه وانودين الى ان غلب زيري بن مياد على المغرب ، فعقد على سجلماسة لحميد بن فضل المكناسي وفر عنهـا

وانودين ، ثم اعاده اليها عبد الملك ابن المنصور على قطيعة يؤديها له ، ثم استقل بها أول سنة تسعين مقيما للدعوة الاموية ورجع المعز بن زيري بولاية المغرب عن المظفر ابن المنصور ، مستثنيا عليه ولاية سجلماسة ، ولما استفحل امر وانودين استضاف اليه بعض اعمال المغرب الى أن مات فقام بالامر ابنه مسعود ، وبقي حتى جاء عبد الله بن ياسين فقتله سنة 445 وملك سجلماسة بسنة بعدها ، فانقرضت دولة بني خزرون منها ، وبعد المرابطين صارت الى الموحدين ثم المرينيين .

وفى الصفحة 168 وما بعدها تعرض لما اشتملت عليه مملكة المغرب الاقصى ، فذكر آسفي ، وقال انها واقعة فى الاقليم الثالث ، ونقل عن ابن سعيد انها حيث الطول سبع درج والعرض ثلاثون ، وهي كما فى تقويم البلدان من عمل دكالة ، كورة عظيمة من إعمال مراكش ، قال ابن سعيد ، على جون من البحر داخل فى البر ، فى مستوى من الارض ، وهي فرضة مراكش ، بينهما أربعة أيام ، وأرضها كثيرة الحجر ، وعن الشيخ عبد الواحد ( المراكشي ) انها تشبه حماة ودونها فى القدر ، ولكن ليس لها نهر يجري .

ومن هذه المملكة سلا ، وهي واقعة فى آخر الاقليم الثالث ، قال ابن سعيد حيث الطول سبع درج وعشر دقائق ، والعرض ثلاث وثلاثون دقيقة، مدينة قديمة فى غربيها المحيط ، وفى جنوبيها نهر يصب فيه ، وقد بنى عبد المؤمن امامها من الشط الجنوبي على النهر والبحر قصرا عظيما ، وبنى خاصته حول المنازل فصارت مدينة سماها المهدية ، ولسلا معاملة كبيرة تسمى تامسنا ، كثيرة الزرع والمرعى والمدر .

ومنها لمطة وهي واقعة فى آخر الاقليم الثاني ، حيث الطول سبع درج وثلاثون دقيقة ، والعرض سبع وعشرون ، على ثلاث مراحل من المحيط ولها نهر ينزل من جبل فى شرقيها يجري على جنوبيها غربا الى الشمال فيصب فى المحيط .

ومنها السوس ، فى الاقليم الثاني ، قال ابن سعيد حيث الطول ثمان درج والعرض ست وعشرون دقيقة ، وهي مدينة على طرف من البر داخل فى البحر اربعين ميلا ، وفى جانبها الشمالي نهر ياتي من جبل لمطة .

ومنها قصر عبد الكريم ، في اوائل الاقليم الرابع ، قال ابن سعيد ، حيث الطول ثمان درج وثلاثون دقيقة والعرض اربع وثلاثون وأربعون دقيقة، وهي على نهر كبير تصعد فيه المراكب من المحيط ، وكانت قاعدة تلـــك الناحية مدينة البصرة ، فلما غمرت مدينة القصر صارت القاعدة .

ومنها طنجة من اقاصي المغرب ، واقعة في الاقليم الرابع ، قال ابن ابن سعيد ، حيث الطول ثمان درج واحدى وثلاثون دقيقة والعرض خمس وثلاثون دقيقة ، وهي على الزقاق ، مدينة ازلية ، استحدث اهلها مدينة على ميل منها بظهر جبل ليمتنعوا بها والماء ينساق اليها في قني ، وكانت قاعدة تلك الجهات قبل الاسلام الى حين فتح الاندلس ، واهلها مشهورون بقلة العقل وضعف الرأي ، ومنها أبو الحسن الصنهاجي الطنجي ، ترجم له في قلائد العقيان ، واثنى عليه وانشد له :

وقد تحمي الدروع من العوالـــي ولا تحمي من الحدق الــــدروع

منها أبو عبد الله الحضرمي القائـــل :

وضنوا بتوديع وجادوا بتركـــه ورب دواء مات منـــه عليــــل

ومنها مدينة درعة واقعة في الاقليم الثاني طولها احدى عشرة درجة وست دقائق وعرضها خمس وعشرون وعشر دقائق ، ( وعن الادريسي ) في نزهة المشتاق أنها قرى متصلة وعمارات متقاربة ، وليست بمدينـــة يحوط بها سور ولا حفير ، ولها نهر مشهور في غربيها ينزل من ربوة حمراء عند جبل درن ، وتنبت عليه الحناء ، ويغوص ما يفضل منه بعد السقي في صحاري تلك البلاد .

ومنها اغمات ، واقعة في الاقليم الثالث طولها احدى عشرة درجـــة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة وهي مدينة قديمة في الجنوب بميلة الى الشرق عن مراكش في مكان افيح طيب التربة كثير النبات والعشب والمياه تخترقه ، قال ابن سعيد : وهي التي كانــت قاعدة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قبل بناء مراكش ، قال الادريسي:

وحولها جنات محدقة، وبساتين واشجار ملتفة ، وهواؤها صحيح،وفيها نهر ليس بالكبير ، يشق المدينة ياتيها من جنوبيها ويخرج من شماليها ، وربما جمد فى الشتاء حتى يجتاز عليه الاطفال .

ومنها تادلا ، عن الشيخ عبد الواحد انها بفتح المثناة من فوق ثم الف ودال مهملة مكسورة ولام وألف ، ثم قال : وفى خط ابن سعيد تادله فى آخرها هاء ، وهي مدينة بالمغرب الاقصى فى جهة الجنوب فى الاقليم الثالث ، قال ابن سعيد حيث الطول اثنتا عشرة درجة والعرض ثلاثون ، قال : وهي مدينة بين جبال صنهاجة ، ويقال هي قاعدة صنهاجة ، وغربيها جبل درن ممتد الى البحر المحيط ، وهي بين مراكش وبين اعمال فاس ، ولها عمل جليل ، واهلها بربر يعرفون بجراوة .

ومنها أزمور قال الشيخ شعيب ، بفتح الهمزة والزاي المعجبة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة فى الآخر ، وهي على ميلين من البحر ، اكثر سكانها صنهاجة .

ومنها المزمة ، وهي فرضة ببر العدوة تقابل المنكب من الاندلس ، فى الشرق عن سبتة بينهما مائتا ميل .

ومنها باديس ، فرضة من غمارة ، فى الجنوب والشرق عن سبتة ، بينهما نحو مائة ميل ، وهي حيث الطول عشر درج وثلاثون دقيقة والعرض اربع وثلاثون وخمس وعشرون دقيقة .

ومنها أودغست ، قال الشيخ عبد الواحد بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة والغين المعجمة وسكون السين المهملة وآخرها تاء مثناة فوق ، فى الاقليم الثاني ، حيث الطول ثمان درج وثمان دقائق والعرض ست وعشرون درجة ، وهي فى براري سودان المغرب ، جنوبي سجلماسة ، بينهما ست واربعون مرحلة ، والسفن تصل اليها فى البحر المحيط ، وسكانها اخلاط من البربر المسلمين ، والرياسة لصنهاجة .

وفى الصفحة 173 وما بعدها يتعرض لجبال هذه المملكة ، فيذكر منها درن الذي قال فيه ابن سعيد ، انه جبل شاهق مشهور لا يزال عليه الثلج ، أوله عند البحر المحيط وآخره على ثلاث مراحل من الاسكندرية ، ويسمى طرفه هنا براس اوثان ، وفى غربيه بلاد تينملك من قبائل البربر، وشرقيها بلاد هنتاتة ، وشرقيها بلاد هشكورة ، وشرقيها بلاد المصامدة .

ومنها جبل جزولة ، قال ابن سعيد ، وابتداؤه من المحيط ، ويمتد شرقا الى حيث الطول اثنتا عشرة درجة ، وموقعه بين الاقليم الثاني والثالث ، وبه مدينة اسمها تاعجست .

ومنها جبل غمارة ، وهو ببر العدوة فيه من الامم ما لا يحصيه الا الله وهو ركن على البحر ، فان الزقاق اذا جاوز سبتة الى الشرق انعطف جنوبا الى جبل غمارة ، وهناك مدينة باديس المذكورة .

ومنها جبل مديونة ، شرقي مدينة فاس ، يمتد الى الجنوب حتى يتصل بجبل درن ، ومديونة قبيلة واطنون به .

ومنها جبل يسر ، وهو شرقي مديونة ، ينبع منه نهر يسر المذكور ؟

ومنها جبل ونشريس ، وهو متصل بجبل يسر من شرقيه ، ومنه ينبع نهر شلف ، قال ابن سعيد ، نهر كبير يزيد عند نقص الانهار كالنيل.

وفى الصفحة 174 وما بعدها يتعرض لانهارها ، فيذكر نهر السوس الذي ياتي من الجنوب والشرق من جبل يعرف بجبل لمطة ، ويجري الى الشمال مارا بمدينة السوس شمالا حتى يصب فى المحيط .

ومنها نهر سجلماسة ، نهر منبعه من جنوبي سجلماسة ، ويمر من شرقيها ، حتى يصب فى نهر ملوية .

ومنها نهر ملوية ، عن ابن سعيد ، انه نهر كبير ، يصب فيه نهر سجلماسة ، فيصيران نهرا واحدا ، يصب فى بحر الروم شرقي سبتة

ومنها نهر فاس ، يشق المدينة ، ومخرجه على نصف يوم منها ، يجري فى مروج وأزاهر حتى يدخلها .

وفى الصفحة 175 وما بعدها ، يتعرض لزروعها وحبوبها وفواكهها ورياحينها ومواشيها ومعاملاتها وصفات أهلها ، فمن حبوبهم ذكر القمح والشعير والفول والحمص والعدس والدخن والسلت ثم الارز ، وهو قليل، واغلبه يجلب اليها من بلاد الفرنج ، ولا نهمة لهم فى أكله ، وبها السمسم على قلة أيضا ، ولا يعصر منه بالمغرب الشيرج ، لاستغنائهم عنه بالزيت، وانما يعمل فى الامور الطبية ، ويعملون الحلوى بالعسل والزيت ، ومن فواكهها التمر والعنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرى ، وتسمى عندهم الانجاص كما بدمشق ، والمشمش والبرقوق والخوخ والقراصيا والتوت ، على قلته ، والجوز واللوز والزيتون ، ولا يوجد الفزدق والبندق الا مجلوبا ، وبها الاترج والليمون والليم والزنبق والنارنج والبطيخ الاصفر والاخضر ، واسمه عندهم الدلاح ، كما فى سائر بلاد المغرب على قلة ، وبها الخيار والقثاء واللفت والباذنجان والقرع والجزر واللوبيا والكرنب والشمار والصعتر وسائر البقول ، والموز موجود فى بعض الجهات نادرا ، والقلقاس لا يوكل عندهم ويزرع للتفرج على عروقه ، وبها قصب السكر وبسلا كثير ، ويعصر ثم يعمل منه القند ، ومن القند السكر على انواع ، لا سيما بمراكش فان بها اربعين معصرة ، ويساوي حمل حمار القصب درهما ، ويعمل منه المكرر الفائق ، ولا يهتمون به ، بل بالعسل ، ولا يستعمله الا الغرباء ومن رياحينها الورد والبنفسج والياسمين والآس والنرجس والبهار والسوسن وغير ذلك .

ومن مواشيها الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم ، ولا وجود للجاموس عندهم ، وأما الطير فمنه الاوز والحمام والدجاج والكركي واسمه عندهم الفرنوق ، وهو كثير ، ويصطاده الملوك كما بمصر والشام ،

---

توفي ابن سعيد سنة 673 وولد سنة 610 .

ومن وحوشها الحمر الوحشية والبقر والنعام والغزال والمها وغير ذلك . ويتعاملون بمثاقيل الذهب والدراهم الكبيرة والصغيرة ، كما نقل عن السلالجي ، وعند الاطلاق يراد الصغير ، وهو نصف الكبير فى مراكش وما جاورها ، فيراد الكبير ، والمثقال يساوي منه ستين .

ورطلها يساوي ست عشرة أوقية ، كل أوقية تزن احدا وعشرين درهما ، وأكثر كيلها الوسق ويسمى الصحفة ، وهو ستون صاعا نبويا ، وسعر كل وسق من القمح اربعون درهما صغيرا ، كما نقل عن السلالجي ، والشعير دون ذلك ، ورطل اللحم بدرهم صغير ، والدجاج بثلاثة للطير .

وفى صفات أهلها نقل عن ابن سعيد ، ان الاقليم الثالث هو صاحب سفك الدماء ، والحسد والحقد والغل وما يتبع ذلك ، وللمغرب الاقصى من ذلك الحظ الوافر ، لا سيما في جهة السوس وجبال درن ، فكم قتل على كلمة ، وهم بالقتل يفتخرون ، والغالب على أهل المغرب التنافس المفرط والمحاققة وقلة التغاضي والتهور والمفاتنة ، واما البخل، فانما هو فى اراذلهم ، وفى كثير من الاغنياء السماحة المفرطة والمفاخرة باطعام الطعام والاعتناء بالمفضول والفاضل .

وفي الصفحة 179 وما بعدها تعرض لملوكها فذكر منهم من حكم البلاد قبل الاسلام من بربر وروم وكيتم ؟ وأن هؤلاء لما افتتحوا قرطجنة وقعت بينهم وبين البربر فتن انتهت بالصلح ، على ان البسائط للروم والجبال والصحاري للبربر ، ثم زاحم الفرنج الروم فلما جاء الاسلام كان الفرنج مستولين عليها وملكهم آنذاك جرجيس وكان ملكه متصلا من طرابلس الى المحيط ، وكرسية بمدينة سبيطلة .

وبعد الفتح كان كرسي المملكة بافريقية ، وكان ولاة المغرب تابعين لنواب الخلفاء النازلين بالقيروان الى أن كانت خلافة هارون حين استقل الادارسة بالمغرب ، وذلكم بفرار المولى ادريس اليه واحتلاله بمدينة وليلي التي اجتمع اليه فيها قبائل البربر ثم افتتح أكثر البلاد ومات سنة 175 ، فاقاموا الدعوة لابنه ادريس ، وكان ابوه قد ترك امه حاملا به ، فكفلوه ثم بايعوه سنة ثمان وثمانين فافتتح جميع المغرب ، ولما ضاقت بعسكره وليلي اختط مدينة فاس سنة اثنتين وتسعين وانتقل اليها واقتطع دعوة

العباسيين ومات سنة 213 وقام بالامر ابنه محمد ومات سنة 221 ، وكان قد استخلف ابنه ( المعروف بحيدرة ) عليشا ( كذا فلعله تصحيف لعلي ) ومات سنة 234 بعد ما عهد لاخيه يحيى الذي مات بعد قيامه بالامر ( اواخر العقد الرابع وفى ايامه بنيت القرويين وتنبا مؤذن بنواحي تلمسان) وولي مكانه ابنه يحيى ثم مات ( غما على فضيحة بالملاح ) فقام بالامر يحيى ابن ادريس بن عمر بن ادريس ، وملك جميع المغرب ، وبقي حتى وافاه جيوش عبيد الله فغلبوه وخلع نفسه وبايع المهدي سنة 305 ثم استقر عاملا للمهدي على فاس ونواحيها .

وفى الصفحة 182 تعرض للطبقة الرابعة من ملوكها ، ( وكانت الاولى منهم قبل الاسلام والثانية نواب الخلفاء والثالثة الادارسة ) وهم بنو العافية المكناسيون ، وكانت قبائلهم لاول الفتح بتازا .

وقد ذكر ان مكناسة كانت فى اواسط المغرب الاقصى ترجع فى رئاستها الى بني ابي باسل بن ابي الضحاك ، وفى المائة الثالثة ، كانت الرئاسة لمصالة بن حبوس بن منازل بن ابي الضحاك بن يزول بن تافرسين بن فراديس بن ونيف بن مكناس ، وموسى بن ابي العافية ابن باسل بن ابي الضحاك ، فلما استولى عبيد الله على المغرب ، صار مصالة من قواده ، فولاه تاهرت والمغرب الاوسط ، وفى سنة 305 زحف على المغرب الاقصى واستولى على فاس ثم على سجلماسة واستنزل يحيى بن ادريس الى طاعة المهدي ، وأبقاه اميرا كما تقدم ، ثم عقد لابن عمه موسى امير مكناسة على سائر ضواحي المغرب ، مضافة الى عمله من قبل : تسول وتازا وما معهما ، وقفل الى القيروان .

فقام موسى بامر المغرب ، وعاود مصالة غزو المغرب سنة تسع ، فاغراه موسى بيحيى بن ادريس ، فقبض عليه وأخذ ماله وطرده فلحق ببني عمه بالبصرة والريف ، وولى مصالة مكانه ريحانا الكتامي على فاس وقفل الى القيروان فمات ( سنة 332 ) وفى سنة 313 ثار الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس الملقب بالحجام ودخل فاسا وقتل ريحانا ، واجتمع عليه الناس فخرج لقتال ابن ابي العافية فكانت الغلبة عليه ورجع مهزوما الى فاس فغدر به عامله على عدوة القرويين ، حامد بن حمدان الهمداني وقبض

عليه ، وامكن ابن ابي العافية من البلد ، وزحف الى عــدوة الاندلسيين فامتلكها وقتل عاملها ، وولى اخاه محمدا مكانه ، فاستولـى المكناســي واجلى الادارسة من المغرب واستخلف عليه ابنه مدين وانزلــه عــدوة القرويين ، واستعمل على عدوة الاندلس طوال بن ابي زيد ؟ وعــزل محمد ابن ثعلبة ؟ ونهض الى تلمسان سنة 319 فغلب عليها الحسن بن ابي العيش ابن عيسى بن ادريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله ، ورجع بعد الفتح الى فاس فخرج عن طاعة العبيديين ، وخطب للناصر ، فبعث المهــدي قائده حميد المكناسي ابن اخي مصالة الى فاس ، ففر عنها مدين الى ابيه ودخلها حميد ، فاستعمل عليها حامد بن حمدان ، وعاد الى افريقية وقد دوخ المغــــرب .

وبعد مهلك المهدي انتقض المغرب على العبيديين ، وثار احمــد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي على حامد فقتله وبعث براســه الى موسى ، فبعث هذا به الى الناصر ، واستولى على المغرب ، ثم زحــف ميسور الخصي قائد ابي القاسم ابن المهدي الى فاس سنة 323 وحاصرها فاحجم عنه موسى ، واستنزل ميسور احمد بن بكر ، وقبض عليه ووجهه الى المهدية ، ثم خرج اهل فاس عن طاعة ميسور وقدموا على انفسهم حسن ابن القاسم اللواتي ، فحاصرهم ميسور فعادوا الى طاعته ، مشترطيــن الاتاوة على انفسهم ، فقبل منهم واقر حسن بن القاســم على ولايتــه ، وارتحل لقتال موسى ، فوقعت بينهما حروب كانت الغلبة فيها لميسور ، فاجلى موسى الى الصحراء ، وقفل الى القيروان سنة 324 فعاد موسى من الصحراء الى اعماله ، وزحف الى تلمسان ، ففر عنها ابو العيش ؟ ولحق بنكور ، واستفحل امر موسى واتصل عمله بعمل محمد بن خــزر ملــك مغراوة وصاحب المغرب الاوسط ، وبثوا الدعوة الامويــة في اعمالهما ، وبعث ابنه مدين الى منازلة فاس وخلال حصارها هلك موسى سنة 327 ، فقام مقامه ابنه مدين وعقد له الناصر على اعماله ، ثم قسم اعماله بينــه وبين اخويه البوري وابي منقذ فاجاز البوري الى الناصر سنة 335 فعقد له ثم هلك سنة 345 وهو محاصر لاخيه مدين بفاس ، فعقد الناصر لابنه منصور ، ثم توفي مدين فعقد الناصر لاخيه ابي منقذ على عمله ، ثم تغلبت مغراوة على فاس واستفحل امرهم بالمغرب ، فازاحوا مكناسة عن ضواحيه

واجاز اسماعيل بن البوري الى الاندلس كما اجاز محمد بن عبد الله بن مدين، فنزلا بها الى ان اجازوا مع واضح ايام ابن ابي عامر عند خروج زيري بن عطية عن طاعته سنة 386 .

وفي الصفحة 185 وما بعدها تعرض لبني زيري ، فذكر نسبه من بطون زناتة ، وانه كان اولا أمير بني خزر انتهت اليه رئاستهم ، وانه لما تغلب بليكين الصنهاجي على المغرب الاوسط سنة 369 فاجلى مغراوة عنه لحق هؤلاء ومن بقي من بني خزر بالمغرب الاقصى وامراؤهم محمد بن الخير ، ومقاتل وزيري ابنا عطية ، وخزرون بن فلفول ، فصاروا الى سبتة، وأميرهم المنصور ابن ابي عامر .

وكان العزيز بن نزار العبيدي قد وجه من مصر الحسن بن كنون لاسترجاع ملكه بالمغرب ، فبعث المنصور لحربه عسكلاجة ابن ابي عامر سنة 375 فانحاش اليه زيري في مغراوة فضيقوا عليه حتى اذعن للطاعة، وبعد رجوع عسكلاجة ، عقد المنصور للوزير حسن بن احمد السلمي على المغرب الاقصى وانفذه سنة 376 ، فسار الحسن حتى نزل بفاس وضبط المغرب ، ومات مقاتل سنة 378 ، فاستقل زيري بالرياسة ، وفي سنة 381 قتل الحسن السلمي في بعض الحروب ، فعقد المنصور بعده لزيري ابن عطية ، وأمره بضبط المغرب ، فاستفحل امره وامتلك تلمسان من يد ابي البهار الصنهاجي ، ثم اختط مدينة وجدة سنة 384 وجعلها معسكرا ، ثم فسد ما بينه وبين المنصور ، فعقد هذا لمولاه واضح على المغرب وحربه ، ثم اتبعه ابنه المظفر ، فدارت الحرب على زيري وجرح، ففر الى فاس وامتنع عليه اهلها ، فلحق بالصحراء وتولى المظفر المغرب ، وعزم زيري على حرب صنهاجة بالمغرب الاوسط ، ففتح تاهرت وتلمسان واعمالهما ، واقام الدعوة لهشام وحاجبه المنصور وتوفي 391 .

ثم تولى ابنه المعز فسار على الدعوة لهشام وحاجبه ، ومات المنصور، وقام مقامه ابنه المظفر ، فبعث المعز اليه راغبا في عمل فاس والمغرب فأجابه الى ذلك ، خلا سجلماسة التي كانت بيد خزرون وبعد ذلك توفي المعز سنة 417 ، فتولى ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية ، ونازعه تميم

ابن زيري اليفرني سنة 424 ، واستقل بملك المغرب ، حتى توفي سنة 431 ، فتولى ابنه دوناس ابو العطاف ، واستولى على فاس وسائر اعمال ابيه ، واستقام امره ، ومات سنة 451 ، فولي ابنه ابو الفتوح ، ونازعه اخوه عجيسة فاستوالى على عدوة القرويين،وابتنى الفتوح بعدوةالاندلسيين الباب المنسوب اليه ، واخوه بعدوة القرويين الباب المنسوب اليه كذلك، وحذفت العين منه. ثم ظفر الفتوح بأخيه فقتله سنة 453،وداهم المرابطون المغرب ، ففر الفتوح وترك فاسا ، وزحف صاحب القلعة بليكين الى المغرب سنة 454 فدخل فاسا ، ثم رجع الى عمله ، وولى على المغرب معتصر بن حماد بن معتصر بن المعز بن زيري،وزحف يوسف بن تاشفين الى فاس فامتلكها سنة 455 ، وخلف عليها عامله وارتحل الى غمارة ، فخالفه معتصر وامتلك فاسا وقتل عاملها ، فعاد اليها يوسف وخرج معتصر لمحاربته ، فكانت الدائرة عليه وقتل سنة 460 ، فبايع أهل فاس ابنه تميما ، فكانت أيامه ايام شدة واضطراب ، ولما فرغ يوسف من غمارة سنة 462 قصد فاسا فحاصرها وافتتحها عنوة وانقرض الحكم المغراوي .

وفي الصفحة 188 وما بعدها تخلص الى دولة المرابطين ، فذكر ان صنهاجة كانت قبل الاسلام تستوطن القفار وراء الصحراء ، على دين المجوس متخذين اللثام شعارا ، وكانت الرياسة للمتونة ، ولم يزالوا كذلك حتى فتحت الاندلس ، فاستمر ملكهم ايام عبد الرحمن ، ونقل عن ابن ابي زرع ، ان اول من ملك الصحراء من لمتونة (( يتلوثان )) وكان يركب في الف نجيب ، وتوفي سنة 222 ، وقام بعده يلتان وتوفي سنة 287 ثم ابنه تميم وقتلته صنهاجة سنة 306 ثم افترق امرهم مائة وعشرين سنة الى ان قام ابو عبد الله بن تيفاوت اللمتوني المعروف بتادشت ،، ثم صهره يحيى بن ابراهيم ، فعاد من حجه سنة اربعين واربع مائة وصحبته ابن ياسين ، فلما مات اطرحوا ابن ياسين الجزولي ، فاعتزلهم واجتمع عليه رجال من لمتونة ، حاربهم بهم وسماهم المرابطين ، وجعل امر حربهم الى الامير يحيى بن عمر اللمتوني فافتتحوا درعة وسجلماسة ومات يحيى سنة 447 ، فولي مكانه اخوه ابو بكر وافتتحوا بلاد السودان سنة 448 ثم اغمات سنة 449 ثم بلاد المصامدة وجبال درن سنة 450،وفي هذه السنةاستشهد ابن ياسين ، واستمر ابو بكر ، وافتتح مدينة لواتة سنة 452 ثم ارتحل

الى الصحراء لقتال السودان تاركا ابن عمه يوسف بن تاشفين بن ابراهيم ابن واركوت ، فاختط مراكش سنة 454 ثم تمكن من جبال زناتة وافتتح فاسا ، صلحا ثم عنوة ، ثم تلمسان من المغرب الاوسط الذي استولى عليه، ثم صار الى الاندلس ، وتوفي على رأس المائة الخامسة ، فقام بالامر ابنه علي ، وبعد أربع عشرة سنة ظهر محمد ابن تومرت ، وتوفي علي سنة 537 فتولى ابنه تاشفين ، فحاربه الموحدون وهو بتلمسان ففر عنها الى وهران ففقد سنة 541 ثم بويع ابنه ابراهيم بمراكش ثم خلعوه وولوا اسحاق بن علي ، فقصده الموحدون بمراكش وقتلوه وهو يحاربهم بخاصته ، فجاز عبد المومن الى الاندلس وامتلكه سنة 551 وقضى على المرابطين الذين فر امراؤهم في كل وجه .

وفى الصفحة 191 وما بعدها تعرض للموحدين ، فذكر ان ابن تومرت كان متضلعا في العلوم ، وانه لاقى في حجه علماء ونظارا كالغزالي ، واخذ بمذهب الاشعرية ، على حين كان اهله على الظاهرية في منع التاويل، فاجتمع اليه المصامدة ، فنهاهم عن الجمود على الظاهر وسماهم الموحدين، ودعاهم لقتال المجسمين سنة 515 ولما كملت بيعته سموه بالمهدي ، وكان يلقب بالامام ، وتوفي سنة 522 وهم يقاتلون المرابطين فقام بالامر عبد المومن ،الذي صرف همته الى بجاية بعد اوبته من الاندلس ، فافتتحها وافريقية سنة 541 ، وعاد الى الغرب سنة 556 ، وفي سنة 558 توفي بسلا ، فبويع ابنه يوسف ، الذي اشتغل باصلاح المملكة ، وجاز الى الاندلس مجاهدا ، فقتل من اصابته بسهم سنة 580 فتلاه ابنه يعقوب حيث بويع باشبيلية ، وكانت له وقائع في العدو ، وتوفي اثر مرضه بالاندلس سنة 595 ، فبويع ابنه محمد ولي عهده ، ورجع الى المغرب وفي ايامه ثار ابن غانية بافريقية ، ثم ولى محمد بن ابي حفص على افريقية ، فاستقر قدم بنيه بها الى الان ( كما يقول المؤلف ) واجاز الى الاندلس فكانت محنة المسلمين به سنة 609 فعاد الى مراكش حيث توفي بها بعد سنة ، فبويع ابنه يوسف سنة 611 ، وتاخر محمد بن ابي حفص عن بيعته لصغره ، وتوفي سنة 626 ، فبويع عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن فثار عليه ابن أخيه ، أبو محمد عبد الله الوالي بمرسية،وتلقب بالعادل،وجاء الى مراكش فدخلها وبقي بها حتى قتل سنة 624 ، وكان اخوه ادريس

باشبيلية ، فدعا لنفسه وبويع له فقصد مراكش وهلك بوادي ام الربيع سنة 630 فبويع ابنه المامون ( بل عبد الواحد ) ، ودخل مراكش ، ولقب بالرشيد ، وتوفي سنة 640 فبويع أخوه علي ولقب بالمعتضد ، ثم سار الى تلمسان حيث كان مهلكه سنة 646 ثم اجتمع الموحدون على بيعة ابي حفص عمر بن اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ، وهو المرتضى فجاء من سلا الى مراكش ، وفى ايامه استولى ابو يحيى بن عبد الحق على فاس سنة 647 واستبد العزفي بسبتة ، ثم انتقض على المرتضى قائد حربه ابو العلاء ( ابو دبوس ) بن محمد بن ابي حفص بن عبد المؤمن ، فغلبه على مراكش ، ففر الى ازمور حيث قبض عليه وقتل ، فتلقب ابو دبوس بالواثق بالله ، والمعتمد على الله .

ثم جمع يعقوب بن عبد الحق ، وقصد مراكش ، فخرج اليه ابو دبوس ، فكانت الهزيمة على ابي دبوس ، ففر هاربا ، فادرك وقتل ، ودخل يعقوب مراكش وملكها سنة 668 ، وفر مشيخة الموحدين »»» بعد ان كانوا بايعوا عبد الواحد بن ابي دبوس ، ولقبوه المعتصم ، فاقام خمسة ايام ، وخرج فى جملتهم ، وانقرض امر بني عبد المؤمن ، ولم يبق للموحدين ملك الا فى افريقية ، لبني ابي حفص .

ثم تخلص لملوك بني عبد الحق ، فى الطبقة الثامنة ، فذكر نسب عبد الحق بانه ابن محيو بن ابي بكر بن حمامة بن محمد بن ورزيز بن فكوس ابن كوماط بن مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن بدر بن نجفت بن عبد الله بن ورتبيص بن المعز بن ابراهيم بن رجيك بن واشين بن يصلتين بن مشد بن آكيا بن ورسيك بن اديدت بن جانا ، وهو زناتة .

كانت منازل بني مرين ما بين فكيك الى صا وملوية ، وكانت الرياسة فيهم لمحمد بن ورزيز بن فكوس ، ولما هلك قام بامره »»» ابنه حمامة »» ثم اخوه عسكر »» فابنه المخضب »»» الى ان قتل فى حرب الموحدين سنة 540 ، وقام بامرهم ابو بكر ابن عمه حمامة ، فقام من بعده ابنه محيو، حتى اصابته جراحة »» وهو فى عداد المنصور بن ( يوسف بن ) عبد المؤمن هلك منها »» سنة 591 ، وقام ابنه عبد الحق ، وكان اكبر اولاده ، فاحسن

السير ، الى ان كانت ايام المنتصر ، فثارت الفتنة بينه وبين بني مرين ، هلك في بعضها ، ونصب بنو مرين ، ابنه ابا سعيد عثمان ،،، ادغـــال ،، ومعناه بلغتهم الاعور ،،، وضرب الاتاوة عليهم وتابعه اكثر القبائل ، وفرض على امصار المغرب مثل فاس وتازا وغيرهما ضريبة ،، كل سنة ، الى ان قتله علج من علوجه سنة 637 ،،، وقام بعده اخوه محمد ، فجـــرى على سنن أخيه ، الى ان كانت ايام السعيد بن المأمون ،،، فجهز لقتال بني مرين سنة 642 ،،، فكانت الهزيمة على بني مرين ، وقتل محمد ،،، وقام ابنـــه ابو يحيى زكريا ،،، ودارت الحرب بينهم وبين الموحدين ، الى ان مـــات السعيد ،،، وانتقل الامر الى ابنه عبد الله ، فضعفت دولة بني عبد المؤمن، واستولى ابو يحيى على اكثر بلاد المغرب ، وقصد فاس ،، ودعاهـــم الى الدولة الحفصية ،، فأجابوه ، وبايعوا خارج باب الفتوح ، ودخل الى قصبة فاس لشهرين من موت السعيد سنة 646 وبايعه اهل تازا واهل سلا ورباط الفتح ،، وأقام الدعوة الحفصية ، واستبد بنو مرين بملك المغرب الاقصى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الاوسط .

وملك سجلماسة سنة 653 ،، حتى هلك بفاس سنة 656 ودفـــن بباب الفتوح ، وتصدى للقيام ابنه عمر ومال اهل الحل والعقد الى عمه ابي يوسف يعقوب ،، ثم وقع الصلح بينهما ، على ان ترك يعقوب الامـــر لابن اخيه ، ويكون له تازا وبلادها ، ثم وقع الخلف فهزم عمر ونزل لعمـــه عن الامر ودخل يعقوب فاس مملكا ، وهلك عمر بعد سنة ، واستقـــام امـــر يعقوب واستولى على الامصار ، مفتتحا باستنقاذ سلا من ايدي النصارى ، ثم قصد مراكش وتحارب مع المرتضي فهزم هذا وقتل ، وبايع الموحدون اخاه اسحاق ثم قبض عليه سنة 664 فقتل وانقرض امر بني عبد المومن.

ثم كان وصول يعقوب الى مراكش سنة 668 فدخلها ورجع عنها الى فاس مستخلفا عليها في شوال من السنة ، وشرع في بناء المدينة التي استجدها ملاصقة لفاس ثالث شوال سنة 674 ونزل فيها بحاشيته ، وغزا في خلال ذلك النصارى بالاندلس اربع مرات حتى اذعـــن له شانجـــة بن ادفونش وساله عقد السلم فعقد له على شروط ، ومات سنة 685 وبويع ابنه يوسف ، فجرى على سنن ابيه ،، واجاز الى الاندلس وجدد السلم ،

وغزا تلمسان مرات ، وطعنه خصى فمات سنة 706 ، فبويع ابنه ابو ثابت عامر ، واختلفت عليه النواحي ، ثم استقام آمره ›› وانتقض عليه عثمان بن ابي العلاء بنواحي طنجة ، فخرج لقتاله ومرض فى طنجة ومات سنة 707، وبويع اخوه ابو الربيع ، فاحسن السيرة ›› وبقي حتى مات بمدينـة تازآ سنة 710 ، ودفن بصحن جامعها ، وبويع اخوه ابو سعيد عثمان ، فلمـا آستقر امره سار لتلمسان سنة 714 فانتزعها من موسى بن عثمـان بن يغمراسن وانتقض عليه محمد بن يحيى العزفي صاحب سبتة ، فسار اليه سنة 728 ، فاذعن للطاعة ، واحضر عبد المهيمن الخضرمي من سبتـة وولاه ديوان الانشاء والعلامة ، وقصد بطره وجوان ملك النصارى غرناطة، فاجاز البحر ولقي عساكر النصارى ، وقتل بطره وجوان فى المعركـة ، وتوفي سنة 731 ، وبويع ابنه ابو الحسن ، وهو الذي كان فى عصره المقر الشهابي بن فضل الله ، وسار الى تلمسان سنة 737 فملكها من ابن ابـي تاشفين وقتله بقصره ، وملك تونس من يد ابي يحيى الحفصي سنة 748 وآتصل ملكه ما بين برقة الى السوس الاقصى والبحر المحيـط ، ثـم استرجع الحفصيون تونس ›› وملك سجلماسة قاعدة بلاد الصحراء بالمغرب الاقصى ومات سنة 752 بجبل هنتاتة ، وقد بويع ابنه ابو عنان ، وكان بنو عبد الواد استعادوا تلمسان ، فارتجعها منهم سنة 753 ونزل له محمد بن ابي زكريا صاحب بجاية عنها ، وملك قسنطينة من الحفصيين ثـم تونس سنة 758 ، ورجع الى المغرب ، فارتجع الحفصيون تونس ، وتوفي سنة 759 ، وكان ابنه ابوزيان ولي عهده ، فعدل عنه الى اخيـه السعيـد ، واستولى عليه الحسن ابن عمر وزير ابيه ، واستقل بالامر دونه ، وتغلـب ابو حمو على تلمسان فانتزعها سنة 760 ، ثم خرج على السعيد عمه ابـو سالم ابراهيم ، وكان بالاندلس فجاء بالاساطيل ، واجتمع اليه العساكـر ووصل الى فاس ، وخلع الحسن سلطانه واسلمه آلى عمه وبايعه ، فدخل هذا فاس سنة 760 وقصد تلمسان ، فدخلها بالامان سنة 761 واقر عليها حفيدا من احفاد بني عبد الواد « ابا زيان » ورجع الى فاس فعاد ابو حمو الى تلمسان فملكها . وبنى ابو سالم ايوانا فخما بفاس ، وفوض امر القتال الى عمر بن عبد الله بن علي من ابناء وزرائهم ، فعمد الى ابي عمر تاشفين الموسوس ابن ابي الحسن فاجلسه على اريكة الملك سنة 762 ، وفر آبو سالم،فارسل عمر فى آثره من قبض عليه وآحتز راسه وآتى به الى فاس ،

وانكر اهل الدولة عمر ، فاعمل فكره فيمن يصلح للملك ، فوقع على ابي زيان محمد ابن الامير عبد الرحمن بن ابي الحسن ، وكان قد فزع الى ملك النصارى باشبيلية فاتى به وخلع ابا عمر وتلقى ابو زيان بطنجة وجيء به الى فاس سنة 763 فاقام بها وعمر مستبد عليه ، فثقل ذلك عليه وامر في الفتك به فعلم عمر وطمه في بئر مدعيا سقوطه بها ثملا ، واستدعى عبد العزيز بن ابي الحسن ، واجلسه على سرير الملك فبويع سنة 768 واستبد عليه ، فثقل عليه وتمكن من قتله واستقل السلطان وقصد تلمسان فملكها سنة 772 ، ثم عاد منها ومرض فمات سنة 774 ، فبويع ابنه سعيد طفلا، وقام بامره وزيره ابو بكر بن غازي واستبد عليه ، وعاد ابو حمو فاسترد تلمسان السنة ، وخرج عليه أبو العباس احمد بن ابي سالم ، وكان بالاندلس ، فأجاز واحتل فاسا سنة 776 بموالاة ابن الاحمر ، وتخلى عن مراكش لعبد الرحمن ، وكان بينهما صلح ينتقض احيانا ، وقصد تلمسان فامتلكها من ابي حمو ، وهدم اسوارها وطارد ابا حمو ، ولكن موسى ابن عمه ابي عنان ، خالفه الى فاس فملكها سنة 786 ، ولما جاء ابو العباس اليها فر عنها الى تازا ، ثم وجه الى موسى بالطاعة ، فارسل من اتى به وقيده وأرسله الى الاندلس ، وتوفي موسى لثلاث سنين من خلافته ، فبويع المنتصر ابن ابي العباس ، فخرج عليه الواثق بن ابي الفضل بن ابي الحسن ، واتى من الاندلس فاحتل فاسا وبويع سنة 788 ، وبعث المنتصر الى ابيه فاجاز الى سبتة وامتلكها سنة 789 ، ثم استنزله عنها ابن الاحمر، ثم ظهرت دعوته بمراكش ، فتوجه اليها ابنه وملكها ، وسار ابوه الى فاس فملكها سنة 789 ، وبعث بالواثق الى الاندلس ، ثم امر بقتله فقتل بطنجة، وكان ابو حمو قد مات فولي ابنه ابو تاشفين على تلمسان ، قائما بدعوة ابي العباس ، ثم مات وأقيم ابنه طفلا فيها ، ثم قتله عمه يوسف ، وجهز ابو العباس ابنه عثمان اليها فامتلكها ، وتوفي ابو العباس سنة 796 بتازا ، فاستدعوا عثمان وبايعوه ، ورجعوا به الى فاس ، واطلقوا ابا زيان بن حمو من اعتقاله وبعثوا به الى تلمسان ، وبقي عثمان في مملكته الى الآن ( كما يقول المؤلف ) وهو حفيد أبي سالم بن ابي الحسن بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق .

وفي الصفحة 203 وما بعدها تعرض لترتيب هذه المملكة ، فذكر في الجند انهم اشياخ كبار وصغار ، ولا يطلق اسم الامرة على احدهم وبعدهم

جند الاندلس وغيرهم والعلوج من الفرنج ، والوزراء والقضاة وارباب الوظائف ، على ما تقدم فى نطاق افريقية ، ويتعمم السلطان الاشياخ وعامة الجند بعمائم طوال ، قليلة العرض من كتان ، وفوقها احرامات يلفونها على اكتافهم ، ويتقلدون السيوف ، ويلبسون الخفاف (( الانمقة )) ويتخذون المناطق (( المضمات )) ولا يشدونها الا فى يوم الحرب او التمييز ، ويختص السلطان بلبس البرنس الابيض الرفيع ، لا يشاركه فيه آلا العلماء واهل الصلاح ، ولا حرج على غيرهم فى غير الابيض ، وزي القضاة والعلماء والكتاب وعامة الناس قريب من زي الجند ، ولكن العمائم خضر ، ولا يلبس احدهم الانمقة فى الحضر ، ولا يمنع فى السفر .

وللاشياخ الكبار الاقطاعات ، كل سنة ، عشرون الف مثقال من الذهب ، ويتحصل لهم من القمح والشعير والحبوب ، نحو عشرين وسق، ولكل اقطاع كل سنة (( احسان )) وهو حصان بسرجه ولجامه وسيف ورمح محليان و (( سبنية )) وهي بقجة قماش فيها ثوب ، يعبرون عن هذا الثوب المذهب بالزردخاناة ، وثوبان من الكتان ، واحرام وشاش ، وقصبتان من ملف ، وهو الجوخ ، ويزاد الاكابر على ذلك ، وينقص لمن دونهم ، وللاشياخ الصغار نصف ما للكبار ، مع الحصان المسرج الملجم والسيف والرمح والكسوة ، ومن عداهم فتختلف أعطياتهم ، وكذآ القضاة والكتاب .

ثم تعرض لجلوس السلطان كل يوم ، فذكر ان الاشياخ يدخلون مسلمين فتمد لهم السماطات ، بثرائد فى جفان حولها (( طيافير )) وهي المخافي ، فيها اطعمة ملونة ، مع الحلوى ، بعضها بالسكر ، ومعظمها بالعسل والزيت ، وربما ركب السلطان بعد الاطعام ، ويخرج الى فسيح فيقف على نشز ويتطارد بالخيل ، وتمثل الحرب لديه ، ثم يعود آلى قصره وتتفرق العسكر ، وتحضر العلماء والفضلاء لمحاضرته ، ويطعمون ، وتقرأ الرقاع ،، وفى جلوسه للمظالم ، قال ان من له ظلامة ، يصيح عند اجتياز السلطان (( لا اله الا الله انصرني نصرك الله )) فتندفع قصته لكاتب السر ثم تقرا علنيا ،، وفى شعاره ذكر ان علمه أبيض حرير مكتوب فيه بنسيج الذهب آى من القرءان ، ودونه اعلام اخرى مختلفة الالوان ، ويحمل بين

يديه سيف ورمح ودرقة ، كما تحمل (( الطبرزينات )) يحملها آكابر قـــواد العلوج والاندلسيين ، ومنها رماح يحملها خمسون رجلا ، ومنها الجنائب وتسير بالمقادات عندهم ، عليها سروج وركبها ذهب وهي مجللة بالحرير المرقوم ذهبا ، ومنها الطبول تدق خلف ساقته ، ومنها البوقات معهـــا ، وفي ركوبه لصلاة العيد ، فيخرج كل سوق ، بعد النـــداء بالمسيـــر ، مجتملين حاملين للسلاح ، ويبيت الناس تلك الليلة خارج البلد ، ومع كل سوق علمه ، فاذا ركب السلطان اصطفوا يمشون قدامه ، والعسكر يمنـــة وميسرة ، والعلوج خلفه ، والاعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفها ثـــم يطعمون . وفي خروجه للسفر ، ذكر انه ينزل بظاهر المدينة ، ثم يرتجل فيضرب طبل كبير قبيل الصبح اشعارا بالرحيل ، ويركب بعد الصلاة ، بعد قعود السلطان للناس وتدور عليه العبيـــد والوصفـــان ، ويجلـــس (( الطلبة )) حوله ، يرتلون ويحدثون ، ثم يتقدم وأمامه العلم وبين يديـــه الرجالة بالسلاح والخيل المجنوبة ، ويعبرون عن ثياب السروج بالبراقع، فاذا وضع السلطان رجله فى الركاب ، ضرب طبل كبير (( التريال )) ثـــم يسير بين رجاله ، ويسلم كل صف باعلى صوت (( سلام عليكم )) وتقـــرع الطبول وتنشر الاعلام الملونة خلف الوزير ، ولا يتقدم امـــام الابيض الا خواص علوجه ، ولا يسايره غير كبار الاشياخ ، واذا استدعى احدا ياتيه ماشيا ، وربما إكرمه بالركوب ، فاذا قرب المنزل تقدمت الزمالة ، وهـــم الفراشون ، فتضرب الاخبية المغلفة ويضرب للسلطان قبة كبيرة مـــن كتان ، امام تلك الاخبية التي تكون ما يشبه المدينة فى حوشها ، المعبر عنه بالشفقة ، وفى عودته تضرب البشائر سبعة أيام .

وفى مقدار عسكر المملكة ، نقل عن صاحب مسالك الابصار ، انـــه سال السلايجي ، عن عسكر ابي الحسن ، فقال انها قبل فتـــح تلمســـان 40 000 فارس ، وفى مكاتباته ، نقل عنه ، آنه اذا انتهى الكاتب وكتـــب التاريخ ، كتب السلطان (( وكتب فى التاريخ المؤرخ به )) وهو من (( عمر المريني )) وقلدوه بعد .

وفى هذه الصفحة 210 والتي بعدها ، تعرض للمملكة الخامسة من بلاد المغرب ، فنقل عن صاحب المسالك ، ان هناك فى الجنوب منـــه

ثلاثة ملوك من البربر بيضا ، وهم سلطان (( اهرير )) وسلطان (( دمونسة )) وسلطان (( تادمكة )) واكبرهم الاول ، زيهم زي المغاربة ، يلبسون ضيق الدراريع ، ولهم عمائم باحناك ، ويركبون الابل ، ولا خيل عندهم ، وليس لصاحب مالي ولا للمرينيين حكم عليهم ، وعيش أهل البر لحم ولبن ، وعن الشيخ عيسى الزواوي ان جبالهم عامرة كثيرة الفواكه ، الا ان صاحب مالي أكثر تحصيلا للاموال منهم لذهبه وسلعه ٠

وفى الصفحة 211 وما بعدها ، تعرض لجزيرة الاندلس ، كمملكة سادسة من مماليك بلاد المغرب ، فضبط آسماها والاصل فيه ، وموقعها من المغرب ، وان اسمها القديم (( افارية )) ثم (( أشبانية )) ثم (( الاندلس )) باسم الامة التي ملكتها (( الاندلش )) بالشين المعجمة ، ويقال لهم (( القندلش )) ، وعن تقويم البلدان ، انها على شكل مثلث ، ففي الركن الغربي الجنوبي قادس وفم بحر الزقاق ، وفى الشرقي طركونة وبرشلونة وبلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة ، وفى الشمال الى المحيط ، مدينة (( شنتياقوه )) ، ويمتد على الشمال جبل البرت الحاجز بين الاندلس والارض الكبيرة ، وفى الغرب يمتد ساحل بحر (( برديل )) على المحيط ، ونقل ابن سعيد عن الحجاري آن طول الاندلس من البرت الى لشبونة الف ميل وعرض وسطه من الزقاق الى المحيط عند طليطلة وجبل البرت 16 يوما ، وقيل ان طوله غربا وشرقا من اشبونة ، وهي فى غرب الاندلس الى اربونة شرقي الاندلس 60 يوما ، وقيل غير هذا ، ثم قال المؤلف : وطول البرت 40 ميلا ، وفيه ابواب فتحها الاوائل ، فصار للاندلس طريق بري الى الارض الكبيرة ، وفى وسط الاندلس جبل الشارة ، يقسم الاندلس نصفين ، نصف جنوبي ونصف شمالي ، ثم تعرض لذكر مدن الاندلس ، فبدا بالقاعدة الاولى (( غرناطة )) وهي فى الجنوبي بالاقليم الرابع، قال ابن سعيد : حيث الطول احدى عشرة درجة واربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون ، وثلاثون دقيقة ، وبينها وبين قرطبة نحو خمسة أيام ، وهي فى نهاية الحصانة وغاية النزاهة ، يقول ابن سعيد ، تشبه دمشق وتفضلها باشرافها على غوطتها ، وعن مسالك الابصار ان لها ثلاثة عشر بابا ، باب البيرة ، وباب الكحل ، وباب الرجاء ، وباب المرضى ، وباب المصرع ، وباب الرملة ، وباب الدباغين ، وباب الطوابين ، وباب

الفخارين ، وباب الخندق ، وباب الدفاف ، وباب البنود ، وباب الاسدر ، وحولها اربعة ارباض ، الفخارين ، والاجل والبيارين والرملة ، وجامعها تحف به دكاكين الشهود والعطارين ، ومساجدها ورباطاتها لا تكاد تحصى لكثرتها ، واصل انهارها ، نهران شنيل وحدره ، والاول ينحدر من جبل شكير بجنوبيها ، وينتهي بفحصها الى لوشة ، وشكير طود شامخ لا ينفك عنه الثلج ويؤثر برده فى غرناطة شتاء ، يقول فيه ابن صدرة :

احل لنا ترك الصلاة بارضكم     وشرب الحميا وهو شيء محرم
فرارا الى نار الجحيم لانها     ارق علينا من شكير وارحم
لئن كان ربي مدخلي فى جهنم     ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

واما حدره فينحدر من جبل بناحية وادي آش ، شرقي شكير ، فيدخلها على باب الدفاف شرقيها ، ويشق المدينة نصفين وتطحن به الارحاء ، وعليه خمس قناطر ، ابن رشيق والقاضي ، وحمام جاس ، والجديدة ، والفود ، وقد صارت قاعدة ملك الاسلام بالاندلس بيد بني الاحمر ، قال صاحب التعريف ، ومقر سلطانها القصبة الحمراء ، وسمى حمراء غرناطة ، قال فى تقويم البلدان ، ولم يبق للمسلمين بالاندلس غير غرناطة ، وما اضيف اليها مثل الجزيرة الخضراء والمرية ، قال فى المسالك: والمرية أول مراسي البلاد الاسلامية ، وقال فى التقويم : وكانت القاعدة قبل غرناطةحصنالبيرة،وقال فى المشترك : من هذه المملكة المرية ، وهي بين مملكتي مالقة ومرسية ، موقعها فى الاقليم الرابع ، وفى التقويم : ان القياس حيث الطول اربع عشرة درجة ، والعرض خمس وثلاثون ، واثنتان واربعون دقيقة ، وهي باب الشرق ومفتاح الرزق ، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال ، قال فى المسالك : وهي ثلاث مدن ، الاولى من جهة الغرب تعرف بالحوض الداخلي ، ويليها الى الشرق المدينة القديمة ، وتليها مصلى المرية ، ومنها شلوبين ، او اشلوبينية ، من حصون غرناطة البحرية ، ومنه ابو علي عمر بن محمد الشلوبيني ، امام نحاة المغرب ، وهو الاشقر بلغة الاندلس ، ومنها المنكب ، قريبة من شلوبين ، دون المرية، وبها الموز ، ولا يوجد الا بها هنالك ، وبها زبيب مشهور الاسم ، ومنها يحمل السكر الى البلاد · ومنها بلش ، تلى المنكب من جهة الغرب ، كثيرة التين والعنب والفواكه · قال ابو عبد الله بن السويد : ليس بالاندلس اكثر عنبا وتينا منها ·

ومنهـا مالقـة ، من جنـوب الاندلـس ، موقعهـا في الاقليـم الرابع ، وقياس ابن سعيد ، انها حيث الطول عشر درج وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون واربع وخمسون دقيقة ، وهي بين مملكتي اشبيلية وغرناطة ، وهي مختصة بعمل صنائع الجلد ، كالاغشية والحزم والمدورات، وبصنائع الحديد كالسكين والمقص ونحوهما ، وبها الفخار المذهب ، قال ابن السديد : وبها سوق ممتد لعمل الخوص من الاطباق ، وباعمالها الحرير الكثيـــر .

ومنها مربلة ، وهي مدينة صغيرة ، مما يلي مالقة من الغـرب على الساحل ، وبها الفواكه الكثيرة والسمك ، ومنها اشبونة غربي مربلة كثيرة الفاكهـــة .

ومنها جبل الفتح ، وهو الذي نزل به طارق ، وقد كان بيد الفرنج ، ثم استعاده أبو الحسن المريني صاحب المغرب الاقصى ، زمن محمد بن قـــلاوون .

ومنها الجزيرة الخضراء ، غرب جبل الفتح واقعة في الاقليم الرابع ، قال في التقويم : حيث الطول تسع درج ، والعرض خمس وثلاثـــون ، وخمسون دقيقة ، قال : وهي امام سبتة من بر العدوة ، وتوسطت مـــدن الساحل ، ومرساها من احسن المراسي للجواز ، ونهرها يعرف بـــوادي العسل وعليه مكان نزه يشرف عليه وعلى البحر يعرف بالحاجبية ، قال ابن سعيد : وهي من ارشق المدن واطيبها وارفقها باهلها واجمعها لخير البر والبحر ، قال في المشترك : والنسبة اليها جزيري ، للتفرقة بينها وبين اقليم الجزيرة ، فهي جزرى ، قال في المسالك : وهي الان بيد النصارى ، وعدها صاحب تقويم البلدان ، من كور اشبيلية ، مما يلي جانب نهرها من الجنـــــوب .

ومنها زندة ، وعدها ايضا من كور اشبيلية ، قال : وبها معقل تعمم بالسحاب وتوشح بالانهار العذاب ، كثيرة الفواكه ، ولاهلها جمال ورقة .

ومنها مدينة لوشة ، وهي عن غرناطة على مرحلة ، بيـن البساتيـن والرياض ، كما في تقويم البلـــدان .

ومنها واداش ، او وادي آش ، قريبة من جبل شكير ، والمياه تشق امام أبوابها كما فى غرناطة ، وهي مملقة واهلها موصوفون بالشعر .

ومنها بسطة ، تلي واد آش ، وهي من اعمال جيان ، كما فى التقويم، كثيرة الزرع ، واختصت بالزعفران ، كما فى المسالك ، يكفي كل البلاد

ومنها اندراش ، قال فى المسالك : وهي مدينة ظريفـــة ، كثيـــرة الخصب ، وتختص بالفخار لجودة تربتها ، فليس مثل فخارها للطبـــخ . الى غير ذلك من المدن ، مثل ارحصونة ، وانتقيرة ، وبرجة وغيرهـــا ، وعن مسالك الابصار ، أن حصون هذه المملكة كثيرة جدا .

وفى الصفحة 222 تعرض للقاعدة الثانية ، وهي اشبونة ، او لشبونة، فى غرب الاندلس ، واقعة بآخر الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول ست درج وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان واربعون دقيقة، وهي قاعدة مملكة غربي اشبيلية وشماليها ، وغربي باجة ، مدينة أزلية لها بساتين وثمار مفضلة ، وهي على جانب نهر بودانس ، وبينها وبين البحر المحيط ثلاثون ميلا ، كما فى ابن سعيد قال فى التقويم ، وكانت فى آخر وقت مضافة الى بطليوس ، وملكها ابن الافطس ، وفى العبر انها الان قاعدة مملكة من ممالك النصارى البرتفال ، وقد اضيفت الان الى اعمال جليقية ، ولها مضافـــات ، منهـــا .

شنترين ، بفتح الشين ، كما ضبطها ابن سعيد بخطه ، كانـــت فى القديم من جليقية ، شمالي الاندلس ، ثم صارت من اعمال اشبونة ، وهي فى الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد : حيث الطول ، ثمان درج وعشـــر دقائق ، والعرض اثنتان واربعون ، وثلاثون دقيقة ، وهي على نهر .

ومنها « شنترة » منسوبة الى اشبونة ، وعن تقويم البلدان ، ان لها تفاحا مفرطا فى الكبر والنبالة .

ومنها باجة ، وهي شرقي اشبونة ، من اقدم مدن الاندلس ، ولارضها زرع وضرع ، وعسلها نبيل ، ولها احسان فى دباغ الادم .

وفي الصفحة 223 وما بعدها تعرض للقاعدة الثالثة ، وهي بطليوس، مدينة من غرب الاندلس ، موقعها في الاقليم الرابع ، قال ابن سعيـــد : حيث الطول تسع درج ، والعرض ثمان وثلاثون ، وخمسون دقيقـــة ، في الشمال والغرب ، عن قرطبة ، وفي الغرب بميلة الى الجنوب عن طليطلة ، مدينة عظيمة على جانب نهر ، كانت بيد المتوكل بن عمر الافطس ، فبنى بها المباني العظيمة ، وفيها يقول ابن القلاس :

بطليوس لا انساك ما اتصل البعد    فلله غور من جنابك أو نجـــــد
ولله دوحات تحفك بينهـــــا    تفجر واديها كما شقـق البـــرد

وبينها وبين قرطبة ستة أيام ، ولها مضافات من أعمالها ، منها :

ماردة ، بفتح فكسر ، فدال مهملة ، كما بخط ابن سعيد ، على جنوبي نهر بطليوس ، موقعها اول الاقليم الخامس ، قال ابن سعيد ، حيث الطول تسع درج وخمسون دقيقة ، والعرض تسع عشرة ، ونقل ابن سعيد عن الرازي ، قوله : هي احدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار ، وكان قد اتخذها سلاطين الاندلس ، قبل الاسلام ، سريرا لملك الاندلس، وكانت في ذولة بني امية يليها عظماء منهم ، ثم صار الكرسي بعد ذلك بطليوس ، وقد صارت الآن للنصارى .

ومنها يابرة ، ذكرها في تقويم البلدان ، بعد ذكر بطليوس استطرادا.

( يـتـبـع )

تـطـوان    محمد ابن تاويــت

قصة

# موسم الصفير الحاد

أحمد عبد السلام البقالي

ما تزال السلطات الفيدرالية تضع خاتم ( سرى جدا ) على ملـف هذا المعضل المحير ، ولولا أن عددا كبيرا من شهود العيان كانوا حاضرين بعين المكان ، وشاركوا فى الاحداث ، بل وقتل وجرح بعضهم أثناءها ، وفقد بعضهم عقله الى الابد ، لما صدقها أحد ، ولاعتبروها حكاية مـن حكايات الرعب التى لا يمكن أن تحدث الا فى خيال شاعر أو قصاص يعيش علـى حافـة الجنـون ..

قد سمعتها لاول مرة من أحد شهود العيان ..

ذهبت لزيارة الطالب عدنان الفاروق بأحد مستشفيات نيويورك حيث كان يعالج من جروح أصيب بها مع من اصيب فى الحوادث السالفة الذكر .. كانت أخته قد أخبرتنى بوجوده فى المستشفى واعطتنى حرف الجناح ورقم الغرفة . حين سألت عنه هناك قيل لى انهم نقلوه الى قسم الحـالات العصبية فذهبت اليه هناك .

وفى طريقى لم أتمالك من التساؤل : لماذا قسم الحالات العصبية ؟ عدنان شاب قوى ، ولا يمكن أن يتأثر من مجرد احداث طائشة قام بها

مجموعة من الطلبة أثناء لقاء ثقافى ، وتعرض هو خلالها لبعض الجروح أو الـــرضـــــوض .

ودخلت عليه بعد تحذير الممرضة الا أتعرض لموضوع يمكن أن يسبب له اى اهتياج عصبى ووقفت على رأسه وهو مضطجع على الفراش بشعره الاشقر الطويل ، وقد كبرت لحيته وغارت عينـــاه . فنظر الـــى دون أن يميزنى . لابد أنه كان تحت مفعول مخدر قوى .. فوضعت يدى على يده وانحنيت عليه وناديتـــــه :

ــ عدنـــان .

فنظر الى بعينين يملأهما الرعب والارتياب ، فقلت ضاغطا على يده بيـــن يـــــدى :

ــ عدنان .. أنا حسن .. هل نسيتنى ؟

وتحول التعبير فى قرارة عينيه من رعب وريب الى ارتياح .. واتسعت حدقتاهما لتمتلئا بوجهى المطل عليه من فوق .. وانفرجت أساريره عـــن ابتسامة شاحبة ، وهو يمسك بيدى ويحاول أن يقوم ، فقلت :

ــ لا .. لا تتحـــــرك ..

وجررت كرسيا وقعدت الى جانبه واقتربت منه سائلا :

ــ مـــاذا حـــدث ؟

فأغمض عينيه وحرك رأسه وكأنه يحاول أن يطرد منه أهوالا لا يريد العودة الى تذكرها . . . وترقرقت من عينيه دمعتان ، فقلت :

ــ لا بأس يـــا عدنان .. أنت الآن فى أمان .. هل أصبت بجراح خطيــــــرة ؟

فحرك رأسه نافيا ، وتناول منديلا ورقيا مسح به عينيه ووجهه ، ثم تنفس الصعداء ، وكأن الدموع أدخلت علـــى نفسه بعض الراحــــة والهــــــدوء ..

ودخل الطبيب محفوفا بالمرضات فنهضت وافسحت له ، فوقف هذا يسأله ويداعبه . وحين هم بالانصراف سألته :

ـ هل هناك مانع من بقائى معه بعض الوقت ؟

فقـــــال :

ـ لا .. لا مانع .. اعتقد أنه من الاحسن أن يوجد معه فى هـــذه الايام فرد من عائلته أو أصدقائه . . فهو فى حاجة الى ذلك .

وانصرف الطبيب وانت صينية العشاء على مائدة دارجة .. ووضعت المرضة الحسناء المائدة المستطيلة على حجره فاعتدل هو جالســــا بصعوبة ، وجاءته بوسادة وضعتها خلف ظهره ، وقالت لى مداعبة :

ـ اذا لم يأكل عشاءه كاملا فنادنى .. فلدينا جميع وسائل الارغام .

ثم رفعت حاجبيها وأضافت :

ـ اياك أن تساعده عليه !

فقلت ضاحكـــــا :

ـ لا تخشى شيئا .. فطبيبى يمنعنى من أكل طعام المستشفيات !
فقالت محـــذرة :

ـ حذار أن يسمعك المدير ؟ ! فقد يعين لك سريرا فى الحال !

وبعد أن أكل عدنان دب بعض الانتعاش فى بدنه ، وانطلق لسانه واخذ يتحدث عن كل شىء الا موضوع الحوادث التى كانت السبب فـــى وجوده فى المستشفـــى .

وبعد ساعة نهضت للخروج فأمسك بيدى وتعلق بها ، وهو ينشادنى أن أمكث معه ، والا أتركه وحيدا .

ـ أرجوك يا حسن .. لا تذهب .. لا تذهب الآن .. ابق معى على الاقل حتى تأتى أختى .. لم يبق على قدومها الا وقت قصير ..

واستسلمت لرجائه .. لم يكن لى خيار .. كانت عيناه الفزعتان تتوسلان ، وقبضته القوية ترغمنى على البقاء ، فعدت الى مكانى .. ووضع هو كفيه على وجهه فى الم نفسى كبير ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ يا الهى ! ما افظعها ! ما أبشعها .

فقلت لاخرجه من نوبة الهيستريا التى بدأت أعراضها تبدو عليه :

ـ عدنان .. عماذا تتكلم . ؟ قل لى .. احك لى عما يخيفك .. لعله مجرد خيال اذا ناقشناه وجدناه لا يساوى آلامك ..

فالتفت الى وكأنه يرانى لاول مرة .. لابد أننى أرجعته من عالم غريب فقال بصوت هادىء وكأنه خجل من نوبة الهستيريا التى أصابته :

ـ أنت على حق .. قد يكون ذلك ما أنا بحاجة اليه .. فقد منعونا من الكلام عن الموضوع استحلفونا ألا نفعل حتى مع عائلاتنا .. قالوا أن الامر يتعلق بأمن الدولة كلها . . ووقوع الخبر فى يد اى صحفى لا مسؤول يمكن أن يتسبب فى رعب عام .

وتوقف ليبل شفتيه ثم قال :

ـ ولكن ، لا يهمنى .. لا يمكن أن يستمر الامر تحت غطاء الكتمان أمدا طويلا ،فقد كان معنا فى الملتقى الثقافى عدد غير قليل من الصحافيين .

ويظهر ان مجرد قراره افشاء السر الخطير أدخل عليه راحة المعذب الموعود بالخلاص . . فتناول سيجارة اشعلتها له ، ونفث دخانها ، وركز عينيه على قدم السرير ، وبدأ يتكلم بصوت خفيض وهو يبحث فى ذاكرته عن أول شريط الاحداث :

« ذهبت لحضور الملتقى الثقافى للادب المعاصر بمدينة بيننجتون الجامعية الصغيرة .. »

والتفت الى ليسألنى :

« هل تعرف بيننجتون ؟ »

فقلت : « نعم ، مكثت فيها ستة أسابيع فى مثل هذا الوقت من السنة ، الخريف ، وهو اجمل فصولها على الاطلاق ، كما قال لى اهلها . »

وتقع بيننجتون فى قلب غابات أعلى ولاية ( فيرمونت ) الجميلة ، تحيط بها اشجار الارز ، والصنوبر ، والسنديان ، والقبقب الذى يستخرج من سيقانه عسل لذيذ المذاق ، وتتلون أوراقه قبيل تساقطها ، أيام الخريف ، بألوان الذهب والنحاس ، والصداء ، والطلاء الاخضر الفاتح ، مما يجعل المشى خلالها متعة لا توصف ..

واستأنف عدنان حديثه :

« كانت الدعوة عامة .. فحضر كل من هب ودب .. وأنت تعرف وضع الادب فى هذا البلد اليوم ، فرغم الثراء الفاحش ورخاء الحياة ، فان موضة العصر هى السخط والتمرد والثورة على الواقع دون عناء البحث عن بديل أحسن .. المهم ، كان هذا أحد مواضيع الملتقى .. وكان موضوع نقاش حاد متواصل ..

« وقد كان كل شىء يبدو عاديا حتى شاع خبر مقتل الانسة ( تيرى نيكلسون ) فى ظروف غامضة . .

« سمعت بالنبأ وأنا جالس أمام المنصة التى نصبت للمشاركين فى الملتقى أمام مبنى الكلية الرئيسى المشرف على ساحة فسيحة خضراء . . كنت وسط حشد هائل من الطلبة والطالبات فى أزيائهم الغربية ، وقد طالت شعورهم ولحاهم ، وتعددت الوان ملابسهم واشكالها ، واستغنى البعض حتى على ما يستر العورة .. وجلسنا جميعا نستحم فى أشعة شمس الخريف .. أو ما يسمى هناك بالصيف الهندى .. وكان البعض يتابع الالقاء بالعزف على قيثاراتهم أو آلاتهم الموسيقية الاخرى . . والبعض يصاحبه بالرقص الحر ، والترنم بما تمليه اللحظة والمزاج الآنى من الحان ..

« المهم ، كان التجمع عبارة عن ( وود سطوك ) مصغر .. وكل فرد من الحاضرين يتحرك مدفوعا بغريزة اثبات الذات ، أو استمالة الجنس

الاخر ، أو مجرد البروز فوق هذا القطيع البشرى الهائل خشية الاحساس بالموت الصغير الذى هو الضياع والاهمال ..

« وفى اللحظة التى وصل فيها الخبر ، كنت أحس بأن الملتقى وصل الى حضيض الاسفاف ، وانه يهوى الى منحدر الفشل .. فقد غطت على صوت الادب الحقيقى أصوات الطفيليات التى تحترف السخط ، والصراخ ، والتظاهر ، والتخريب بدعوى المطالبة بحرية التعبير ، وكسر القيود التى فرضها الماضى على اشكال التعبير الادبى والفنى الحديث » .

وكنت وأنا أستمع الى عدنان ، انتظر بفارغ الصبر دخوله فى الموضوع .. ولعله شعر بذلك فقال مطمئنا :

« ليس هذا استطرادا .. بل هو من صميم الموضوع .. ولابد أن اضعك داخل الاطار حتى تفهم جيدا . »

وجذب نفسا عميقا من سيجارته واستأنف :

« استمعت الى احتجاجاتهم فى البداية بكل عطف .. فأنا الآخر كاتب وشاعر ناشىء أطمح الى الاعتراف بما ابتكرته من تجديد .. ودافعت عن حقهم فى القاء انتاجهم على المنصة العامة .. وليتنى ما فعلت ! فقد كان ما يلقونه مجرد هذيان متقطع ما كان لينتجه عقل انسان .

« ولحسن حظى لم اكن فى حاجة الى التعبير عن رأيى فيما كنت أسمعه ذلك الصباح فقد كفانى ذلك بعض الحاضرين ممن تغلى دماؤهم قبل دمى .. فانقض احدهم على كاتب قصة وانتزع النص من يده ، وأخذ يمزقه وسط تصفيق الجماهير ، وهو يصيح : « هذا رأيى فى هذا الهراء ! »

« وقمت فخرجت من الساحة لا ستقصى تفاصيل نبأ موت الانسة نيكلسون ، فقد كنت أعرفها جيدا .. وتمنيت أن يكون الخبر غير صحيح .. ولكن حين ذهبت لمقر لجنة التنظيم تأكد لى ذلك لاسفى الشديد .. وعلمت أنها وجدت ميتة فى فراشها بمرقد البنات .. عثرت عليها الخادم السوداء

حين دخلت تنظف غرفتها ملقاة على فراشها عارية وعلى جسدها الابيض الناعم آثار جروح سطحية وثقوب متفاوتة العمق دامية وكأنها كانـــت تجرى فى دغل شائك ..

وحين فحصها الطبيب الشرعى أعلن أنها ماتت من الرعب . ! فلم يكن على جسدها أثر عراك أو عنف .. رغم أنها تعرضت لاغتصاب ربما كـــان برضـــاهـــــا ..

« وقد حير هذا التقرير شرطة بيننجتون ، ولم يقولوا رايهم الحقيقى فيه أمام الطبيب احتراما لمشاعره .. ولكنهم فتحوا التحقيق فى القضية .. وحتى يقوم ضابط الشرطة بواجبه بعث بنسخة من التقرير الى الشرطة الفيدرالية لاستطلاع رأيهــــا .

« كانت تيرى متطوعة للعمل فى اللقاء الثقافى فى قسم النقل . . وكانت تساهم بسيارتها المستعملة الكبيرة فى نقل المشاركين من منازلهم الـــى مركز التجمع وبالعكس . ولم تكن جميلة بشكل يثير الانتباه .. فقد كانت مستديرة الوجه ، صغيرة الفم ، واسعة العينين رماديتهما ، طويلـــة القامة نوعا .. الا ان مصدر جمالها الحقيقى كان هو دمائة أخلاقها ، ولطف معشرها ، وشدة حرصها على ارضاء الناس واحترام مشاعرهم .. وكان ذلك يشع حواليها فيحيطها بهالة من دفء الامومة

« واستطاعت الشرطة الحصول على وصف كامل لشخص كـــان يتودد اليها ويلازمها فى دوراتها بدعوى مساعدتها .. الا أنهم لم يستطيعوا الحصول على هويته الكاملة .. فرسموا له صورة يدوية تقريبية نشروها بين الحاضرين ، وعلقوها على الابواب والواح الاعلانات ، وفى الجرائد المحليـــة . ولم يسفر ذلك عن شىء .

« وحتى تلك اللحظة لم يكن هنالك ما يثير قلق رجال الامن ، فجريمة قتل واحدة فى مدينة وصل حجم سكانها خمسة أضعافه فى ظرف يومين ليس مما يثير الاستغراب .. »

« إلا انه بعد ذلك الحادث مباشرة بدأت أخبار حوادث أخـــــرى غريبة تصل قسم شرطة بيننجتون بشكل غير عادى .. ففى نفس الليلة

التى قتلت فيها ( تيرى ) دخل مسافر قسم الشرطة ليعلن ، بحسرة شديدة أنه داس شخصا بسيارته على الطريق الوطنى المؤدى الى ( نيوهامشير ) .. واخذته معها سيارة الدورية للتحقيق فى الحادث فى عين المكان . وحين وصلوا لم يجدوا اثرا لحادث .. فعلا كانت السيارة الفارهة مائلة عن الطريق بشكل يوحى بالاضطرار ولكن لم يجد رجال الدورية أثرا لقتيل أو جريح .. الا انهم عثروا فى الطريق على آثار دم وبقايا حيوان لم يستطيعوا معرفة الفصيلة التى ينتمى اليها .. وسأله رئيس الدورية :

— ماذا حدث بالضبط ؟

— كنت قادما من ناحية الجنوب .. وحين رايت اسم المدينة ورقم تحديد السرعة تمهلت .. وفجاة خرج لى من بين هذه الاشجار شاب منفوش الشعر ، يتمايل ولا يكاد يقوى على حمل نفسه ، ربما من شدة السكر ، فاعترض طريقى ، وكأنه يحاول الانتحار .. وحاولت تفاديه دون جدوى فاصطدم بمقدمة السيارة وسقط تحتها .. وخرجت لارى ما حدث فوجدته والعجلة فوق صدره ، والدم يفور من فمه ومنخريه ..

« وتوقف الرجل ليحرك راسه معلقا :

— فظيع . ! فظيع . ! فدخلت السيارة ورجعت بها الى الخلف حتى ازيح العجلة عن صدره .. ولكن ذلك لم يجد شيئا .. حين خرجت لافحصه وجدته قد لفظ أنفاسه . فأسرعت فى الحال لاخبركم .

فنظر الضابط الى الرجل الضئيل المسن وهو يدير حافة قبعته بين أصابع مرتعشة ، ويرتجف وكأنه عصفور فى فخ ، وقال :

— هل انت متاكد ؟

فنظر الرجل ناحية السيارة وحرك راسه :

— كيف أنسى منظر ذلك الشاب المسكين والدم يفور من فمه ، وهو غير قادر على التنفس لثقل العجلة على صدره ! ؟

— اليس محتملا أن يكون حيوانا ؟ كلبا مثلا ، أو غزالا ؟ أنت تعرف أن الغابة تعج بالغزلان والايائل البرية .

فرد الرجل الضئيل غير منهزم :

ــ كلا .. لو لم أكن رأيته بعينى ، لو لم أكن نزلت ونظرت اليه مرتين ، لقلت ذلك من فعل الظلام ، وظلال الغابة أو نسج الخيال ومغناطيس الطريق . ولكن أقول لك ، ان ما داهمته هو شاب فى حلة جين زرقاء . .

ــ وبماذا تفسر اختفاءه من مسرح الحادث ؟

قالها الضابط وهو ينظر الى الرجل بحاجبين مرتفعين علامة التشكك ، فقال الرجل مؤكدا ، وقد جرح كرامته أن ينظر اليه الضابط الشاب نظرته الى شيخ خرف يخلق الحوادث :

ــ قلت لك اننى رأيته بعينى هذين هنا .. وقد يكون أخذه عابر سبيل الى المستشفى أو رآه أحد ودعا سيارة الاسعاف ..

وفى القسم اتصل الضابط بالمستشفى والعيادات الخاصة لعله يعثر عن الضحية دون جدوى فكتب محضر الحادث وأخذ من الرجل جميع المعلومات الضرورية عنه ، وأطلق سراحه ناصحا له الا يعود الى السياقة ليلا أو تحت تاثير الارهاق أو الكحول .. وأعاده الى سيارته على أن يبحث عن نزل يبيت فيه الليلة فى أقرب قرية ، قبل أن يستأنف سفره . والتقط السماعة فطلب المختبر وأعطاه مكان الحادث لتحليل عينة الدم ، وبقايا الحيوان الميت .

« سمعت بخبر هذا الحادث تلك الليلة ونحن نتفرج على مسرحية انفرد فيها ممثل شاب واحد ، وقف يتلوى كالدودة المطعونة أمام الجمهور ، ويتعلق بالحبال ويبكى ويضحك ، ويتشقلب ، ويلقى بين الحين والحين شعارات بالية ميتة ، مستجديا بها التصفيق والاستحسان الذى لم يكن يأت . . وارتمى عليه شاب من الحاضرين صائحا :

« أعتقد أنك فى حاجة لشريك يمثل معك فى هذه المسرحية »

فصرعه واوسعه لكما وضربا والجمهور يصفق ويصفر غير دار ، اكان ذلك طرفا من التمثيلية تصد بـــه نقد الموجة الجديـــدة من الادب ( اللامفهـــــوم ) .

وفى اليوم التالى القيت قصيدتى فى التجمع العام فقوبلت بترحيب وحماس لم اكن أتوقعهما .. وعدت الى مكانى لاتلقى التهانى وطلبات نسخ القصيدة للنشر والالقاء فى صحف وتجمعات الولايات الاخرى ..

وقام أحدهم يلقى قصة حاولت التركيز على محتواها فلم افلح .. ورددت ذلك الى نشوتى بنجاح قصيدتى ، الا أن شابا فارعاً من بـين الحاضرين وقف ينادى بأعلى صوته ( مسترعيا ) انتباه المتكلم :

ــ ليسمح لى السيد المتكلم !

ولما لم يعبأ به هذا اخذ يصفق بيدين خشبيتين ويصيح :

ــ يا سيد . ! يا متكلم . ! نريد ان نفهم ما تقول !

فتوقف المتكلم مرغما ليرفع راسه عن الورقة :

ــ مـــاذا تريــــــد ؟

ــ نريد أن نفهم مـــا تعنـــى !

ــ ما اعنى هو ما سمعت بالضبـــط .

ــ هل تسمح ان تقوله باسلوب يفهمه الآدميون مثلنا ؟

فـــرد المتكلـــــــم :

ــ آسف اذا لم تكن فى مستوى هذا اللقاء .

فالتفت الشاب حواليه سائلا بصوت جهورى :

ــ ايها الســادة .. هل فهم احد منكم ما قراه هذا المتكلم ؟

فترددت كلمة ( لا ) بصوت واحد من كافة الحاضرين . والتفـت الشاب المعترض للخطيب وقال :

ـ هل سمعت ؟ اعتقد ان الذى ليس فى مستوى هذا اللقاء هو انت .. واذا لم يفهم الحاضرون هنا عملا ادبيا فلن يفهمه مخلوق على الارض بما فيهم انت .. فاذا كنت تريد الضحك على ذقوننا فقد كشفناك .. واذا كنت تدعى انها أعلى من مستوانا فنتحداك أن تخرج من بين ذلك الخبال الركيك الذى تتقياه علينا فكرة جديدة واحدة ! أنا أعرف أمثالك .. انتم تختبئون وراء التعقيد والتعمية والتضليل حتى لا ينكشف ضعفكم وتفاهتكم .. الم يصلكم بعد ان هذا عصر الوضوح ؟ ! ارجوك ان تتفضل بالنزول ، وترك المنصة لغيرك ..

« ولكن المتكلم عاد بكل صفاقة للقراة فى أوراقه ، وكأن شيئا لم يكن .. فخرج اليه شابان من الصفوف الاولى رفعاه من تحت ابطيه . ونزلا به المنصة وسط قهقهات الحاضرين ، وصفيرهم ، وتصفيقاتهم ، فانطلق يعدو نحو البحيرة صارخا بحدة جنونية ..

« وتركت الملتقى فى تلك اللحظة وذهبت اتمشى ، واستمرىء دفء الضحى ونسائم الخريف العطرة المزوجة أحيانا بدخان الاوراق المحترقة ، راغاريد الطيور وهى تستعد لهجرة الشتاء نحو الجنوب .. واشرفت على البحيرة التى تنفرج عليها غابة الكلية الكثيفة ، وأنا اسبح فى نشوة نجاح قصيدتى ..

« وحين اشرفت على البحيرة وجدت جمهورا كبيرا من الطلبة المقيمين والوافدين وسكان المدينة يتفرجون على مركب يمشط قعر البحيرة بالشباك والمخاطف والغطاسين ، وعددا من رجال الشرطة بسياراتهم البيضاء السوداء المتوجة بالاضواء الحمراء .

« وحين سالت عن سبب التجمهر ، قيل لى ان امراة نادت قسم البوليس واخبرتهم بأنها رات احدا يغرق فى البحيرة . وحين وصلت دورية الشرطة للتحقيق معها فى الخبر ، قالت انها كانت فى مطبخها حين سمعت ما يشبه الصفير الحاد ، فأطلت فاذا شاب ينقلب به طوف مطاطى كان يركبه على البحيرة .. وظننته يمزح كما اعتاد عدد من طلبة الجامعة ان يفعلوا حين ينقلب بهم القوارب ولكن حين بدأ يستغيث ويطلب النجدة وينزل الى القعر ثم يعود الى الظهور ملوحا بذراعيه ، ادركت انه لا يحسن

السباحة ، فوقفت حائرة لا تدرى ما تفعل .. وحينئذ خطر ببالها أن تنادى البوليس بالتلفون .. ومن النافذة كانت تراقب الغريق وهو يصارع الموت حتى اختفى .. الا انه ..

« وتوقفت المرأة فجأة عند هذا فلاحظ ضابط الشرطة انها ترتعش وكأنها تخفى شيئا راعها أكثر من مجرد غرق مخلوق . . فحثها على اتمام حديثها :

— هل هذا كل ما رأيت .. ؟

فعضت المرأة على شفتيها ، وحركت رأسها فى استغراب وكأنها تفكر على انفراد ، وقالت :

— غريب !

فسأل الضابط :

— غريب ؟ ماذا ؟

فنظرت اليه وكأنه أخرجها من تأمل عميق ، وقالت :

— غريب ما حدث لذلك الشاب المسكين فى آخر لحظة .. أى قبل أن ينزل تماما الى القعر .. لابد أنها مخيلتى ..

فشجعها الضابط قائلا :

— ماذا حدث ؟ قولى كل ما عندك ولو كان يصعب عليك تصديقه ؟

فقالت على وجل :

— قلت لك اننى سمعت صفيرا حادا فى البداية .. وحين اطللت من النافذة وجدت الشاب يغرق .. كان يستغيث بصوت آدمى عادى الا انه حينما اقترب من النهاية أخذ يطلق من حلقه صفيرا حادا يصم الآذان . . لا أدرى بماذا أشبهه . . واذا لم تخنى ذاكرتى ، فان الذى صعد على سطح الماء فى آخر مرة لم يكن رأس الشاب وذراعاه كما كان يفعل فى المرات السابقة ، بل كان رأس حيوان غريب ذى قرنين أو زعنفتين فى طول هوائيه راديو السيارة .. وكان يضرب بهما سطح الماء بعنف ويصفر ، الى أن اختفى دون أن تصعد

الى السطح الفقاقيع الشبيهة بالغليان المترتبة عن تدفق الماء الى رئتى الغريق ، وخروج الهواء منهمـــا .

ووضعت كفيها على صدرها وهى تردد :

ـ يا الهــى ! يــا الهى ! لابد أن ذلك الحيوان البشع هـــو الذى قلب الطوف بالشـاب . . ربما ليفترسه .

وبعد تمشيط البحيرة طولا وعرضا لم يعثر لجثة الغريق على أثر ..

ووقف الضابط الشاب ينظر الى المراة بعينين فى زرقة الفـــولاذ وقسوته ، ثم قـــال :

ـ أصحيح ما رأيته أم كنت تتفرجين على التلفزيون ؟

فردت المراة فى اندهـــاش :

ـ ماذا تعنى ! ؟ لقد كنت فى تمام وعيى يا حضرة الضابط ! ولست ممن يتسلين بالشراب أو بخلق الاخبار المهولة .

ـ حقا ؟ فأين جثة الغريق اذن ؟ افترسها حيوانك الاسطورى ؟ فأين جثة الحيوان ؟

فرفعت رأسها ، وولته ظهرها داخلة منزلها .. فأشار الضابط الى جماعته بالغاء البحث والذهـــاب ..

وفى ظرف دقائق خلت البحيرة كما كانت من قبل ، وعاد سطحهـــا الى هدوئه لا يدرى أحد ما يحتويه من أســـرار ..

وفى تلك الليلة بالذات وقع الحادث الثالث ..

« أطفأ ( جاك ساندرز ) جهاز تلفزيونه بالمشغل اللا سلكـــى ، وادخل راسه تحت الغطاء حتى لا يفلت طائف النوم من بين جفونه .. ولم يكد يغفو غفوته اللذيذة الاولى حتى ايقظه صوت غريب حاد فى منتهـــى الازعاج .. فكشف الغطاء عن وجهه وانصت فاذا هو صفير حاد اشبـــه ما يكون بصرير باب معدنية ، أو عزيف صرصور عملاق ملا عليه أرجاء الدار ، وهزها من أساسها ..

« ودون أن يفكر ، ذهب الى حيث يضع بندقية صيده ، ففتحها ، وحشاها برصاصتين وخرج يبحث عن مصدر الصوت .. وما كاد ينزل درجات سلم الدار حتى راى جيرانه الاربعة ينزلون من مصاطب بيوتهم بملابس النوم شارعين بنادقهم يتحركون فى نفس الاتجاه وكأنهم مجرورون بحبال خفية . كانوا يعرفون تماما ينبغى عمله مسبقا .. فوقفوا تحـت الدوحة العملاقة التى كانت تؤوى مصدر الصوت ، وصوبوا بنادقهم نحوه ، واطلقوا النار بضغطة زناد واحدة .. وبعد ثوان قليلة ابتلع فيها الليل اصداء القذائف النارية ، سمعوا خشخشة بين اغصان الدوحة فتراجعوا ، فاذا جثة شاب فى العشرينات تتدحرج من اعالى فروع الشجرة الـى الارض ..

« ووقف الجيران الاربعة فاغرى الافواه مدة لا يدرون بأية صاعقة اصيبـوا .

« وفى النهاية ارتعد احدهم رعدة شديدة أيقظته من صدمته واخذ يتراجع الى الوراء مرددا :

ـ باسم الله الرحمن الرحيم . ! اى مخلوق بشرى يستطيع عمل هـذا .. ؟

« وبعد ان استرجع الرجال الاربعة وعيهم ، ادركوا الورطة التـى اوقعهم فيها تسرعهم ، فقرروا الذهاب الى قسم الشرطة .

« ودخل ( جاك ساندرز ) منزله فلبس معطفه واخرج ازارا غطى به جثة الشاب القتيل والتحق بزملائه فى سيارة احدهم ..

« وعادوا مع رجال الدورية لمكان الحادث للاطلاع على جثة القتيل .. وكانت المفاجأة حين كشف احد رجال الامن الغطاء عن الجثة فلم يجد الا بقايا حيوان متعفنة لم يستطيعوا تمييز فصيلته .

« ولم يبد على الضابط الشاب انه كان يستمع إلى احتجاج الجيران الاربعة وتأكيداتهم لحقيقة ما راوا فى محاولة يائسة للحفاظ على كرامتهم كمواطنين عاقلين متزنين ، وخشية ان يصبحوا اضحوكة فى مجتمعهـم الصغير ، فقد كان غارقا فى تأمل عميق ، يحاول الربط بين هذا الحادث

والاحداث الاخرى التى سبقته .. من دون شك كان يربطها قاسم مشترك ، هو اختفاء الضحية ، الا ما كان من حادث ( تيرى ) حيث اختفى الجانى وترك آثارا غير عادية ..

« ووصلنا خبر الحادث فى مساء الغد ونحن نتبوأ مقاعدنا للجلسة الختامية .. وقلت فى نفسى : لعل هذه القرية الآمنة أصيبت بعدوى ( نيويورك ) حيث يوجد من بين كل خمسة افراد اثنان مصابان بمرض عقلى ..

« وصعد المنصة الدكتور ( ليلاند ) الناقد الادبى الشاب الذائع الصيت ، فوضع آلة تسجيل على المنصة ، وفتح ملفا امامه ، وسوى المكرفون ، وبدأ :

« أيها السادة ، سأحاول هنا ان اعطى صورة نقدية موضوعية لاهم ما القى من منصة هذا اللقاء الثقافى .. وانذركم انه لم يكن من السهل او الممكن الاحاطة بكل ما قيل .. وسوف ابدأ بالاهم فالمهم .. »

« ودخل فى جرد مفصل احيانا ومقتضب أخرى لعدد من المواضيع الذى قال عنها انها قطعت شوطا او جاءت بجديد ..

« ولحسن حظى كانت قصيدتى من بين المواد التى تعرض لها الدكتور ليلاند ، وقال عنها أنها اضافة مشرفة للادب الناطق بالانجليزية من شاعر لغته الام هى العربية .. وموضوع بدأ يتسرب الى الضمير الامريكى تدريجيا فى السنوات الاخيرة ..

« وكان يمثل لكل موضوع بفقرة منه مسجلة بصوت صاحبه فى آلة تسجيله ..

« وفى النهاية اقفل الملف ووضعه جانبا ثم وقف ينظر الى تحت ، ويسوى الميكرفون وكأنه يستجمع شتات افكاره ، وقال :

— قبل ان أختم ، اود ان اثير الانتباه الى ظاهرة غريبة لم اشاهدها الا فى هذا الملتقى .. وكان ينبغى الا اتناولها حتى أعطيها ما يلزمها من تأمل وتفكير .. اى حتى تنضج صورتها فى عقلى الباطنى ، الا أن عددا منكم

قد لاحظها وانفعل ضدها .. وبعض الانفعالات كانت عنيفة فى بعض الاحيان .. فمن بينكم من استوقف الكاتب أو الشاعر وطلب منه أن يشرح ما يقرأ ومنكم من شوش عليه وقاطعه .. ومنكم من قام فأنزله من فوق المنصة أو مزق أوراقه أو طرحه أرضا .

« هذه الظاهرة هى تكاثر ما سماه البعض ( باللامفهوم ) .. وهى ظاهرة خطيرة فهناك انتاج لا يمكن أن ينسب الى عقل بشرى مهما بلغ به الخيال والجنون .. فهو هراء متقطع متفكك لا يصدر حتى عن أدنى العقول البشرية من سلم الحيوان الاعجم .. فهو أشبه ما يكون بالشخير أو النهاق أو النقيق .. بل هو أقرب الى صرير الحشرات الميكانيكية الدنيا منه الى الحيوان الاعجم . »

« وكان الدكتور ليلاند قد بلغ من الانفعال بحيث أخذ يدق على المنصة بقبضة يده ، وقد احتقن وجهه وتصفد عرقا . . ثم توقف قليلا ليفتح آلة تسجيله على بعض تلك القصائد والقصص والمقالات ، ورفع صوت المكبر ليستمع الجميع الى كل كلمة ، وانسحب الى الوراء ماسكا بساعديه مخافة افلات أعصابه مرة أخرى ..

وحاولت أنا بكل ما آتانى الله من عقل ، وذكاء ، وذوق أدبى ، أن افهم شيئا مما يقال فلم افلح .. وفى النهاية استسلمت ، وصنفت ما أسمعه مع هدير حركةالمرور ، ونقيق ضفادع الليل وعواء ذئابه .

« ويبدو أن صبر الناقد الشاب نفذ ، فأسكت آلة التسجيل ، ووقف يتساءل :

— من أين جاء هؤلاء ؟ من هم هؤلاء ؟ ليقف من كان منهم حاضرا بيننا ليعطينا تفسيرا لهذا اللغط الغريب .. هل معنا منكم أحد ؟ لماذا تختفون ؟ ايخجلكم ما كتبتم ؟

« وفى هذه اللحظة بالذات وقع شىء غريب . . ساد القاعة احساس شديد بالتوتر غير الطبيعى .. واحسست أنا بقشعريرة برد مفاجىء فارتعشت بشدة .. وغمز النور وانطفا لحظة ثم عاد خافتا مطرفا وسكت

المتكلم .. وبدأت حركة غريبة داخل القاعة ، وعلا صوت كاحتكاك الاحذية بالارض ، خرج من تحته صفير متقطع من أحد الاركان .

« وصرخت فتاة وهى تنزل من أعلى المدرج وعلى ظهرها صرصور ضخم فى مثل حجمها ! . . واخذ الحاضرون يغادرون أماكنهم وقد اثقل اجسادهم الذعر لما كانوا يرون .. كان يبدو أن الصراصير الضخمة تقوم من فوقه كراسى كان يجلس عليها بعض الحاضرين من الشعراء والادباء الشباب ، وحاولت القيام والفرار فخانتنى ركبتاى .. ونظرت الى الشاعر الشاب الــذى كان يجلس الى جانبى فرايت على وجهه ، رغم ذهولى ، ابتسامة تشفى قاسية .. كان ينظر الى ويضيق عينيه ، فعدلت عن الاستعانة به فــى القيام والفرار فخانتنى ركبتاى . . ونظرت الى الشاعر الشاب الــذى تحمران وتجحظان حتى تصبحا فقاعتين فى حجم كرة التنس يملاهما الدم .. ونبت الزغب الاحمر فى وجهه ، وتحول فمه الى نابين أو مخلبــين سوداوين .. واخذ يمزق عن جسده الملابس بيد بدأت تتحول الى ذراع منشارية مشوكة .. وخرجت من راسه قرنان طالتا حتى صارتا كقصبتى صيد .. وتمزقت ملابسه عن جسد صرصور مكسو بصفائح قرنية لماعة فى لون الصدا . . والتفت نحوى واطلق صفيرا حادا كاد يثقب طبلة اذنى !

« وأيقنت أنى هالك ! اذا لم يكن من فتكه وافتراسه ، فمن الرعب الشديد الذى شــل قــواى !

« ولحسن حظى توجه الصرصور العملاق نحو المنصة .. ويبدو أن الصراصير جميعا كانت تقصد نفس الهدف : الدكتور ليلاند . . وادرك هو انه المقصود فحاول النجاة بالفرار من باب على جانب المنصة .. الا انــه التقى وجها لوجه بأحد الصراصير البشعة فعانقه بذراعيه الشائكتين ، وكانما الصقت عليها سكاكين ، وشواقير ، ورؤوس رماح .. واقترب الوجه الكريه من وجه الناقد الشاب فاطلق صفيرا مزعجا ، واخرج شوكتين كنابى خنزير غرزهما فى صدغيه ، فتفجر الدم غزيرا من اذنيه وانفه وفمه وعينيــــه ..

« وانقض عليه جارى من الخلف ، وغرز نابيه فى قفاه ، ثم تكاثرت عليه الصراصير من كل جانب حتى تراكمت فوقه ، واخذ بعضها ينشـــر جناحيه ويطير لينقض فوق الركام الهادر ، ليساعد على تمزيق جثتـــه وافتراسهــــــا » .

— * —

* ووضع عدنان يديه على وجهه ، وقد عادت اليه ذكرى الواقعة المرعبة حية جديدة وكأنه يراها مرة اخرى ، ويود لو يمحوها مــــن ذاكرته .. وحرك راسه مكـــررا :

ــ يا الهى . ! يــا الهى . ! ما كان افظع ذلك ! ما كان ابشـــع ذلـــك !

واهتز اهتزازا شديدا واخذ ينتحب دافنا وجهه فى كفيه ، فاحترمت كربه واساه وتركته ينفس عن لوعته بدموعه .

وبعد لحظة ، عاد اليه هدوء نفسه ، وزالت عن حلقه غصة النحيب ، فمد يده نحو صندوق المناديل الورقية ، فاخرج واحدا مسح به عينيه ، وقــال معــتذرا :

ــ انا آسف .. لم يكن قصدى ان احرجك بانفلات عواطفى هكذا ..

ــ لا بـــأس ..

ثم اردت صرفه عن حرجه بارجاعه الى الموضوع الذى كنت فــى لهفة شديدة لمعرفة خاتمتـــه :

ــ وماذا حــدث بعــد ذلــك ؟

فتنهد بعمق ، ونظر الى مؤخرة الفراش فى محاولة تركيز افكاره وقـــال :

ــ امام ذلك المنظر المريع احسست بشلل شبه كامل فى جميــــع اعضائى .. وبدا الدم يهرب من راسى انذارا بالاغماء وفقدان الوعى .. وفى هذه اللحظة بالذات سمعت من خلفى ، من خلال الصفير والهرير ، وصراخ البشر الهاربين ، صوت شاب يصيح :

ــ لا تخافوها ! لا تخافوا الصراصير ! اضربوها بأى شىء . ! فهى تموت بسرعة . . ابقروا بطونها ، وافقأوا عيونها بأقلامكم !

والتفت لاجده يضرب احدها براس حذائه ضربة ( كاراتى ) عنيفة فى صدرها ، فتدخل نصف ساقه فيه ، فسقط المخلوق البشع على ظهره وتحول فى الحال الى كومة عفنة عن الاحشاء والغضاريف والزعانــف والــــــدم ..

وتشجعت انا ، وتماثلت من اغمائى ، ولم يكن معى ما ادافع بــه عن نفسى ، فنزعت حذائى الطويل الساق والكعب ، واستعملته فــى ظهر احدها فانكسر كجرة فخار مليئة بالدم .. وشققت طريقى الـــــى الخارج حيث كان الطلبة قد استرجعوا شجاعتهم ، وعادوا يحملـــون الهراوات ، ويضربون الصراصير على الرؤوس ، والصدور ، والظهور ، فكانت تتساقط لتوها ، وتكف عن الصفير والهرير ، وتنفجر أجسامها بسوائل لزجـــة خاثرة كريهـــة الرائحـــة .

ووصل رجال المطافىء ، فهاجموا القاعة بالشوافير ، واغرقوها فى رغوة الاطفاء التى كانت تغطى عيون الصراصير وتخنقها وتجعلها اهدافا سهلة للهاجمين .

— * —

وسكت عدنان الفاروق ، وجلست انا أنظر اليه فى ذهول وغياب تام عما حولى .. وجاء صوته ليخرجنى من غشيتى ، وهو يقول معقبا :

ــ اما ما حدث بعد ذلك فكله اجراءات امنية وطبية .. أنت تعرف كيف يتصرف الاميريكيون حيال مثل هذه الاحداث .. فقد ضربت الشرطة

حصارا مطبقا على البلدة ، ومنعت الدخول اليها والخروج منها لمدة ثمانى واربعين ساعة ، وكأنها أرض وباء .. وانهالت على ساحة الكلية الهيليكوبترات من كل مكان تحمل الاطباء ، وضباط الشرطة الفيدرالية ، والاستعلامات المركزية ، ومبعوثون عن البيت الابيض ، ووزير الداخلية بنفسه ، وكلهم يلبسون اقنعة اكسجين خشية العدوى ..

« وصادرت الشرطة جميع الافلام والصور التى أخذها الصحفيون والهواة .. وطلبوا من الجميع الصمت عن رواية ما حدث حتى لا ينشر بالجرائد ، ويتفشى الذعر والهلع بين المواطنين ..

« ووضع جميع الحاضرين تحت الحجر الطبى مدة ثلاثة أيام .. واجتزنا فحوصا دقيقة وتحاليل عامة ثم أفرج علينا على أن يرسل كل واحد لعيادة الامراض العصبية فى مدينته للمراقبة . . »

— * —

وكانت عشرات الاسئلة تزدحم فى رأسى وهو يتكلم ، فلم يكد يتم قصته حتى بادرته بالسؤال :

— هل وصل المسؤولون فى بحثهم الى نتيجة ؟ كيف يفسرون ما حدث ؟ هل كان أفراد آدميون يتحولون الى حشرات أم العكس ؟ وفى كلا الحالتين هل توصل العلماء الى تفسير ذلك ؟ أم أن الامر يتعلق بمقلب متقن ساعد تعليه حالة هيستيريا جماهيرية عامة ؟

— لا أدرى .. ولم يعرف أى تفسير علمى رسمى لهذه الظاهرة الغريبة . كلما استطعت استنتاجه من شريط الاحداث ، هو أن البشر يتحولون الى حشرات تحت تأثير الانفعال الشديد الناتج عن ألم حاد أو هلع كبير ، أو لذة عظيمة وهذا يفسر تقرير الطبيب الشرعى عن سبب موت ( تيرى ) وارجاعه الى الرعب الشديد . وكذلك نحلل أجسام الافراد الذين تعرضوا للحوادث ، مثل حادث السيارة ، وحادث الغرق فى البحيرة، والسقوط من الشجرة بعد الاصابة بالرصاص ..

وجلست فاغر الفم من العجب الشديد ، ثم حركت رأسى وقلت لعدنان :

ـ اخشى اننى لا استطيع تصديق هذه القصة ولو بعد مليــــون سنة ! لابد انكم كنتم واقعين تحت مخدر قوى من النوع الذى ينتشر فى جو القاعات على شكل غاز فيستنشقه الجميع ويقعون تحت تأثير الهواجس والوساوس والاوهام التى تساعد على الايحاء كفعل التنويم المغناطيسى

ونظرت الى وجه عدنان فرأيت أن عينيه تتغيران من تأمل وتفكير الى تشكك وارتياب يتحول الى خوف .. ولم يعد مركزا نظره على ، بل كان يجول به فى أنحاء الغرفة ويسترق نظرات حادة الى الباب .. وفجأة نطـــــــق :

ـ لا تسألنى .. ارجوك .. ارجوك ان تذهب الآن .. فقد بدأت أحس بالندم على ما قلت .. ارجوك أن تنساه .. فتلك المخلوقات الحشريــة يمكن أن تتقمص اى انسان .. يمكن أن توجد فى كل مكان .. ولا يستحيل أن يكون اول الداخلين علينا واحدا منها .. أو حتى انا وانت .. وانت .. وانـــــت .. وانــــت .. وانـــــت .. ارجـــــوك .. ارجـــــوك أن تخـــــــرج !

وارتسم الذعر الشديد على وجهه ، وهو يصيح فى صمت الليل فيتردد صدى صرخاته فى جميع ارجاء المستشفى الكبير .. وفى لحظـــة دخل علينا عدد من الممرضين والممرضات القــوا بكامل ثقلهم عليــه ، ووضعوه فى قميص مسدود ، واخرجوه من الغرفة وهو يهتز بين ايديهم فيهزهم جميعـــــا ..

وغادرت المستشفى مروع النفس ، بارد الاحشاء ، وكأننى اوشك أن اقع على وجهى من الضعــف ..

ومنذ تلك الليلة ، وانا انظر حوالى فى ارتياب ، واتردد قبل ان امد يدى لمصافحـــة اى غريـــــب ..

**الربــاط** **احمد عبد السلام البقالي**

# الهدب ومدار الذبول

حسن الطريبق

ألهدب فى العينين تنشب برثنــاً نهم الخطى ، جهمــا

يذوى بها ، من بين ما يذوى بها ، ذاك الذبول الأكبر الاعمى

يشتف منها روعة الأحداق ، يطفىء فى دوائرهــا

الهــوى ، والشــوق ، والنجمــا

الهدب حشرجة اذا ضجت بها ريح الأسى واستنهضت فيهــا

المدامــع والرؤى ، سهمــا

تمحو البريق وتحتويه طفولة كلمـــى

ما عــاد ينــزل فى مفاتنهــا هوى قلبى

حتى جهلت هناك ما قد كان من ضوء ومن حـب

حتى سقطت على الرصيف معفر الاحلام ، مرتعد

الحشاشة ، فـاقـد اللـب

يا لهفة عذراء تكبر فى مناجاتى وتسكبنى على الأيام

والأنـواء أخدوداً وأسقامـا

يا كل أمنية تثاءب فى تمددها الهوى عاماً ، فأعواما

واستنزفت ، ما استنزفت ، منى أنـا وحـدى

وامتد فيها مـا يبرقع بالدجى وجدى

يا لوعة فى كبوة الاشواق ، فى دنيـا بلا دفء ، بلا اغفـاءة

ممـزوجـة باللـيـن

ألقـاك فى نفسى ، صبابتهـا ، وقسوتها ، ودمع العين

ألقـاك فيها وحشة تجتاز رهبتها مدار الأيـن

ياهدب ، يا موت اللقـاء اذا تدافع فى مدى عينى

أدنو اليك وفيك ما يكفيك من وصل ومن بيـن

هـــلا طمست مخيلتى ؟ هلا أزلــت الحـــس من اطـــراقتى ،
من عمـــق وجـــدانى ؟
يـــا بئس ما قد حل من غبش ومـــا قد زن فى الأضــــلاع من
أصـــــداء الــــحـــأن .

**العــرائــش** **حسن الطريبق**

قصة

# صورة في قصة

أحمد زياد

قال الراوى وهو يروى لنا حلقة اخرى من مسلسل ذكرياته :

اذكر فيما زلت اذكره أننى كنت معلما فى القسم الثانوى بمدرسة « النجاح » فيما كان يسمى فى ذلك العهد من ذلك الزمان بقرية الاحباس بالدار البيضاء وكان « النهج » البيداغوجى فى ذلك العهد من ذلك الزمان ، يفرض على معلم فى مدرسة حرة أن يكون ملما بالشقين الاثنين الذين يتكون منهما ذلك النهج التلقينى العلمى والتشغيل الوطنى ، وكان من مميزات ذلك العهد من ذلك الزمان ، أن التلاميذ والطلبة يتجاوبون مع هذا النهج بشقيه تجاوبا يبلغ حد الروعة فى الكثير من الاحيان .

كانوا يأتون على ترجمة الشيخ جمال الدين الافغانى حفظا ودراية بينما كانوا يتذوقون شعر ابى ماضى ويرددونه فى ايقاع رتيب ، وخصوصا قصيدته التى يظهر أنها كانت تأخذ بتلابيب اعجابهم وتجعلهم يرددون بعض ابياتها بشكل جماعى ، وحتى بدون مناسبة ، وخصوصا هذين البيتين :

واذا الساعـــة الرهيبـــة حـــانـــت
ودوى صوت مصرعى فى المدينـــة

فـــلا تصيحى واحسرتـــاه لئـــــلا
يـــدرك السامعـــون ما تضمرينـــه

وهذا يعنى أن التلاميذ والطلبة كانوا فى ذلك العهد من ذلك الزمان ، يعدون انفسهم ليكونوا طليعة الكفاح فى حقلى المعرفة والوطنية ، وبالفعل فانهم كانوا كذلك فى اقبالهم على الاخذ بأسباب المعرفة وصرف ما تبقـــى لهم من الوقت فى التشغيل الوطنى بدرجات متفاوتة من مستوىأعمارهم ومن درجة معلوماتهـــــم .

ولكم كنت سعيدا فى معاشرتى لهم ولمدرسة « النجاح » التى لابد وان يضعها تاريخ الكفاح الوطنى فى مقامها الذى تستحقه .

مضى على حين من الزمن فى مهمة التدريس و « التشغيل » بمدرسة النجاح ، وبالرغم عن اننى كنت من سكان المدينة القديمة ، فان مشقـــة المواصلات فى ذلك الوقت من ذلك الزمان ، لم تستطع أن تحول بينـــــى وبين اداء مهمتى النبيلة .

ومع مرور الايام توسعت مرافق العمل والنشاط فى مدرســـــــة « النجاح » وتوسع معها ، بل وواكبها « التشغيل الوطنى » ، فكان من شان نشاطها وحيويتها ان « الدوائر » المسؤولة فى الحي وضعتها فى قائمة « المشبوهين » وكانت الدوائر المسؤولة « ممثلة فى ذلك الحـــى فى دار الخليفة التى ظلت تمثل دائرة المقاطعة فيما بعد الاستقـــلال ، وهـــــى دار لم يكن يفصلها عن مدرسة « النجاح » سوى أمتار معدودات ، وكانت دارا بمعنى مدلول هذه الكلمة ، حيث كان يشخصها بابها الضخم المقوس ذو المسامير الضخمة ودقاقها التقليدى الاسود ، وغرفها المزدانة بالزليج المحاطة بالقرمود الذى يصر لسان الدين ابن الخطيب على أنـــه ميـــراث انـــدلســـــى .

كانت السنة التى توالت هذه المشاهد فى اطارها الزمنى هى سنة 37 — 1936 وهى فترة انبعاث وطنى لم يدم طويلا ، ولم يعمر كثيرا الا انها استطاعت ، وضع بصماتها البينة على حقبة بارزة من تاريخ كفاحنا الوطنى .

لقد استطاعت حركة الانبعاث تلك ان تنتزع لنفسها حقا من حقوق حرية التعبير ، حيث صدرت صحيفة « الاطلس » الاسبوعية وجريدة « المغرب اليومية » ، و « الدفاع » و « صوت الشعب » باللسان الفرنسى .

وراج سوق السياسة فى ذلك الوقت رواجا بلغ حدته وذروته بعد عمر قصير من ميلاده ، ودلل مرة أخرى على أن فى زوايا العبقرية المغربية خبايا لا ينضب معينها فى حالات الكبت حتى اذا قدر لها أن تتدفق .

انطلقت فى شلالات رقراقة يمكن للكبت ومهما كان محكما وجيد الاحكام أن يسد عليها المنافذ الا أنه لا يستطيع أبدا أن يجعلها تنضب او تمنى بالجفاف .

وكان مما لابد منه أن تنعكس صورة هذا الانبعاث على مدرسة « النجاح » وعلى « عمليات التدريس والتشغيل » فأصبحت أبوابها مفتوحة حتى فى غير اوقات الدراسة وفى أيام العطل تلتئم فيها الاجتماعات وتتخذ فى حجراتها الدراسية القرارات ، وتتوالى فيها الاتصالات ، وهو نشاط لم يكن ليخفى امره على جيراننا « الاصدقاء الاعداء » فى دار الخليفة ، وهو كذلك لم يكن ليخفى على ادارة « الشؤون الاهلية » فى ادارة البلدية التى تمثل اليوم دار العمالة بالدار البيضاء وبالطبع لم يكن ليخفى تبعا لذلك على ادارة الناحية ورئيس شؤونها الاهلية .

ومع اننا كنا نشعر ونحس بالنشاط الجاسوسى الذى كان يمارسه مقدم الحى ، ولكن بشىء غير قليل من الخجل ، والحق يقال ، وهو موقف شاءت حسن نية صاحبه أن تحوله الى موقف مغاير فيما بعد ، اذهبت

حسناته ما كنا نعتبره سيئات فى موقف صاحبنا المقدم الاسمر كما كنا نسميه .

وتوالى شريط الاحداث فى سرعة لم تكن بالمتوقعة اذ سرعان ما ضاقت دوائر الشؤون السياسية فى الاقامة العامة فى الرباط بقوة المياه فى تلك الشلالات التى كانت تنطلق مثلما ينطلق كل شىء يتحكم فيه الكبت والحرمان .

ربما اننى فى هذا المقام مجرد راوية لقصة أو لحكاية أو لكلتيهما ، ولست بالمؤرخ ، فاننى مضطر الى القول بأن تلك الحرب الباردة ، أو التى ابتدأت حربا باردة منذ بدايتها تطورت بنفس السرعة التى بدأت بها الى حرب ساخنة ثم الى حوادث دامية وتهديد الجنرال نوجيس المقيم العام فى ساحة النجارين بفاس بأن هنالك رؤوسا حان قطافها ، فأقفلت الصحف ، ومنعت الاجتماعات وعادت اشباح الحكم العرفى وفتحت السجون والمنافى ابوابها وباختصار فقد اقفلت منافذ الشلال لتعود الى حالتها فى الكبت والانغلاق ، على امل انطلاقها فى يوم من الايام ، وكان مدير مدرسة « النجاح » اخى وصديقى الاستاذ محمد الحمداوى قد اعتقل بعد أن تزعم مظاهرة جابت المدينة القديمة بالدار البيضاء وبحكم نوعية ظروف القمع تلك فان الشق الثانى من النهج البيداغوجى فى ذلك الوقت ، والذى كان يتمثل فى « التشغيل الوطنى » قد اضطر الى الانسحاب ، ولكن من ساحة المدرسة فقط .

وكان علينا ان نضمن للمدرسة دوام السير والتسيير وبالاسلوب التى كانت تقتضيه تلك الظروف خصوصا ، بعدما اصبحت مضايقة جيراننا فى دار الخليفة سافرة واحيانا مثيرة ومستفزة فى احايين اخرى .

ويظهر أن الخطة فى هذه الفترة كانت تقضى بمواجهتنا بحرب نفسية تجلت فى توجيه الدعوات الى والى غيرى من المعلمين فى المدرسة لاجراء بحث معنا اغلب ما تكون مواده شفاهية وسخيفة ، وعلى درجة

ساذجة من السخف فى الكثير من الاحيان ، وكنا « ننجح » فى هـــذا الامتحـــان .

ويظهر ان « سعادة » الخليفة فى ذلك الوقت ، قد اعجـــب بموهبتى فى « الحوار » او هذا ما خيل لى على الاقل ، ذلك انه اخبرنى فى احدى المناسبات بانه يحمل لى مفاجأة ولكنها سارة — على حد تعبيره ، وبعد مقدمة من نوع المقدمات التى يستخدمها اصحاب الافاعى قبل اخراج افاعيهم من الصناديق ، صدع بالمفاجأة وقال : انه تحدث الى المسيو احمد فى امرى واثنى على « فطانتى » و « حسن عقلى » وان المسيو احمد ابدى رغبته فى ان ازوره بمكتبه بالبلدية ، ولم اكن بحكم ترتيبى السلمى فى المدرسة، ولا فى الحركة ولا بحكم سنى كذلك فى وضع يسمح لى بان اجتمع بالمسيو احمد ، ولم اكن اعرف عنه الا انه اسمه « المسيو احمد » مع ما كان يثيره اضافة احمد الى المسيو من استغراب وعلامات استفهام ، وكان على ان اعبر عن سرورى بهذه الفرصة ، ولا ادرى هل كان ذلك من باب اللياقة ام من قبيل « الديبلوماسية » بلغة اليوم « ام من هو قبيل الاعتزاز بمقابلة المسيو احمد فى مكتبه بالبلدية ، التى كان بالنسبة للجماهير المغربية لغزا من الالغـــاز ؟ ؟

وكان على بعد « قبول الدعوة الكريمة » ان استشير اولا ، وان اكتسب معلومات عن شخصية المسيو احمد فاسال اهل الذكر ، وعلـــى الفور قفزت امام عينى شخصية المرحوم السيد المختار بن عبد السلام ، الذى كان يومئذ رئيسا لجمعية قدماء تلاميذ مدرسة ابناء الاعيان بالدار البيضاء ، وهو بالنسبة لى « خبير » فى شؤون الحماية والحماة ، فقصدته ليحدثنى عن المسيو احمد ويخبرنى بانه جزائرى فرنسى ، فقلت ولماذا بقى احمد ، مع انه « مسيو ؟ » فرد على بان الجنسية الفرنسية لا تنافى مع الاسم المسلم ، وزاد بان المسيو احمد من نوع « الفرنسيين الميزلمان » واغتنمها الحاج المختار رحمه الله فرصة ليزودنى بمعلومات اضافية عن المسيو احمد وتاريخ وصوله الى المغرب والمناصب التى تقلدها ، وانـــه شخصيا مرتبط بالمسيو احمد بنوع « انتيم » من الصداقة « اى « حميم »

وأبى رحمه الله الا ان يتفصح على بفرنسيته التى كانت رصينة وذات رنين ، والحق يقال .

ومضيت ليلتى أتخيل المسيو احمد ، وهو جالس على مكتبه ، الا اننى كنت أشعر بشىء من الضيق لدخولى دار البلدية والاجتماع الى المسيو أحمد فى تلك الظروف ، ومن يدرى فقد تكون هذه الدعوة بمثابة (( فخ )) يضعنى فى نطاق الشكوك من طرف اخوانى الوطنيين ، وهو اسلوب كان بعض الحكام الفرنسيين يستخدمونه فى نطاق ما كانوا يسمونه (( بعملية الاحراق )) وهى عملية ما تزال تستخدمها حتى الآن مصالح الجواسيس ومصالح الجسوسية المضادة .

الا اننى كنت اطارد هذه الشكوك وابرر تلبيتى الدعوة بانها تجرى بعد استشارة ما تبقى من الاخوان .

وحان موعد اللقاء مع المسيو احمد وكان علي ان اتوجه الى دار البلدية مرفوقا بسعادة الخليفة ، حيث ركبت لاول مرة فى حياتى سيارة اميركية الصنع الى جانب سعادة الخليفة ، ولعل هذه الرفقة كانت داخلة فى عملية الاحراق ، اذ لم يكن من المشاع يومئذ ان يظهر شخص وطنى فى مشهد (( مريب )) كهذا ، ومع ان الجاه والسلطة يتميزان عبر العصور والاحقاب بشىء غير قليل من اثارة الشبهة فانهما فى ذلك العهد من ذلك الزمان (( جنة )) حفت بالمكاره والشوائب ، ودخلت مع سعادة الخليفة حيث تسابق رجال المخازنية الى السلام الى سعادته ، وصعدنا الدرج وما زلت اذكر فيما اذكره ان مكتب المسيو احمد كان يوجد بالضبط حيث يوجد مكتب العامل اليوم بمقر عمالة الدار البيضاء .

وبينما كانت الاعين مصوبة نحوى عبر الفناء ومن خلال النوافذ ، كنت اشعر بشىء من الدهشة وباحساس لم اشعر بمثله الا فى تلك الليلة التى دخلت فيها الى المحراب بمسجد المخزن لاول مرة لقيادة صلاة التراويح ، قبل هذه (( الساعة التاريخية )) بسنة من عمر الزمان .

ودخلت مكتبا فخما بزرابيه المبثوثة الملونة وبمقاعده الوثيرة التى لم اكن قد رايتها فيما قبل ، فبالاحرى القعود عليها ، وكان المسيو احمد واقفا

وراء مكتبه فمد الى يده مسلما ثم جلس بعدما طلب منى الجلوس ، وبدأ الحديث بقوله ، ان سعادة الخليفة قد تحدث له عنى واطنب فى مدحى لانه مثل سعادة الخليفة يعجبه الناس (( العقلاء )) حتى ولو كانوا صغارا مثلى ، ثم اخذ يحوم حول الحمى يوشك ان يرتع فيه .

فسالنى عن اصلى ومسقط راسى ومستوى دراستى ليتفرغ الى القاء درس فى التاريخ تناول فيه تاريخ الاتراك فى الجزائر وما صبه حكامهم على اهلها من انواع التعسف وضروب الاضطهاد ولم يفته ان يلمز ويغمز حكام المغرب هم الآخرين ويصفهم (( بالمستبدين والفوضويين ليخلص الى القول بان مجىء (( الدولة الفرنسية الفخيمة )) وهذا هو الوصف الشائع التى كانت توصف بها فرنسا يومذاك فى اقطار الشمال الافريقى .

وضرب لى مثلا بما انجزته الدولة الفخيمة ، وكيف ان الجزائريين عرفوا كيف يتكيفون مع (( رسالتها الحضارية السلمية )) .

ثم عاد مرة اخرى الى شتم تاريخ المغرب مشيرا الى (( الفتن الداخلية )) ومركزا بصفة خاصة على حوادث سنة 1907 وللحقيقة فاننى ما زلت اذكر ان المسيو احمد كان ماهرا فى التقبيح والتشويه وفى الاختلاق ايضا ، وكان ولابد من ان يثير امر ما جرى فى تلك الايام من حوادث دامية فقال ان بعض المغاربة لا يعترفون بجميل فرنسا حينما يعمدون الى اثارة العراقيل فى طريق رسالتها النبيلة )) وانه من حسن (( حظ المغرب )) ان اولئك المغاربة لا يمثلون سوى اقلية من (( المشوشين )) الذين تتبرا السلطات من افعالهم

ولما وصل المسيو احمد فى (( عرضه القيم )) الى الحديث عن التعليم الحر وصفه بانه (( سم زعاف )) وان التلاميذ بدلا من ان يتعلموا امور دينهم اسوة باجدادهم فانهم يلقون (( دروسا اجنبية )) تعلمهم الزيغ والفساد ، ولذا فانه منذ الآن لا يسمح لهذه المدارس بان تكون اعشاشا يبيض ويفرخ فيها (( المشوشون )) وبينما كان المسيو احمد يتفصح على

فى محاضرته مستخدما عبارات من الوعد والوعيد ، كان رأس سعـادة الخليفة فى حركة دائبة لا تفتر تعبيرا عن موافقته ، بـل واعجابـه بتلـك (( الدرر الغالية )) التى كانت تتوالى تباعا من فم المسيو احمد ، واخيرا افهمنى بأن مدير المدرسة قد نال جزاءه وان نفس العقاب سيلقاه كل من يحاول السير على نهجه وسننه ، منذرا بان الادارة قررت القيام بعمليـات تفتيش دورية على المدرسة لمراقبة المواد التى تدرس فيهـا ولـم يفـت المسيو احمد أن (( يتكرم )) علي بابتسامة عريضة فقمت لتوديعه وانصرفت بصحبة (( سعادة الخليفة )) الذى أبى فى هذه المناسبة الا ان يترجم حركات راسه فى مكتب المسيو احمد الى شرح وتحليل ليوحى الى بوجاهـة آرائه التى كانت فى واقع الامر لا تعدو أن تكون مجرد تعاليـم ومحاولـة لفرض توجيه بعينه يرمى الى تكييفى بآراء المسيو احمد الذى لم يتردد فى الافتخار والاعتزاز بتكييفه الفرنسى .

وكنت قررت مع نفسى فى مرحلة هذا الحوار الذى كان جاريا يومذاك بين الشرق الذى هو انا ، وبين الغرب الذى هو المسيو احمد ان اكتفى بالاستماع وان اتعلم اشياء كنت اجهلها وطلب الى سعادة الخليفة ان اظل على اتصال معه وانه والمسيو احمد مستعدان لتلبية مطالبى فشكرته على عواطفه النبيلة هذه ووعدته خيرا .

وبعد مرور يومين اثنين فقط عن هذه المقابلة وقع حادث كـان مـن شانه ان يزيد مهمتى صعوبة وتعقيدا ، ذلك انه فى صباح اليوم الثالـث وجد منشور ملصق على باب دار الخليفة يندد بتدابير القمـع ويصـف الجنرال نوجيس (( بالمقيم السفاح ، ويختتم بان الشعب اذا أراد يوما الحياة ، فلابد انيستجيب القـدر . ))

وما ان وصلت الى باب المدرسة فى صباح ذلك اليوم حتى وجدت المقدم الاسمر فى انتظارى يخبرنى بأن سعادة الخليفة فى انتظارى منذ الصباح الباكر ويستعجلنى فى مصاحبته الى دار الخليفة ، وكنت فى هذه المرة قد رتبت افكارى ترتيبا ابجديا لمواجهة الشوط الثانى من هـذه المباراة التى فرضت علي فرضا .

وما ان وقفت امام الخليفة حتى قام وهو فى حالة من الغضب والانفعال والمنشور فى يده ، ومن غير سلام ولا كلام : صاح قائلا : بأى وجه يمكننى بعد هذا أن اقابل المسيو احمد ؟ حتى اذا ابديت اندهاشى من موقفه المفاجىء سلمنى المنشور وهو يقول اقرأ ، اقرأ ، هذه المصيبة » واخذت المنشور حيث القيت عليه نظرة ثم قلت : انه لامر عجيب فرد على الخليفة : أهذا كل ما استطعت أن تقوله ، ام لم تكن على علم به ؟ فابديت استغرابى مرة اخرى ، فازداد غضبه وتضاعف انفعاله ثم سالنى عن معنى كلمة « السفاح » ففسرتها له بمقتضى القاموس ، وعاد فتساءل : كيف يمكن اطلاق مثل هذا الوصف على فخامة المقيم .

فقلت انها السياسة يا سعادة الخليفة .

فرد على انه « لعب الدرارى » فقلت ما دام الامر لا يتعدى « لعب الدرارى » فدع « الدرارى يلعبون » فما كان منه الا ان صوب نحوى نظرة ذات مغزى عميق وكنت ما ازال واقفا اذ لم يأذن لى سعادته بالجلوس مثلما كان يفعل فى مناسبات اخرى .

واخيرا امرنى بالانصراف حتى يحتاج الى ودلتنى اشارة يده على نوع من التهديد او التخويف .

ومر شهران او ازيد بقليل ، نشطت خلالهما حركة المناشير ، وظننت ان سعادة الخليفة والمسيو احمد قد نفضا ايديهما منى ، وان الحوار بين « الشرق والغرب » قد توقف او انتهى ، واننى كفيت شر هذه المباراة الالزامية والالتزامية ايضا ، بيد ان ظنى لم يكن فى محله ، ذلك اننى تلقيت دعوة بالحضور ولم تكن الدعوة فى هذه المرة من دار الخليفة » وانما كانت دعوة مكتوبة على ورقة زرقاء تطلب منى التوجه الى ادارة الكوميسارية فى مقاطعة مرس السلطان ، ومع أن هذا التطور فى « الحوار » لم يكن يحمل على التفاؤل ، فانه على كل حال لم يكن يبعث على التشاؤم الشديد ما دامت الدعوة لم تكن صادرة عن ادارة الكوميسارية سنطرال ، التى كانت تعتبر دعوتها تؤدى الى اتجاهين اثنين

أولهما العصا ، وثانيهما الحبس ، وبالفعل فان هذه الدعوة كانت مجرد لون آخر من ألوان حرب الاعصاب التى كان الوطنيون يتعرضون لها فى تلـــك الظـــــروف .

وعدت لاتساءل مع نفسى ، كيف ستكون خاتمة هذا المسلسل ، وفى مثل هذه الحالة فانه لا يسع المرء الا ان يترك الاقدار تفعل ما تشاء ؟

وبعد ايام قلائل زارنى المقدم الاسمر ليحمل الى « بشرى » دعوة سعادة الخليفة الى وليمة عشاء من منزله وفوجئت بحضور المسيو أحمد فى مأدبة العشاء مع بعض مساعديه من الفرنسيين ، وكانت والحق يقال ، وليمة فاخرة أعقبتها سهرة تبين لى من خلال الاحاديث التى جرت فيها اننى امام عملية مما اصبح معروفا فيما بعد بعملية « غسل الدماغ » .

ومع اننى لم اكن اتوقع حضور المسيو احمد فان مقابلته الاولــى وصولاته وجولاته على داخل مكتبه تركت فى نفسى انطباعا بأننى كنت مقصرا فى الرد عليه وتصويب بعض آرائه ، وشعرت بأن الدهشــــة التى كانت قد عقلت لسانى فى تلك المقابلة لم يكن لها اى تاثير علــــى فى هذه المادبة ، واحسست بنوع من الشجاعة لم أتردد معها علــــى مصارحة المسيو احمد بان كلامه عن تاريخ المغرب ليس كله صحيحــا ومن ثم فانه لم يكن مصيبا فيه كله ، وان كان مصيبا فى بعضه ، وان مــا عاناه المغرب قبل الحماية من فتن وفوضى انما هو من فعل جاسوسيـــة دولية جعلت المغرب بعد الجزائر لابد وان يكون امتدادا للوجود الفرنسى فى افريقيــا الشماليـــــة .

وانطلق لسانى وزالت عنى الدهشة بنفس الصورة التى كنت عشتها منذ سنتين فى محراب جامع دار المخزن حيث قراتحزبين اثنين مــــــن القرآن فى ثمانى ركعات دون ان يلقننى احد من المصلين ، وساورتنى نشوة الانتصار على المسيو احمد ومنطقه ، فحاولت ان ازداد اندفاعا لـــــولا غمزات سعادة الخليفة التى اوحت الى بان نشوتى ربما تكون قد بلغت ذروتها ، الا ان المسيو احمد لم يستسلم وراح يرمينى بشتيمة صفر سنى

واننى ضحية عملية « تسميم » تحتاج الى عملية مضادة ، اما سعـــادة الخليفة فانه لم يخف اسفه على ضياع الشباب فى متاهات السياسة التـــى لا يقدر عواقبها الخطيرة ومرت السهرة بخيرها وشرها ، ووقع ما كنـــت انتظره من لوم وتانيب من سعادة الخليفة على هذه الجراة التى لم يكن يتوقعها منى ، ولم يكن يعلم سعادته أن هذه الحفلة كانت بالنسبـــة لـــى حفلة وداع » ذلك أننى كنت قد قررت الرحيل الى الرباط فى اقامة نهائية تريحنى من ثرثرة سعادته ومن توجيهات المسيو احمد التى كانت تمتدح الدخول الى قمقم التجنس والاستعمار ، وبمنطق يتحكم فيه التعالى والاحتقار لكل ما هو مغربـــــى ! !

ودارت الايام ، وانمحت من ذاكرتى او كادت شخصية المسيـــو احمد وما كانت تحمله من ذكريات ، وكبر حجم الاحداث وكبر معـــــه حجم الكفاح الوطنى ، وتغيرت المفاهيم والوسائل ، وأن لم تتغيـــــر الغايات ، وقضت الحتمية فى أرضية الكفاح أن نلتقى مع اخـــوان لنا مـــن الجزائر الشقيقة ، وبما اننا كنا السابقين فى ميدان الكفاح المسلح ، فقد رحبنا ولم يكن لنا بد من ان نرحب بمبدأ التشاور والتعاون والتنسيق ، الا انه لم يكن لنا بد كذلك من الاختلاف فى وجهات النظر وفى تقييم الظروف والملابسات لكل من بلدينا وذلك على أساس أن الكفاح هو قبل كل شىء ، رأى وتدبير بالاضافة الى انه شجاعة واقدام » ولئن أقتضى الامر أن يتخذ فى بعض الاحايين شكلا من اشكال المغامرة فان المغامرة نفسها فـــى الكفاح لابد لها من حسابات تضبطها حتى لا تنقلب الى مجرد عمليـــــة انتحار مجانى ، وكان هذا المنطق يحتم علينا خلال فترة الكفاح التمييز بين الكفاح الشعرى الذى يسوغ منطقه العاطفى « رفع البحيرة على ظهور الجمال » ما دام الامر امر كلام ، وبين الكفاح العملى المضبوط والمنضبط فى نفس الوقت ، وكنت فى تلك الفترة ارفض كل وصاية تعرض علينا فى اى شكل من أشكال التوجيه ، وكنت اناقش هذا الموضوع مع بعض اخواننـــا من المناضلين الجزائريين الا انهم لم يقنعونى بوجهة نظرهم كما اننـــــى — بالطبع لم افلح باقناعهم بوجهة نظرى .

وتدخل بعض اخواننا من رجال الثورة فى مصر لاقناعى بصحة وجهة نظر اخواننا الجزائريين ، مصرين على ان تحفظاتى فى غير محلهـــا ، وان

الكفاح هو مرادف ألاندفاع ، الا أننى قلت يومئذ ان الاندفاع بدون قوة فى ((الفراميل)) انما هو انتحار واذا كان اخواننا الجزائريون يقيمون الامور من زاوية جزائرية صرفة فاننا وهذا حقنا نقيمها من زاوية مغربية وجزائرية ، وذلك بحكم الظروف والملابسات والمميزات والفوارق التى كان مـــن المستحيل يومئذ التعامل عنهـــا .

وفى اطار هذا الحوار تفضل أحد اخواننا المصريين ، وعقد لنا ندوة فى بيته — بمدينة مدريد ، برز من خلالها مرة أخرى تباين فى الوسائل » وكان من جملة من تناول الكلام فيها اخ مناضل من الجزائر خرج بالموضوع عن أرضيته الحقيقية ، فراح يلقننى دروسا فى تاريخ المغرب وكيف أن انعدام (( الروح الثورية )) فيه تركته عبدا ذليلا وأفاض القول فى صب الاوصاف والنعوت المشينة على الدول المغربية على اختلاف أنسابهـــا وأزمنتهـــا وأمكنتها بينما كان أخونا الآخر المصرى يحرك رأسه علامة على الرضى والاقتناع ، ومع أننى شعرت بشىء غير قليل من الحرج وبشىء غير يسير من فعل الخدش فى عواطفى فاننى فضلت أن ألوذ بالصمت .

وفجأة قفزت الى ذاكرتى صورة ووردت على ذهنى خاطرة ، أمـــا الصورة فهي صورة المسيو أحمد وبجانبه الخليفة فى ذلك المشهد الذى كنت فيه منذ سنوات فى مقر البلدية بالدار البيضاء أنصت الى محاضرة المسيو أحمد فى شتم تاريخ المغرب وفى صب أبشع النعوت والاوصاف عليه وعلى حكامـــه وشعبـــه .

أما الخاطرة فهى جملة للكاتب الفرنسى كامو ، يقول فيها (( أن الروح الثورية )) اذا لم تكن منضبطة بالفكر المخطط الواعى ، فانها قد تتحول الى حيوان تتسم تصرفاته بالضراوة ويومئذ تتحقق القولة المأثورة : ان الثورة تاكل أبناءها ، وهذا بالفعل ما حدث لاخى (( المناضل الجزائرى )) الـــذى كان يشتمنى عبر تاريخ بلدى وربما عن حسن نية .

وبالرغم عما هنالك من فوارق فيما بين المناسبتين والشخصين ، فان صورة المسيو أحمد بقيت ماثلة أمامى طوال تلك المدة التى استغرقتهـــا (( النـــدوة الفاشلـــة )) .

ولا ادرى لماذا عادت هذه الصورة نفسها تقفز فى هذه الايام الـــى ذاكرتـــى .

فهل أن الامر يتعلق بحالة من الحالات التى تحدث عنها فرويد ؟ أم انها اضغاث احلام فى حالة يقظة ؟ كما يقول ابن سيرين مفسر الاحلام ؟ لا ا د ر ى !

ولكى اتخلص من الحاح هذه الصورة على ذاكرتى فاننى قــررت ان اضعها داخل أطار هذه الصورة المكتوبة واضمها الى مجموعة صورى التى احتفظ بها من ذكريات زمان ، ويا له من زمان كان اسبق الـــى تبنـــى شعـــــار :
العـــزم والايمـــــان .

الـــربـــاط
احمـــد زيـــاد

# المعاناة والتجربة
## عند حازم سعيد

وحيد الدين بهاء الدين

المعانـــاة الفكريـــة أو التجربة الشعوريـــة تختلـــف مآتيهـــمـــا ومسبباتهما ؛ باختلاف الشخصية الادبية ؛ هذه التي تجتازهما بعـــد أن تكون قد سكنت اليهما ؛ وتفاعلت معهما ؛ وتأثرت بأصدائهما المنعكسة . مادام لهذه الشخصية ، واكثر من غيرها من الشخصيات الاعتيادية ؛ القدرة المتاحة ، على الاخذ والعطاء . . التأثر والتأثير ، ، الانسجـــام والانفصـــام . .

فليست كل معاناة بالفكر ؛ أو تجربـــة بالشعور ؛ خالصـــة . صادقة بالضرورة ؛ نستطيع التوسل بها ؛ والتوكـــأ عليهـــا ؛ فى بنـــاء قضية ، أو كشف ظاهرة ؛ أو استنباط خصيصة . .

من المعاناة والتجربة ؛ وفى كثـــير من الحالات ؛ مـــا قـــام على مرتكزات من الافتعال والتزييف ؛ تنم سماتها على تهافتهـــا وبطلانها . والناقد — بما يؤتى من ذوق ويقظة — يتمكن فى دراسة منهجية واعية ؛ أن يربط بين الشخصية المدروسة والعوامل الموضوعية التى بلورتها

واتاحت لها دواعى الظهور ؛ الى حد ، تبدو معه ، مؤشـرات المعاناة او التجربة ، واضحة جلية ؛ من حيث الاصالة والضحالة . . الايجابية والسلبية ؛ فاذا هاته المؤثرات ادلة واقعية امينة ، تعين على اصدار حكم صائب ؛ أو اقرب الى الصواب ، على الأثر الأدبى .

من خلال خبراتي عبر سنين طوال ايقنت ان هناك شعراء وادباء ينظمون او يكتبون من غير ان يكونـوا قد جابهوا المعانـاة أو مارسوا التجربة ؛ ثم لا يتوانون — وهذه احدى عجائـب الادب والفـن — ان يغيروا او يبدلوا هذا الذى نظموه وكتبوه ، قصداً أو لآخـر ؛ وحسب مقتضى الحال والمزاج ؛ اما لتحقيق رغبة عارضة ، واما لارضـاء سلطان من السلاطين ؛ حتى تجد ان كل ما هنالـك مسـخ للواقـع ؛ وتجديف على الحقيقة ؛ وخروج عن الفن ؛ لا لشىء الا لايهـام القارىء ان ما يطالعه ؛ هو الصدق بعينه ومينه ، والحق بصولتـه وروعته ؛ والحياة باصدائها وزخمها . .

هنا تأتي وظيفة القيم التعبيرية . والمفروض ان تكون ذات ايحاء وايماء . ذات دلالة وامتلاء ، لاضطلاعها بمسؤوليـة تأطـير المعاناة او التجربة على نحو من الانحاء ؛ والتركيز على انوارهـا وظلالـها ؛ وتشخيص ابعادها ثم تكثيف ملامحها ، كي تتحقق فى النهاية ، المعادلة الفنية الى جانب الوحدة الموضوعية ؛ اللتين لولاهما لمـا عاشت فى دنيانا ، شرقا وغربا ، شوامخ الاثار وخوالدها .

فالتعادل التجريبى والتعبيرى ، ضرورى فى البناء الادبى ، حفاظا على اصالته ومستواه ، وتمكينا له من اسباب البقاء والخلود .

انما تأرجح احدى هاتين الكفتين ، محمول على غير محمـله الطبيعى المراد ؛ كأن يكون هناك ، انحراف أو عبـث . . نقـض او رفض ، ، خيانة او تنكر ، ، أو ما الى ذلك .

أما الذين لا يعيشون المعاناة الفكريـة او التجربـة الشعورية ؛ بالمعنى الاوفى الاصح ، ثم يعمدون الى التصوير والتعبير معاً ؛ كيفمـا

تمليــه نوازعهم ؛ وتستدعيه مصالحهم ؛ فلا يلبــث أن يطفــو زيفهــم وتزييفهم كالزيت فوق السطح من جانب ، وتتعرى حقيقتهم الداخليــة من جانب ثان . فالعمل الادبى المزور المصطنع ، يدل على نفســـه بنفسه ؛ تلميحاً أو تصريحاً . .

ثم قد يعبر شعراء وادباء عن معانـــاة وتجارب ؛ لم ينصهروا فى بوادقها على وجه القطع ؛ بل سمعوها من الآخرين او قراوا عنهـــا ؛ أو التقطوها من هنا أو هناك . . ذلك وارد ، ،

لكن مهما يكن فالاتيان بما لا يمت الى أصالة الفرد وواقعيتـــه الانسانية اقحاماً وتكلفاً ، لا يمكن أن يغيب عن فطنة الناقد ، الساعي وراء الحقيقة والقوة والصدق ؛ فى ما يجري من أبحاث وعمليات ، وفى ما يرى من قيم وصيغ ؛ والباحث — الى جانب ذلك — عـــن الحقيقة الداخلية للاشياء ؛ كل الاشيـــاء .

* * *

حازم سعيد (1) وان كان من المقلين ، فان انتاجه الشعـــرى والنثرى معاً ؛ يخضع لبواعث العقل والقلب كأكثر الشعراء المبدعين من العرب فى القديم والحديث . بمعنى انه يؤمن بالمعاناة الفكريـــة والتجربة الشعورية ؛ ايمانه فى ما بعد ؛ بقدرته ؛ على العطاء التلقائى الاصيـــل .

كنت تراه أياماً وشهورا ، وقد آثر الانزواء والصمت لا يدنـــدن ولا يتمتم . بل ركن الى قضاياه الاخرى يعالجهـــا بكليته ، بعيـــدا عن سبحات الخيال والاحلام ؛ ومناغاة الطبيعة والجمال .

لم يكن يقول الشعر ؛ لمجرد القول ؛ تطميناً لشهوة ؛ أو تطلبـــاً لشهرة . . كذلك لم يكن يتصنعه كبعضهم تصنعاً ؛ حتى يقال عنـــه : انه شاعر جـــد شاعـــر . .
الشعر عنده وحي والهام ؛ تتأتى أسبابهما عفوياً . .

فاذا كان الشيء الذى يتفاعل فى قراره ؛ أو الخلجة التى تتـردد بين جنباته ؛ أو الشرارة التي تجتاح خياله ، فانه يفـزع الى وسيلتـه التي لا ندحة له عنها . .

اذ ذاك يصور هذا كله باخلاص قصي الأمدى ، ويعبر عنه بما يتاح له من ثقوب الرؤيا ووضوح الفكرة ؛ ومتانة السبك . .

من اجل هذا كله ، نشعر حازم سعيـد صورة لنفسه وعقلـه ؛ ومـا تعاورهما على الزمان والمكان . صـورة لتجاربه فى الحيـاة وما اكتنفها من أهواء ومعضلات . . صورة لاناس خالطهم وشاركهم ؛ ومن ثم وعى تناقضاتهم وطموحاتهم .

انت شيء له صـدى فى وجودي وانصباب من عالـم محجوب
وانـا انت ثـورة، وشبوبـا ومسـيراً فى مهمـه خلبـوب
جيء بـي للوجود دون اختيـار وارانـي أعقبـت شر عقيـب
انا كالريـح فى الذي غنمتـه من غبار الحياة عند الهبـوب
جاهلا مبعثي وموقع سـيري ومرامي من جيئتي وذهوبـى
وسألقـى حقيقتي حيـن امسي عن شعورى بها اضل غريب (2)

انه ، بالرغم من تأثره بقصيدة « الطلاسم » لايليـا ابى ماضى ؛ ولو بعض الشيء ، فان معاناته الفكرية ظاهرة الحدة ؛ عميقة القرار ، لانعكاسات خطوطها البارزة . غير انه لا يقوى على الاعراب عن مـا يجول فى خواطره ، ويغور فى اغواره ؛ كنتيجة حتمية لصراع القيـم والمفهومات والمعاني المتناقضة عنده ؛ وهو يحاول افرازها والكشف عن منطلقاتها ؛ الا بهذا النحو الساخن ، رمزاً لوجوديتـه الهائمـة فى ضباب الشك والحـيرة ؛ والسادرة على الفطرة فى درب كلـه اشواك التساؤل والبحث المضنى . .

ولغته الشعرية فى قصيدته « الليل » هذه — وهى من قصائده العظام الفخام — ذات دمدمة تثير الصخب ، وذات هدير يعكس الصدى ويترامى به عبر الآفاق ؛ حتى يوائم هيبة المعاناة التى خاضها الشاعر الحازم ؛ وكابدها . .

ابهذا الظلام والموت فجر كامن فى شعاع نجم غريب
ايس بدعاً ان تستبد بك الاضداد ما بين مطلع ومغيب
فأنا فى الوجود منذ احتوى النور فؤادى وشف عن كل طيب
هاجس رعشة الردى بكيانى فى عراك مع الحياة صخوب
مستبد بي الصراع فهدم فى بناء وهداة فى شبوب
قد عرفت الوجود مسرح ضدين وملهاة كل غض غضوب
ورايت الحياة مغنم طاغ وطريق الفناء للمغلوب (2)

ان نظام الكون سرمدى لا يخمد ؛ قائم لا يتلاشى . وما الاضداد التى تطالع الانسان بين حياته ومماته ؛ وتعود عليه بما يطمئن اليه او ينفر منه ؛ الا واقع هذا النظام الازلي الابدي وطابعه غير المتغير . يقول الشاعر متسائلا ومركزاً الضوء على النقائض والاضداد والصراعات المضنية :

ما الذى اغضب الطبيعة حتى اعولت فى الظلام اعوال ذيب ؟!
اهو صوت الضمير حشرج فى النفس ودوى على الربى والسهوب
أم صراع الاضداد من فكر القلب واصداء وقعها المستريب
أم هدير الاقدار فى ظلمات الغيب ما بين جريها والوثوب
أم هوي السنين والصرخة البتراء تحدو الجنوب اثر الجنوب
أم سهام من خيمة الله ترمى كخيول الفناء يوم حزيب

ام صراخ البرىء حرقه الثــــأر    واذكـــتــه أنــة المحــروب (4)

وحازم سعيد كأي شاعر عقلاني غشتــه غاشيــات التشــاؤم ؛ واللاادرية فى مطلع حياته الادبية ، بسبب من اخفاقه ولو وجدانيــاً فى تعليل اسرار الوجود الذى يغلفه بأزليته وأبديته فى الداخــل والخارج ؛ وبسبب من ضآلة ــ وان شئـت فقـل انعــدام ــ خبراته فى مجالي الحياة ، والحضارة ، وبسبب من انكماش فكره وقصور خياله ؛ ثـم ترددهما فى تمزيــق اكفانهما بغيــة الانفتاح والانسياب فى هذا العالـم المنظور ؛ وغير المنظور ؛ النهائي واللانهائي :

يالهــي وقــد ابحثــك نفــسى    وتلفحت بعدها بالغيـــــــوب

قد تمشت على جبــينى شكوى    زعــم الظن انهــا من شحوب

هي شكوى الشباب أرهقه الشك    مأذونــه عاصفات الخطــــوب

هي شكوى هواجس ثائــــرات    عن يقيــنى معيــنه فى نضــوب

يـــا الهــي وكل ايمـــان نفسي    سورة الضعف فى فتــى مغلوب

بــك قــد امرعت نفــوس بني    الدنيا ونفسي ما تنقضي فى ندوب

جرح قلبــي وجرح ايمان قلبــي    أورثاني في العيش كل جديب (5)

لكن مثل هذا التشاؤم والشك من جهة ، والتردد واللاادرية مــن جهة اخرى ؛ وقد لازم حازم سعيد كالظل فى بداياته ؛ وقد يستحيل لدى الآخرين موقفاً ، يدافع عنه ؛ ويستمات من أجله ؛ سرعان مـــا انحسر متطامناً بحكم تأملاته العميقة وخطواته الايجابيــة وصراعاته الدائمة ؛ حتى افضت به الى الايمان والرضى . القناعة والاستسلام ؛ فاذا بــه يتفاءل مستبشراً ؛ ويتضاءل ذائباً فى بوتقــة الحقيقة المطلقة الخالدة ؛ حتى لكأنه بعث من جديد ؛ هذا هو ذا يقول :

أغريــب عن الزمـــان وعمــري    فى ضمير الزمان غير غريـــــب

اغريــب عن الوجــود ونفسي    وسعــت كل بـــائــن وقريــب

| | |
|---|---|
| اغريـــب عن الحياة وروحـــــي | ولهت بالفناء قبل المغيـــــب |
| قد ارتنيـــك يـــا الهـــى ذاتـــي | فى ثـــلاث من المعانـــي ضروب |
| عمق جرحي واتساع ضمـــــيري | وسمو انتشـــائي بحبيـــــبي |
| كيـــف وجهت فى الطبيعة طرفي | لمحت نـــور ظلك المحبوب (6) |

أما قصيدة « أبـــي » هذه ، وقـــد يخيـــل للقارىء انهـــا قيلـــت بالمناسبة ، وللمناسبة ، فذاك صحيح . بيد أن فيها من المعانـــــــاة البالغة غايـــة الاستواء والثـــراء ، ومن التجربة المستوفى حظهـــا من السخونة والصدق ، ما ينبه الناقد ؛ اول ما ينبه الى وحدتها الموضوعية المتماسكة ، واصالتها الفنية المتميزة ، فالاطار الشعري يستوعـــــب بامتصاص الالفاظ الموحية لزخم من المعانى والافكار ، الى حـــد لـــــو رفعت معه لفظة ما ، عن مكانها الطبيعي الموائم ؛ لوجدت النشـــــاز الموسيقى يخدش سمعك ؛ ولطالعك الارتباك اللغوي يفضح نفســـه بـــشـــنـــاعـــة :

| | |
|---|---|
| وان كان أعيا العقل سر وجوده | فللنفـــس فى احوالها يقظـــــات |
| وان من الاشياء ما يعجز الفتى | وتقصر عن ادراكـــه الخطـــوات |
| ولو كان لي فى الموت رأي مصدق | سلوت ولكن الامور شتـــــــات |
| يرى كل مـــا بني الحياة يؤودها | وكـــل شـــبـــاب لا يسر أذاة ! |
| وقد تجعل النفس الجراح عزيزة | وتصقل لحظ الناظرين تذاة (7) |

فالتوازن الفني فكرة وأداء ، كما تشيع النشوة السابقة المطلوبة فى نفس القارىء ، يتطلب تحقيقه بكل ما يستطيع اليه الشاعر والناثر طـــريقـــاً .

| | |
|---|---|
| قضيـــت فأبكيت المكارم والتقى | وصلى عليك المجـــد والعزمات |
| وقد كانت الدنيا النعيم فحينمـــا | سريت تلقتـــني بـــك الرغبـــات |

كأنــك البســت الزمان أديمــه ودانت لادنى أخمصيك حيــاة
عليــك سلام الله وقفــا فانني تخيلت أن الناس بعدك ماتوا (8)

* * *

تلك هي آيات لمعاناة الشاعر الفكرية . .

اما التجربة الشعورية ؛ فلطالما وقفـــنا لدى الشعراء المحدثين على معان وصور وافكار هي كل مخزونهم وموروثهم . طرقها القدامى وعالجوها بشمول من قبل . الا أن هؤلاء المحدثين اشتقــوا منهــا ، وافاضوا عليها من نفوسهم ؛ ما زادها جدة وقوة ؛ وكساها بـــــرد الثراء والجمال ..

بمعنى أن قدراتهم على هضم هاتيك المعانى والصور والافكار ، شيء طبيعي لا جناح عليه . أما تمثيلها فى ما بعد ، وعلى خير ما يــرام من العطاء ، باضفاء ما يمكن ان يخالج الذاتية الفردية والشخصيـــة الانسانية ؛ وما يمكن أن يتفتق عن واقـــع البيـــئة والحكم والزمان ، فذاك هو الخلق . . والخلق وحده .

وكتمت عنــك الـــنـــار لاهبــة كي لا يزيل رضاك من حرقـــي
شـأن الضنين بما يعذبـــــــه ما نام عنك فكيف لم يفـــق
بهواك انت وما تملكنــــــي سحر كسحرك مبدعاً خلقـــي
لو مد فوق النجم رافعــــــه شركــا يلـــز الـــنار فى عنقـــي
وعلمت طيفك ثم يحضرنــــي بين النـــزوع وآخر الرمـــــق
لركبت نحو الموت كل هـــوى يطوي اليك مجاهل الافـــق
ولهان وقع النـــار وهي قـــذى ممـــا حملت ومن يـــذق يـــذق
أطويـــل ليلـــي ابن من أرقـــي وخد الصباح ولفتة الفســـــق

وزهـــي الـــف ليـــس يزهـــده فى الهجر منظر سيشي الرنق (9)

فما بى شىء الا على شىء موجود . .

كذلك شأن حازم سعيد ؛ فى قصائد اخر ، اذ تأثـر بحكم تطلعاته الاولى — دون أن يبيح لنفسه حق المحاكاة والتقليد الاعمى — عبر صلة الحياة ؛ بعديد من شعراء العرب منهم ، على سبيل المثال ؛ ابو الطيب المتنبى ، وابو تمام وابن الرومى واحمد شوقي ومن اليهم مـــن الفحول ، ولكنه تمكن من أن يجسد افكاره النيرة الخيرة ؛ ويفصح عن طاقاته الضخمة المتفجرة فى أعماقه . اسمعه يقول :

خذهـــا ولا يغضبـــك مـــا فى اللحـــن من خلف كبـــير
فاللــه مــذ خلــق الحيـــاة وجـــاد بـــالمـــوت المريـــر
خلـــق النقـــائـــض فى الوجـــود وقـــال للاكـــوان ســـيري
فـــأنـــا بشعـــري أهتـــدي بضـــيـــاء خالقـــى القـــديـــر
حتـــى تـــخـــال كـــأنـــنـــي والشعر فى كـــون صغيـر (10)

ويقول فى قصيدة « فاتنة » مصوراً الأضداد وصراعها ؛ فى سبيـل الديمومة ؛ وما يسجها على الواقع الانسانى من ديول :

ضاقت بي الدنيـــا على وسعها حتى كأني اليوم فى لحــــــد
ضدان بي قلب رمـــاه الهـــوى ومهـــجـــة تـــفتـــن بالمـــجـــد
ضـــدان بي يـــا سقمي منهما ، والضـــد لا يـــؤمـــن بالضـــد
يـــا منيـــة الارواح إن المنـــى تمتمـــة فى ثغـــرك الـــوردى
وان ابهى السحر اشراقـــــة تومـــض فى عيـــنـــيك والخـــد
وان عهـــداً ضـــم هذا الشذى يـــا فتنتى ناهيك من عهد (11)

نعم ، ان « الضد » لا يؤمن بـ « الضد » ؟ ولكن اليس « الضد يظهر حسنه الضد » ! ؟ هكذا الدنيا والناس ؟ !

فعلى هذا النحو تتجلى فضيلة التجديد لدى حازم سعيد ؛ وتتمثل فى تداعي هاتيك الالفاظ والمعاني ، واستنطاق تلك الصور الشعرية واستيحاء الواقع المادى والروحي للانسان المعاصر .

ثم بعض التجارب الشعورية لقوتها وخصوبتها ؛ تستشرف نهايتها حتى استيفاء نصيبها من كل شيء ، عمقاً وسعة وشمولا . ولعل فى الابيات التالية مصداقا لذلك :

| | |
|---|---|
| يا هند طال علي الليل فاقتصري | فالهجر ان طال مفضاه الى سدم |
| خلقت والفتنة الكبرى تجاذبنى | اليك بين يد رفافة . . وفسم |
| حتى اضعت شبابى فيك وانتهبت | يد المصائب ما ابقيت من ضرم |
| فان تقصيت آمالى واخيلتى ، | رأيت آخر ما ارجوه الى عدم |
| يا من اطال عذابي فى محبته ، | ونام والقلب عن نجواه لم ينم |
| ان المصائب والآلام ان عظمت ؛ | فكالغمام على عيني والظلم |
| يحجبنيوجهك عني ياهواي فان، | كفرت بالحسن . ما طرفي بمتهم |
| والوصل يسعد ايماني ويوقظه ، | والشك رحماك يستوحى من الالم |
| أعيذ شعري ان تشقى بثورته | وعاصف الريح مخلوق من النسم |
| ماتت على السمع اصداء الورى وغدت | اذناي عن غير ذاك اللحن فى صمم (12) |

مع هذا كله نجد الشاعر فى النهاية ، ينوء تحت العبء العقلي والوجدانى ، منهوك القوى . . معصور النفس ، مرهف الحس ؛ مثير النبرة ، يرتعش امام أخف نسمة من نسمات الحب والشوق ؛ ووقفة من وقفات اللقاء والحنين ؛ حتى ليكاد يقع ضحية . .

فان عشقتك لي فى الحب معذرة
انى أرى الله فى اشراقة الحلم

فبض من السحر يستسقيه ذو ظمأ
الى رضاك ويستشفيه ذو وصم

فليت عيني لم تسعد بصيبه
وليت قلبي لم يحبب ولم يهم

بالمحبة الديمة الصدمان واردها
الري فى السماء لا فى لامح الديم

ظللت عمري استسقيك من ظمأ
حتى هطلت بفيضي مقلتى ودم

لو ان بالريح ما بي منك من وله
لساح فى السهل والآكام والأجم

فاستاصل النبت من ادنى مكامنه
واستنزل الطير من أوكاره العصم (12)

* * *

من هنا كان الابداع الشعرى عند حازم سعيد بائن السمات ؛ واضح الخصائص ، بحكم معاناته الفكرية وتجاربه الشعورية . ومن هنا أيضا قال ورد سورث واصفا الشاعر : « انه انسان يتحدث الى اخوانه فى الانسانية فيسمع صدى كلامه فى نفوسهم » . بمعنى أنه

يقـدر على توصيل معاناته وتجاربه الى القارىء حتى درجة الاحساس بها والتعاطف معها ثم التأثـر بهـا .

**بـغـداد** **وحيد الدين بهاء الدين**

---

(1) هو أحد شعراء العراق المعاصرين المعروفين . ولـد بمدينـة الموصل عام 1924 ؛ وبها نشأ ودرس ، حتى تخرج من كليـة الحقوق العراقية عام 1948 . مارس المحاماة ، وتقلد عـدة وظائف ادارية وقضائية ، كـان آخرها رئاسة محكمة « العمل » العليا . وانتقل الى رحمة الله في يوم 24 حزيران 1976 بعد أن صدمته سيارة كان يقودها طائش ؛ صدمة قاتلة أودت بحياتـه . من كتبـه المطبوعة : ديوانه « صوت من الحياة » و « ملحمـة كلكامش » و « قصة حب لم تكتمل » . وله آثار شعرية ونثريـة مخطوطة جاهـزة للطبـع . .

(2) صوت من الحياة / الديـوان / ص 6

(3) الديـوان ص 8

(4) الديـوان ص 9

(5) الديـوان ص 10

(6) الديـوان ص 11

(7) الديـوان ص 26

(8) الديـوان ص 27

(9) الديـوان ص 31

(10) الديـوان ص 44

(11) الديـوان ص 56

(12) الديـوان ص 59

(13) الديـوان ص 62

# ذيل وتعليق
# حول
# قضية المعتمد بن عباد

## القسم السابع

عبد الرحمن الفاسي

ان أسئلة « كيف » وأخواتها ستظل ، كما تجلت فى خاتمة الفصل السابق ، متواثبة على صفحات سيرة المعتمد بن عباد الى ما شاء الله ، واعنى بهذا أننا تجاه فيض غامر من المتناقضات بين شبهات كبوته ، وفادحات كبائر عهده ، وبين ما قيل عن محامد أيامه ، وعن كريم شيمه ، وما شهر من مآثره التى أعيا (1) جمعها على غيره ، على ما عرف من قصر عهده ، وجهمة حظه ، وليس أمام مثلها وسيلة للحد من الحاح التساؤل ، وجهارة الاستفهام ، غير متابعة الاخذ بطريقة رصد تلك الآثار التى تخلفها عادة فى نفس الانسان منزعة بشريته ، ووضعية أسرته وبيئته ، وطبيعة أحداث زمانه ، وروادف النوازل التى حاقت به ، وجماع ذلك بالنسبة الى شخصية المعتمد بن عباد ، ينتصب ماثلا فى الصراع القائم المستحر بين أصالته أو شدة ملوكيته ، كما عبر صاحب المعجب (2) ، أو بين مصاحبة الخلق الملكية ، كما عبر ابن الخطيب (3) وبين آثار

(1) المعجب ، ص : 59 ، ط سلا .
(2) المعجب ، ص : 79 ، ط سلا .
(3) الاحاطة ، الجزء الثانى ، ص : 112 ، بتحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان .

الضعف النفسي ، التى اصطلحت عواملها على مختلف طبقات جيله ، على ذلك الوجه الذى مربنا فى سياقه .

والى جانب شدة ملوكيته التى ينظر اليها أيضا فى المقام ، على أنها ، عماد مواجهة استغلاظ الهيمنة النصرانية ، التى أطاحت بصولة والده ، وجرحت فيه الشمم والكبرياء ، وكسرت منه الجناح ، والى جانب حيوية شبابه التى حفظت عليه تماسكه فى بداية أمره ، فهنالك أيضا فعالية نشاط من القى بيدهم شؤون المملكة ، فد رات عنه الوجل ، وأرثت ما أخذ يخبو فى نفسه تجاه واقع الجزيرة ، الذى عرفنا من حاله ما يوهن العزم ، ويرمض الفكر ، ويسول للكمى المحارب عرض السلاح ، واللياذ براحة البال .

وما من شك فى أن شبح أبى بكر بن عمار ، قد مثل فى مخيلة القارىء الآن ، على ذكر ظاهرة التناقض التى تطبع سيرة المعتمد بن عباد ، فقد عرفنا أن ابن عمار كان أسير عقدة نفسية ، وطالب ملك وسلطان ، وقد صح له من المعتمد وداد فتح له باب النفوذ والتصرف على المصراعين ، حتى أزجته انطلاقة الصولة على مداها الى مطارح العثرات فالزلات ، وكان يتخذ من عزائم مولاه مطية فى مسالكه الملتوية ، ويمزج أهدافه بأهداف مولاه ، حتى لا تنم مواقع خطوه على انحراف فيما ائتمن عليه ، فأصبح من المنتظر أن يقع الباحث على صفحة تاريخ المعتمد ، وهى مجلى متناقضات ، وظواهر مشتبهات .

ولا مفر ، وقد عرفنا فى فصل سابق (4) مأتى ضعف المعتمد فى هوج عاطفته نحو ابن عمار التى ( استغرقته استغراقا وأخذته سورتها أخذا ، وعطلت كل عاطفة فى نفسه غيرها ) أن نستجلى الآن من محيط بلاطه ، وظروف صدر دولته ، ما قد يهدى الى السر الذى أخرج من المعتمد الذكى الفؤاد ذلك المغلب الذى اضطرب به حجاه ، فظاهر عاطفته وزكاها ، وأمره معصب بذوى النهى من ( كابرى الوزراء ) وعمد دولة بنى عباد ، وعلى رأسهم ذو الوزارتين ابو الوليد بن زيدون ، شاعر

4) المناهل ، عدد : 4 ، ص : 288 .

المصر ، ومدير دولة المعتضد والده ، ومظهر صولته كما رصف فى شأنه الفتح فى قلائد العقيان (5) .

والظاهر ان المعتمد انساق منذ بداية أمره انسياقا الى من تفرس فيه من وزرائه وخدامه أنه يحيي مواته ، ويبرى شبابه ، فكانت عواطفه الجارفة دليله الى خدينه ابن عمار ، والى تابعه ابن مرتين ، وهو من مسلمة الاعلاج الذين خبر فيهم المعتمد الانطواء على التفانى والاخلاص ، وكلاهما غفل من ارث الحسب والنسب ، ومن أصالة الحكم والسؤدد ، فعقدة النقص فيهما قارة مستحكمة ، وقد أججت فيهما الطماح ، فهما فى خدمة ولى نعمتهما منطلقان من عقال لكسب الرضا ، والاستئثار بالحظوة والجاه ، وان سيدهما ليبدو من خلال وقدة شبابه ، ومنعطفات وجهة آماله ، ومضايق مسالك خطوه ، وضرورات سياسة عهده ، وكأنه انتهى أمام مضائهما ، وحمى سكتهما الى الحقيقة الراهنة ، وهى أن تصريف الامور فى هذه البهاية ، لم يعد كما يقتضى التدبير معقودا برجال الامس ، ولا لطرائقهم التى لا تتبدل ولا تتغير ، ولا غناء فى دولاب يتحرك الهوينا ، فى حين أن مسيرة اليوم تلهبها النوازل وتستحثها فواجىء الاحداث بكرة وعشيا .

وهذا ما تفيده جرية الايام منذ صدر دولة المعتمد بن عباد ، ويستوحى من تعليق لاحق لشيخ مؤرخى الاندلس ابن حيان .

وقد يكون هذا الذى انتهى اليه المعتمد بن عباد تدبيرا جديا كما اقتضت طبيعة الاحوال ، ولكنه مغمور — كما ترى — بفيض من غلواء المودة التى ملأت عليه فجاج الرؤية ، حتى راى نفسه متقمصة (6) فى صفوة خاصته ابن عمار ، وكأنى بالمؤرخين قد أخذوا أخذا بفراهة شخصية الوزير المشهر البراعات ، وطغى عليهم طوفانها طغيانه على ابن عباد ، فتعلقوا بهذا الوجه العاطفى من الصورة ، وهو الذى يطالعنا عند جميعهم من غير استثناء ، وأحسب أن للصورة وجها آخر تتلمح فيه الاثرة الى جانب ذلك الايثار ، وهو ما تعرضه علينا أيضا طبيعة الظروف

---

**5) قلائد العقيان ، ص : 15 — 79 — 80 ، ط الجزائرى ترجمة المعتمد — ترجمة أبى الوليد بن زيدون .**

**6) المعجب للمراكشى ، ص : 68 ، ط سلا .**

والاحداث ، فكما وضح في الصورة غبش من ضعف البشرية ، يتغشاها ايضا جهام الضعف النفسي لاهل الجيل ، ملوك ورعية ، وذلك ما يستوحيه الباحث من تورية ابن حيان (7) التى القاها تعليقا على ما حباه المعتمد من نفوذ وتأمير لثقتيه المختصين به ، الحظيين لديه ، ابن مرتين وابن عمار ، وما لاقى به من كريه الاعراض والامتحان ، ابا الوليد بن زيدون شاعر مصرهم ، ( واحد الثلاثة كابرى دولتهم ) ، وقد علته الكبرة ، وغشيته العلة ، فاطلق ابن حيان كلمته في وصف الحال فقال : ( ولكل دولة رجال ) ووقف عندها وما زاد ، وهو الطويل اللسان ، فقد كان اشبه بضارب المثل حين أفرغ في هذه الحروف المعدودات كل ما قيل ويقال ، وعلى هديه يمكن ان نسجل على هذا الوجه الآخر من صورة المقام ، أن فراسة المعتمد في خدينه ما كانت لتقف عند حد هذه المهام التى نضا عنه وقرها واعباءها ، ووكل الى ثقة وزيره تصريفها وتدبيرها ، وانما كان ينظر ايضا فيه الى تلك التى تدرأ عنه شائنة ( وضع اليد في اليد ) وتذوذ عنه همسات الناس ، حتى لا يصح عنه انه ما تجافى عن مسلك من داروا في فلك الاعداء ، وصاروا لاذفونش من الخول والاتباع ، فقد كان ( الجميع يساير الامور ، ويدافع الأيام ، ويقول : من هنا الى أن تتم الاموال ، وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتى الله بالفرج ، وينصر المسلمين ) (8) ، وما لهذه ايضا غير ابن عمار ، فهو وحده الذى سيجعل مولاه بنجوة من أوضار هذه الضرورات ، أما الجزية فتقية وقدر ، وأما مسايرة الامور ، فاذا كانت ذريعة الأمان بحكم الزمان ، فهى عند العبادى مما يكتم عن القريب والبعيد ، ولن تعدو الصميم ، والرجوع الى العدو ولو لدفع ما يضار ، نذالة ووساخة ، وتلك شرعة ملوك الاصالة والصراحة ، وكما يضن الابى بسمعته أن تذهب هدرا بخساسات العشق والصبابة ، فكذلك يربأ بها عن ان تتلطخ بقاذورات مضايق السياسة ، وميزة ابن عمار حسن التأتي ، وبراعة الاستمالة في المداخلات (9) واختيار لبوس لكل حال .

---

7) الذخيرة لابن بسام ، القسم : 1 ، المجلد : 1 ص : 355 .
8) كتاب التبيان ( مذكرات الامير عبد الله ) ، ص : 73 .
9) كتاب التبيان ( مذكرات الامير عبد الله ) ، ص : 81 .

وصدق ابن حيان فى قوله : ( لكل دولة رجال ) .

وصدق ابن عباد فيما أجاله بخاطره ، فلا غنى له عن دريئة تحصن اباءه ، وتدفع عنه أدران مقتضيات الاحوال والظروف ، وتستهدف دونه لوقع نظرات العيون ، وتقيه ملاحقات الظنون .

وننتهي من هذا الى أن تدبير المعتمد بايداع وزيره شؤون دولته ، قد آل بدوافعه الظاهرة والباطنة الى الادبار عن مواجهة مسؤولياته ، وقاصمات نوازل مملكته ، فلن يخلو تدبيره منذ انطلاقته الاولى من وحى نزعة لذاته ، وقاهر شهواته ، ومنازع اللذات ، ولاسيما اذا تأصلت بالوراثة ، واستشرت بالنشأة ، كما هى فى شخصية ابن عباد ، فان من العسير التخلص من قبضتها ، والتحرر من ربقتها بحال من الاحوال ، فما هى بالخصلة التى تنطفىء كالوميض ، أو مما يتلاشى من تلقاء نفسه كالفقاقيع ، فتدبيره انما هو فى الاول والاخير ، وبكل توجيهاته مطية بوعى الباطن للانكفاء الى مجالس انسه ، ومجالس صبوحه وغبوقه ، ومراتع لهوه الذى الهاه ، وكان سبب عطبه ، حسب تعبير ابن الابار (10) .

وظهر الفراغ فى ساحة السياسة ، فقد اتيح للمعتمد أسير نزعاته ان يفرغ لاطايب الليالى والايام ، ويستمرىء مباهج دنيا أهدت اليه مواسمها واعيادها ، وكما يرصف المؤرخون بالفواصل والاسجاع : ( وخلعت عليه الشمس شعاعها ) ( واقامت به خيل السرور طرادها ) (11) فكان لا يرى دنياه الا فى لون الورد ، وتحت ضياء الكؤوس المترعات ، وعبق روائح الجنة فى الكواعب الاتراب ، فان انتفض من وسناته ، ففى ساحة الشعر منتجع مغداه ومراحه ، حتى ( طلع (12) فى سمائه كل نجم متقد ، وكل ذى فهم منتقد ، فأصبحت حضرته ميدانا لرهان الاذهان ، وغاية لرمى أهداف البيان ) ( واجتمع (13) له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لاحد قبله ) فكان لا يستوزر وزيرا الا ان يكون شاعرا حسن الادوات .

---

10) الحلة السيراء ، الجزء الثانى ، ص : 54 ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس .
11) قلائد العقيان ، ط الجزائرى ، ص : 7 .
12) قلائد العقيان ، ط الجزائرى ، ص : 4 .
13) المعجب للمراكشى ، ط سلا ، ص : 59 .

وتلك هى الصورة التى انطبعت عنه فى التراجم التى عقدها لـــه مؤرخوه ، وكأن اقلامهم لم تصدر الا عن ميدان جماليته ، ولم تنهل الا من فيض دره ، ولم ينطلق صريرها الا على وهج أيام سعوده ، فتجلى فـــى تراجمهم كما ارادت عواطفهم نحوه ، وكما اقامته نزعات ذوقه بمنأى عن قتامة واقع حياته ، فما كان اصر الجزى ، والاتاوى ؛ التى كان يؤديها صاغرا « لغارسية » أصغر أبناء « فرذلند » ليحد من رحابة نعماء المملكة ، او يقلص فيها اذيال الاعتزاز ، ولا كانت عنجهية « شانجة » فى جباية مفروضاته المختلفة الاحجـــام والاسماء ، المؤكدة لصولـــة « قشتالـــة » واستعلائها على مر الايام ، ليخنق صوت المثالث والمثانى من الشرفات والعلالى ، فكأن الرسوخ فى النعمة قد خيل للمملكة الرائعة فى بسطـــة الحياة ، ولملكها الغافى على سورة الكأس ، ورنات القوافى والاسجاع ان ابناء جليقية الجرداء ، سيظلون ولو مع استعلائهم ، مجرد عفاة ، اربهم فى نفيس الاعلاق ، وهمهم فى احتجان الاصفر الرنان ، وستظـــل افواههم منفغرة للتهارش فيما بينهم على العظام ، فهم لاهون بها عن ذلك المرام الذى طالما جأروا به مع توالى الايام ، وماذا يعنى المعتمـــــــد المتتالع بالاباء ، وهزة المدام ، من مقدم « غارسية » لاجئا الى رحابه فى اثناء حرب الاخوة أبناء « فرذلند » ؟ فما هو بالذى يهتبل له صنيــــــع المامون بن ذى النون بضيافة اخيه « اذفونش » ( الفونش ) » وباحياء مواته والتعلق بمتاته ، والتوطؤ معه على ابناء دينه وجلدته .

ذلك خبر مأثور ، وعلى اى وجه قلبناه ، فلا ننسى أنه من ظواهـــر الفروق فى أصل الارومة وعطاء الدم ، بين ابن ذى النون ، وابن عباد ، والاصالة تظل على موفور صحوتها ، تحت اغفاءة الانتشاء ، وبسياســـة التصافى مع أبناء « فرذلند » لن تغير فتيلا من واقع الحال ، وجلـــــى الاهــــــــداف .

وفى صحوة عبادية يقظى ، وعلى حين غفلة من حركة الاسترداد التى شغلت بذيول حرب ابناء « فرذلند » ، تحرك فى عاهل اشبيلية حشد من عزمات قومه ، فتنفس الصعداء ، وتم له — كما عرفنا من قبل — الظفــــر بفتح قرطبة عام 462 هـ ، على ذلك الوجه المشين ، ولو انه دعى بالفتح

المبين ، فقد كان فتحها اغلى اهداف المعتمد ، وعليها معقد امل وارث اريكة عباد المعتضد ، وكافل هدف المسيرة الحاسمة نحو قرطبة ، معبر جميع الناظرين الـى الزعامة ، فقد اصيبت دون الوصول اليها عزمـات العباديين بانتكاس اثـر انتكاس ، وتكسرت امـام اسوارها اطمـاع رؤسائهم (14) ، واريقت على مشارفها دماء ابنائهم (15) وقادة اجنادهم ، واذا تمثل الباحث ما عرفناه من يقظة « فرذلند » لردع تلك العزمات ، ومناجزة حيل الداهية عباد ، فستبدو حادثة فتح قرطبة على يد المعتمد ، وهؤلاء براح ، مثافن للوجوه الصباح ، فلتة من فلتات الدهر ، او مـن اضغاث الرؤى ،وغنائم الاحلام .

وهنا موضع الوفاء بوعد (16) سابق لاثارة الحديث عن فتح قرطبة عام 462 كشاهد لغير ما سبقت له هنالك ، فأشير الى ان الحادثة أخذت طابع المأساة ، لما اجترح فيها من آثام الخيانة والختل والغدر ، وموبقات السلب والنهب (17) وجريرة الغارة على الروح الانسانية ، باعنات ( الشيخ اليفن ) ابى الوليد ابن جهور ، واهانة ( بناته وكرائمه ) والتشهير به على نحو ما كان يسام المجرمون والخصوم ، عند الظفر بهم من تنكيل نفسى ، امام انظار العموم ، ولن ننسى هنا انه حمل على ظهر زاملة بين عدلـى تبن — كما فعل بعد هذا التاريخ بابن عمار — حين طيف به فى جادات قرطبة ، وهو على مثل تلك الهيئة والحال ، وغمزات العامة تنوشه عـن يمين وشمال ، ولكن حب القرطبيين للجهاورة كان يشيع ابا الوليـد بالآهات ، وبنظرات التأسى لحاله ومثاله ، لا بالغمزات واللمزات ، لاسيما وقد كان الشيخ مقعد زمانة العلة ، مفلوج الشدق ، مائل الشق (18) ولا حكم له يومئذ ولا صولـة .

---

14) البيان المغرب لابن عذارى ، ج : 3 ، ص : 248 — 251 .
أعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، ص : 174 ، ط : الرباط .
15) البيان المغرب ، ج 3 ، ص : 201 .
16) المناهل ، العدد : 3 ، ص : 353 .
17) « الانباء فى سياسة الرؤساء » بواسطة البيان المغرب ، ج : 3 ، ص : 260 .
18) الذخيرة لابن بسام ، القسم : 1 ، المجلد : 2 ، ص : 124 وما بعدها — انظر ايضا تفاصيل القصة فى « اعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ص : 173 وما بعدها — البيان المغرب ، ج 3 ، ص : 261
— وراجع تاريخ ابن خلدون ، ج : 4 ، ص : 344 ، دار الكتاب اللبنانى ، ويلاحظ

انها عناصر المأساة ، كما صورها فى ذخيرته ابن بسام ، وصاحب (الانباء فى سياسة الرؤساء ) ، وتناقلها بعدهما المؤرخون ، كابن عذارى وسواه ، وذلك ما يستوحى أيضا من اسم ( البطشة الكبرى ) الذى اطلقه ابن حيان على ذلك السفر الذى الفه عن الحادثة ، معبرا به عن التنديد بتلك الآثام ، ومعربا عما انتهى اليه بالاخبار ، أو عما اجترح أمامه بالمشاهدة والعيان .

وقد سجل المؤرخون أن المعتمد حينما عزم انجاد عبد الملك ابن جهور صاحب قرطبة . ليجلى جيش ابن ذى النون الذى نهد اليها على غرة ، تقدم بمراده الى قائدى كتائبه ( ونهج اليهما سبيل اصداره وايراده ) حسب عبارة ابن بسام و ( بما يكون عليه عملهما ) كما عبر ابن الخطيب فى « أعمال الاعلام » ولا يدخل فى الحسبان أن المعتمد قد أصبح عندما ( نهج اليهما ما يكون عليه عملهما ) محدثا ، صادق الظن والفراسة ، أو من القارئين فى الكف ، أو عرافا من الضاربين فى الرمل فاذا هو يرى هزيمة أبن ذى النون من وراء الغيب ، فيرسم لقائديه خطة مداخلة أهل قرطبة ، والمباغتة بالانقلاب على الجهاورة ، ويخطط أيضا لما يكون عليه العمل فى اخذهم بوبيل المحنة ، حالما تدور عليهم الدائرة .

واذا صح أن هذا كان تخطيطا مسبقا فى نطاق التدبير لمواجهة احتمال راجح أو مرجوح ، حسب مفاجئات الحروب ، فان مما لا يخطر ببال أن يكون من مراد المعتمد وقد دحر ابن ذى النون ، وتم له الفتح ، وفاز بمنية العمر ، أن يسير بالنهاية حتى يتاخم حدود تلك المأساة ، فما كانت تحركه على الجهاورة نقمة ، وما عرف أنهم نفضوا أيديهم من مصادقة وطاعة ، وقد ظلوا له ولوالده على خصمه ( وتصرفوا بين أمره ونهيه )

ويظهر ازاء هذا ، ومرده الى انسانية المعتمد على الله المنوه عنها من بين خلاله ، أنها أصل سكوت المؤرخين عن ذكر اسمه فى هذا المعرض الكالح ، وذلك تنزيها له عما يتصادم مع طبعه الانسانى، ويتنافى مع شيمه

---

أن بطبعات ابن خلدون خصاصا لم يترك لموضعه بياض ، كما هو المعتاد فى الطبعتين ، وبسبب ذلك الخصاص ، اختلطت فى السياق قصة دخول الظافر ابن المعتمد قرطبة ، اثر استيلاء المعتمد عليها عام 462 ، بقصة دخول المامون ابن ذى النون اليها حين استولى عليها عام 467 ، بواسطة ابن عكاشة ـ كما هو معروف ـ .

بوجه عام ، ومع ما يعهد فى ذوى الاروبات الاصيلة من حنو غريزى ينزع بهم الى صيانة الكرامات ، والى رعاية جانب من كان كالجهاورة علـــى شرف (19) اوجاه حين ينزل بهم القضاء .

ومن ثم أيضا انقلب الباحثون المحدثون من مشارقة ومستشرقـين للبحث عمن كان وراء تلك البطشة الكبرى ، فأشارت الاصابع الى ابـى الوليد ابن زيدون ، كما نرى فى دائرة المعارف الاسلامية ، عند المستشرق كور ، وكما نقع عليه عند الاستاذ فيليب حتى (20) وغيره من الباحثين ، وان الالتفاتة اليه بالذات ، لطبيعية وتلقائية اعتبارا لنباهته ، وتثنيـــة وزارته ، وتثبيته صدر دولة المعتمد فى المناصب التى كانت له على عهـد المعتضد ، فاليه زمام الامر اليوم ، مثلما كان مدبره ومظهر صولته بالامس ، وقد تحمل النظرة العابرة الى بعض التحليات التى أضفاها عليه القدامى من مشارقة (21) ومغاربة ، كما تحمل الالمامة ببعض أشعاره الفخريـة عند بداية المعتمد ، على اعتماد الالتفاتة اليه دون سواه فى بادىء الامـر ، وقد استوعب الاستاذ على عبد العظيم كل هذا وأكثر ، وذهب فى الاغراق كل مذهب ، فاستند الى ضروب من الاعتبار والاستنتاج ، ليرجح فـى غير ما موضع (22) من رسالته أن ابن زيدون كان المحرض على فتح قرطبة،

---

19) الذخيرة لابن بسام ، الجزء : 1 ، المجلد ، 2 ، ص : 125 .
20) تاريخ العرب المطول ، ج : 3 ، ص : 664 .
21) انظر فى « قلائد العقيان » : ترجمة المعتضد ، ص : 15 ، وترجمة ابن زيدون ، ص : 80 .
— « الذخيرة » لابن بسام ، القسم : 1 ، المجلد : 2 ، ص : 290 — 291
— « اعتاب الكتاب » لابن الابار ، ص : 213 ، ط : مجمع اللغة العربية بدمشق
— « الوافى بالوفيات » للصفدى .
— مقدمة « اتمام المتون » للصفدى
— مقدمة سرح العيون لابن نباتة .
— المطرب لابن دحية ، ص : 68 ، ط : دار العلم للجميع .
— المعجب للمراكشى ، ص : 61 ، ط : ســـلا
— « سير النبلاء » للذهبى ، الجزء : 11 ، سفر : 2 ، ص : 201 ( بواسطة الاستاذ علـى عبـد العظيـم )
22) انظر كتابه : ابن زيدون حياته أدبه عصره ، ص : 44 — 45 — 275 — 283 — 285 انظر مقدمة شرحه فى الديوان ، ص : 58 .

ووراء كل تدبير للانتزاء عليها ، سواء في عهد المعتضد او على عهد خلفه المعتمـــــد .

والواقع ان كل النصوص التي اعتمدت في الاخذ ، والاستنتاج والافتراض ، وكل اعتبار يسند ذلك ، ويقوم على استيحاء السلـــوك النفسي ، وما تمليه طبيعة الانسان ، او على ما ينفثه في القوافي شيطان الاشعار لا يثبت امام النقد والتحليل بأية حال ، وان الفصل الفريد الـــذى عقده ابن بسام (23) لوفاة أبي الوليد بن زيدون ، ونقله بحروفه عن ابن حيان ، ليعد قول جهينة ، وفصل الخطاب ، ويقطع كل مقال ، فهو يقدم لنا افادات ، تعرض علينا ابن زيدون في ركاب الحاجب سراج الدولة ولد المعتمد ، وفي جملة العلماء الذين رافقوه حين انفذه من قرطبة الى اشبيلية ، يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة اثنين وستـــين واربعمائة ، وذلك لغرض ( مطالعتها وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهـــــم ) .

وقد عنى ابن حيان باظهار ابن زيدون في حالة صحية غير مرضية ، فقال عن المعتمد : ( انه الزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك كـــان متألما منه ، **ولم يعذره في التوقف من اجله ، فمضى لطيته مسوقا لمنيته** ) .

ثم يسجل ابن حيان فصلا تاليا من القصة فيقول : ( وخلف ولده أبـــا بكر الفذ الوزارة ، المرتسم بالكتابة وراءه ، سادا مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياما ، ثم امر بالمسيرة وراء والده لامر كلفه ، أعجل بالانطـــلاق له ، فمضى لعينه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها ، **فخلت منهـــم منازلهم بقرطبة ، وصيرت الى سواهـــم ،** فتحدث الناس بنبو **مكان الاديب** ابن زيدون لدى السلطان ، **وان استمساكه بعلى مرتبته** ، بعد مختصة المعتضد بالله كان من المعتمد على الله رعايـــة لخصوصية ابنه به ، **يغص باستمرارها** ثقتاه المختصان به ، الحظيان لديه ، المستهمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار ، الى **ان عملا في ابعاده** ، واتعاد ابنه الرقيب بعده ، فأمضى خلفه ، فعندها استساغا غصته ، واستهما مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان وتدبير دولته ) .

---

**(23) الذخيرة ، القسم : 1 ، الجزء : 1 ، ص : 354 وما بعدها .**

وباثر هذا أطلق ابن حيان تعليقه الغنى بالدلالات ، فقال : ( ولكــل دولـــة رجـــال ) .

ثم سجل بعد ذلك تاريخوفاة ابن زيدون، صدر رجب سنة اثنين وستين، فى سطور ابن فيها الاديب الكبير ، وشاع فيها الحزن والاسى ، ونطقت فيها وشيجة الادب والفكر بين الرجلين ببيان ندى بدموع ابن حيان الانسان .

ثم ينقلب الى الافادة بأن عشيرته أهل قرطبة ، حينما اتصل بهــم خبر هلكه ( تناعوه وسيئوا لفقده ، وحزنوا عليه ) .

ففقرات هذا الفصـــل تفيـــــد :

**اولا** : أن ابن زيدون كان فى ظروف المهمة منهوكا بعلة لها مضاعفات ، ومعاودة ، وانتكاس ، لدرجة أن ابن حيان لحظ أن النقلة من قرطبة الــى اشبيلية ، كانت كافية لسوقه ، على حد تعبيره ، الى المنية ، وبمقارنة التواريخ ، يفهم أن تاريخ تكليفه بهذه المهمة ( ذو الحجة سنة 462 ) ( التى قربت هلكه ) ، لم يكن بعيدا عن تاريخ فتح قرطبة ، حيث قامت الدعوة فيها لابن عباد لتسع بقين من شعبان عام اثنين وستين وأربعمائة ، واعنى انه بعد ثلاثة أشهر ، وحوالى ستة وعشرين يوما فقط من تاريخ الفتح ، وذلك يدفع الى القول المؤكد أن ابن زيدون كان عند تاريخ فتح قرطبة فى جلوة مرضه ، وحدته ، حتى أنه لم يصدر عنه بيت واحد من الشعر فــى هذا الفتح المبين الذى فهم بعضهم أن ابن زيدون كان يعد له ، ويدبره منذ خروجه من قرطبة حتى يستوفى اخذ ثأره بالتمام والكمال ، وحتى يشفــى غليل نفسه المتلظى طوال ثلاثين سنة ، أو زهاءها ، مما كاده به الجهاورة ، وجرحوا به كرامته ، فلا يدرى أمام هذا الحقد الذى استشرى وتلظى طوال هذا المدى ، انحن حقا أمام ابن زيدون الشاعر ، أم أمام ابــن زيدون الانسان ؟ أم أمام وزير من فصائل حيوان الغاب ؟

وتفيد فقرات ابن حيـــان :

**ثانيـــا** : أن ابن زيدون أصيب فى أثناء المهمة فى اشبيلية بمحنــة تصفية منازله ، وبشائعة نبو مكانه عند سلطانه ، واذا اسعفت الذاكــرة

بأنه كان فى حرب مع خصومه ــ كما يؤخذ من شعره ــ وانهم قد دسوا فى يد المعتمد قصيدة تحضه على هدم رتبته ، والاطاحة براسه ، فسيتاح القول بأن الرجل كان يعانى من علة نفسية منذ بداية عهد المعتمد ، وكانت تؤرث مضاعفات علته الجسمانية الى حد بعيد ، ظهر معه فى ظروف المهمة ، وهو يدلف الى نهايته .

وتفيد فقرات ابن حيان :

**ثالثا** : أن غصة حظيى المعتمد ، المختصين به : ابن عمار ، وابن مرتين ، بعلى مرتبة ابن زيدون التى ثبتت له رعيا لسابقته عند المعتضد ، اذا كانت قد حفزتهما الى ( ابعاده وابعاد ابنه الرقيب من بعده ) ، فقد كانت لها ــ بطبيعة الحال ــ خلفيات ، ووسوسات سابقات ، منذ صدر دولة المعتمد ، حتى أسفرت عن محنته مع توالى الايام ، وما كانت حاسة ابن زيدون التى يعبر عنها شعره فى هذه الفترة ليخفى عليها ما يحاك له فى العلانية والخفاء ، وما يتدرج فيه نفوذ ابن عمار الكاسح من استعلاء يسول له الحكم فى مصاير رجال البلاط ، من غير استثناء ، حتى لقد اخذ ينشر ظله على الساحة ، فما بها مغرز ابرة لحظى أو محظيه (24) بما فى ذلك اعتماد « الرميكية » ، أو لذى قربى أو قرابة ، كأبناء المعتمد ، الذين نالهم من ضيم نفوذ ابن عمار ، وكبره (25) واستبداده بمشيئة والدهم ، ما استطار خبره من خلال شرفات القصر ، وتهامس به الخدم والغاشية ، واصبح حديث مجالس الناس ، وتلك علة العلل ، التى نخرت ذهن ابن زيدون ، الى جانب دائه الذى يرهق جسمه يوما عن يوم ، فقد امضته نفسانيته بافتيات ابن عمار على السلطة ، وقبضته على الناصية فادلهمت روحه ،واختنق بواقع خاتمة مكانته الوزارية ، وهو يعاين أن منصبه فى عهد المعتمد قد أفرغه نفوذ ابن عمار من محتواه ، وما كان شعره الذى يباهى بالشورى ، والرتبة العلية بعد أخذ المعتمد بناصره فى القصيدة الواشية ، غير شعلة تتالعت على هبات هذه الحقائق ،

24) مخطوطة الذخيرة ، قسم غرب الاندلس لدى ترجمة ابن عمار ، وعند تعرض ابن بسام لمقذعاته فى « الرميكية » .
ــ الحلة السيراء ، ج : 2 ، ص : 62 ــ 63 .
25) كتاب التبيان ( مذكرات الامير عبد الله ) ص : 81 .

والمكايد المفجعات ، ثم اذا هى تتهاوى فى أخدود أساه ، وما كانت شيخوخته وحالته الصحية المتدهورة ، جسمانيا ونفسيا على الوجه الذى رايت ، مما يشجع على الاعتماد عليه فى الشؤون الوزارية أو الشورية ، فضلا عن أن يناط فتح قرطبة أو التدبير له ، فلم يتجاوز منصبه الذى ثبت فيه ، كما فى صريح افادات ابن حيان ، غير الوضعية الشرفية ، والرعاية العضدية ، واما التدبير والعمل والتنفيذ والشورى ، فالمعتمد رأيه — كما عرفنا — فى مقومات الرجل الذى خلقته الظروف لها ، ولكل دولة رجال ، وكل الصيد بنبال ابن عمار .

ويظهر أن هذه الوضعية الشرفية التى تبلورت فيها حقيقة مكانته فى اثناء ظروف فتح قرطبة ، لم تكن بخافية على الملأ ، فقد قال الفتح فى ترجمته (26) : ( فلما مات المعتضد ، وارتفع فى امره ما ارتفع ، وراعى المعتمد مواته (27) التى توسل بها واستشفع ، وأبقاه جليسا وسميرا ، وسقاه الصفح سلسالا نميرا ) .

فالماتة وحدها ، والتوسلات ، قد جعلت حظوته مقصورة على المجالسة والمسامرة ، وهو على اى حال وزير بالمجالسة ، وتثنية الوزارة قائمة ، وذلك ما لا يتجافى مع اصطلاح اطلاق الالقاب الوزارية على عهد ملوك طوائف الجزيرة الاندلسية .

وبهدى هذا كله ، لن يحجم الباحث عن ترجيح القول بأن رجل الساعة ابن عمار ، هو الذى كان وراء تلك البطشة الكبرى ، وليس ابن زيدون الذى نراه بعد اقل من اربعة اشهر من فتح قرطبة ، مسخرا فى مهمة بمشيئة قاهرة من ابن عمار ، كما يسخر الصغار من الكبار (28) .

---

26) قلائد العقيان ، ص : 89 ، ط : الحرائرى .

27) جمع ماتة ، وكل من ابن حيان ، وابن خاقان اقتبس نفس كلمة ابن زيدون الواردة فى نثره ، ففى الرسالة الجدية :

ففيم عب الجفاء بانمتى ، وعات العقوق فى مواتى

واستعمل ابن زيدون أيضا المتات بمعنى الحرمة والقرابة ، فقال :

وان متاتى لم يضعه محمد ، خليفتك العدل الرضا وابنك البر

28) المعروف أن الاستاذ على عبد العظيم صاحب كتاب ابن زيدون — عصره حياته وادبه ، قد الم الماما كاملا بفصل ابن حيان ، المنقول عند ابن بسام وحلله ، وانتهى

وعد عن النصوص ودلالاتها بالمنطوق والمفهوم ، وما تفيد من احتمال راجح أو مرجوح ، فان صورة يوم البطشة الكبرى ، كما عرضتها الافادات الاخبارية سالفة الذكر ، عند الاستشهاد على ظاهرة العنصر النصرانى ، بين كتائب الجند الاشبيلى ، ستمدنا الآن بما يتيح لنا اقتفاء اثر ابن عمار فى حمئة ذلك الشنار .

فالمعروف ان القصة ابتدات بمبادرة مباغتة من المامون بن ذى النون لكسب السبق الى قرطبة ، فى ذلك الصراع الذى كان مستحرا للظفر بها بين المملكتين ، وقد قوبلت المبادرة بمثلها ، فسير المعتمد كتائب اثر كتائب لانجادها ، وما ان ارتد عنها جيش المامون ذو الالسنة المختلفة مهزوما ، وجلا عنها منحوبا مغيظا ، حتى ظهرت الغاشية وانقلبت النجدة والحماية الى انتزاء وامتلاك على تلك الصورة الاسطورية ، فما كان الاخذ بناصية قرطبة لسلاح المعركة ، وانما كان معقودا بمبادرة تالية وبديهة جردت سيف الحيلة فى لحظات ، فكاثرت اهل قرطبة بالمداخلات ، وكسبت الموقف فى جولات خاطفات ، ولن يتم هذا لغير من كان فى عين المكان وحومة النزال ، ومع اول لحظة فى الزمان ، وعلى اهبة القرار الفورى لالباس الحماية ، والدفاع ، لبوس الانتزاء والاحتلال فى الحال .

ولم يكن ابن زيدون من أهل ذلك الميدان ، ولا لمن كان فى مثل حاله ، ان يأخذ المبادرة الذنونية بمضاء تلك البديهة الاسطوية ؛ وبدائه الاشعار ، والمكايدة ، بنقائض القصائد ، وغمزات الاشطار ، ليست كبدائه المضايق التى تتحكم فيها النظرة العجلى ، والتدبير الخاطف لاراغة الفرصة ، ولن تطاوع البديهة فى هذا غير أصحاء النفوس والاجسام .

---

الى أن مهمة ابن زيدون فى اشبيلية كانت من طرف ابن عمار ملغمة ، لكن الاستاذ لم ينتبه بذلك الفصل الى هذا الذى يطالعنا من افادته ، واشاراته ، ومن بدايته الى نهايته .

واعجب منه أن الاستاذ حسن جاد فى كتابه : ( ابن زيدون حياته ، عصره وادبه ) قد أنكر دخول ابن زيدون الى قرطبة ، مع انه صريح اخبار ابن حيان ، شاهد العيان، فهو قد غفل عن أن صاحب الفصل هو ابن حيان ، فذهب ينتقد ابن بسام ، على انه رجل ادب ، وليس من اهل التاريخ ، حتى يؤخذ بقوله فى الاخبار ، واعجب من انكاره دخول ابن زيدون قرطبة ، انه ساقه من غير ان يستهدف من ورائه نتيجة من دخوله ، او عدم دخوله الى قرطبة ، وانما هو مجرد تغليط لا هدف له ؛ وفى غير معرض تعداد الاخطاء والهفــوات .

وحتى البديهة فى الاشعار لم تكن تطاوع ابن زيدون ، كما سجله عنه ابن بسام (29) الذى روى أنه كان مغلبا فى المبادهات أمام الشاعر أبى الحسن على بن حصن ، منافسه فى البلاط .

والرواية العربية تشير الى القائدين الكبيرين : خلف بن نجاح ومحمد ابن مرتين ، على رأس النجدة العبادية ، وتحت الاشراف المباشر لوزير المعتمد وصفيه ابن عمار ، كما تقول الرواية النصرانية ، فلا عجب أن يرسل نصارى الجند الاشبيلى على مقصورة المسجد ، التى أوى اليها أبو الوليد بن جهور ببناته وكرائمه (30) وابن مرتين على رأس الجند ويصرفه هنا وهناك ، ومن المنتظر أيضا ، ومعنا ابن عمار بافادة الرواية، وبميسم حركاته وأعماله ، حيث نرى القصة تحمل طابع اللجوء ، لسلاح الحيلة وسلاح القوة ، وتلك سمات مغامرات ابن عمار فى غير ما مضمار .

ويشبه هذه القصة فى روحها وطابعها فى التجاء ابن عمار الى السلاحين لضمان الحسم ، وتأمين الظفر فى الحال ، ما رواه أبو بكر محمد ابن يوسف ابن قاسم الشلبى فى تاريخه (31) عن ابن عمار بعد استبداده بمرسية ، وتقطع الاسباب بينه وبين المعتمد بن عباد ، ونزوحه الى مملكة سرقسطة، منتجعا حسن المئال وطارف الحظوة والاعتبار ، فقد قال المؤرخ أبو بكر : ( واتفق أن انتزى عامل لابن هود — يعنى المؤتمن — فى معقل منيع من أعماله ، وكانت بينه وبين ابن عمار معرفة ، فضمن له استنزاله ، وسار اليه ، فلمانزل بساحته ، تشوف ذلك العامل الى بره ، ولم ير بأسا فى ارقائه الى قصبة حصنه فى رجلين من جملته ، فأوعز ابن عمار الى الصاعدين معه: أن صبا سيفكما عليه اذا رأيتمانى أماشيه ، ويدى فى يده ، ولو قتلتمانى واياه ، فعملا ذلك ، وفر أصحابه عند قتله ، وألقوا بأيديهم الى ابن عمار ، متطارحين اليه ، ومستشفعين به الى المؤتمن ) .

---

29) مخطوطة الذخيرة ، القسم : 2 . المتعلق بالجانب الغربى الاندلسى .

30) أعمال الاعلام لابن الخطيب ، جزء الاندلس ، ص : 175 ، ط : الرباط .

31) بواسطة الحلة السيراء ، الجزء : 2 ، ص : 149 .

فالحيلة والقوة متزاوجان فى القصتين ، واثر السير يدل على المسير ، وعلى القابض على الزمام .

وما كان ابن زيدون بحكم مقوماته الخاصة من هذا القبيل فى الناس ، فلم يكن يلجأ الى سلاح القوة ، ولا كان يجنح الى المكايدة المكشوفة ، وانما كان يفىء الى المصابرة الطويلة الامد ، والدس الخافت ، الى أن يظفر بهدفه مع طول المدى ، من غير أن تتوجه نحوه الابصار ، كما نلاحظ من بطشته بمنافسه الشاعر أبى الحسن بن حصن ، التى دب كيده فيها دبيبا ، وتحت الخفاء ، الى أن أراداه ، وكذلك كاد يحيكها للكاتب أبى محمد بن عبد البر فأدركته العناية والالطاف ، فما عرف من سيرة ابن زيدون استئساد ولا استنسار ، ولا انكشفت له مكايدة فى غير هزات الاشعار ، كما تقرأ فى قصائده ومقطعاته الى ولادة منذ حرمه ابن عبدوس شهى جناها ، واستبد بأطايبها ، فلم يكن فى يده ووسعه غير صارخ المكايدات ، ونهدة الشعراء ، فهو من رعيله يقول ما لا يفعل مع بعد الدار واليأس من المزار .

وازاء هذا ، فما من شك فى ان الوزير العليل ، المفؤود بأسى حبه ، وعطل منصبه ، قد كان براء من البطشة الكبرى وأوزارها ، وأن ابن عمار، اثير الحظوة والنفوذ ، فى تلك الظروف ، قد كان من ورائها ، ومدفوعا بعقدة نقصه الى اجتراح عجرها وبجرها ، وقد عرفت — من فصل مضى — كيف سولت له الانتزاء فى مرسية على ابن طاهر الحسيب النسيب بالذات ، وعزا ابن الابار (32) تولعه بقدح صاحب بلنسية أبى بكر بن عبد العزيز ، والزامه الوافدين عليه ثلبه وقدحه ، الى أنه من تعرض المشروف للشريف ، فقد كان ابن عبد العزيز ( واحد وقته رفعة وجلالة ) ( وضد ابن عمار صيانة وأصالة ) فبوسوسة عقدته جمح الطموح به ، فكان الحسم الناجز وسيلته للظفر بالمكسب فى الحال ، وعلى اى وجه كان ، ليبادر بتغذية منازع ابن عباد ، ولو ألقمه الحرام البواح ، فما يأبه لما يجرح سمعة مولاه الدينية، أو يلوى بمحامده الاخلاقية ، وذلك ما أمن له الاطمئنان الى استغراق المعتمد فى لذاذات تلهيه ، والى كلال طرفه فى أضواء مغانيه .

---

(32 الحلة السيراء ، الجزء الثانى ، ص : 155 ، تحقيق الاستاذ حسين مؤنس .

وعلى كل حال ، فالذى يعنى الآن هو أن نستجلى من قصة فتح قرطبة شاهدا آخر لغير ما سيقت له فى فصل مضى ، فنرى المعتمد على الله ينهد لمكسبه الكبير بعزمته الكبرى ، فيظفر به ، ولكن على وجه فى التنفيذ لا ينسجم مع طبيعة شخصيته ، ومع نزعاته التى اختلفت — كما لاحظ المؤرخون عن نزعات المعتمد والده .

وعلى هذا النحو ، سيتاح للباحث أن يستوحى هنا من قصة غرناطة السالفة فصلا آخر على هامش الفصل الذى قدمه لنا هناك أميرها عبد الله من « كتاب التبيان » ، فيستجلى بالتعليق عليها الآن مكسب ابن عباد مهطعا الى ساحته وهو فى غفلة عن وجهة وزيره السادر فى غلواء ضلالته .

وهكذا نشهد ابن عمار يفاوض « أذفونش » على ملك غرناطة وهو فى لبوس المستهتر بقيم شخصية سيده ، الواثق من قبضته على لحيه .

ويظهر المعتمد على الله منساقا فى حلته اللازرودية وبهائه ، وبطويلته ايضا على هامته ، وخطوات وزيره تقوده ( ليبرز أبدا على مقربة من غرناطة (33) ) وليصعد به فى مرتفعات حصن « بليلش » ليطل من شرفاته على منظر غرناطة ، وهى تارة عارية متلألئة فى ضح الغداة ، وملتفعة تارة إخرى فى سرقة من ذهب الاصيل ، اذا ما هم بها المساء ، فالوزير الماكر يثير فى سيده بالاطلالة على منظرها فى بهجته وسحر مرآه ، امانى طالما جالت براس والده المعتضد عباد .

وفى جو الثقة والاطمئنان الى اغماضة المعتمد المستغرقة فى احلام اليقظة والمنام سار وزيره فى مفاوضاته بوناء وأمان .

ويبدو « أذفونش » بشعره المنتفش ، ودرن أظفاره ، وهو يحك ابن عمار حكا ، فيخرج له بالصمت عن « لا » و « نعم » ، فى موضوع الصفقة التى قامت فى عرض ابن عمار على أن يكون له ملك غرناطة ، ولأذفونش ذخائرها ، وأموال عبد الله صغيرها .

---

33) كتاب التبيان ( مذكرات الامير عبد الله ) ص 70 .

وصدق الامير عبد الله فى التبيان (34) ( فما كان فى أمل « أذفونش » ان يأخذ البلاد لنفسه ) . وصدق أيضا فى « البيان » حين سجل حديث نفس « اذفونش » فى ذلك المقام ، فهو لا يخرج عن مذهب زعماء حركة الاسترداد كما وعيناه ، وقد قام على تجنب كل مواجهة أو اختلاط ، لا يكون فيهما ربح مضمون من غير ( تكليف ) ولا مشقة ، وذلك ضنا بدماء أبناء جلدتهم عن أن تراق فيما يتاح غنمه بالاستنزاف والمصابرة والمثابرة، وكل خطوة متسرعة عجلى بدخول غرناطة ، أو قرطبة ، أو اشبيلية ، قبل تخويض خيله فى مياه نهر التاجه ، فانما هى مغامرة .

وفيم اهدار الدماء ؟ والطريق الى طليطلة واضح المحجات، بعد أن صار ابن ذى النون من الخول والاتباع ، وبعد أن جلى رجل الجزيرة ابن عمار عن استعداد مفتوح لكل مراد ، وان صفعه بالصمت المطبق عن مطلبه مع نفض جراب سيده بالاتاوة ، ذات الرنين واللمعان ، لصفقة رابحة ، ظاهرة الرجحان ، واسعافه ببناء حصن « بليلش » لاعنات غرناطة لا يمنع من كف العبادى عنها فى الاوان ، ثم هو وسيلة ضغط ناجعة فى ذلك الصغير صاحب الحاضرة ، فان فرائصه لترتعد فرقا ، من أن تقتحم عليه الاسوار كتائب صاحب اشبيلية ، أو المامون صاحب طليطلة .

وكان ما قدره « اذفونش » ففاز بفرض الحماية على غرناطة ، وصدت عنها مطامع ابن عباد ، ولكنه ظفر وهو فى لهب هذه المناورات والاطماع بمدينة « جيان » فى اقصى مملكة الامير عبد الله .

وهذا شاهد سياق القصة فى هذا المجال ، حيث نرى مكسب المعتمد ينبثق من خلال أهداف وزيره ابن عمار ، فى حين أنه منساق الى احلام عباديته ومنغمس فى لذاذات غلمانه وقيناته ، وبحور قصائده ومقطعاته .

وينتهى فصل التمثيلية بابن عمار ، وهو يتأبط مسمار « جحا » فى المقام ، وذلك أن وقوع « جيان » تحت سيادة مولاه ، سيكون معبره الطبيعى الى مرسية .. ، ان فى الحال او فى المآل .

---

(34) نفس المصدر ، ص 73 .

وفجأة كان له موعد معها فى نفس سنة 466 ، ولكنه كان موعد تلك الجولة الاولى (35) التى منى فيها بنكسة وهزيمة ، وما زلنا نذكر صفقته الخاسرة مع ابن ريموند كونت برشلونة (1076 — 1096) وحصول الرشيد ابن المعتمد فى يد الكونت ضمانة ورهينة ، الى أن افتكه والده المعتمد بصفقة اخرى مشينة .

أما يوم ابن عمار الموعود مع مرسية ، كما كانت تتراءى فى أحلامه ماثلة فى زخرفها ، وأبهة سلطانها ، فقد كان من أيام سنة 471 ، وفى أعقاب أحداث وأحداث ، عرفنا بعضها ، وسيوافينا نبأ أحداث انبثقت منها وتعاقبت بعدها ، وتتالت على نسق ابتدعته مصالح قشتالة ، وسخرت له أملاك الجزيرة ، بالضغط ، وبمناورة الحيلة ، وفى معترك تلك الاحداث ، كانت براعات ابن عمار تخب وتضع ، ( فاستمال النصارى ودخل معهم بحيلة ) الى أن انقاد له هيام من « أذفونش » على نحو ما استخذى له هيام ابن عباد ، وعلى حد قول الفتح ابن خاقان (36) ( واصطفاه العدو ، فاتفق به السكون والهدوء ، وتهالك فيه كلفا وهياما ، أمطره من الحظوة غماما ، واعتصر منه موادعة وائتلافا ، استدر به ملوك أوانه اخلافا ، فارتاعت منه الاقطار ، وطاعت له اللبانات والاوطار ، حتى رأس بتدمير (37) ، وجلس مجلس الامير ) وقد وفق صاحب القلائد ، فبعدما ترجم عليه ، خصه بزيادة استغفار فقال : وعفا عنه .

وأصبح ذو الوزارتين ذا حظوتين ، وأصبحت « مرسية » فى زخرف رؤياه حقيقة ماثلة ، فخفر ذمة مولاه علانية ، وأخذ يسير نحوها الجنائب والزاملات ، ويحمل اليها نفائس الخلع من الدمقس والديباج ، على مرأى ومسمع من مولاه ، الذى تفرس فى حركته الوجهة الضالة ، ولكن ما وسعه غير اللياذ بضرورة الاضطرار ، وتفويض أمره الى خيرة الله ، كما قال (38).

وجف القلم بما نبض فى خلد الملك المعتمد على الله ، وطما على لسانه عند الوداع (39) ، وسار الوزير ابن عمار ناشرا لواءه لريح قشتالة،

(35) مجلة « المناهل » ، عدد : 3 ، ص : 354 .
(36) قلائد العقيان ، ص : 94 ، ط : الجزائرى .
(37) كانت « مرسية » قاعدة تدمير .
(38) الحلة السيراء ، ج : 2 ، ص : 140 ، تحقيق الاستاذ مؤنس .
(39) نفس المصدر السابق قبله .

كما يتلمح من فقرات ابن خاقان ، وكما ستنم عليه شبهات تاليات ، ومعصبا كتائبه بقيادة البطل أبى محمد عبد الرحمان بن رشيق ، صاحب حصن بلج، وقائده المغوار ، وطوى فى طريقه حصونا ومدائن ، الى أن اطبق على « مرسية » ابن طاهر ، وتربع على أريكة امارتها بكل مراسيمها وتراتيبها، فتوج رأسه بالطويلة ، وهى زينة هامة المعتمد بن عباد ، وجلس مجلس التهنئة للخاص والعام ، ونثر الخلع السنيات ، واهتزت أعطافه لاسجاع واشعار الامتياح ، حاسبا أنه يسدل بها ستار النسيان على آخر ذكريات قصائده المصوغة فى الانتجاع (40) ، فكانت منه لفتة انتقام من عهد كديته الذى مضى وفات .

وكانما أراد الله ان يعيد الحلم نفسه ، فما براها له غير امارة حالمة، لايام معدودات ، فما أن انتفض بعد أيام ، وهو فى عودته اليها من مهم آب منه على رضا واطمئنان ، حتى وجد نفسه وراء الابواب ، وقائده ابن رشيق على أريكتها يهدر بالاستبداد ، ويجأر بالاستحقاق ، والعامة من ورائه كدابهم مع كل من أصبح على غلبة وسلطان ، فكان آخر عهد ابن عمار بطلبة العمر ، وبالوزارتين والحظوتين .

وصدق من جعل حاله مع حال ابن رشيق فى موقع مضرب المثل : أنفقتِ مالى وحج الجمل !

وانزوى ابن رشيق فى القاعدة « مرسية » ، صنع من يرضى من المسروق بما يفضل فى الحوزة ، حتى لا يبتز منه تفاريق وجملة ، الى أن استردها من يده أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى عبوره الثانى نحو حصن « لييط » (41) وردها الى حوزة المعتمد ، وقد كان نضر الله وجهه ، أعرف العارفين بما ظهر وما بطن من أمراء ذلك الجيل .

---

40) الحلة السيراء ، ج : 2 ، ص : 133 ، تحقيق الاستاذ مؤنس .

41) بلام مفتوحة فياء مكسورة مشددة فياء ساكنة فطاء مسكنة ، وكذلك كتبت مشكولة فى نسخة كتاب « التبيان » التى انتهت الى يد المستشرق ليفى بروفنصال ، والاولى الاخذ بالنطق الاندلسى كما فى النسخة المشار اليها ، لانه نص التعريب ، اما رسمها كما عند بعض المؤرخين المحدثين هكذا : « اليطو » فاعتماد منهم على أن اصلها بالاسبانية : « اليدو » .

اما ابن عباد الذى كان رهين سكرة ، وبين تغافل وغفلة ، فقد ءالت اليه صفايا المسيرة ، فدانت له أعمال « مرسية » ، مما اجتاحته الحملة فى طريقها ، فامتدت مملكته شرقا وشمال شرق الى « لورقـــــة » (42) ، « واوريـــولـــــة » (43) ، و « مــــولـــــة » ، و « لقـــنــــت » و « شقـــورة » والى قرى كورة تدمير « كبلتنـــة » ، و « بلانطـــــة » ، و « أنـــة » ، فسامت امتداد مملكة اشبيلية المعتمد فى الشرق ما وصل اليه انسياحها على عهد المعتضد فى الغرب .

وهكذا كان ابن عباد يشتار الشهد ، وينأى عن الابر ، وتحبو اليـــه المكاسب حبوا ، وهو لاه براح وريحان ، ووجوه صباح .

وذلك ما يسلمنا الى الجواب عن السؤال الذى ينبض دائما علـــى صفحات سيرة المعتمد بن عباد : كيف جرى فى لهوه حتى استوفاه، وجرى فى جده ، حتى رفع لدولة بنى عباد العماد .

وما زلنا فى الطريق الى طليطلة ..

**الربـــاط** **عبد الرحمن الفاسى**

---

42) بفتح فسكون ففتح فتاء مربوطة .
43) بفتح ففتح فسكون ، وضبطها محقق الحلة السيراء بكسر الراء .



## معرض السنتين العربي الثاني للفنون التشكيلية

اصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية هذا البلاغ :

ستشهد بلادنا فى السابع والعشرين من شهر دجنبر المقبل ، حدثا مترامي الابعاد . ذلك ان المغرب سيضيف ابتداء من هذا التاريخ معرض السنتين ( البينال ) الثاني للفنانين التشكيليين العرب . وبحلول اخواننا الفنانين العرب بالرباط عاصمة المملكة وبالعرض الكبير لالوان انتاجهم من الفنون التشكيلية ، سيلتقي فوق ارضنا نماذج من آيات الابداع الفني العربي ، كما سيلتقي إصحاب هذا الابداع من مختلف الاقطار العربية .

وان المغرب الذي يسعده اعظم اسعاد ، ان يضيف هذا المعرض ورواد الفنون التشكيلية العربية ليسعده فى الوقت نفسه ان يضيف النائبين عن المنظمات الدولية المختصة وارباب الخبرة فى هذا الشان المتمرسين بالنقد ، العارفين بافانين المهارة والبراعة .

والمغرب اذ يرحب بالقائمين على وسائل الاعلام الراغبين فى وصف هذا الحدث الذي ترجى له جميع إشكال الوسامة والروعة ، وفى نقل

اطواره الى الاشقاء والاصدقاء حيثما كانوا من الديار والامصار ، وطيد العزم على بذل أوفى ما يستطيع من جهود لتيسير اسباب النجاح للابداع العربي فى مجال الفنون التشكيلية .

ولا مراء فى ان الموقع الذي انتهى اليه الاختيار لا ستقبال العرض هو « قصبة الاوداية » ومتحفها بصورة خاصة موقع سيساعد بما يتوافر له من شواهد المجد المغربي ومعالمه على تاطير المتعدد من الآثار بالمتوخى من الرواء والبهاء .

وان من بواعث مسرة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ان تنوه وتشيد بالتعاون القائم بينها وبين اتحاد الفنانين التشكيليين العرب والجمعية المغربية للفنون التشكيلية وبالتآزر والتضافر الهادفين الى توثيق أواصر الاخاء بين الاشقاء العرب وابراز ما آتاهم الله من قرائح الابتكار ويسر لهم من الخليج الى المحيط من دلائل العبقرية وآيات الابداع وما وفقهم له من اثراء الانسان العربي وتثقيفه .

## تدشين
## معرض السنتين العربي الثاني للفنون التشكيلية

احتضن المغرب من تاريخ 27 دجنبر 1976 الى 27 يناير 1977 « معرض السنتين العربي الثاني للفنون التشكيلية » ، والذي نظمته وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ـ بتعاون مع الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب ، وجمعية الفنانين التشكيليين المغاربة ـ فدعت اليه صفوة من خيرة رجال الفن ، والرسم ، والنحت ، والصحافة ، والنقد ، من جميع البلاد العربية ، ومن مختلف الاقطار الاجنبية . وقد لبت هذه الدعوة كل من : العراق ، الاردن ، البحرين ، تونس ، الكويت ، مصر ، فلسطين ، السعودية ، سوريا ، قطر ، اليمن الديمقراطية ، بالاضافة الى المغرب ، وشاركت كل واحدة منها بانتاج بعض فنانيها المرموقين .

وفى صبيحة يوم الاثنين 27 دجنبر 1976 تراس الاستاذ الكبير السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بقاعة المحاضرات بالوزارة ، حفلة افتتاح « معرض السنتين العربي الثاني» بحضور الفنانين المدعوين ، والنقاد ، والمهتمين بالحركة التشكيلية ، وفى مقدمتهم السادة الوزراء ، وكبار موظفي الدولة من مختلف الوزارات ، الى جانب بعض السفراء العرب والاجانب .

وفى بداية الحفل ، القى السيد الوزير خطابا قيما ، قوبل بالتصفيقات الحارة . وفيما يلي :

# نص خطاب
# السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

## بسم الله الرحمن الرحيم

## حضرة الامين العام ،

## حضرات السيدات والسادة ،

يسعد المغرب ملكه وحكومته وشعبه أن يجتمع فى رحاب أرضه وفى قاعدة ملكه اخوة أشقاء وأصدقاء أوداء وفدوا عليه من أقطار نائية ودانية لتكريم لون أخاذ من ألوان الابداع والابتكار ، وان المغرب ليقول صادق القول خالص الشعور لصفوة زائريه ونخبة قاصديه : انكم تريحون الركاب وتحطون الرحال بمنازل الاحباب والصحاب وتحلون حلول الاخوة الاعزاء

والضيوف الاعلام الاجلاء على سعة نادحة من تأهيل وسهل فسيح من ترحيب .

لقد جئتم أيها الاخوة والاصدقاء يهفو بكم ما يهفو بالنفس المطبوعة على حب الجمال المفطورة على الولوع ببدائع الاحساس وكرائم الخيال الموفورة الحظ من الرغبة فى لقاء تستوى فيه المؤانسة بالامتاع وتستحكم فيه وشائج القرابة وأواصر الصداقة والجوار .

وحسب المغرب مسرة وابتهاجا واعتزازا واعتدادا أن آثرتموه بالقصد والمزار وأكرمتموه بالاصطفاء والاختيار واتخذتموه مستقرا ومقاما ولو الى حين لمعرض السنتين للفنون التشكيلية العربية وهو معرض من شبابه فى ميعته واستهلاله وتباشيره واقباله .

فلا غرو ان يستجيشنا عامل المسرة والاغتباط ولا بدع أن نحس آثار ما صنعتموه من صنيع وأسد يتموه من جميل مستفيضة فى الاحشاء سارية فى النفوس الى أبعد قرار مستنفرة لخالص الشكر وعاطر الثناء .

حضرات السيدات والسادة ،

ربما وددتم لو يتحدث المسؤول عن الشؤون الثقافية فى هذه الديار مهتبلا فرصة معرض السنتين حديثا يقصر أو يطول عن الفنون التشكيلية عامة وعن الفنون التشكيلية العربية

خاصة ، وأبادر الى التصريح وأن أعقب شيئا من الخيبة ، بأنى لا آنس من نفسى مزية الدراية وفضيلة الكفاية ولا أبيح لنفسى أن تجشمنى هول شؤون ليس لى بها نصيب من المام ولا حظ من عرفان ، وأخلق بـى والحالة هذه أن أتحول عن المسلك الذى يدمى أقدام الاغفال وأسلم لغيرى مـن جهابذة هـذا الميدان وفطاحل هذا العلم أمر المقارنة بين الشأو الذى ترامت اليـه الفنون التشكيلية فى الاقطار الغربية وبين الغاية التى أدركناها من هذا اللون البهيج ، وشأن الموازنة فى اطار ما أبدعناه بين آثـار وآثـار وقياس المراحل والمسافات وتقـدير الرجحان والنقصان وابراز أسباب التفاؤل والاستبشار وايضاح العوامل التى تفتح أو توصد أبواب الآمال والتصدى بالتحليل لما بين فنوننا التشكيلية وبين أصالتنا من نسب قريب أو سبب بعيد أو لما عرا من انفصام وانقطاع واستبان من جفوة واعراض .

واذا كان شعورى بهذا العوز من المعرفة وبهذا الفقر من الكفاية شعورا جليا لامراء فيه فان ما أجده فى نفسى من دواعى التهلل والاطمئنان وبواعث الارتياح والانشراح ليشيع الثقـة ويوطدها بأن فنوننا التشكيلية موعودة بالازدهار على ما يتجدد من أحوال ويتعدد من طرائق ويتردد من أهواء ومدارس .

ذلك أننا أمة أقامت منذ أقدم عهودها معارض لاروع الفنون التشكيلية فيما شيدته من بنيان ونثرته من زينة وافتننت فيه من تهاويل ، ولم ينقطع فى حقبة من حقب تاريخها الطويل الحافل

بالآثار التليدة والطريفة ، عملها المصروف الى الابداع المفرغ فى مختلف الصور والاشكال ، فحيثما أتجه البصر فى مشارق أرض العروبة ومغاربها أخذه ما تزخر به المساجد والمآذن والقصور والمنازل والديار والكتب والادوات والاثاث والرياش والاوانى من آيات الزخرفة والنقش والنحت والتصوير والتذهيب والتلوين . وحسبنا أن نجول بأفكارنا وأعيننا فيما أنشأناه بالامس القريب والبعيد وفيما ننشئه فى وقتنا الحاضر وفيما نكسو به الجدران والسقوف ونبسطه على الافنية والصحون لنستبين أننا أمة مطبوعة النفوس والعيون والايدى على ابداع أنماط شتى من الفن التشكيلى الجميل ، ولنرجع البصر الى ما خلفه الاقدمون فى تضاعيف كتب التاريخ ودواوين الشعر من أوصاف لهذه الآيات البينات لنلمس الاهتمام المشاع بين المبدعين من كل قبيل والمعجبين من كل طراز ولنتملى متعة ذلك الحوار الجارى على مدى العصور بين الهائمين بالابداع وبين العارفين بما تدل عليه القيم والآلاء الفنية من فكر خلاق وخيال مقدام ويد صناع .

ألسنا نذكر جميعا فيما نذكر ، أبا نواس ووصفه البارع للصور الفارسية المرسومة على أقداح حمياه ؟ أليست قصيدة البحترى السينية التى جلا فى نظامها ما أحدثته فى نفسه من احساس عميق معركة انطاكية بين فارس والروم ، الماثلة لعينيه الذاهلتين على جدران ايوان كسرى كأنها واقع مشاهد حاضر ــ أليست هذه القصيدة أثرا من آثارنا الادبية الباقية الدالة

على أن ناظمها من رواد ذلك الحوار بين العمل الفنى الرائع وبين العاكفين عليه بملء أفئدتهم وجوارحهم ؟

وليس هذا الامر بمحصور فى هذين الشاعرين العبقريين وانما هناك عدد من الشعراء ظهروا فى أقصى البلاد الاسلامية الغربية وأثرت عنهم آيات الاعجاب الصادق والوصف الرائق والافتنان فى ايداع مشاعرهم ما صاغوه من قريض يتداول جماله مسامع الزمان وأفئدة الرائح والغادى من الركبان ، ولا أريد أن أطيل بالتعداد ويكفى أن أشير الى أبى الوليد أحمد بن زيدون ناظم القصيدة الخالدة فى وصف تمثال أقامه المعتضد بن عباد فى احدى حدائقه والى ابن حمديس المأخوذ بروعة الضراغم المنحوتة الرابضة فى عرين رئاسة والى الفشتالى شاعر الدولة السعدية المغربية الذى جر أذيال القول شعرا ونثرا وملأ الدنيا اطراء ونعتا لقصر البديع وما كان يتصبى الناظر من جليل صنعة هذا القصر وعجيبها .

فاذا نحن انتقلنا من الشعراء الى المؤرخين والكتاب وجدنا بجانب المقريزى والعمرى والمقرى علما من أعلام التاريخ وكاتبا من أمهر الكتاب خلف لنا صفحات زاخرة ثرية يعتد بها التاريخ ويعتز بها الوصف ويفخر بها النثر العربى ذلك الرجل الذى أغنى معرفتنا بالاندلس وبما تعاقب على أرض الفردوس المفقود من دول عظيمة الشأن وممالك ضعيفة السلطان هو أبو مروان ابن حيان مؤلف المقتبس والمتين . لقد تناول هذا المؤرخ

الكاتب قصر الزهراء الطائر الصيت وقصر المامون بن ذى النون فلم يترك رائعة من روائعهما ــ وكانت كثيرة منتشرة فى جميع المسالك والجهات ــ الا دل عليها وكشفها وجلاها بما أوتى من فنون القول والبيان ، فاستقرى المقاصير والقاعات والابهاء والابواب والحدائق والاعمدة والاحواض والتماثيل وما شاع هنا وهناك من أفانين التصوير والتذهيب والتلوين استقراء العارف بملامح الجمال وأسارير الرواء والبهاء حتى انتظمت فيما ألف وصنف وحبر وشقق معارض جذابة أخاذة لولاها لفاتنا شىء كثير مما أبدعه المبدعون وهام به الشهود المعجبون .

وان أمة حضرات السيدات والسادةــ أتاح الله لها ما اتاح من ملكات وأغناها بما أغنى من تجارب وشاء لها أن يتصل اسهامها من أقدم العصور الى زماننا هذا بالحظ الجزيل من ثاقب الذكاء وواسع الخيال وعامر الوجدان فى مد أسباب المدنية والحضارة لامة وان عاكستها الايام ونابتها صروف الدهر ، مؤهلة أظهر تأهيل للاستمرار فى أداء ما ناط الله بها من رسالة والقيام بما عهد اليها من مشاركة فى اثراء الافراد والجماعات وهدايتهم على محجة التلقين والتكوين الى أفضل المقاصد والغايات .

مــا أعظم مسرتى أيها الاخوة الاشقاء والاصدقاء الاعزاء بأن أحمل اليكم جميعا والى الذائبين عن منظمة الاونيسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تحيات صاحب الجلالة الحسن الثانى المبدع الكبير والراعى العظيم للفنون وأربابها

وأوليائها وبأن أنقل اليكم تحيات حكومة ملك المغرب وتحيـــات شعبــــــه .

وانى لاتمنى أن يشتد ساعد معرض السنتين للفنــــون التشكيلية العربية وتطرد خطواته متنقلة على طريق النجاح من مقام حميد الى مقام أحمد ومن فوز أكيد الى فوز أثبت وأوكد .
والله ولى التأييــد والتوفيــق .

**محمد أبا حنينـــى**

وبعد ذلك ، تناول الكلمة السيد كاظم حيدر الامين العام للاتحـــاد العام للفنانين التشكيليين العرب نلخصها فيما يلي :

أشكــر المغــرب ملكــاً وحكومــة وشعبــاً استضافــة « البــيــنــال » العربى الثــامن ، وللمساعدة والدعم وحسن الضيافة والاستقبال الذى لقيه الفنانــون التشكيليون العرب فى المغرب لاقامة معرضهم هذا على وجهه لمطلوب ، كمـــا تطرق السيد الأمين العام الى أهداف الاتحاد الذى يرتكـــز على تحقيق وحدة الحركة الفنية فى الوطن العربى ، كما أبرز كذلك دور الاتحاد فى تحقيق الاعــلام عن طريــق التشكيــل العربى مشيراً الى أن معرض السنتين الثانى المقيم بالرباط يضم 400 لوحة تنم على الأصالة العربية وشخصيتها .

وبعده أخذ الكلمة السيد محمود جلال ، ممثل الامانة العامة للجامعة العربيـــة فقـــال :

أشكر المغرب الذى لعب دوراً مهمـاً فى ارساء أســس الحضارة العربية ، والذى استضاف « معرض السنتين الثانى للفنون التشكيلية العربية » ، حيث وصــف هــذا المعــرض بمظاهرة اعلامية فنية فريدة من نوعها ، ثم أوضــح السيـد جلال أن مجلس المنظمة العربية قـد رصـد 10 آلاف دولار لاقامة الندوات التشكيلية فى البلدان العربية و 12.000 دولار لدعم ميزانية هذا الفن ، واصدار كتاب الفن العربى المعاصر ، وكتاب عن الفن التشكيلى الفلسطينى ، ومبالغ أخرى تصرف لتطوير هذا الفن بصورة عامة .

وفى الاخير تناول الكلمة السيد كريم بناني رئيس « جمعية الفنانين التشكيليين المغاربة » حيث قال :

بادىء ذى بدء أشكر باسم « جمعية الفنانين التشكيليين المغاربـــة » حكومة صاحب الجلالة الحسن الثانى نصره الله بصفة خاصة ووزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بصفة عامة ، على اتاحة هذه الفرصة لاقامــة « معــرض السنــتين العربى الثانى » بالمغــرب ، حتى يتسنى للاخــوان الفنــانين التشكيليين العرب أن يتعرفوا على ما وصل اليــه الفــــن

التشكيلى من تطوير وابداع بالوطن العربى ، وذلك عن طريق انتاجاتهم وأعمالهم الفنيـــة التى يعبرون فيهـــا عن أصالتهم وتراثهم العربى المجيد .

وفى مساء نفس اليوم أشرف السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بمتحف « حدائق الاوداية » على تدشين « معرض السنتين الثاني للفنون التشكيلية » الذي سيستمر حتى السابع والعشرين من شهر يناير 1977 بحضور بعض الوزراء ، والامين العام للاتحـــاد العـــام للفنانيـــن التشكيليين العرب ، وممثل الامانة العامة لجامعة الدول العربية ، وعدد من السفراء العرب والاجانب المعتمدين ، والفنانين ، والنقـــاد ، وجمهور غفير من المهتمين بالحركة التشكيلية . هذا ، وقد طاف السيد الوزير ومرافقوه على جميع الاجنحة المخصصة للعرض ، مستمعا الى تفسيرات وايضاحات عن كل لوحة من لوحات المعرض .

وفى نطاق هذا المعرض ، نظمت ندوات بقاعة الوزارة حول قضايا الفن التشكيلي العربي بصفة عامة ، وحول المشاكل التي تعترض اتحاد الفنانين التشكيليين .

ومن الجدير بالذكر أن من بين الشخصيات المرموقة التي حضرت هذا البينال الاستاذ شفيق الكمالي ، الشاعر العراقي المعروف صاحب مجلة « آفاق عربية » ، والناقد الاستاذ جبرا ابراهيم جبـــرا . وبهـــذه المناسبة أقام « اتحاد كتاب المغرب » أمسية شعريـــة بقاعـــة الوزارة ، القى فيها الشاعر الكمالي مختارات من دواوينه ، كما القى الاستاذ جبرا محاضرة مرتجلة عن ذكرياته الادبية والفنية .

وخلال مقام الفنانين العرب بالمغرب ، نظمت على شرفهـــم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية رحلة سياحية الى كـــل من افـــران ، ومشبلفين ، وفاس ، ومكناس ، للتعرف على طبيعة المغرب ونهضته فى مختلف المجالات ، خصوصا الثقافية والفنية منها .

## مأدبة عشاء على شرف الوفود المدعوة للبينال

وبهذه المناسبة اقام السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، مادبة عشاء على شرف الوفود المدعوة لهذا البينال ، حضرها اعضاء من الحكومة ، وممثلون عن الهيئة الدبلوماسية ، وعدد كبير من رجال الفكر الثقافي .

## مأدبة عشاء على شرف الأستاذ شفيق الكمالي

كما اقام السيد الوزير مأدبة عشاء اخرى على شرف الاستاذ الكبير شفيق الكمالي الذي لم يحضر مأدبة العشاء الاولى لوصوله الى المغرب بعد يومين من انعقاد البينال .

وقد حضر هذه المادبة وزير الشغل والشؤون الاجتماعية وسفير الجمهورية العراقية ، والاستاذ جبرا ابراهيم جبرا ، وشخصيات أدبية وفكرية ، وبعض موظفي الوزارة السامين .

## الأمين العام لاتحاد التشكيليين العرب يبعث ببرقية شكر وامتنان إلى صاحب الجلالة

بعث السيد كاظم حيدر الامين العام لاتحاد التشكيليين العرب ببرقية شكر وامتنان الى جلالة الملك حفظه الله هذا نصها :

« السيد مدير الديوان الملكي ــ الرباط

أرجو أن ترفعوا الى مقام صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب الشقيق ، أسمى آيات الشكر والامتنان ، باسمي الشخصي ، وباسم اعضاء اتحاد الفنانين التشكيليين العرب المشاركين في معرض

**السنتين العربي الثاني الذي اقيم بالرباط ، وذلك على ما لقيناه من حفاوة وتكريـــــم .**

**وان النجاح الذي حققه معرض السنتين العربي يعود الفضل فيـــه الى رعايتكم الكريمـــة ، وسهر وزارة الدولـــة المكلفـــة بالشـــؤون الثقافة ، الممثلة فى شخص الوزير السيد الحاج محمد ابا حنيني .**

**وانها لفرصة عظيمة آتاحت لنا ان يكون هذا اللقاء العربي على ارض مملكتكم السعيدة ، حفظ الله جلالتكم لنصرة العروبة والاسلام .**

## رسالة شكر
## من الأمين العام لاتحاد التشكيليين العرب
## الى السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيـــم

حضرة صاحب المعالي الاستاذ الماجد الحاج محمد اباحنينـــي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية .

تحية عربية كريمـــة ، وبعد .

فيسعد الاتحاد العام للفنانين التشكيليين العرب أن يرفع الى معاليكم أصدق آيات الشكر والامتنان والتقدير على كرم ضيافتكـــم ، وجميـــل صنيعكم ، وجم فضلكم واحتضانكم هذا المهرجان العربي الكبير للفنـــون التشكيلية ، وما قدمتموه من رعاية واهتمام بالفنانين التشكيليين العرب، وبذل كل الامكانات التي ساعدت فى انجاح معرض السنتين العربي الثاني للفنون التشكيلية بالرباط ، مما سيظل أثره باقيا فى نفوس جميع أعضاء الوفـــود .

دمتم للفن ترفعون مناره ، وتعلون قدره ، وبقيتم للثقافة تعززون من شأنها وتدعمون منزلها وأحياكم المولى عز وجل للعروبة فخرا واملا مرجى مع التفضل بقبول أسمى التحيات .

**الامين العام : كاظم حيدر**

# البرنامج العام لمعرض السنتين

**الاثنين 27 — 12 — 1976**

**الساعــة 11 صباحــا**

الافتتاح الرسمي برئاسة السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافيــة ( قاعة المحاضرات بالوزارة )

**الساعة 4و 30 د. مساء**

تدشين معرض السنتين العربي الثاني ( متحف الاوداية )

**الثلاثاء 28 — 12 — 1976**

**الساعــة 10 صباحــا**

زيارة ضريح المغفور له جلالة الملك محمد الخامس

**الساعــــة 12 زوالا**

الاجتماع الاول لاعضاء الامانة العامة ( مبنى الوزارة )

**الساعــة الرابعــة مســاء**

الاجتماع الثاني لاعضاء الامانة العامة ( فندق هيلتون )

**الساعــة الثامنــة والنصف ليــلا**

مادبة عشاء يقيمها معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية على شرف الوفود العربية المشاركة

## الأربعاء 29 – 12 – 1976

الساعـــة 9 و 30 د. صباحـــا

الاجتماع الثالث لاعضاء الامانة العامة ( فندق هيلتون )

الساعـــة الرابعـــة مســـاء

ندوة مفتوحة لكافة أعضاء المؤتمر والوفود والضيوف لمناقشة قضايـــا الفنـــون التشكيليـــة فى الوطـــن العربـــــي .

( قاعة المحاضرات بوزارة الدولة )

الساعـــة السابعـــة مســـاء

تدشين معرض الجمعيـــة المغربيـــة للفنـــون التشكيليـــة ( قاعـــة بـــاب الـــرواح )

## الخميس 30 – 12 – 1976

الساعـــة الرابعـــة مســـاء

ندوة مفتوحة لكافة اعضاء المؤتمر والوفود والضيوف لمناقشة قضايا الفنون التشكيلية فى الوطن العربي .

الساعـــة السادســـة ونصف

— تدشين معرض التشكيليين المغاربة ( قصر البلدية )

— تدشين معرض الاطفـــال ( قاعـــة النادرة )

الساعـــة التاسعـــة ليـــلا

حفلة ساهرة بمسرح محمد الخامس تحييها الفرقة الفنيـــة الفلسطينيـــة .

**الجمعة 31 — 12 — 1976**

استراحـــــة وجولـــة حـــرة .

**السبت 1 — 1 — 1977**

الساعـــة العاشـــرة صباحـــا

السفر الى فاس عبر طريق ايفران ، تناول الغداء بايفـــران والمبيـــت بفـــاس .

**الأحـــد 2 — 1 — 1977**

زيـــــارة معالـــم المدينـــة .

الساعـــة الخامســـة مســـاء
التوجه الى مكنـــاس والمبيت بهـــا

**الاثنين 3 — 1 — 1977**

الساعـــة العاشـــرة صباحـــا
زيارة معالم المدينة . ( الغذاء بمكناس )

الساعـــة الخامســـة مســـاء
حفلة استقبال تقيمها الجمعية المغربية للفنون التشكيليـــة على شرف الوفود المشاركـــة .

الساعـــة التاسعـــة ليـــلا
حفلة فنية منوعة بمسرح محمد الخامس .

**الثـــلاثـــاء 4 — 1 — 1977**

مغـــادرة الوفـــود للمغـــرب .

# مشاركة المغرب في المؤتمر الأول لوزراء الثقافة العرب في الأردن

تمشيا مع خطة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى الحضور الموصول والاسهام الفعال فى اللقاءات العربية ، أوفدت الوزارة المذكورة للمشاركة فى المؤتمر الاول لوزراء الثقافة العرب فى الاردن السيد المهدي الدليرو ، والمنعقد بدعوة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـــوم من 20 حتى 23 من دسمبر 1976 .

والى جانب ما اقره الاجتماع من توصيات حول وحدة الثقافة العربية وتطلعات آفاقها المستقبلية مواكبة للمستحدث من مفاهيم الثقافة ومسايرة للتطور التكنلوجي ، فقد انتهى الاجتماع الى اصدار « بيان عمان » :

1 – تصميم الامة العربية على القضاء على جميع آثار الاستيلاب الثقافي والغزو الفكري الظاهر والمستتر اللذين تعرضت لهما فى الماضي عن طريق الغزوات الاستعمارية ، ودفع الصور الجديدة من الاستعمار وخاصة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني .

ويتمثل هذا الاستيلاب الثقافي – فيما يتمثل – فى :

- محاولة فرض مظاهر الاغتراب اللغوي والفكري والثقافي .
- محاولة طمس معالم الشخصية الثقافية العربية .
- محاولة اغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة للقيم الثقافيـــة الصحيحـــــة .
- العمل على تزييف التاريخ العربي والاسلامـــي .
- العمل على تغيير البناء الاجتماعي والسكني .
- العبث بالممتلكات الثقافية وانتهاك المقدسات الدينية .

2 ـ اهمية التدعيم والتطوير للدور الحضاري العالمي للامة العربية لخير البشرية ، واستعادة الرقعة الثقافية الانسانية التي أفقدها اياها الاستعمار خلال القرون الاخيرة .

3 ـ ضرورة وضع سياسة ثقافية عربية موحدة تكون سبيلا للتنمية الثقافية وركيزة لخطة عامة للتنمية الشاملة .

4 ـ ضرورة تحقيق التكامل والتنسيق بين عمل اجهزة الثقافة والتعليم والاعلام فى الاقطار العربية ، لضمان مزيد من فعالية العمل الثقافي وتوسيع نطاق الخدمات الثقافية للمواطنين اسهاما فى تكوين المواطن العربي تكوينا سليما معاصرا نابعا من أصول عروبته وقيمه الدينية .

5 ـ تأكيد اعتبار الثقافة حقا لجميع المواطنين ومرادفا لحقهم فى التعليم ولحقوقهم السياسية والاجتماعية .

6 ـ وجوب العمل على تعميم استعمال اللغة العربية لغة للتعليم فى جميع مراحله ، وبجميع أنواعه ، وفى البحث العلمي ووسائل الاعلام والثقافة ، باعتبار ان اللغة القومية هي اهم دعامة للوحدة وهي الوعاء الصحيح للثقافة الاصيلة للامة ، وأن أصالة التفكير العلمي لا تترسخ فى الامة الا من خلال لغتها .

7 ـ شجب ما تقوم به سلطات الاستعمار الصهيوني فى فلسطين من عدوان على الثقافة العربية هناك فى جميع مظاهرها ، وتأكيد الحرص على التمكين للثقافة العربية فى المناطق العربية المحتلة من القيام بدورها وتأدية رسالتها .

8 ـ حرص الامة العربية على تعاون حكوماتها وأجهزتها المتعددة لتحقيق ما تضمنه هذا البيان ، وما تتضمنه توصيات هذا المؤتمر عن طريق برامج ومشروعات محددة تنهض بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وفق خطة طويلة المدى ، بالاضافة الى جهود الحكومات العربية فى اطار من التنسيق المتكامل .

## دورة المجلس التنفيذى الثامنة عشرة للمنظمة العربيــة للتربية والثقافة

**بدعوة من حكومة السودان ، استضافت عاصمة الخرطوم من 8 حتى 15 يناير 1977 دورة المجلس التنفيذي الثامنة عشرة للمنظمة العربيــة للتربية والثقافة والعلوم .**

**وشارك عن المملكة المغربية فى اجتماعات هذه الدورة ممثل وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيد المهدي الدليرو ، حيث تدارس اعضاء المجلس ما تم تنفيذه ، او فى طريق التنفيذ من برامج ومشروعات المنظمة لسنتي 1976 — 1977 ، والتي أقرها المؤتمر العام فى دورتــــه العادية الرابعة بالقاهرة .**

## نتيجة جائزة المغرب لسنة 1976

فى الساعة السادسة من مساء يوم الاثنين 21 ذي الحجـــة 1396 الموافق 13 دجنبر 1976 ، استقبل السيد الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، بقاعة الاجتماعات بالوزارة ، أعضـــاء اللجنة العامة لجائزة المغرب لسنة 1976 المؤلفة من واحد وعشريـــن عضوا من كبار الاساتذة المختصين الذين درسوا الكتب المرشحة لنيل الجائزة ، دراسة امعان واستيعاب ، فى نطـــاق النصوص التشريعيـــة الصادرة فى هذا الصدد ، وبعد أن رحب السيد الوزير بهم ، ونوه بكفاياتهم ، وشكر تفضلهم بالاضطلاع بمهمة الفحص والتقويم ، أعرب عن يقينـــه بأن جائزة المغرب بأصنافها الثلاثة ستمنح — لا محالة — لمستحقيها لما يتوافر لاعضاء اللجنة من مزايا المعرفة الواسعة ، والاضطلاع الكبير ، والتجرد ، والاخـــلاص .

وعقب هذا الاستقبال ، تفرغت لجنة التحكيم العامة الى ثلاثة لجن :

1 ) **لجنة العلوم الانسانية والاجتماعية .**

2 ) **لجنة العلوم والرياضيات .**

3 ) **لجنة الفنون والآداب . .**

واختلت كل لجنة من هذه اللجن فى قاعة خاصة . وبعد مناقشات ومداولات دامت أربع ساعات ، استقر الراي على ما يلي :

— تمنح جائزة العلوم الانسانية والاجتماعية للسيد الحاج أحمد البوعياشي ، تقديرا لكتابه «حرب الريف التحريرية ومراحل النضال».

— تمنح جائزة العلوم والرياضيات للسيد محمد القنيديري ، تقديرا لكتابه ، « مساهمة فى دراسة المواد المحددة فيما يرجع للانظمة الثلاثية» .

— الاحتفاظ بجائزة الفنون والآداب .

وتأمل الوزارة أن يقدم اليها فى العام المقبل ، انتاج فى مستوى الجائزة ، ويسعدها من جهة اخرى ، أن تشيد بالجو العلمي الرفيع الذي ساد المداولات والمناقشات .

وكانت لجنة التحكيم تتألف فى هذه السنة من السادة :

د. محمد ابن شقرون ، د. عبد الكريم الابيض ، الاستاذ محمد القبلي ، الاستاذ محمد المنوني ، الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، د. عبد الهادي التازي ، الاستاذ أبو بكر بومهدي ، د. محمد السعداني ، د. ابراهيم دسوقي اباظة ، د. محمد بنونة ، الاستاذ محمد ميكو ، د. رشدي فكار ، الاستاذ محمد الداودي ، الاستاذ محمد فرحات ، د. عباس الجراري ، د. محمد ابن شريفة ، د. تمام حسان ، الاستاذ عبد الكريم غلاب ، الاستاذ عبد الجليل الحجمري ، الاستاذ محمد التسوكي ، الاستاذ محمد الصباغ.

# جائزة الحسن الثاني
# للمخطوطات والوثائق لسنة 1977

في اطار التعريف بالتراث التاريخي والحضاري بالمغرب ، وجريـــا على العادة المالوفة التي سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، في تنظيم جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، يسرها ان تعلـــن للجمهور المغربي الكريم في هذه السنة عن الجائزة التاسعة للمخطوطـات والوثائق التي خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط او الوثيقة التي توجد في الملكية الخاصة .

ومن المعلوم أن جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة كان مكتوبـــا على الورق ، او الرق او الالواح ، ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلي :

اولا : للاهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفات وتقاييــــد وكناشـــات علمية ، ومذكرات شخصية وخطوط العلماء ، وكنانيش ونسخ الملحون ، ومجموعات الفتاوي او الرسائل ، ودواويـــن الاشعـــار والمجموعـــات الموسيقية وكل ما مخطوط ولو كان على ورقة او ورقات معدودة .

ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظهائر ورسائل رسمية او شخصية ورسوم عدلية ومحاسبات واجازات علمية وشهادات الانساب وغيـــر ذلـــك .

هذا وستتشرف لجنة برئاسة معالي السيد وزير الدولـــة المكلف بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حـــول نتائـــج الجائـــزة .

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى اصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تاخير ، فور انتهاء المعرض واشغال اللجنـــة المختصـــة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى في مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وأن ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة في ثروتها الفكرية . لهذه الاعتبارات كلها ، قررت

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ فى المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعتريها من ضياع ، كما أن تصويرها لا يمكن أن يصيب المخطوط أو الوثيقة بأي ضرر ، ولا يفيد أيا منهما ما له من قيمة كمستند خطي .

ورغبة من الوزارة فى الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة تؤكد للسادة المساهمين فى هذه الجائزة أن المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديمها لن تقبل فى المسابقة الحالية .

فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر أن يتقدم بها من الآن وحتى نهاية شهر فبراير 1977 الى أحد المراكز التالية :

| العمالة أو الاقليم | اسم المركز وعنوانه | اسم المكلف |
| --- | --- | --- |
| عمالة الرباط وسلا | وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية<br>شارع غاندي ــ الرباط | السيد عبد المالك الانباري |
| عمالة الدار البيضاء<br>عمالة اقليم سطات<br>عمالة اقليم خريبكة<br>عمالة اقليم الجديدة<br>عمالة اقليم بني ملال | النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية<br>شارع الزيراوي رقم 133<br>الدار البيضاء | مندوبية الوزارة<br>السيدة نعمة الخطيب |
| عمالة أقليم فاس<br>عمالة اقليم تازة | مكتبة البطحاء « بطحاء الاستقلال » ــ فاس ــ | السيد المختار القادري |
| عمالة اقليم مكناس<br>عمالة أقليم خنيفرة<br>عمالة أقليم قصر السوق | مكتبة الجامع الكبير زنقة العدول ــ مكناس ــ | السيد أحمد اجانا |

| العمالة او الاقليم | اسم المركز وعنوانه | اسم المكلف |
|---|---|---|
| عمالة اقليم القنيطرة<br>عمالةاقليم الخميسات | مكتبة القنيطرة طريق عين السبع - القنيطرة - | السيد محمد الوكيلي |
| عمالة اقليم مراكش<br>عمالة اقليم ورزازات | مكتبة ابن يوسف العمومية - مراكش - | مندوبية الوزارة مصطفى اوعشى |
| عمالة اقليم اكادير<br>عمالة اقليم تزنيت<br>عمالة اقليم طرفاية | مكتبة المجلس البلدي - اكادير - | السيد حسن العبادي |
| عمالة اقليم اكادير زاكورة - ارفود - تارودانت | مكتبة الامام علي بتارودانت | السيد احمد شاعري |
| عمالة اقليم وجدة<br>عمالة اقليم فكيك<br>عمالة اقليم الناضور | مكتبة الشريف الادريسي ساحة القصبة - وجدة - | السيد زجلي عبد الله |
| عمالة اقليم تطوان<br>عمالة اقليم الشاون<br>عمالة اقليم الحسيمة | المكتبةالعامة للكتب والمخطوطات - شارع محمد الخامس - - تطوان - | مندوبية الوزارة السيد المهدي الدليرو |
| عمالة اقليم تطوان العرائش - القصر الكبير - عرباوة - | المكتبة البلدية - بالقصر الكبير | السيد مصطفى الشاوش |
| عمالة اقليم طنجة | المكتبة العامة شارع الحرية 71 - طنجة | السيدمحمد ابن تاويت |
| عمالة اقليم آسفي | مكتبة المجلس البلدي - آسفي | السيد اسرموح محمد |
| الصحراء المغربية | مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية | |

# المؤتمر العربي الثامن للآثار

أصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية البلاغ الآتي :

فى اطار العلاقات الوثيقة بين المملكة المغربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وطبقا للقرار الصادر عن المؤتمر السابع للآثار المنعقد بدولة الامارات العربية المتحدة ، يحتضن المغرب بمدينة مراكش المؤتمر العربي الثامن للآثار وذلك فى الفاتح من شهر فبراير المقبل بحول الله .

والمغرب اذ يسعده أن يضيف بمدينة مراكش الزاهرة هذا المؤتمر يسعده فى نفس الوقت أن يستقبل ممثلي الدول العربية الشقيقة المسؤلين عن قطاع الآثار وكذا الباحثين من الاساتذة والعلماء المعنيين بالآثار الذين يعملون بالجامعات او الهيئات العلمية .

ووزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اذ تعتبر الآثار ذات قيمة حضارية انسانية تشيد بالاهتمام البالغ للدول العربية بالآثار سواء فى مجال الصيانة او التنقيب او البحوث وتؤكد وجوب تضافر الجهود الدائبة للحفاظ على تراثنا الحضاري الذي هو كياننا والمعبر عن هويتنا المتميزة .

## وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية يرأس اجتماع اللجنة العامة للمؤتمر العربي الثامن للآثار.

**فى اطار الاعداد للمؤتمر العربي الثامن للآثار الذي سينعقد فى الفاتح من فبراير المقبل بحول الله بمدينة مراكش دعا السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني ، الى اجتماع**

حضرة الاساتذة : محمد الفاسي ، وعبد الوهاب ابن منصور ، مؤرخ المملكة المغربية ، وعميدا كليتي الآداب بالرباط وفاس ، ونخبة من الاساتذة المغاربة الجامعيين ، وعدد من المؤرخين والباحثين فى مجال الآثار ، وجميع الموظفين السامين بالوزارة المذكورة .

وتراس الاجتماع السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، فشكر الحاضرين على تلبية الدعوة بالكتابة والحضور ، مشيرا الى ان الغرض من الاجتماع ، هو الاسترشاد برأي الحاضرين والاستنارة بافكارهم بعد اطلاعهم على الملف الذي يشتمل على تقرير مهم أعدته الوزارة عن المنجزات المغربية فى مجال الآثار ، والذي سيقدم كوثيقة للمؤتمر ، ثم جدول الاعمال المقترح من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبيانات عن الدول المشاركة والتي ستمثلها مجموعة من مديري الآثار والباحثين فى الجامعات والمؤسسات العليا .

وبعد أن استعرض السيد الوزير الاستعدادات التي قامت بها الوزارة ذكر الحاضرين بالدراسات الهامة التي ستقدم الى المؤتمر ، والتي ستتناول الموضوع المغربي المنتقى ، وهو المظاهر الحضارية لكل من الدولتين الشريفتين السعدية والعلوية لكونهما لم تحظيا بالبحوث الشافية فيما سبق ، ولفت نظر الحاضرين الى إن البحاث المغاربة قد أعدوا دراسات عن المعالم الاثرية فى الحقبتين المذكورتين وتناولوا ذلك باحدث الطرق العلمية والفنية التي توصل اليها البحث الاثري المعاصر .
ثم ذكر أن من بين البحوث المقدمة للمؤتمر والتي ستطبع فى شكل كتيبات كتيب يعرف بمدينة مراكش ، والثاني يتناول دراسة عن المدن الاثرية القديمة وعدد من البحوث عن الحفريات والتنقيبات التي انتهى العمل منها، او التنقيبات التي ما زالت لم تستكمل بعد ، والتي تتناول مختلف الحقب التاريخية للمغرب ، وكتاب عن قصر البديع ، وكل ذلك معزز بالصور والخرائط والتصميمات وستطبع كل البحوث المذكورة وتقدم للمؤتمرين، كما سينظم بالمناسبة معرض عن مراكش عبر العصور ويحتوي على

التصاميم والصور والمظاهر المعمارية والوثائق والمخطوطات المتعلقة بالمدينة بصفتها مدينة تزخر بالآثار المغربية الفريدة .

كما سينظم معرض آخر بالصور المفتوغرافية الملونة للمواقع الاثرية بالمغرب عامة . وقد اثرت الجلسة المذكورة ـ والتي انتهت فى الساعة التاسعة ليلا ـ الساهرين على الاعداد للمؤتمر بالآراء والافكار التي ستجعل من المؤتمر مظاهرة علمية ـ تثري التاريخ الحضاري للمغرب خاصة ، والبلاد العربية الشقيقة عامة ـ بالدراسات والابحاث والتوصيات والقرارات التي ستتخذ للتعريف بالمظاهر الحضارية للبلاد العربية وحمايتها من الاندثار بالبحث والدراسة والتنقيب ثم الترميم .

## كتب مغربية صدرت أخيراً

ـ تنبيه الاكياس للاقتصاد فى المآتم والاعراس .
للمرحوم محمد بن التهامي أفيلال

ـ مذكرات المسيرة الخضراء .
عبد المجيد ابن جلون

ـ وعادت الصحراء .
د. ابراهيم دسوقي اباظة .

ـ صفحات دراسية من القديم والحديث .
د. عباس الجراري .

ـ ايامنا الخضراء .
أحمد عبد السلام البقالي

ـ الطوفان الازرق .
احمد عبد السلام البقالي

— **اضـــواء على الموسيقـــى المغربيـــة .**

صالـــــح الشرقــــــي

— **كالرســــــم بالوهـــــم .**

محمـــــد الصبـــــاغ

— **معجم التربية والتعليم ( فرنسي — عربي )**

د. محمـــد بن شقـــرون .

— **تصوير الفنان احمد الشرقـــاوي .**

ادموند عمر المليح — عبد الكبيـــر الخصيبي — طونـــي ماراني — تصوير محمد المليحي .

# تطوان تفاحة وحمامة وياسمين

# تصحيح

**انبه القارىء الكريم الى زلات قلمية وقعت فى المقال الذي نشرته فى العدد السابع من « المناهل » عن تطوان . وهي فى الواقـــع زلات الـذاكـــــرة :**

1 — فى الصفحة 11 ( السطر 8 ) نقرأ ... وذي القعدة ، شهر المولد النبوي . والصواب : ربيع الاول . وهذا سهو لا يخفى على القارىء.

2 — فى الصفحة 12 ( السطر 8 ) نقرأ « ومنهم الشيخ عبد الله الفخـار تلميذ ابي العباس السبتي » .

والواقع أن أبا عبد الله الفخار ، المشهور فى تطوان باسم سيدي عبد الله الفخار هو شيخ أبي العباس السبتي لا تلميذه .. وقد تاكدنا من ذلك بالرجوع الى كتاب « تاريخ تطوان » لاستاذنا الكبير السيد محمد داود .

3 ـ وفى نفس الصفحة ( السطر الثامن عشر ) قلنا بأن العلامة الرئيس عمر لوقش هو الذي بنى المدرسة المعروفة « بمدرسة لوقش » فى تطوان . ويظهر أن الذي بنى هذه المدرسة هو ابنه القائد محمد لوقش فى عهد السلطان مولاي عبد الله .

4 ـ فى الصفحة 25 ( السطر 8 ) ، نقرأ « بأن الامير مولاي المهدي بن اسماعيل هو ابن عم مولاي الحسن الاول ». والواقع ان هذا السلطان العظيم هو عم الامير مولاي المهدي ، أول خليفة على منطقة الشمال فى عهد الحماية .

5 ـ وقعت اخطاء طباعية طفيفة لن تخفى على القارىء الا اننا مع ذلك ننبه الى الخطأ الذي وقع فى الصفحة 33 فى النشيد الذي مطلعه : بلاد العرب أوطاني ، وقد وردت الكلمة الاخيرة بدون ياء النسبة ( أوطان ) .

هذا وقد أكد لنا كل من الاخ الدكتور عباس الجراري والاستاذ عبد الرزاق الجزار ـ الذي بعث الينا برسالة كريمة من بغداد يثني فيها على المقال ـ بأن مؤلف النشيد هو فخري البارودي ، رحمه الله .

ويرى الاستاذ الجزار ـ من جهة اخرى ـ أن ابيات الرافعي التي صدرنا بها المقال ربما تكون اصوب واقرب الى الاصل ان قلنا :

وربـاهـا وذراهـا فهـي ورد وأزاهـر

وميـاه دافقـات درن فيها كالأسـاور

عـوضــــا عـــن :

وربـاهـــا وذراهـــــا فيـهـــا ورد وازاهـــــر
وميــــاه دافقـــــات بها دارت كالاســـــاور

أرى شخصيا ان « تصويب » الاستاذ الجزار اجمل وارق من الناحية الشعرية . وليس لدينا ديوان للشاعر التطواني الرافعي يمكننا من التأكد من الشكل الذي صاغ هذا الشاعر البيتين المذكورين .

**الرباط محمد العربي الخطابي**

# تصويبات

**وقع بمقالي المنشور بالعدد السابع من مجلة « المناهل » بعـــض اخطـــاء . وهـــذا تصويبهـــا :**

1 ) العنوان الجانبي ( أعلام المغرب ) فهو مقحم على الموضـــوع الذي يتعلق بفن من فنون القول ، لا بالاعلام .

2 ) العبارة الاولى وهي : الجناس ضرب من ( البدائع ) . والصواب من البديع . وليس للبدائع هنا معنى .

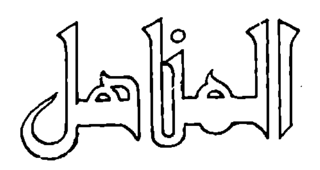
3 ) اسم الصفي الحلي جاء هكذا الصفدي الحلي خطأ ، والصفدي لا يكون حليا كما لا يخفى ، فان مدينة صفد شامية . والحلة عراقية .

**عبد الله كنون**

**بما ان مقال الاستاذ كنون المذكور يتحدث فيه عن علم من أعلام المغرب فى فنون القول ، فقد إرادت المجلة ابتداء من هذا المقال ، أن تفتح بابـــا جديدا تثبت فيه المقالات ـ التي ترد عليها من هذا النوع ـ والخاصـــة بالتعريف بالاعلام المغربية ، ومن جملتها مقالات الاستاذ عبد الله كنـــون التي كثيرا ما يتحف بها قراء « المناهل » .**

**اما فيما يخص الاخطاء المطبعية التي تسربت الى مقالـــه فنعتـــذر للاستـــاذ عن وقوعهـــا .**

**المناهل**



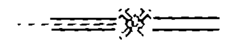


تصـــدرهــــا :

**وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة**

زنقة غاندي ــ الرباط ــ المغــرب

التليفون : 91.318 / 92 / 93

# AL - MANAHIL


**Publication du**
**MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES**

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél : 318 91/92/93

مطبعة فضالة ــ المحمدية ( المغرب )



ثمن النسخة : 2،50 د .